جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين
بدمياط الجديدة
الدراسات العليا
قسم الأدب والنقد

يحيى بن حكم الغزال شاعراً

رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص "الماجستير"

إعداد الباحث

محمـــود حســـن محمـــود محمد

إشـــراف

أ.د/ محمدين محمدين عبد الفتاح يوسف
أستاذ . م متفرغ بالكلية

أ.د / محمد سيد أحمد أحمد ربيع
أستاذ . م بالكلية

2005هـ - 1426 م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مَّثْنٰى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ)

صدق الله العظيم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــــداء

** إلى كلِّ ظامىء إلى المعرفة ، متعطِّشٍ إلى العلم ، تـوَّاقٍ إلى المعنى الشريــف ،والنغم الجميل .

** إلى الباحثين عن الأصالةِ والمعاصرةِ فى آنٍ واحد .

** أهدى بحثى المتواضع هذا إليهم ؛ علَّـهُ يروى ظمأهم ، ويرشدهم إلى الطريق الوسط بين الأصالةِ والمعاصرة .

** ثم إلى أبوىّ الكريميْن .....رمز العطاء الدائم بلا حدود .

** وإلى كلِّ من شجعنى ، وأخذ بيـدى مُعيناً ، وموجهاً ، ومرشــداً من أساتـــــذتى ، وأصدقــائى ، وإخوانى المخلصين .

** عرفاناً بفضلهم ، وتقديراً لدورهم ، وشكراً لصنيعهم .

الباحث

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحمدُ للّهِ الذِى علَّم بالقلم ، علَّـــم الإنسان ما لم يَعْلم ، والصلاة والسلام على نبـىّ الهُدى الذى بعثه الله فى الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبينٍ .

وبعـــد

فإننى أقدم بين يدى القارىء بحثى المتواضع هذا وهو بعنوان " يحيى بن حكم الغزال شاعراً ".

ومما دفعنى إلى هذا البحث أننى قد اطلعت على مؤلَّف قيِّم للدكتور أحمد هيكل بعنوان " الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة " ، ولفت نظرى ، واسترعى انتباهى ، ما سرده المؤلِّف عن أحد الشعراء الأندلسيين ، ويُدْعى يحيى بن حكم البكرى الجيانى المعروف بالغزال .

ولا أجافى الحقيقة إذا قلت إن هذه أول مرة أطالع فيها اسم هذا الشاعر ، وأتعرف عليه من خلال كتاب الدكتور هيكل ، ولقد تملكتنى الدهشة والذهول لما قرأته عن هذا الرجل على الرغم من أن الدكتور هيكل لم يورد فى كتابه إلا القليل من شعره .

وهذا القليل قد أثار فى نفسى دافعاً قوياً ، وحافزاً للبحث عن هذا الشاعر ، وعن شعره فى شتى المصادر القديمة والحديثة على السواء .

وعلى الرغم من أن هناك العديد من المصادر القديمة التى تناولتْ الشاعر ، إلا أننى لاحظت عدم اتفاق الباحثين فى هذه المصادر على رأى واحد فى شخصية الغزال ، أو فى شعره الذى جاء مبعثراً ومتفرقاً فى بطون تلك المصادر والأسفار .

إلى أن وقع تحت يدى " ديوان يحيى بن حكم الغزال " للدكتور محمد رضوان الداية طبعة دار قتيبة سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، وبعد اطلاعى على هذا الديوان ـــ ومع تقديري للجهد الذى بذله الدكتور الداية ـ إلا أننى أصبت بالدهشة البالغة ، وتملكنى العجب كيف أن شاعراً بهذا الحجم لم ينل حظاً من الشهرة والذيوع كبقية شعراء عصره ، على الرغم من أن شعره ـ بجانب تصويره لشخصية قائله ـ يصور ويتناول الكثير من المشكلات والقضايا الاجتماعية التى سبق بها عصره والتى نعايشها الآن ونعاني منها ، هذا فضلاً عن حكمه وزهدياته وحسن تمثـلُه للمواقف والأحداث .

فكيف أن شاعراً فى مثل تلك القامة الشعرية المديدة ، لم تتناوله أقلام النقاد والباحثين بالدراسة والتحليل ؟!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكل ما سبق استعنت بالله وقررت أن أعد بحثاً مستفيضاً عن الغـزال وشعره ، ومضت بى سفينة البحث فى بحر لجىٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقــه صعوبات ، كـان أقلـها صعوبة عثورى على المراجع اللازمة ، وعـدم وجود شروح أو تعاليـق عن شعره ، ومع ذلك فقد مضت بـى السفينة إلى أن حدث مالم يكن فى الحسبان ؛ فقد نـزل إلى سوق الأدب مؤلَّـــف بعنـوان " شعــر يحـيى بن حكم الغزال " جمع وتوثيق ودراسة للدكتور على الغريب محمد الشناوى طبعة مكتبـة الآداب بالقاهرة سنة ٢٠٠٤ ، وقد حوى هذا الكتاب أشعاراً تبلغ ضعف ما أورده الدكتور الداية فى كتابه " ديوان يحيى بن حكم الغزال " .

وأرجع الدكتور الغريب ذلك إلى أن الدكتور محمود مكى بعـد أن حقـق الـسفر الثـانى مـن كتاب المقتبس لابن حيان طبعةالرياض أثبت أشعاراً جديدة للغزال لم تكن معروفة من قبل ، كمـا حوى مؤلَّـــف الدكتور الغريب دراسة مختصرة وموجزة عن بعض أغراض الشعر عند الغزال مثل : المديح والغزل والهجاء والزهد والوصف .

وقد حاول المؤلِّـــف من خلال ما أورده من أغراض شعرية للغزال أن يظهره فى صورة غير لائقة ؛ حيث بنى أحكامه على افتراضات توهمها !

وفى هذه الدراسة الموجزة كان ينتقى من شعر الغزال ما يتفق والصورة المزرية التى حاول أن يرسمها للغزال ، دون أن يتعرض إلى بقية شعره من قريب أو بعيد ؛ ممـا زادنـى إصـراراً علـى عمل البحث والمضى فيه ، جاعلاً هدفى أن أوضح للقارىء وفى موضوعية مطلقة شخصية هذا الرجل مهتدياً فى رسم صورته بشعره وبالأخبار الموثقة عنه .

وهذا البحث مكون من : **تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة** .

أما **التمهيد** فسوف أتناول فيه البـيئة السياسية ، والاجتماعية ، والثقافيـة ، والأدبيـة التى أحاطت بالشاعر ، مركزاً على المدة التى عاشـهـا الشاعـر والتى تمـتد من (١٥٦ ــ ٢٥٥ هـ) .

ويلــى التمهيــد **الفـصل الأول** بعنــوان : **" يحيـى بـن حكـم الغـزال : حياتـه وسيرته الذاتيـة "** ، وسوف أتناول فيـه اسمـه ، ونـسبه ، ومولـده ، وثقافتـه ، وشخـصيته ، وزهده ، ووفاته .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أتحدث عن اشتهار شعر الغزال خارج حدود الأندلس ، وسوف يتخلل هذا الفصل سرد لأهم المواقف والأحداث التى مرّ بها الغزال مثل : محاولته محاكاة القرآن الكريم ، ورجوعه عن ذلك ، وأرجوزته التاريخية ، وحادثة الأهُرَاء ، وموقفه من القضاة والفقهاء ، وسأتوقف طويلاً عند سفاراته إلى مملكة بيزنطة ، وإلى بلاد النورمان ، وما دار حول هذه السفارات من آراء متباينة ، ثم ما كان بين الغزال و زرياب مغنى الأمير ؛ وما ترتب على ذلك من سفر الغزال إلى العراق .

ويتبع ذلك **الفصل الثانى** بعنوان : **" شعر الغزال رؤية موضوعية "** ، وقد رأيت أن أمهد لهذا الفصل بإلقاء الضوء على صلة الشعر فى عصر الإمارة بنظيره فى المشرق ، وما ترتب على ذلك من ظهور اتجاهين للشعر فى تلك المدة وهما : الاتجاه المحافظ التقليدى ، والاتجاه الجديد ، وبعد ذلك سأتناول بالتحليل والدراسة شعر الغزال ، وما يتضمنه من موضوعات عديدة مثل : الغزل ، والمجون ، والمديح ، ووصف الطبيعة ، والهجاء ، والفكاهة ، والحكمة ، والشعر الاجتماعى ، والزهد ، فضلاً عن بعض الأغراض الملحقة ، والتى لم تأت إلا نادراً فى شعره مثل : الخمريات ، والتهنئة ، والأرجوزة التاريخية ، محاولاً من خلال هذا التناول لموضوعات الشعر عند الغزال أن أرسم صورة حقيقية وواضحة للغزال ، مبيناً موقف شعره من الاتجاهين السابقين : المحافظ التقليدى ، والاتجاه الجديد .

ونأتى إلى **الفصل الثالث** بعنوان : **" شعر الغزال رؤية فنية "** ، وسوف أتناول فيه أهم العناصر الفنية التى اشتمل عليها شعر الغزال وهى : التجربة الشعرية ، والوحدة الفنية ، والفكرة والعاطفة ، ويلى ذلك الدراسة اللُّغويِّة التى سأتناول فيها الألفاظ ، والتراكيب ، والأسلوب .

وبعد ذلك سأتحدث عن أهم ما تميز به شعر الغزال وهو : عنصر القصة الشعرية والحوار ، وقد سيطر هذا العنصر على معظم شعر الغزال ، ويأتى بعد ذلك عنصر الموسيقى بنوعيها : الخارجية ، والداخلية .

وأختم هذا الفصل بتناول عنصرى الخيال والصورة الشعرية فى شعر الغزال .

ثم تأتى **الخاتمة** التى سأسرد فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج بعد هذا الطواف الطويل مع الغزال وشعره .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأود هنا أن أشير إلى بعض الملاحظات الهامة :

أما الأولى : فهى أننى سأعمد إلى الإسهاب والتفصيل فى بحثى هذا ؛ بحكم أنه أول دراسة فنية ونقدية جادة عن هذا الشاعر الذى لا يكاد ينتبه إليه الدارسون والنقاد ، ولم يشر إليه إلا على استحياء .

وأما الثانية : فهى أننى لم أراع الترتيب الزمنى فى سرد الأحداث والمواقف التى مرّ بها الغزال؛ وذلك نظراً لتداخلها ، وعدم استقرار المصادر على تاريخ محدد وقاطع لهذه الأحداث والمواقف .

وهناك ملاحظة أخيرة : تتمثل فى أن ثمة مصدراً واحداً سأعتمد عليه لاستخراج شعر الغزال ، بالإضافة إلى المصدر القديم وهو كتاب : " شعر يحيى بن حكم الغزال " للدكتور على الغريب .

أما المنهج الذى سأعتمد عليه فى بحثى هذا والذى أراه مناسباً لهذه الدراسة فهو المنهج الأيديولوجى ، وهو ـ كما حدده مندور ـ منهج لا يريد أن يسلب الأدب أو الفنان حريته ، وكل ما يرجوه هو أن يستجيب الأدب و الفنان لحاجات عصره ، وقيم مجتمعه بطريقة تلقائية ، وهو لابد مستجيب إذا فهم وضعه الحقيقى فى المجتمع ، وأدرك مسئوليته الكاملة ، ونهض بالدور القيادى الحر الذى يعزز مكانة الأديب والفنان ، ويرتفع بها إلى مستوى الإيجابية الفعالة التى يعتبر الاحتفاظ بالقيم الجمالية أهم وسيلة لتحقيقها .

فالأدب أو الفن بغير القيم الجمالية ، والفنية لا يفقد طابعه المميز فحسب ، بل يفقد أيضاً فاعليته ؛ لأن تلك القيمة الفنية والجمالية هى التى تفتح أمامه القلوب والعقول [1] .

١ـ النقد والنقاد المعاصرون ، د/ محمد مندور ، ط دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٧ م ، ص: ٢٢١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووقع اختيارى على هذا المنهج ؛ لأنه يحدد وظيفة النقد فى ثلاثة أمور هى :

١ ـ تفسير الأعمال الأدبية والفنية ، وتحليلها مساعدة لعامة القراء على فهمها وإدراك مراميها القريبة والبعيدة .

٢ ـ تقييم العمل الأدبى فى مضمونه ، وشكله ، ولغته ، والتصوير ، وغيرها من العناصر الفنية وفقاً لأصول كل فن .

٣ ـ تقرير هذا المنهج أن الأدب الهادف يتمثل فى ربط الأعمال الأدبية ، والمشكلات الاجتماعية والسياسية التى يمر بها مجتمع الأديب ، وهو ليس تجسيداً لقضايا المجتمع ومشكلاته فحسب ، بل إنه يسعى إلى النهوض به إلى ما هو أفضل ، وهذا ما رأيته فى شعر الغزال ؛ وسأوضحه فى موضعه من البحث .

هذا ورجائى من الله أن يعيننى على إتمام هذا البحث على الوجه الذى ينال به رضا القارىء ، ويخرج منه بما يفيد .

(رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى)

الباحث

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حين قضى العباسيون على دولة بنى أمية فى المشرق ، وكان ذلك فى أواخر سنة (١٣٢ هـ) ، وفرّ (مروان بن محمد) آخر خلفاء الدولة الأموية إلى مصر ،حيث قُتل فيها ، كان (عبد الرحمن بن هشام بن معاوية بن عبد الملك) فى العشرين من عمره ،وكان شاباً طموحاً ، أراد أن يعيد مجد أجداده ، واستطاع أن يدخل بلاد الأندلس ، و يقبض على زمام الحُكم بها ؛ ولذلك سُمِّى (عبد الرحمن الداخل) و أقام دولة بنى أمية فى الأندلس ، وجعل الحُكم وراثياً فى أسرته ؛ فانتقلت عاصمة الخلافة الأموية من دمشق إلى قرطبة ، وظلّت بها من (١٣٨ ــ ٤٢٢هـ) .

١. الحيـــاة السياسية :

كانت الحقبة الأولى من حكم بنى أمية فى الأندلس ـ كما وصفها الدكتور هيكل ـ : " علاجاً لكثير من الأمراض التى عاناها الحكم الأندلسى فى فترة الولاة " [١] ، فعندما وفد عبد الرحمن الداخل على الأندلس كانت هناك القبائل العربية المتنازعة بالإضافة إلى البربر الناقمين على العرب ، والمسيحيون الذين كانوا يسكنون المناطق الشمالية من شبه الجزيرة ، ثم الفرنج المتربصون فيما وراء جبال البرانس ؛ لأن هؤلاء كانوا يعتقدون أن المسلمين لايمثلون خطراً على أسبانيا وحدها بل على أوروبا كلها .

من أجل ذلك قضى (عبد الرحمن الداخل) جُلَّ حكمه فى كفاح داخلى ، وجهاد خارجى ، فقلل من شأن الأرستقراطية العربية ، وقضى على الزعامة القبلية ، وحاول قدر استطاعته أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية فى الأندلس ضد مسيحيى الأندلس ، والفرنج ، بتسيير الحملات إلى هؤلاء وأولئك [٢] .

وبعد وفاته فى ربيع الآخر سنة (١٧١هـ) ، وقيل فى جمادى الأولى سنة (١٧٢هـ) ، تولى ابنه (هشام) وكان عاملا لِـ " مَارِدَّة " ، وكان حازما ذا رأى وشجاعة وعدل ، شديداً على الأعداء راغباً فى الجهاد ، وقد بلغ من تواضعه أنه كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية ليسمع المظالم ، وقد قضى على الفتن وساد الأمن فى عصره [٣] .

١ـ الأدب الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د/ أحمد هيكل ، ط دار المعارف ، ص:٧٤ .
٢ـ انظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد المقرى ، ط دار صادر بيروت ، ج ١ ، ص ١٥٦ .
٣ـ انظر : تاريخ العرب فى أسبانيا ، محمد عبد الله عنان ، ط ١ مطبعة السعادة سنة ١٩٢٤ ، ص ٧٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحين توفى عبد الرحمن سنة (١٧٢هـ ـ ٧٨٨م) كان ابنه عبد الله حاضراً بقرطبة ، وابنه الأكبر سليمان عاملا على طليطلة ، ولما وَلِىَ هشام وأخذ له عبد الله البيعة حقد عليه سليمان ، وأظهر الخلافة بطليطلة ، ولحق به أخوه عبد الله ، سار هشام لحصارهما بطليطلة ، وحاول سليمان أن يثير عواصف الثورة على أخيه بقرطبة فلم يظفر بشيء ، وكان ثوار المقاطعات الشمالية يكثرون من الغارة على البلاد الأندلسية ، والفتك بأهلها ، وكان الفرنج يشجعونهم على العصيان ؛ فجهز هشام جيشين للغزو ، وقضى على الثوار ، فسار الأمن فى المناطق الشمالية [١] .

وبعد وفاة هشام فى صفر (١٨٠هـ) تولى ابنه (الحَكَم الرَّبضى) ، وسار على نهج أبيه وَجدِّه ، وكان يمتاز بالحزم ، والصرامة ، والقسوة من أجل تثبيت النظام ، وتدعيم الحُكم ، وقصة إخماده لثورة الرّبض دليل على ذلك [٢] .

وثورة الرَّبض ثورة قام بها سكان الضاحية القرطبية المسماة بهذا الاسم ، وكان أكثرهم من المولدين أى الأسبان المولدين ، وقد كانت ثورتهم ذات أسباب بعيدة ترجع إلى سخط العامة ـ وخاصة المولدين فيهم ـ على الأمير (الحَكَم) ، وكان لدعابات الفقهاء أثر كبير فى إقناع العامة بالسخط على الأمير ، فزحفت جموع الثوار على القصر الأميرى ، وأحاطوا به من كل ناحية ، وكادوا يقضون على الأمير والأمراء جميعا ؛ فلجأ (الحَكَم) إلى حيلة فيها ذكاء وقسوة .

وتتمثل هذه الحيلة في أنه أرسل بعض أعوانه إلى الربض وأشعلوا فيها النار ، وهنا اضطر الثوار إلى الإسراع إلى ربضهم لإنقاذ أولادهم ونسائهم وذويهم ، وانتهز الحَكم الفرصة ، فأمر جنوده بالانقضاض على الثوار أثناء انسحابهم واضطرابهم ، فأعملوا فيها قتلا وأسرا .

وكان (الحَكم) أول من جنّد بالأندلس الأجنادَ المرتزقه ، وجمع الأسلحة ، والعِدَد ، واتخذ المماليك ، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه .

---

١ ـ انظر : مقدمة بن خلدون ، القاضى عبد الرحمن بن خلدون ، مطبعة الرسالة سنة ١٩٦٨، ص :١٢٤ .
٢ ـ انظر : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، ج٣ ، ص: ٣٧٠ ـ ٣٧١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد وفاة الحَكم فى شهر ذى الحجة سنة (٢٠٦هـ) تولى ابنه عبد الرحمن المعروف بـ (عبد الرحمن الأوسط) لتوسطه بين جدّه عبد الرحمن الداخل ، وحفيده عبد الرحمن الناصر ، وفى عهده ساد الأمن فى الولايات الأندلسية ، وحسنت حال الرعيه ، وكثر الخراج [١] .

وبعد ما تولى (عبد الرحمن) الحُكم ، أغار الأمير (ليون ألفونسو الثانى) على مدينة (سالم) من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل المسيحية الثائرة ، فأغارت على البلاد الإسلامية وعاثت فيها فساداً ، فأرسل (عبد الرحمن) قوة كبيرة لقتال الثائرين ، وردّ غاراتهم بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، فسار إلى أَلَبه والقلاع وهزم الثوار فى عدة مواقع ، واشترط على الثوار أن يدفعوا جزية فادحة ، وأن يطلقوا أسارى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم ، وفى تلك المدة ظهر النورمان المجوس على السواحل الإسبانية ، ونهبوا عدة مواقع ، فظهروا أولا فى أشبونه، وحاربهم أهلها ثلاثة عشر يوماً ، ثم تقدموا إلى قادش ، ثم إلى شذونة ، ثم إلى إشبيلية نهراً ، ونزلوا قريباً منها ، وقاتلوا أهلها فهزمهم المسلمون ، وغنموا بعض مراكبهم ، ثم مضوا إلى باجة وأشبونة ، وفرّوا من هناك عند اقتراب الأسطول والجيش اللذين أرسلهما عبد الرحمن لعقابهم ، فسكنت البلاد وأخذ عبد الرحمن بإصلاح ما خربوه فى البلاد .

وفى نهاية حُكم (عبد الرحمن) اشتد تعصب أهل قرطبة من النصاري اشتداداً عظيماً ، وبدت منهم بوادر تنذر بالهياج والثورة ، ولم يك ثمة ما فى النظام العربى ما يسوء النصارى فى قرطبة أو غيرها ، أو ما يكدر صفو اعتقادهم ويمنعهم من إقامة شعائرهم أو الاحتماء بشرائعهم ، وطالما حاربوا مع المسلمين جنباً لجنب ، وعينوا فى أرقى الوظائف الحربية ، والسياسية .

وكان من هؤلاء النصارى الفريق المعتدل . والفريق المتطرف الذى أخذ يُجاهر بالعداء للمسلمين ، ويسب النبى r ، فأدرك عبد الرحمن خطورة المأزق فاستدعى مجلساً من القساوسة من جميع أطراف المملكة ، وعين للإنابة عنه فيه أحد زعماء النصرانية ومستشارى الحكومة ، وأصدر الأساقفه قراراً يحظر المجاهرة بسبّ النبى r ، وقرروا لمن يفعل ذلك عقوبة صارمة ، لكن هذا لم يكف لتسكين التعصب فأودع المتعصبون غياهب السجن ، ولكنهم ظلوا مصدراً للاضطراب حتى وفاة عبد الرحمن سنة (٢٣٨هـ) [٢] .

---

١ ـ انظر : تاريخ العرب ، المسيو سديو ، ط مدريد ، ص : ٨٧ ـ ٨٩ .
٢ ـ انظر : الكامل ، لابن الأثير ، ط ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ج ٥ ، ص ١٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم تولى ابنه (محمد بن عبد الرحمن)، فَجَرَى فى العدل على سُنة أبيه ، وفى سنة (٢٤٠هـ) كان بين المسلمين والفرنج حرب شديدة ، وسببها أن أهل طليطلة كانوا فى خلاف على الملوك، ولما ولى (محمد) هذا سار بجيوشه إليها ، فراسل أهلها ملك جليقية يستمدونه فأمدهم بالعساكر الكثيرة ، فبلغ محمداً ذلك ، وقد قارب طليطلة فعبأ أصحابه وكَمَّن الكُمَناء بناحية وادى سُليط ، وتقدم إليهم فى قلة من الحرب خرجت الكمناء من كل جهة ، فقُتِل من المشركين ومن أهل طليطلة ما لايُحْصَى ، وجمع من الرؤوس ثمانية آلاف رأس ، وذكر أهل طليطلة أن عدد القتلى عشرون ألفا ، وفى سنة إحدى وأربعين ومائتين استكثر (محمد) الرجال بقلعة رباح لِيُضيِّق على أهل طليطلة ، وسير الجيوش إلى غزو الفرنج مع موسى بن موسى فدخلوا بلادهم ، ووصلوا ألبه والقلاع ، فافتتحوا بعض حصونها وعادوا [١].

وهكذا أرى أن تلك الحقبة من الناحية السياسية كانت مدة علاج لكثير من أدواء الحُكم التى عانتها الأندلس من قبل ، وقد كان لهذا العلاج مقتضياته من البتر حينا، ومن إسالة الدّم حينا آخر .

كما شهدت تلك الحقبة بعض الحروب وأعمال العنف ، ولكنها كانت فى سبيل الاستقرار السياسى الذى خلف تقدما وأمنا بعد ذلك .

٣. الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع الأندلسى فى عهد الولاة وقبل قيام الدولة الأموية يتكون من عدة عناصر بشرية وهم :

- **العرب :** وكانوا يحسون إحساساً قوياً بنوع من الأرستقراطية نابع من غلبتهم على الأسبان والبربر ، ودخولهم فى الإسلام وبِلُغَتِهم التى تفوق غيرها .
- **البربر :** وهم يشاركون العرب فى البداوة والإسلام والعصبية القبلية .
- **الموالى :** وهم موالى بنى أمية ، وهم يمثلون ثلاث طوائف : من دخلوا الإسلام إبان فتح الأندلس ، ومن دخلوه بعد الفتح ، ثم من دخلوا فى ولاء البيت الأموى من أهل البلاد ، وقد كان لهؤلاء الموالى اليد الطولى فى إقامة دولة (عبد الرحمن الداخل)عصر بنى أمية .

---

١ ـ انظر : دولة المسلمين فى أسبانيا ، المسيو دوزى ، ط مدريد ، ص: ١٢٤ ـ ١٢٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- **المولـــدون** : وهم العنصر الناشئ من تزاوج العرب بـالبربر أو العـرب بالأسـبانيات ، وقـد خرج من هذا الازدواج جيل جديد موّلد ، وظل اسم المولدين يطلق على هذا العنصر حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، ثم تلاشت هذه التسمية بعد ذلك بسبب اخـتلاط النـاس وتحـول أهـل الدولة الإسلامية فى الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز.
- **أهـل الذمـــة** : وهم الأسبان الذين بقوا على مسيحيتهم ، ولم يدخلوا الإسلام وهؤلاء كـانوا يرون أن العرب والبربر دخلاء عليهم .

كانت كل هذه العناصر كفيلة أن تجعل المجتمع الأندلسى مجتمعا مفككاً، ولكـن اسـتطاع (عبد الرحمن الداخل) أن يسير بالمجتمع الأندلسى نحو مجتمع موحد ، فقد ذكرنـا أنـه قـد كـسر شوكة الأرستقراطية العربية ، وحدّ من عصبية القبائـل بمطـاردة الزعمـاء المنـاوئين ، وباسـتخدام كثير من الموالى وغير العرب ، ثم سار أبناؤه على نهجـه من بعده ، حتى كان الموالى الصقالبـة فى عهد (الحَكَم) خمسة آلاف [1] .

وكان من أهم ظواهر المجتمع فى ظل الدولة الأموية فى الأنـدلس هـذا التقـدم الحـضارى ، الذى خطت نحوه الأندلس ممثلا فى أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بهـا عبـد الـرحمن الداخل وأبناؤه من بعده ، حيث أسس (عبد الرحمن) مسجد قرطبة الجامع ، وبنى بها الرصافة تَشَبُّها بِجَدِّه هشام حيث بنى الرَصافة بالشام ، وكذلك شيد (عبد الرحمن الأوسط) بقرطبة قصوراً ومنتزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، ونظم شوارعها ، وأقام بها الجـسور ، وزاد فـى بنـاء جامعها الكبير ، وشيد المساجد كغيرها من بلاد الأندلس ، ورتب رسوم المملكة ، كما يلاحظ علـى هذه الحقبة ظهور شخصية المرأة فى مجال الفن ، وخاصة بعد اسـتقدام (عبـد الـرحمن الـداخل) لبعض الفنانات من المشرق ، وأقام فى القصر داراً لهن تدعى المَدَنيات ؛ لأن أغلبهن كن مـن المدينـة التى اشتهرت بفنون الموسيقى والغنـاء فى تلـك السنوات ، وكـان مـن أشـهر هـؤلاء الفنـانـات (فضـل وعلم والعجـفـاء وقـلم) [2] .

١- انظر: ظهر الاسلام ، أحمد أمين ، ط ٧ مكتبة النهضة ، ج٣ ، ص: ١٨٠.
٢ - انظر : نفح الطيب ، أحمد المقري ، ج٢، ص: ١١٨ ـ ١١٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما كان لوفود زرياب غلام (إسحاق الموصلى) [1] من المشرق إلى بلاد الأندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط ـ الذى احتفل به احتفالاً كبيراً ـ تأثير فعال فى تغيير بعض عادات المجتمع الأندلسى ، فقد علَّم الأندلسيين الأكل على الموائد بالملاعق والسكاكين بدلاً من الأصابع ، مع تفضيل آنية الزجاج ، وأضاف إلى أطعمتهم ألوانا جديدة من أطعمة بغداد ، وعلَّم المرأة الأندلسية كيف تتزين ، وما تتخذ من عطور ومن ضروب الثياب وكيف تتفنن فى تصفيفات شعرها وكيف تسدله على جبهتها ، كما علَّم الرجال آداباً مختلفة فى اتخاذ الثياب وتقصيرها ، وكيف يتأنقون فى فرشهم وتأثيث بيوتهم [2] .

وأخذت الأندلس تخطو خطوات واسعة فى الحضارة المادية ، وساعدها فى ذلك ثراؤها لوفرة الأنهار فيها والثمار ، والضرع ، والزرع ، والبساتين ، وكثرة المعادن .

من كل ذلك أخلص إلى أن المجتمع الأندلسى فى تلك الحقبة كان مجتمعا مستقرا إلى حد بعيد ، فقد كان يعيش أكثر وحدة فى ظل حماية نظام القبيلة والعصبية ، وفتح الطريق للأندلسية الحقة .

٣ . <u>الحياة الثقافية</u> :

كانت الأندلس فى عهد الولاة تعرف شيئاً من الثقافة ، وذلك بسبب هجرة نفر من التابعين الذين كانوا على حظ من الثقافة الدينية ، كانوا يصحبون الجند ، أو يفدون بعد الفتح للإفتاء فيما يعن للمسلمين من أمور الدين ، ولكن بعد قيام دولة بنى أمية فى الأندلس أخذت الأندلس تخطو الخطوة الأولى نحو الثقافة ألأندلسية الحقة ، وذلك بسبب عدة عوامل :

<u>أولها</u> : وفود كثير من الأمويين وأنصارهم ، وكان مَقْدِم هؤلاء إما فراراً من العباسيين ، وإما الرغبة فى حياة جديدة فى ظل الإقليم الإسلامى الجديد المعروف بكثرة الخيرات ، ولا شك أن هؤلاء الوافدين كانوا على قدر كبير من الثقافة الواسعة ، ولا شك أن حياتهم فى الأندلس كانت تشيع ثقافتهم وتذيع معارفهم [3].

---

[1] ـ زرياب : طائر أسود .
٢ـ انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس ، حسين مؤنس ، ط دار الرشاد ، ص: ٣٣٣ .
٣ـ انظر : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص: ٧٧ ـ ٧٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وثانى هذه العوامل: رجوع أول فوج من الأندلسيين الذين كانوا يدرسون فى المشرق ، وهؤلاء كانوا بمثابة أول أعضاء البعثات الذين كانوا يتعلمون بالخارج ، ثم يعودون لينشروا ما تعلموا فى بلادهم وفى محيط أهلهم ، ومن أمثال هؤلاء العائدين (الغازى بن قيس) الذى سمع عن الإمام مالك موطأه ، ثم عاد فى عهد (عبد الرحمن الداخل) ، فأكرمه وأحسن استقباله ، ومن هؤلاء العائدين أيضا (أبو موسى الهوارى - عبد الملك بن حبيب - يحيى بن يحيى الليثى - زياد بن عبد الرحمن) ، وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية [١] .

وثالث هذه العوامل : ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره من المساجد التى كانت بمثابة المدارس والجامعات ، وقد كان مسجد قرطبة خاصة يمثل النواة الأولى للجامعة الأندلسية التى أسست فى تلك المدة ، واتسعت بعد ذلك حتى أصبحت فى القرن العاشر الهجرى من أعظم جامعات أسبانيا .

وآخر هذه العوامل : ما كان من تشجيع أمراء بنى أمية للعلم والعلماء ؛ لأنهم هم كانوا أهل علم ودين ، وكان من أشهر هؤلاء عبد الرحمن الأوسط ، والذى قال عنه ابن سعيد : (عُنى أبوه بتعليمه وتخريجه فى العلوم الحديثة والقديمة ، وكان من أهل التلاوة للقرآن والاستظهار للحديث ، وكان يداخل كل ذى علم فى فنه) [٢] .

يقول ابن خلدون : (كان عالماً متبحراً فى علوم الدين والفلسفة) [٣] .

يقول ابن القوطية : (التزم إكرام أهل العلم وأهل الأدب والشعر فى دولته ، وإسعافهم فى مطالبهم كلها) [٤] .

ومن هؤلاء أيضا الأمير (محمد بن عبد الرحمن) الذى قال عنه ابن حيان نقلاً عن الرازى : (كان مكرما لأعلام الناس ، مقدماً على طبقاتهم ذوى الفقه والعلم منهم ، يرفع مجالسهم ، ويزلف وسائلهم ، ويسعف فى رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم) [٥] .

١- انظر : تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، بيروت ، د.ت ، ص ٣٥ .
٢ - انظر المُغرب ، لابن سعيد ، ط دار المعارف ، ص ٤٥ .
٣ - انظر : تاريخ بن خلدون ، القاضى عبد الرحمن بن خلدون ، ط بولاق ، ص ١٣٠ .
٤ - انظر : افتتاح الأندلس ، ص: ٨٥ .
٥ - انظر المقتبس ، د/ محمود مكى ، ط بيروت ، ص٢٤٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت الثقافة الأندلسية فى تلك الحقبة تقتصر على العلوم الدينية والعربية ، فالدراسة كانت تدور حول كتاب الله عز وجل حفظا وتفسيراً وقراءات ، وحول سنة الرسول رواية وشرحا واستنباط أحكام ، ثم حول لغة القرآن والسنة وما يتصل بها من شعر وأدب .

على أنني يجدر بي أن أشير إلى أمر كان له شأنه فى الثقافة الأندلسية ألا وهو تحول المسلمون فى الأندلس من المذهب الأوزاعى إلى مذهب مالك ثم التعصب له ، وكان سبب ذلك موافقة لطبيعتهم العقلية فهو مذهب يعتمد على النص ، ولا يفسح المجال كثيرا للعقل ، وهو مذهب يكره التفريع والتفلسف والمنطق ، وما أشبه ذلك مما شاع فى المذهب الحنفى مثلا ، ومن هنا وافق المذهب المالكى طبيعة الأندلسيين النافرين من التفريع ، المبغضين للتفلسف ، الكارهين للمنطقة [1] .

٤ . الحيـــاة الأدبـيـــة :

شهدت فترة تأسيس الإمارة الخطوة الأولى نحو أدب أندلسى متميز كانت له سماته البارزة ، هذه السمات التى سوف تتزايد على مر العصور حتى تتم معالم الأدب الأندلسى بصورة واضحة ، فقد شهدت هذه الفترة ظهور أول جيل من أدباء وأديبات الأندلس،ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على الشعب ، بل شارك فيه الحكام أيضا .

ولقد كان لأمراء قرطبة الأمويين فضل كبير فيما ظهر فى الأندلس من نهضة قوية فى الأدب ، فقد كانت كل العوامل مشجعة على قيام النهضة الأدبية وازدهارها ، فالأمراء بحكم طبيعتهم العربية بلغاء فصحاء يجيدون القول شعراً ونثراً ، ودوافع القول الملحة بالنسبة لهم لم تكن تنقصهم : فانتصاراتهم فى الفتوح ، ونجاحهم فى تأسيس دولتهم ، والحنين إلى ماضيهم فى المشرق ، وطبيعة الأندلس الجميلة التى تستثير الخيال ، وتحرك الوجدان ، والحب الذى يفجأ قلوبهم الشاعرة فيسعدها حيناً ، ويشقيها حيناً آخر ، كانت كل هذه العوامل وكل عامل فيها كفيلاً بأن يفجر فى نفوسهم أرق المعانى ، وأسماها ثم يطلقها على ألسنتهم أدباً جديداً ، قد لا يكون لهذا الأدب ما للأدب المشرقى من الناحية الفنية لكنه أدب تستطيع أن تحبه ، وأن تقبل عليه لما فيه من نبض قوى ، وعاطفة جياشة ، ولما له من مذاق حلو ، وألحان شجية آسرة ، ولم يقف أمراء قرطبة عند حد التعبير عن خواطرهم الذاتية ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تشجيع الأدباء والشعراء وإلى عقد مجالس للأدب والشعر أشبه بمجالس عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ،

١- انظر : تاريخ علماء الأندلس،ابن الفرضى ، الدار القومية القاهرة سنة ١٩٦١، ج١، ص:١٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإذا بالأدباء والشعراء يقبلون عليها للمناشدة والمطارحة ، وإذا هؤلاء وهؤلاء يتكاثرون على تعاقب الأيام ، ويمثلون الأندلس أدباً رائقاً ، وشعراً فائقاً [١] .

(أ) الشعـــر :

كان الشعر الأندلسى فى تلك الحقبة يسير نحو الاتجاه المحافظ المشرقى ، ولكن مع تميزه بسمات خاصة له ، تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسى .

وقد ظهر فى تلك الفترة نفر من الشعراء الذى كان شعرهم بمثابة البذور الأولى للشعر الأندلسى الذى سيزدهر فيما بعد ، ولم يكن خلفاء بنى أمية بمنأى عن قول الشعر ؛ فنجد الأمير عبد الرحمن الداخل يقبل على قول الشعر ، ومن ذلك قوله فى الفخر والحماسة :

لا يلـفِ ممتنٌ علينا قائـــل لولاى ما ملكَ الأنامَ الداخِـلُ
سعدي وحزمي والمهند والقنا ومقادرٌ بلغتْ وحالٌ حائـــل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجـم آفـــل [٢]

كما كان الأمير الحَكَم بن هشام فصيحا بليغا ، وشاعراً مجيداً ، ومن شعره الذى يفخر فيه بالقضاء على الخارجين عليه ، وإقرار الأمن فى البلاد ، قوله :

رأيتُ صُدُوعَ الأرْضِ بالسَّيْفِ راقِعَاً وَقِدْماً لأمْتُ الشَّعْبَ مُذ كُنْتُ يَافِعَا
فسَائِلٌ ثغورى هَلْ بهَا الآن ثغْـرَة أبَادِرُهَا مُسْتنضِـى السَّيْـفِ دَارعَا [٣]

ومن غزل الأمير عبد الرحمن الأوسط وكان أديباً شاعراً ، ما قاله فى جاريته طروب التى نالت عنده كل حظوة :

إذا مَا بَـدَتْ لِى شمْـسُ النهَـار طالِعَـة ذكَّرتِـنْـــى طرُوبَاً
أنا ابْـنُ المَيَامِيـــن مِنْ غَـالـبِ أشُبُّ حُرُوبَا وأطفى حُـرُوبَاً [٤]

٢- انظر : ـ الأدب العربى فى الأندلس ، عبد العزيز عتيق ، ط٢ دار النهضة العربية بيروت ، ص ٦٠ .
ـ فصول فى الأدب الأندلسي ، حكمة على الأوسى ، ط٣ مكتبة الخانجى القاهرة ، ص ٣٦: ٤٧ .
١ ـ انظر : نفـــح الطيـــب ، ج٣ ، ص:٤٢ ـ ٤٣.
٢ ـ انظر : العقد الفريد ، أحمد بن عبد ربه ، المطبعة العامرة ، ص : ٤٩٢ .
٣- انظر : نفـــح الطيـــب ، ص : ٣٢٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أشهر شعـراء العامة :أحمد بن عبد ربه ، وأبو المخشى ، وعباس بـن ناصـح ، وابـن الآبار ، وعبد الله بن الشمر ، والمنذر بن عبد الرحمن ، وحسانة التميمية .

(ب) النـثـــــر :

وأما فن النثر فى عصر إمارة قرطبة ، فنجده لا يختلف كثيراً عن نظيره فى المـشرق ، وإذا كان النثر ينقسم إلى نثر تأليفى : وهو الذى تصاغ به المعارف الإنسانية المؤلفة فى أسلـوب أدبـى ، ونثر خالص ، وهو ذلك النثر الذى لا يراد به التعبير عن تلك المعـارف الإنـسانية المؤلفـة ، وإنمـا يراد ما سوى المعارف ، فإن حقبة تأسيس الإمارة لم تعرف إلا النوع الثانى وهو النثـر الخـالص ؛ حيث كانت الأندلس حتى ذلك الحين لا تعرف النثر التأليفى ؛ لأنه يحتاج إلى مستوى ثـقـافى لم تكن الأندلس قد وصلته بعد .

وكان هذا النوع من النثر الخالص لا يعرف كذلك تلك الفروع الراقيـة التـى نـشأت فيمـــا بعد كالفرع القصصى مثلا ، وإنما اقتصر على تلـك الفـروع التقليديـة ، كالخطـب ، والرسائـــل ، والوصايا والمحاورات ، وما أشبه ذلك بما عرف منذ العـصر الجـاهلى إلى العـصر الأمـوى ، وكـان اقتصار النثر الأندلسى على تلك الفروع التى كانت تلائم حياة الأندلسيين ، وتتناسب مـع ظـروفهم السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وهى الفروع التى كانت مألوفة فى المشرق فى تلك الآونـة ، وقد كان المشرق فى ذلك الحين هو المصدر الأول للاتجاهات الثقافية ، والأدبية .

ومهما يكن من أمر فقد كان لتلك الفترة نثر تقليدى كما سبق أن قررنا ، وكان لها ناثرون عديدون مثل: فطيس بن عيسى ، وخطاب بن يزيد اللذين كانا كاتبين لهشام بن عبد الرحمن ، ثـم لابنه الحَكَم ، ومثل حجاج العقيلى الذى كان كاتبا للحكم ، ومثل الداخل والرَّبضى من أمـراء تلـك الفترة ، فقد كان الأول خطيبا وكاتبا ، وكان الثانى كاتباً وموصياً [1] .

وقد حفظت لنا بعض المصادر نماذج نثرية لتلك الفـترة توضـح لنـا حـال النثـر مـن حيـث فروعه ، وأسلوبه .

فمن أمثلة الخطب ما قاله عبد الرحمن الداخل لأصحابه يحثهم على القتال يوم أن خـاض المعركة الفاصلة ضد (يوسـف الفهري) آخر ولاة الأندلس ، قال عبد الرحمن :(هذا اليوم هـو

١- انظر : البـــيان المُغـــرب ، لابن عذارى ، ط٢ دار الثقافة بيروت ، ج٢ ، ص: ٩٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسٌّ ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون) [1] .

ومن الرسائل ما كتب به عبد الرحمن الداخل إلى خارج يسمى سليمان الأعرابى ، وهو قوله: " أما بعد ، فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنَّ يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين بنانها على رضف المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد " [2] .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين جندى وعبد الرحمن الداخل حيث قال الجندى : " يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عززت ، من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى نداك المآل ، وأنت ولىّ الحمد والمجد ، والمرجو للرفد) ، فأجابه عبد الرحمن : (سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودون ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف فى الطَّلبة ، وإذا ألم بك خطب ،أو حزّبك أمر ، فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك كيما نستر عليك خلتك ، ونكف شبهات العدو عنك بعد رفعها إلى مالكك ومالكنا ــ عز وجهه ــ بإخلاص الدعاء وصدق النيّة " [3] .

****

٢- نفح الطيب ، ج٢ ، ص: ٧٠ .
[2] - المصدر السابق ، ص : ٦٨.
٢- المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصـــــل الأول

يحيى بن حكم الغزال :

حيـاتــه وسـيـــــرته الذاتيـــــــة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اسمه ونسبه :

يحيى بن الحكم البكرى – أبو بكر – ، وقيل أيضا أبو زكريا – الجيّانى – نسبةً لجيّان – الغزَال – بتخفيف الزاي – لوسامته وجماله وأناقته ، ولقد لُقب بهذا اللقب منذ صباه ، وقيل في غمرة رجولته ، وقيل وهو في حدود السبعين استناداً إلي قصيدة أنشدها أمير الأندلس ، وفيها حسنه وجماله ، وإن هذا اللقب قد أطلقه عليه توداً وتحبباً صديقه ومولاه (الأمير عبد الرحمن) ، وبهذا اللقب اشتهر [1] .

ويرتفع الغزال إلى قبيلة بنى بكر بن وائل وقد صرح بذلك فى شعره حين قال :

وَهَـا أنا مِنْ أبْنَـاء بَـكْر بنِ وائِل وَمَا نفعَتْنى قَـطُّ بَكْرُ بْنُ وَائِل [2]

إذن فهو من أبناء البيوت العربية الأصيلة .

فقد نشأ نشأة دينية ، واكتسب منذ صباه أخلاق الفروسية ومآثرها ، ولا غرو في ذلك ، فهو ينتمي إلى قبيلة من أعز القبائل في شرقي الجزيرة العربية ، وسليل قبيلة عظيمة من العدنانية تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط ، حتى تنتهي بابن نزار بن معد بن عدنان ، وهى قبيلة طبقت شهرتها الآفاق وعرفت بالعديد من رجالها ، وكانت أراضيها تمتد من اليمامة إلى البحرين فأطراف العراق ، وفيها البطولة والفروسية والشجاعة والإقدام ، وقد عُرف عنها أنها من أعظم القبائل المحاربة ، ومن أعمالها : أنها غزت تخوم الإمبراطورية الفارسية ، وأغارت على بعض بوادي الشام ؛ حيث قتلوا ملكاً من ملوك غسّان ، واستنقذوا امرأ القيس بن المنذر .

ومن أعظم أيام بكر بن وائل الحربية يوم ذي قار على عهد النبي ﷺ .

وقد اعتنق الإسلام كثير من أبناء هذه القبيلة ، وكان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة النبوية.

ولما انتشرت فتوح العرب بعد الإسلام نفرت فيها عشائر ضخمة من بكر ، وأوغل بعضهم مع الفتوح ، حتى استقروا في غربى الأندلس وجنوبيها ، ومنها مدينة جَيّان التي سكنوها مدة طويلة ، حيث وُلد يحيى بن الحكم الغزال .

١- " يحيى بن حكم الغزال " ، محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، ص : ١٧ .

٢- انظر : ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، د/ محمود مكى ، الرياض ، ص: ٢٤٤ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، جمع وتوثيق ودراسة ، د/ على الغريب محمد الشناوى ، مكتبة الآداب ، ص : ٢١٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مولـــد الغـــــزال :

وُلد الغزال في مدينة جيان وإليها ينتسب .

وقد اختلفـت المصادر في تحديد سنة ولادتـه ، فقيل : إنه وُلد سـنة (١٥٦هـ) ، كمـا في الأعـلام للزركلى [١] ، وفى معجـم المؤلفيـن لكحالة [٢]، والموسوعة العربية الميسرة [٣]، ومنهـا مـا حـدد تـاريخ ولادة الغزال ، وعدّه في سنة (١٥٠ هـ) استناداً إلى بعض أشعاره والوقائع التي عاشها، ومنها قوله :

وَمَالي لا أبْـلَى لِتسْعِين حِجَّـة وسبع أتـتْ مِن بَعْدِهَـا سَنـتَـان [٤]

وقد وُلد الغزال في زمن إمارة (عبد الرحمن بن معاوية) ، وكـان في الـسادسة عـشرة عنـد وفاته، وتوفى سنة (٢٥٠ هـ) ، وعلى ذلك سيكون قد عاش قرنـاً كـاملاً تقريبـاً ، وعـايش عهـوداً خمسة من الأمراء : إمارة عبد الرحمن الأول ، وإمارة هشام ، وإمارة الحكم ، وإمارة عبد الرحمن الثاني ، وجزءاً من عهد الأمير محمد ، ويقول في ذلك :

أدْرَكْـتُ بالمِصْرِ مُـلوُكَـاً أرْبَعَـة وَخامِسَاً هَذا الذِي نحْـــنُ مَعَـهُ [٥]

ويعنى بالمِصر : قرطبة ؛ حيث عاش أطول سني حياته ، وقد حكم الأمراء الخمسة الـذين عايشهم الغزال في التواريخ التالية :

١ـ عبد الرحمن الأول بن معاوية ، المعروف بـ (عـبـد الرحمن الداخل) : ١٣٨ – ١٧٢ هـ .

٢ ـ هشام الأول بن عبـــد الرحمن : ١٧٢ – ١٨٠ هـ .

٣ ـ الحَكَـــــم الأول بن هشـــام ، المعروف بـ (الحَكَـــــم الرَّبضـى) : ١٨٠ – ٢٠٦ هـ .

٤ ـ عبد الرحمن الثاني بن الحكم ، المعروف بـ (عبد الرحمن الأوسط) : ٢٠٦ – ٢٣٨ هـ .

٥ ـ محمد الأول بن عبد الرحمن ، المعروف بـ (محـمـــد الأميـــر) : ٢٣٨ – ٢٧٣ هـ .

---

١ ـ الأعلام ، خير الدين الزركلى ، العربية بمصر ط٢ ١٩٢٧ م ، ج١ ، ص : ١٧٣ .
٢ ـ انظر : معجم المؤلفين ، عمر كحالة ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ط ١٩٦١ م ، ج٣ ، ص : ١٩٣ .
٣ ـ الموسوعة العربية ، فرانكلين القاهرة ، ص ١٢٥٤ .
٤ ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣.
ـ المُطرب ، لابن دحية ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ط ١٩٥٤ م ، ص : ١٥٠ .
٥ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٨ .
ـ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص : ٢٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا أعرف للغزال نشاطاً مسجلاً فى عهد عبد الرحمن الداخل ، ولا فى أيام هـشام ، لكـني أجد له حادثة وقعت أيام الحَكَمَ الرَّبضى .

فقد روى (أن الشاعر الفقيه القاضى عباس بن ناصح الجِزيرِى قد حضر إلى قرطبة ، وكان قاضياً على الجزيرة الخضراء ـ بلده وشذونه ـ فجاءه أدباء قرطبة للأخذ عنه ، فمرت عليهم قصيدة القاضى الجزيرى ، ومطلعها :

لعمرك ما البلوى بعار ولا العـدم إذا المرء لم يعدم تـُقى الله والكرم

حتى انتهى القارئ إلى قوله :

تجاف عن الدنـيـا فما لمعجز ولا حازم إلا الذي خـُـطَّ بالقلم

فقال له يحيى : وهو حدث ، أيها الشيخ : وما الذي يصنع مُفعِل مع فاعل ؟

فـقـــــــال : فكيـف تقـــــول أنت ؟

فـقـــــــال :

تجـاف عن الدنيـا فما لعاجــز ولا حازم إلا الذي خـُطَّ بالقلم

فـقــال عباس : والله لقــد طلبها عـمـــك ليالى فما وجدها) [1] .

١ـ نفح الطيب ، ص : ٢٦١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شخصيـــة الغـــــزال :

كان يحيى بن الحكم الغزال يتمتع بشخصية فذة ، طبَّقت شهرتها آفاق الأندلس وغيرهـا ، فقد كان من كبار رجال الدولة ، مشهوداً له بالحكمة والدهاء ، وكـان يجمـع فـى شخـصه عناصـر الذكاء والبديهة الحاضرة ، والفكاهة ، وخفة الروح ، والظرف ، والجدّ ، والهزل ، هذا بالإضافة إلى الثقافة الواسعة ، والنِّجدة ، والإقدام ، و " قد كان يُعتبر وعباس بن فرناس صديقه نمـوذجين لطرافة الشخصية وللأصالة الفكريـــة المبكرة فى الأندلـس " [١] ، وقد وصفـه الـضبِّىِّ (بـالرئيس) وأنه بالرغم من هزله وفكاهته فهو رجل جِدٍّ وعمــل ، " جليل فى نفسه وعمله ومنزلته عند أمراء بلده " [٢] .

ويقول عنه الأستاذ محمد عبد الله عنان : " كان على مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فـى ميـدان الـشعر والأدب والحكمـة ، ويتبـوأ فـى بـلاط قرطبـة أسمـى مقـام مـن النفـوذ والثقـة والتقـدير " [٣] .

ويقول عنه أيضاً : (بالإضافة إلى صفة الشاعر الفيلسوف والمفكر الحر ، فقد عُـرف الغـزال بصفة أجلّ وأخطر هى صفة الحكيم الناصح ، والسياسى المحنَّك ، واشتُهر بأصالة الرأى ، وحسـن التدبير ، واللباقة والدهاء ، مع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، ولكن هذه الخـلال كانـت تُفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة ، وتجعله موضع الثقة والتقدير ، وقد لبث على هذه المكانة فى الدولة بعد وفـاة (الحَكم) وتولّى ابنه (عبد الرحمن) ، ونُظم فى سلك كُتَّاب الـبلاط ، وكـان منصب الكتابة من المناصب التى تسند عـادة إلى المقـربين مـن خاصـة الأمـير وجلـسائه مـن الأدبـاء والشعراء ، فيغدو لهم مورد رزق ، وتوثقت بين الغزال وبين الأمير الجديد صداقة متينة العُرى ، وكان عبد الرحمن يستشيره فى كثير من شئون الدولة ومَهَامَّها) [٤] .

---

١ ـ فصول فى الأدب الأندلسى ، حكمة علي الأوسي ، ص ٢١١ .
٢ ـ بغية الملتمس ، أحمد الضبى ، مدريد سنة ١٨٨٤، ص ١٤٦٧ .
٣ ـ مجلة الرسالة القاهرية ، عدد١٣١، سنة ١٩٣٦ ، ص٤٨ .
٤ ـ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، محمد عبد الله عنان ، ط١ دار المعارف القاهرة ١٩٤٧ م ، ص ١٣٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لقد كان الغزال فارع الطول ، قوى البُنْيان ، جَمَّ النشاط ، جميلاً ، الأمر الذى جعل الأمير عبد الرحمن يطلق عليه لقب الغزال ، فقد دخل عليه يوماً فأدهشه جماله ، فهش له محيِّياً ومرحباً بقوله :

قَالَ الأمِيـــرُ مُدَاعِبَـــاً بمقالِهِ جَاءَ الغَـــزالُ بحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ [1]

ولقد لمعت شخصية الغـــــــزال أكثر ما يكون فى سفارتيْه إلى ملك القسطنطينية وإلى ملك النورمان ، حيث مثل مرسله الأمير عبد الرحمن ، وفاوض ، وناقش ، ونجح فى مهمتيْن تعدّان من أصعب الأحداث التاريخية الإسلامية – الأوروبية – فى العصر الوسيط ، ويكاد يجمع المؤرخون على أنه كان سفيراً نموذجياً عظيماً ، وسنفصل هاتين السفارتين فيما بعد .

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٥ ـ ٢١٨ .
ـ البيـــان المُغْـــرب ، ص : ٩٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثقافة الغزال وديوانه :

يبدو من خلال دراسة حياة وسلوك وخبرة يحيى بن الحكم الغزال أنه تلقى ثقافة واسعة متينة ، كان لها أثر بالغ فى تكوين شخصيته ، فقد جمعت ثقافته بين اللغة ، والأدب ، والبلاغة ، والفقة ، والفلسفة ، والفَلك ، والتنجيم ، ويقول عنه ابن حيان : " كان الغزال حكيم الأندلس ، وشاعرها ، وعُرَّافها " [١] .

وقال عنه إحسان عباس : " ومع أنه كان عرّافاً أيضاً ، فإن الشعر أبرز أدواته ، وهو أعلى من غيره – فى هذا المجال – مرتبة " [٢] .

وقد نظم الشعر منذ مطلع صباه ، ونظم كثيراً من القصائد والمقطوعات فى شتى المناسبات ، وقيل : (إن الشاعر حبيب بن أحمد الشطْجِيرى قد كُلِّف بجمع شعر الغزال ، فجمعه ورتبه على الحروف) [٣] ، وهذا ليس بمستبعد ، والشطجيرى هذا من أعيان أهل الأدب فى قرطبة ، وقد أدرك أيام الحَكَم المستنصر وتوفى نحو سنة (٤٣٠ هـ) عن سن متقدمة ، ولم يصلنا هذا الديوان مجموعاً بكامله .

وكان الغزال ذكياً ، برز نبوغه مبكراً ، فانفرد بالإبداع وكثرة القول ، والنَّظم الجيّد الحسن المطبوع فى الحِكَم والهزل على السواء ، وامتاز بالفكاهة المستملحة والدُّعابة والتهكم ، ولو أن فى بعض أشعاره ما قد يشير إلى نزعة فلسفية حرة بالمفهوم الحاضر ، وقد وصفه المؤرخون بأنه شاعر الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ – ٨٥٢ م) ، فقد اختاره شاعراً له عام (٨٣٩ م) .

وكما هو الحال بالنسبة للكثير من المستندات والأعمال الفكرية القديمة ، فقد فُقِد ديوان الغزال ، والذى عُثِر عليه من نظمه هو بعض نظمه ، مما حوته بطون المؤلفات القديمة ، وتناثر بين صفحاتها ، والتى كان مؤلفوها يستشهدون بأقواله أو يروونها عنه ، وهى لا تؤلف الديوان بكامله ، بالرغم من أن الوقائع تشير بأن له ديواناً .

---

١ ـ المقتبس ، لابن حيان ، ط باريس سنة ١٩٣٧ ، ص ١٠٦ .
٢ ـ تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة ، د/ إحسان عباس ، دار الثقافة سنة١٩٦٠ ، ص ١٦٤ .
٣ ـ جذوة المقتبس ، للحُميدى ، ط الطنجى ، القاهرة سنة ١٣٧١ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد رأينا الشطجيرى عمد إلى جمع أشعار الغزال فى ديوان ، لكنه فُقِد ،كما أن حاجى خليفة أكّد أن له ديواناً [١] .

ولقد حاول حكمة الأوسى أن يجمع أشعار الغزال [٢] .

هذا وقد ذكر إحسان عباس طائفة كبيرة من أشعاره ، استعان بها من الأدباء للوقوف على شعر الغزال ، وذلك فى شتى أبحاثه وتحقيقاته القيمة عن الأدب الأندلسى [٣] .

ثم قام محمد صالح البنداق بتناول حياة الغزال ، وأورد قدراً كبيراً من أشعاره فى ختام بحثه عن الغزال [٤] .

حتى قام محمد رضوان الداية بجمع شعر الغزال تحت عنوان " ديوان يحيى بن حكم الغزال " وقد جمع من شعره سبعا وستين قصيدة ومقطوعة ، وقد قام بطبعه مرتين :

الأولى : طبعة دار قتيبة سنة ١٩٨٢ م .

والثانية : طبعة دار الفكر المعاصر سنة ١٩٩٣ م .

وقد رتبه على أحرف الهجاء ترتيباً أبجدياً ، وقد ظل هذا الديوان مرجعا معتمداً عن شعر الغزال ، حتى ظهر السفر الثانى من كتاب المقتبس لابن حيان بتحقيق الدكتور محمود مكى ، حيث تم العثور على نصوص شعرية جديدة ، تضاهى المنشور من شعره فى الحجم ، وقد ظل تحقيق السفر الثانى للدكتور محمود مكى مخطوطاً إلى أن قام الدكتور على الغريب بالاطلاع عليه ، مما دفعه إلى أن يعد كتابا عن الغزال ، جمع فيه أشعار الغزال التى أوردها الدكتور مكى فى السفر الثانى من كتاب المقتبس ، بجانب ما تم نشره من أشعار الغزال فى مؤلَف الدكتور الداية ، وكذلك مؤلف الأستاذ البنداق ، وكان مصدره الأصلى هو المقتبس .

وجاء كتاب الدكتور على الغريب بعنوان " شعر يحيى بن حكم الغزال " جمع وتوثيق ودراسة ، طبعة مكتبة الآداب سنة ٢٠٠٤ م ، وقد جمع من شعره تسعاً وسبعين قصيدة ومقطوعة ، لكنه رفض أن يطلق على المؤلَّف مسمى (ديوان) معللاً ذلك بقوله : " إن التقاط شعر الشعراء ـ الذين ضاعت دواوينهم ـ عمل مفيد ؛ لأنه يضع ما بقى من تراثنا الشعرى بين أيدى الباحثين للدرس والبحث ، مع ملاحظة أن التقاط هذا الشعر لا يعطينا الحق كى نطلق على ما قمنا به مسمى : (ديوان) ؛ لأنه ـ فى الحقيقة ـ عبارة عن مجموع شعر الشاعر الذى ربما تكشف الأيام عن شعر جديد يضاف إليه " [٥] .

١ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجى خليفة ، ط أوفست المثنى ، بغداد ، عمود ٨٠٤ .
٢ـ فصول فى الأدب الأندلسى ، ص:٢١١ ـ ٢٢٩ .
٣ـ تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة ص: ١٥٧ـ ١٦٩ .
٤ـ يحيى بن حكم الغزال ، محمد صالح البنداق ص:١٧٥ـ ٢١١ .
٥ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرْجـــوزة الغـــــزال :

تؤكد سائر المراجع التي أشارت إلى الغزال أنه نظم أرجوزة في فتح الأندلس ، وقال ابـن حيان : " إنها كانت جميلة طويلة ، عرض فيها أسباب الفتح والوقائع الـتي جـرت بـين المـسلمين وأهل البلاد ، وأطال الحديث عن أمراء هـذا الـصقع في أسـلوب جميـل فيـه عمـق ، وكانـت شـائعة متداولة بين أيدى الناس ، وقد ضاعت هذه الأرجوزة " [١] .

ويؤكد (بُروكلمان) أن الغزال قد نظمها عندما حط الرحـال فى بلـدة (شـنْت يعقـوب) ، حيث أقام شهرين عائداً من سفارته إلى بلاد النورمان ، كما سنرى ذلك فى حينه ، فأجاد وتقصَّى وهى بأيدى الناس موجودة [٢] .

ولقد كان الغزال أسبق فى هذا المجال وهو النظم الشعرى لوقائع التاريخ من ابن عبد ربـه الذى أصبح من الروّاد فى هذا اللون الفنّى من نظم السير التاريخية [٣] .

وفى هذا المجال يقول محمد خليفة التونسى : " وهو – أى الغزال – يُعدُّ فى ذلك ، أى فى نظم التاريخ الأندلسى فى أرجوزة من أوائل من اتخذوا وقائع التاريخ موضـوعاً للـنظم ، إن لم يكـن أولهم جميعاً ، فهو أسبق فى ذلك من الشاعر العباسى ابن المعتز ، وأسبق من ابن عبد ربه صـاحب العقد ، وكان يعاصر الغزال وإن كان أصغر منه سِناً " [٤].

وجدير بالذكر أن هذا النوع من الأراجيز التى استحدثها الغزال ، وابن عبد ربه ، إنما يعدّ من مظاهر التجديد المبدع ، والابتكار الأصيل فى عالم الشعر بالأندلس .

وقد حذا حذو الغزال فى وضع الأرجوزة تمام بـن علقمـة (١٨٤ – ٢٨٣ هـ) ، فهـو عـالم أديب ، له أرجـوزة مشهورة فى ذكر افتتاح الأنـدلس وتـسمية ولاتهـا والخلفـاء فيهـا ، ووصـف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ثم جـاء بعد الغزال ، أبو طالب عبد الجبار ، وهو من أهل جزيرة شُقْر ، وكان يُعرف بالمتنبى ، وعاش فى حدود سنة (٥١٩ هـ) ، فعارض الغزال بأرجوزته .

١ـ تاريخ الفكر الأندلسى ، غونزالس بالنثيا ، ترجمة/ حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، ص ٥٥ .
٢ـ انظر : تاريخ الأدب العربى ، بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف مصر ، ص ١٠٤.
٣ـ انظر : دراسات فى الأدب الأندلسى ، د/ سامـى مكى العانى ، مكتبة النهضة المصريـة ، ص ٢٨٦ .
٤ـ مجلة العربى ، عدد ٢١٢ ، سنة رجب ١٣٩٦ هـ / يوليو ١٩٧٦ م ، ص : ١٣٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محاولة الغزال محاكاة القرآن الكريم :

على الرغم من صلابة تربية الغزال الدينية ، وقوة عقيدته ، وعميق إيمانه ، فقد رُوى أن الغزال وهو فى مقدمة شعراء وبلغاء الأندلس فى عصره ، فكَّر بمعارضة سورة الإخلاص من القرآن الكريم ، وطبيعى أنه عجز كما عجز غيره قبله عن ذلك .

فالقرآن الكريم ليس من قول البشر ؛ إنما هو : (تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [1] ، ومعرفتنا بنفسية الغزال وإيمانه ؛ فإنه لا يَسُوغ اتهامه بالتجرؤ على الله عز وجل ، ومحاكاة كتابه العزيز ، إنما سلك سلوك مَنْ فكر بامتحان مقدرته البلاغية الشخصية قياسا على القرآن الكريم ، فلم يستطع بلوغ ما أراد ، واستغفر ربَّه وأناب .

وقد أورد المقري هذه المحاولة من الغزال بقوله : " حُكِى أنه عارض سورة (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) ، فلما رام ذلك أخذتة هيبة وحالة لم يعرفها ، فأناب إلى الله فَعَاد إلى حاله)[2] .

كما أوردها القاضى عيّاض فى معرض الحديث عن إعجاز القرآن الكريم فقال: " وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه ، فحُكِى أنه رام شيئا من هذا ـ أى من معارضة القرآن الكريم ـ فنظر فى سورة الإخلاص ، ليحذوا على مثالها ، ويَنْسُجَ بزعمه على منوالها ، قال: فاعترتنى منه خشية وَرِقَّةٌ ، حملتنى على التوبة والإنابة " [3] .

١ـ الواقعة : (٨٠) .
٢ـ انظر نفح الطيب ، ج ٢ ، ص : ٢٦١ .
٣ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضى عياض ، دار الفكر بيروت ، ج١ ، ص : ٢٧٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موقفه من القضاة والفقهاء :

عرفنا أن الغزال كان مثقفا ثقافة واسعة ، وكان يمتاز بالذكاء ، وحسن البديهة ؛ الأمر الذى قربة من البيت الأموى ، ولكنه مع هذا كان دائم الانتقاد للقضاة والفقهاء ، وللغزال قصة مع القاضييْن الأخويْن يُخامر ومُعاذ الشعبانى ، تُبرز شخصيته فى إرادة الخير والحق ، كما تدل على طول باعه فى القدْح والذم .

كان القاضى (يخامر الشعبانى) قد وُلِّىَ القضاء فى سنة ٢٢٠هـ ، وكان ذا ثقافة عميقة ، وتفَّهم بليغ متين للأحكام ، لكنه كان ذا سلوك فظ مع الناس ، يسيء إليهم ، ويستهزئ بهم ، فاستثار موقفه هذا الغزال ، فقال فيه قصيدة أخذ الناس يتداولونها ، ويتندرون بها ، ولم نجد منها سوى قوله فيه :

فسُبْحَانَ مَنْ أعْطاكَ بَطشَاً وَقُـوةً وَسُبْحَانَ مَنْ وَلَّى القضَاءَ يُخَامِرَا [1]

وقد كان من جَرَّاء هذة القصيدة وذاك السلوك عدم بقاء يخامر طويلا فى القضاء .

ووُلى القضاء فيما بعد أخو يُخامر (مُعاذ بن عثمان الشعبانى) فقد كان على النقيض منه ، كان زاهداً ، عابداً ، خيِّراً ، ولكنه كان يعجل فى إصدار الأحكام ، فعُدَّ عليه فى مدة سبعة عشر شهراً قضاها فى الحُكم سبعين قضية أنفذها فاستُنكِرت منه ، وخيف عليه الزَّلل ، فعُجِّل عزله من قِبَل من ولاه ، وهو الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكان من طيبة قلب معاذ أن ولى أحباس قرطبة رجلاً ظن فيه خيراً ، وما لبث أن اكتشفه ، وشكا أمره وما وقع له من الغزال ، فما كان من الغزال إلا أن واجهه بقوله :

يَقُول لِى القاضِى مُعَاذ مُشَاوِراً وَوَلى امْرَاً فِيمَا يُرَى مِنْ ذوى الفضل
فديتك ، ماذا تحْسِبُ المَرْءَ صَانِعَاً ؟ فقلت : وَمَاذا يَصْنعُ الدُّب بالنَّحْل ؟
يَذُق خلايَاهَا ويَأكُل شهْدَهَا ويترك للذبَّان ما كَان مِنْ فضْلِ !! [2]

١- انظر : ـ المقتبس ، د/ محمود مكي ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢ .
٢- انظر : ـ قضاة قرطبة ، الخشنى ، الدار المصرية ط (١٣٦٦) هـ ، ص : ٥٦ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الفقهاء فقد كانوا يتمتعون بنفوذ واسع فى بلاط قرطبة منذ عهد الأمير هشام ، وقد بلغ هذا النفوذ من الاتساع ما جعلهم يتدخلون فى شئون الدولة والناس ؛ حتى أصبحوا يشكلون خطراً على الحاكم بذاته ، الأمر الذى أثار الأمير (الحَكَم) فأخذ يعمل على تقليص سيطرة الفقهاء ، ولكنه لم ينجح إذ أجمعوا أمرهم ، وجابهوه ، وهددوه من على المنابر ، وزاد في حدّة هجومهم عليه ، وتجريح سلوكه الشخصى خاصة إسرافه وبذخه ، فاتخذوا من ذلك مادة دسمة للتعريض به ، فما كان منه إلا أن جمع لهم عدداً من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء ، على رأسهم الغزال ، فناصروه وآزروه ، فنال هؤلاء أيضا من أجل ذلك نصيبهم من شرارات خصوم الأمير .

وكان الغزال فى جملة من أصابهم تجريح الفقهاء ، وهجاؤهم ، كما كان شأن عباس بن فرناس الذى كالوا له هو الآخر الاتهامات حتى وصموه بالزندقة ، وإن لم تفلح المحاكم بإدانته ، ومن الطبيعى أن يقذف الغزال الذرب اللسان بحممه على أولئك الفقهاء ، فلطالما كان ينعتهم بالجهلة ، وطعنهم هذه المرة لا بالجهل ، بل فى صميم أخلاقهم ، بل في أفظع ما يمكن أن يطعن به قاض أو فقيه ، فقد طعنهم بتهمة جمع المال من الحرام أى بالرشوة ، والطرائق غير الشرعية ، مستغلين مناصبهم .

اسمعه يقول :

لسْتَ تَلقَى الفقِيهَ الا غنِياً ... لَيْتَ شِعْرى مِنْ أيْنَ يَسْتغنُونا ؟
نقطع البر والبحارَ طلابُ الرز ... ق والقومُ هَا هنا قاعدونا
لا يَريمون موطنا ولا تبـ ... ـصرهم عين ناظر يعجزونا
إن للقوم مَضْرباً غابَ عنا ... لم يُصب قصدَ وجهِهِ الراكبونا !! [1]

وطبيعي ألا يسكت الفقهاء عن هذه الاتهامات ، فقرروا شنّ حرب شعواء ، لا هوادة فيها على الغزال ، وهذه المرة بالردّ عليه ـ كانت باتهامه بالإلحاد ، والتشكك ـ مستغلين بعض ملامح التحرر في شعره .

١ـ انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥١ ـ ٢٥٢ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على أن هجومهم عليه لم يثمر ، وظلت مكانته في البلاط رفيعة .

والحق أن الغزال كان يمتاز بالشجاعة ، والصراحة ، التى سببت لـه كـثيراً مـن المتاعـب طوال حياته ، ولم يصرفه عن هذه الجرأة والهجوم على ذوي المكانه كونه من المقربين مـن البيـت الأموي ، ولا من ذوى مناصبه الإدارية والسفارية .

ولذلك يرى الدكتور الداية : " إن الغزال كان ذا وجه واحد ، ومن ها هنا فـى تقـديري كان احتمال الدولة له وإغفالها عن شعره الشديد الوطأة على بعض القواد والقضاة)[1] .

١- ديوان يحيى بن حكم الغزال ، د/ محمد رضوان الداية ، ط دار قتيبة ، سنة (١٩٨٢) ، ص: ١٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قصـــــة الأَهُـــــراء :

نقف الآن أمام قصة طريفة ، ومزعجة في آن واحد ، فقد ألقت بالغزال إلى السجن .

ذلك أنه على الرغم من الروابط الوثيقة بين الغـزال والأمـير عبـد الـرحمن الأوسط ، وهـى روابط قائمة على الاحترام المتبادل ، والتفاهم ، والشعر ، فقد كان الأمير شـاعراً ، إلا أنـه اضـطر يوماً إلى حبس الغزال بعد أن سيق إليه مكبلاً ، وذلك على أثر موقف له يتعلق بأمور الأهُراء التـى وُلِّى عليها .

وخلاصة القصة : (أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان قـد وَلَّـــى الغـزال قـبْض الأعـشار ـ نصيب الدولة من المواسم ـ ببلاط مروان ، واختزانها فى الأهُراء [1] ، وبدأ قحط فى البلاد ، فنفـد الطعام فى ذلك العام ، فوضع يده فى البيع حتى أتى على ما كان عنده فى الأهُراء ، ثم إنـه نـزل الغيث ، ورخص الطعام ، فأُعلم السلطان بما صنع الغـزال فـى البيـع ، فـأنكره وقـال : إنمـا تعـد الأعشار لنفقات الجند ، والحاجة إليها فى الجهد ، فماذا صنع الخبيث ؟! خذوه بأداء ما باع من أثمانها ، واشتروا به طعاما ، واصرفوه فى الأهراء إلى وقت الحاجة إليه ، فلما طلب منه ثمـن مـا باع أبَى من ذلك وقال : إنما اشترى لكم من الطعام عدد ما بعت من الأمـداد ، وبـين العـددين بـون كثير نحو من ثلاثين ألفا ، فعلم السلطان بامتناعه من الأداء ، وبما ذهب إليـه مـن شـراء مثـل مـا باع ، فأمر بسجنه وحُمل إليه فى الكَبْل [2] ، فسيق إلى قرطبة ، وسجن بها ، فصنع قـصيداً سـيأتي ذكره بعد ذلك ، ورفع هذا القصيد إلى الأمير ، فلما قرأ شعره أعجب به ، وأعجب به الحاضرون ، وقال له بعضهم : لقد أنصفك الغزال فى قوله :

قـد أحْسَنَ الله بـنا عِنـدَمَـا كان الذى اسْتوْدَعْـتُ لم يَـذْهَـبِ

فإنه لو ذهب أيها الإمام أىُّ ذمة كانت تفى به للغزال مع مـا هـو عليـه مـن الانهمـاك فـى الشهوات وقلة المال ؟! ، فضحك الأمير وأمر بإطلاقه) [3] .

---

١ ـ الأهراء : بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان ، جمع : هُرَى .
٢ ـ الكَـبْل : القيد .
٣ ـ القصة وردت فى المُطرب ، لابن دحية ، ص : ١٣٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا كنت قد رويْنا القصة كاملة فـَلِكَي نتبين منها :

ـ **أولاً** : مكانة الغزال بين الأمراء حيث كان يولى قبض الأعشار ، وهى بمثابة خراج يُجبى على محصول الأرض الزراعية ، ويوضع فى خزانة الدولة لتصريف شئونها .

ـ **ثانياً** : إلقاء بعض الضوء على جانب من جوانب من شخصية الغزال ، الذى يحسن استغلال الفرصة ، والكسب من أعماله الرسمية بعقلية التاجر الذكى ، وعندما تُكتشف لعبته لا ينكر ، وإنما يقر أنه فعل ذلك بروحه المرحة التى لم تحمله على التضرع ، والتذلل إلى الأمير ، وإنما جعلته يعرض عليه هذه المعادلة التى أعجبت الأمير لحسن الحظ ، فعفا عنه ، وأطلق سراحه ، وأكرمه ـ إن صح أن هذه الحادثة أتت قبل ذلك ـ بأن جعله رسوله إلى إمبراطور البيزنطيين توفلس ، أو ملك المجوس .

وإذا كان إحسان عباس يشكك فى قصة القحط حين يقول : " غير أن تاريخ هذه القصة بأنها حدثت فى أيام عبد الرحمن مما يستدعى شيئاً من التوقف ، فإنا لا نعلم قحطاً حدث فى أيامه ، لكن هناك مجاعة حدثت سنة (١٩٩ هـ) فى أيام الحَكَم والد عبد الرحمن ، فلعل للحكاية صلة بها ، أو لعل هناك قحطاً حدث فى أيام عبد الرحمن نفسه ، ولم تحدثنا عنه كتب التاريخ التى وصلت إلينا " [١] .

لكن الدكتور أحمد عبد العزيز يرى أن هذا لا يشكك فى شعر الغزال [٢] .

وقد جاء الشك مما أورده صاحب النفح : وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وستين ومائة فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات ، وفى ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيرى فيه :

نكد الزمان فآمنت أيامُه ... من أن يكون بعَصْره عصر
طلَعَ الزمان بأزمةٍ فَجَلا له ... تلك الكريمة جُوده الغَمْرُ [٣]

ولا أقترح حلا لهذه القضية إلا أن يكون المقرى قد أخطأ فى سنة المجاعة ، أو أن أشك فى قصة سجن الغزال ، وإنما أن أفترض التفرقة بين المجاعة والقحط .

١ـ تاريخ الأدب الأندلسي ، ص : ١٥٩ .
٢ـ قضية السجن والحرية فى الشعر الأندلسى ، د/ أحمد عبد العزيز ، ط١مكتبة الأنجلو المصرية ، ص١٦٢ .
٣ـ نفح الطيب ، ص : ٣٤١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالمجاعة التى تحدث عنها المقرى واضحة الأثر فى الكرب ، الذى ألمَّ بالناس ، وكيف أن الأمير نفسه أكثر من مواساة أهل الحاجات ؛ لأن النقص فى المؤن كان شديداً فى ذلك العام .

أما القحط الذي حدث فى عهد الأمير عبد الرحمن ، حينما كلف الغزال بجمع الأعشار وتخزينها، فلم يصل إلى حد المجاعة ، وإنما كان مجرد احتباس للمطر ، وإذا كان الغزال ممن يتاجرون بأقوات الشعب ، وأزماته الاقتصادية ، فإنه – على ما يروى عنه من حكمة – ما كان ليفعل ذلك إذا كانت الأزمة طاحنة أحدثت مجاعة بالفعل ، وإنما كل ما حدث هو احتباس المطر ، ثم عودة انهماره مما يعادل – اقتصاديا – ارتفاع الأسعار ، ثم انخفاضها ، وليس انعدام السلعة ، والجوع ، الذى يحكى عنه صاحب النفح .

ويرى الدكتور الأوسى فى هذه القصة : " نوعاً من عدم تحمل المسئولية ، وينعت الغزال بالطمع" [1].
لكن الدكتور الداية يرى تفسيراً آخر لهذا الموقف ، فهو لا يدل على طمع وجشع ، حيث يقول : " ويتوجه تفسير الخبر على قلة الاحتراز ، والإتلاف ، أكثر مما يتوجه إلى صفات أخرى من الاحتجان والجشع ، لأن مجريات حياة الغزال وأخباره فيما بعد لا تدل على مثل ذلك ، ولا يمنع ذلك التفسير من أن نضيف إلى القصة ما عُرف به الغزال من ميل شديد إلى الدُّعابة " [2] .

وترى السيدة رشا الخطيب أن سجن الغزال كان عاملاً مُهماً على إنتاجه شعراً فى غاية الرقة ، حيث تقول : " كان من بين الشعراء الأندلسين الذين سجنوا عدداً لا بأس به من كبار الشعراء ، ومنهم يحيى بن حكم الغزال ، وقد تمتع ببعض الامتيازات وهو فى سجنه ، فقد أتيحت له أدوات الكتابة مما ساعد فى حفظ كثيراً من أشعاره التي كانت أغلبها فى غاية الرقة ، لأن التجربة كانت قاسية ومُرّة ، فانطلقت أشعاره صادقة فى التعبير " [3] .

ويبدو أن هذا الرأي صحيح ؛ والدليل على ذلك قصيدته التي توجه بها للأمير عبد الرحمن الأوسط التي يطلب فيها العفو عنه والتي نورد منها قوله:

١- فصول فى الأدب الأندلسى ، ص: ٢٣١ .
٢- ديوان يحيى بن حكم الغزال ، ص : ١٧ .
٣- مقالة شعراء قصائد خلف قضبان سجون الأندلس ، رشا الخطيب ، جريدة الشرق الأوسط ، ط ٢٠٠٤ م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى إمَامَ الهُـــدَى والـوَارثَ المَجْـدِ أبّـاً عَـنْ أبِ
أنِّـــى إذا أطْـنَـــبَ مُـدَّاحُـــهُ أوْجَـزْتُ فى القَوْلِ فَلَمْ أُطْـنِـــبِ

ثـم يقـــــول :

وَكَـانَ مِنِّـى هَكَـذا دَفْـتـــــرٌ أعْـدَدتُـــهُ للفِقْـــهِ لم يُكْـتـــبِ
ثُـــــرْتُ إليه وتَـنَـــــاوَلتُـــهُ وَكُـنْتُ فى دَهْرى منَ المُطْـــرَبِ
نَـقَـرْتُ فيه نَـقْـــرَةً سَاعَـــةً أُشِيـــرُ بالرَّأس وَبالمَـنْـكَـــــبِ
فالرِّجْـلُ فى مَوْضِعِـهَا لم تَـــرِمْ مَخَافَـــةَ الكَـبْـلِ عَلى أكْـعُبِـى
حَتَّى إذا ما طَـرَبى جَـــدَّ بـى واللهْوُ إنْ تَـرْكَـبْهُ يَسْتَرْكَـــبِ
قُمْتُ برجْـلِـــى على وَثْـبَـــةٍ فأوْجَعَتْنِى حَلَـــقُ العَقْـرَبِ
وَاسْـتَضْحَكَ القَوْمُ فأنْبَـأتُـهُـــمْ أنَّ الـذِى يَحْبسُنِى غَـــرَّ بِـــى
إنْ تُرِدِ المَـــالَ فإنِّـــى امْـــرُؤٌ لمْ أجْمَـــعِ المَـــالَ ولـم أكْسَـــبِ
وإنْ يَـــرِدْ زَفْـناً يَجِـــدْ بى إذا كـلـفتـــه أحَـــدَ الظُّـــرَّبِ
قـد أحْسَنَ الله بـنا عِنـــــدَمَا كان الذى اسْتوْدَعْـتُ لم يَـذْهَـــبِ
إذا أخَـذْتَ الحَقَّ مِـنِّـى فَـــلا تـلتمس الرِّبْـــحَ وَلا تَـرْغَـــبِ [1]

وواضح من هذه الأبيات أن الغزال لا يستعمل التذلل للاستشفاع ، وإنما يعتمد على شاعريته فى المدح ، وعلى روحه الفكاهية .

١ ـ انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٦٧ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ ـ ١٢٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شخصية الأمير عبد الرحمن الأوسط :

سأحاول فى هذا الجزء من دراستي التعريف بشخصية الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وما ذاك إلا أنني خصصت هذا الجزء لقضيتين هامتين وقعتا فى زمنه وهما : سفارته إلى ملك القسطنطينية ، وسفارته إلى ملك النورمان ، اللتان كان للغزال شرف رئاستهما .

فلقد كان ثمة تفاهم وتجانس بين هاتين الشخصيتين : الأمير عبد الرحمن والغزال ، فكلاهما شاعر ، وكلاهما محب للحياة ، وكلاهما عابد زاهد ، إلى ما جمع بينهما من الخلال والسجايا والصفات ، فبويع عبد الرحمن للخلافة فى شهر ذى الحجة عام ٢٠٦ هـ ، وقضى فى الثالث من ربيع الثانى عام ٢٣٨ هـ .

كان الأمير حسن الوجه ، أسمر اللون ، طويل ، عظيم اللحية ، بهىّ المنظر ، تلقى تربية دينية ، وتعمق فى علوم الفلسفة ، وما يليها من علوم الشريعة ، وكان من أهل التلاوة للقرآن الكريم ، والاستظهار للحديث ، وكان ــ كما ذكرنا ــ شاعراً مرهفاً ، اهتمَّ بإبراز قوة شخصيته وهيبة المُلْك ، كما اهتم بإيجاد ما نسميه فى أيامنا بالوزارات فى الدولة [1] .

قال عنه ابن عذارَى المراكشى : " كان شاعراً ، أديباً ، عالماً بعلوم الشريعة ، وغيرها من علوم الفلسفة ، وكانت له غزوات كثيرة ، وفتوحات – فى دار العدو – شهيرة ، يخرج إليها فى العدد الجمَّ ، والعسكر الضخم ،يخرب ديارهم ، ويُعفى آثارهم ، ويقفل ظاهر الاعتلاء ، قاهر الأعداء ، لم يلق المسلمون معه بؤساً ، ولم يرَوا فى مدته يوماً عبوساً ، وهو أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة ، فشيّد القصور وجلب إليها الماء ، وبنى الجسور ، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس ، وأحدث الطُّرُز واستنبط عملها ، واتخذ السِكّة – ضرب النقود فى قرطبة حيث ضرب الدراهم باسمه ، ولم يكن فى الأندلس ذلك منذ فتحها العرب – وفخم ملكه ، وفى أيامه دخل الأندلس نفيس الوطاء ، وغرائب الأشياء ، وسيق إليه ذلك من بغداد وغيرها " [2] .

ومن المراسيم التى استحدثها الأمير أنه خصص للوزارة فى قصره بيتاً أطلق عليه اسم (بيت الوزارة) ، ونظم فيه أوقات استقبال الوزراء فى كل يوم يستدعيهم معه ، أو من يختص منهم ـ بالمسألة الهامة ، أو مسألة الساعة ـ أو من كان يخاطبهم فى رقاع بمذكرات ـ فيما يراه من أمور الدولة .

---

[1] ـ البيان المُغرب ، ج٢ ، ص: ٩١ .
٢ـ المرجع السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد بلغت البلاد فى أيام ولايته مستوى رفيعاً من الحياة الاجتماعية بكل معانيها ، بالإضافة إلى الإصلاحات التى حققها ، ورعى العلوم والآداب والفلسفة ، فظهر فى عهده نوابغ من العلماء فى كل فن ، وكان محباً لجمع الكتب القيِّـمة .

وبالإضافة إلى حبه للفلسفة والفقه ، فقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط مولعاً بالفلك والتنجيم ، فأحاط نفسه بعلماء الفلك ، وأغدق عليهم المال والهبات ، وكان يقسّم وقته بين الحاجة، والمجتمعات الأدبية والموسيقية ، والصيد ، فى دولة يسودها النظام والهيبة ، والتقدم والازدهار .

وهكذا ازدهى بلاطه ، ووصل إلى درجة لم تُسبق من الإعزاز والفخامة والرونق ، وسطعت فيه آيات من جمال الأخلاق العربية ، وظرفها ورقة شمائلها .

وبالرغم من كل هذه المآثر التى كانت له ، وما كان له من شخصية فذة كمحارب ، وعالم ، وفيلسوف ، وشاعر ، وفقيه ، فقد كان عاطفياً تأثر بأقرب المقربين إليه وهم الثلاثي : " الفقيه يحيى بن يحيى الليثى ، والموسيقىّ زرياب ، والخصىّ نصر " [1] . وطبيعي أن هذا التأثر لم يكن دون انعكاسات على بلاطه ومجتمعه ودولته .

أما الفقيه يحيى وما أدراك ما يحيى بن يحيى الليثى ؟! فقد كان قوى الشخصية ، جباراً ، ذا باع طويل فى مجالات السيطرة ، فاستثار عاطفة الأمير الدينية إلى أقصى حد مما مكنّه من تقوية نفوذه بحيث (أصبح القضاة يأتمرون بأمره كالآلة العمياء ؛ خيفة على مناصبهم ، وأما من عارضه واتبع ضميره فكان جزاؤه الطرد) [2] .

وإنما كثر القضاة فى أيامه ـ أى أيام الأمير عبد الرحمن ـ لأن المشاوَر فى عزلهم وولايتهم يحيى بن يحيى الليثى ؛ فكان لا يولِّى رجلاً إلا برأيه ، فكان يحيى بن يحيى إذا أنكر من القاضى شيئاً قال له : استعفِ و إلا رفعت بذلك ، فكان يستعفى أو يشير يحيى بعزله ، فيُعزل [3].

وأما الموسيقىّ زرياب ـ أبو الحسن على بن نافع ـ الذى قدِم من بغداد إلى قرطبة ، فرحبّ به الأمير عبد الرحمن أيُّما ترحيب ، وخصّه بأعلى المراتب ، وكان فنانا حافظاً لآلاف المقطوعات والألحان الموسيقية ، وقد أوجد ثورة اجتماعية بالأندلس فى العادات ـ كنت قد أشرت إليها فى تمهيد هذا البحث ـ فقد هوت إليه القلوب ، بحيث أصبحت مدرسته هى المدرسة الأندلسية التقليدية ، على الرغم مما كان يلقى من سخرية الغزال ، وتعريض ابن عبد ربه بسبب نفوذه فى بلاط الأمير ، وسيطرته على الأمير ، وحجب غيره عنه .

١ـ انظر : ـ الدولة الأموية فى قرطبة ، أنيس نصولى ، بغـــداد ، ج١ ، ص: ٦٧ـ ٦٨ .
ـ تاريخ العرب ، فيليب حتّى ، دار الكشاف ط ٣ (١٩٦١) ، ج٢ ، ص: ٦١١ ـ ٦١٢ .
[2] ـ البيان المغرب ، ج٢ ، ص: ٨٠ .
٣ـ المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الخصّى نصر فقد اشتُهر بالحيلة والمكر ، وقد أثّر على الأمير من حيث تداخله بشؤون السياسة ، والحُكم ، والطمع للمال ، على عكس زرياب الذى انتهج خطة عدم التدخل بشئون الدولة ، أو انتقاد الحُكام والولاة .

ومن أبرز المبادىء التى اختطها الأمير عبد الرحمن التسامح الدينى المبنى على الأخلاق السامية ، والأخوة الشاملة ، ففى عهده كما فى عهد أسلافه من الأمراء الأمويين ، عرف الأندلسيون على اختلاف عقائدهم من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، الحرية التامة فى إقامة شعائر العبادة ، والتزام تقاليدهم المتوارثة ، ومن دلائل هذا التسامح أن كان المسيحيون يحاربون جنباً إلى جنب مع المسلمين ضد أعداء البلاد ، وكانوا يُعيَّنون فى أرقى المناصب الإدارية ، والحربية ، والسياسية [١] .

فى هذا الجو العابق بنسيم الحرية الطيب ، والسعادة ، والاطمئنان ، كان شاعرنا الغزال مقدّما على غيره فى البلاط ، وإن كانت له قصص مع زرياب بحيث أدت إحداها إلى أن أمر بنفيه ، إلا أن الأمير كان يعرف قيمة الغزال ، بالرغم من تأثره بالثلاثى يحيى ونصر وزرياب ، فكان موضع ثقته فى كل حال ؛ لما يتمتع به من خبرة ، وكفاءة إدارية وسياسية بوجه خاص [٢] .

فقد دخل الغزال يوماً على الأمير عبد الرحمن وكان حينئذ قد جاوز السبعين من عمره ، فهش له الأمير محيياً ومرحباً بقوله :

قال الأمير مداعبا بمقاله جاء الغزال بحسنه وجماله

لقد عدّ بعض الرواة أن لقب الشاعر يحيى بن حكم الغزال إنما أعطيه من قبل الأمير عبد الرحمن ، لكننا لا ندرى فى أى سن كان عند هذا العطاء .

وكان فى مجلس الأمير وزيره فقال للغزال : أجز ما بدأ به الأمير ، فارتجل الغزال لفوره قصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

قَالَ الأمِيرُ مُدَاعِبَاً بِمَقَالِهِ جَاءَ الغَزَالُ بِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ
أيْنَ الجَمَال مِنْ امْرىءٍ أرْبى عَلى مُتَعَدِّد السَبْعِين مِنْ أحْوَالِهِ ؟
أيْنَ الجَمَال ـ لهُ الجَمَالُ ـ مِن امْرىءٍ ألقَاهُ رَيْبُ الدَّهْر فى أغلالِهِ ؟
وَأعَارَهُ مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ البِلى وَأحَالَ رَوْنَقَ وَجْهِهِ عن حَالِهِ [٣]

١ـ انظر : البيان المغرب ، ص : ٩٣ .
٢ـ المصدر السابق .
٣ـ انظر : ـ المصدر السابق .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سفـــارة الغـــــزال:

أقف الآن أمام مرحلة هامة من حياة الغزال ، بحيث كان لها أثر كبير فى سفره ، ألا وهى سفارته خارج قرطبة ، التى كانت محل جدل من المصادر القديمة والحديثة ، وسأشير إلى ذلك فيما بعد ، وقبل الحديث عن سفارة الغزال ، أودّ أن ألقى نظرة عابرة على الدبلوماسية الإسلامية فى القرون الوسطى .

كان الأمير عبد الرحمن الأوسط نافذ الهيبة ، مسموع الرأى ، يعرفه معاصروه من الملوك والرؤساء الذين بادلوه البعثات السياسية ، ووقفوا منها على أخبار الأندلس ، وعظمة أميرها ، وقوة شعبها ، ودقة تنظيمها ، فضلاً عن غناها ومواردها .

وقد كانت السفارات كثيرة بين قرطبة ومختلف بلدان العالم القديم ، منها ما وصلتنا أخباره عن طريق المؤرخين ، ومنها ما لم تصل لفقدانها ، وقد ترك لنا المؤرخون تفاصيل مدهشة عن الاحتفالات باستقبال الوفود الأجنبية ، ومواكبهم ، وأصول المقابلات ، التى بلغت مستوى رفيعاً فاق نظيره فى غيره من الدول ، كما كان يُعترف للوفود الدبلوماسية بالحقوق والحصانات ، ويكرمون كل التكريم ، وتقدم لهم الهدايا مما توجبه اللياقة والضيافة العربية الإسلامية ، ولنا أن نفخر بهذا التراث النبيل .

وكانت المصالح السياسية ، والقومية ، والاقتصادية فى القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادي تملى على زعماء البلاد ، كما هو الحال فى كل زمان ومكان للبحث عن عقد المحالفات ، والدخول فى المعاهدات للتمكن من مجابهة المواقف ، والأوضاع الدولية والداخلية على حدّ سواء .

وقد حفظ لنا التاريخ أخبار سفارات انتدبت لهذه الغايات ومنها مثلاً السفارات بين (شارلمان) ـ إمبراطور فرنسا (إمبراطور الفرنجة) ـ وبين (هارون الرشيد) ، إذ حضّ كل منهما صاحبه على أن يقوّض دعائم الدولة المجاورة له ، فيغِير الرشيد على الدولة البيزنطية ، كما يُغير (شارلمان) على جيرانه الأمويين ، وطبيعي أنه لم يحصل شيء من ذلك سوى ما حمله سفراء الفريقين من عبارات التبجيل ، وتبادل الهدايا النفيسة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأضيف إلى ذلك أن التوازن الدولي كان يحتم فى ذلك الحين قيام سفارات إسلامية من قرطبة إلى العواصم الأوروبية ؛ بغية توثيق الروابط السياسية ، والعلمية ، والاجتماعية بين الدولة الأموية فى الأندلس ، ودولتى المسيحية فى القسطنطينية ، و اكس لا شابل ، ثم بين الأندلس وجماعة النورمان فى بحر الشمال ، تلك الجماعة التى بدأت تظهر كقوة جديدة فى ذلك الحين ، وبالطبع كانت من أشهر هذه السفارات ، سفارة الغزال إلى مملكة بيزنطة ، ثم سفارته الى بلاد النورمان ، وسأفصل القول فى الاثنين [1] .

(أ) سفارة الغزال إلى مملكة بيزنطة :

لقد وفد على قرطبة سفير من قِبَل قيصر قسطنطينية الإمبراطور (توفلس) فى عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٦ م يُدعى (قرطيوس) ، وهو يوناني يتحدث العربية ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، لقد أرسل إليه قيصر بيزنطة برسالة يخطب فيها وده ، ويسأله عقد تحالف معه ضد العباسيين الذين قضوا على مُلك أجداده بالمشرق ، كما يطلب أيضا مساعدته ضد الأغالبة فى صقلية ، وضد الرّبضيين فى جزيرة (كُريت) ، ويرغبه في مُلك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعد بنصرته في ذلك المشروع ، وقد ردّ عبد الرحمن علي سفارة توفلس بمثلها ، ولم يكن الأمير عبد الرحمن بحاجة إلي كثير من إعمال الفكر لاختيار سفيره إلي مملكة بيزنطة ، ذلك بأن الذى سيكلف بهذه المهمة موجود في بلاطه ، إنه شاعره الحكيم يحيى بن حكم الغزال ، صاحب الملكات العديدة التى تؤهله لها ، وكان حينئذ قد تجاوز الخمسين بقليل مع احتفاظه بنشاطه ، فاختاره لهذه السفارة ، وحمّله مع الرسالة الجوابية مجموعة من الهدايا القيّمة الفخمة إلى الملك توفلس ، وكان اختيار الأمير عبد الرحمن ليحيى بن حبيب لمرافقة الغزال اختياراً موفقاً ، فقد كان عالماً بالفلك والطبيعة ، وقد اشتهر بأنه صاحب المُنَيْقِلَة ، ووجوده في السفارة مفيد جداً ؛ لأنه يخوّله درسُ ظروف الحياة الطبيعية في مملكة بيزنطة ، واطلاع الأمير عليها ، وما ندرى إن لم يكن قد وضع ابن حبيب تقريراً للأمير ، انْطَوَى على ملاحظاته العملية .

١ـ انظر : مقالة العلاقات الدبلوماسية مع ملك أوربا وآثارها ، د/ أحمد مختار العبّادى ، مجلة عالم الفكر، سبتمبر سنة ١٩٧٩ م ، عدد ١٣٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا وقد سار الغزال وصاحبه يحيى ـ ومعهما السفير البيزنطي ــ إلي المشرق عن طريق تدمير (مرسيه) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب عبد الرحمن وهديته ، وقد ردّ عبد الرحمن في كتابه على ما جاء فى كتاب الإمبراطور تفصيلاً [١] .

لقد أدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وأميره ، وسَحَر البلاط البيزنطي بكياسته وظرفه وبديع صفاته .

وعاد الغزال إلى قرطبة ، بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية ، وروعة البلاط البيزنطي .

(ب) سفارة الغزال إلى بلاد النورمان :

أقف الآن أمام سفارة أغرب وأعجب دارت حولها كثير من الحكايات والأساطير ألا وهى سفارة الغزال إلى بلاد النورمان ، ويرجع سبب هذه السفارة (أن النورمانيين المجوس عندما غزوا سنة ٢٣٠ هـ فى نحو ثمانين مركباً شبه الجزيرة الألبيرية ، سالكين الطريق البحرية من أشبونة إلى قادش ثم إلى شذونة ثم توغلوا حتى أشبيلية ، ودخلوها قسراً وقتلوا كثيراً من أهلها ، واستمروا على ذلك سبعة أيام ، فلمّا سمع الأمير عبد الرحمن بذلك بعث بالجيوش لمهاجمتهم ، وتزايدت قوة المجوس بقدوم عدد جديد من السفن ، وتغلغلوا إلى قرى أخرى فى عمالة أشبيلية ، وبعد أن فتكوا بالناس فتكاً ذريعاً عاد قسم كبير منهم إلى شذونة ، ثم إلى قادش ، وفى أواخر صفر استطاعت جيوش عبد الرحمن أن تصيب في مَنْ بقى منهم مقتلا عند قرية طليطلة ، وقتل قائد أسطولهم ، وصلب بعض من أخذ منهم على جذوع النخل بأشبيلية ، كل ذلك حدث فى خلال اثنين وأربعين يوماً ، ويبدو أنهم أحبوا الصلح بعد هذه المعارك ، فوفد سفير منهم على عبد الرحمن ، فوافق على هذا الصلح ، ورأى الأمير عبد الرحمن أن يرد على ملك النورمان بسفارة مثلها ، فاختار يحيى بن حكم الغزال لها ، وهو سفيره الناجح الأسبق فى بلاط ملك بيزنطة ، وكان معه وفد على مستوى المهمة ، لم يحفظ لنا التاريخ من أسماء أعضائه سوى اسم الغزال وصديقه ، العالم الفلكي يحيى بن حبيب صاحب المُنَيْقِلَة) [٢] .

١ـ انظر: دولة الإسلام فى الأندلس ، محمد عبد الله عنان ، ط الأعمال الفكرية ،١/ ٢٨٢ .
٢ـ تاريخ الأدب الأندلسي ، ص : ١٦١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتقدم لنا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هو أبو الخطاب عمر أبو الحسن بن دحية البَلَنسِى أوردها فى كتابه (المُطرب من أشعار أهل المغرب) فى حديثه عن الغزال ، وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال يحيى بن حبيب لمرافقته فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق (شلب) في مركب خاص أعدت لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين ، وقد صادفته الأهوال في الطريق بسبب هياج البحر ، وعصف الريح ، حينما وصلوا إلي الحد الأعلى من شمال غرب الجزيرة عند ملتقي البحر الأطلنطى بخليج بسكاى ، ووصف الغزال العاصفة البحرية بقوله:

قَالَ لى يَحْيَى وَصِرْنَا بَيْنَ مَوْج كَالجِبَال
وَتَوَلَّتنَا عُصُوفٌ مِنْ دَبُور وَشِمَال [1]

وقد جاز الغزال ورفاقه هذه الشدائد فوصل إلى بلاد المجوس .

ويصف لنا (ابن دحية) هذه البلاد بأنها : " عبارة عن جزيرة عظيمة في البحر المحيط ، وعلى مقربة منها جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليها من البر أيضا لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، إلا أنهم اليوم علي دين النصرانية " [2] .

ويرى عبد الله عنان : (أن المقصود بوصف هذه الرحلة والقُطرَ الذى قصده الغزال ورفاقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت في ذلك الوقت مستقَر ملك النورمان المجوس ، وكان مُلكُهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية ، وكان يجلس على عرش النورمان في ذلك الوقت نحو سنة (٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى " هوريك " ، وكان النورمان يومئذ أحداثا في النصرانية حسبما تقول الرواية الإسلامية) [3] .

ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً ، وقدَّم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن ، وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع .

---

[1] ـ انظر : ـ المطرب ، ص : ١٣٩ ـ ١٤٠ .
ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤
[2] ـ انظر : المطرب ، ص: ١٤٠ .
[3] ـ دولة الإسلام فى الأندلس ، مكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٨٤/١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحكايات التي تدور حول رحلة الغزال ليست كلها من نسج الخيـــال .

ومن أشهر هذه الحكايات أن بلاط النورمان كانت له تقاليد ، ومنها أنـه إذا دخـل شـخص على ملك النورمان لابد أن يدخل ساجداً ، فرفض الغزال ذلك واشترط ألا يخرج هـو وصـاحبه عـن شيء من التقاليد ، فوافقوا علي ذلك ، لكن المسئولين في بلاط قصر الملك تحـايلوا ، فجعلـوا المـدخل المؤدى إلي مَلِكهم منخفضاً حتى لا يدخله داخل إلا راكعاً ، فلما جاء الغزال للدخول علي ملكهم ، ورأى الباب كذلك جلس علي إليتيه ، ومدّ قدميه ، وزحف حتى دخل من الباب ، ثم استوى قائماً ثم حيا ملكهم بكلمة يقول فيها : " السلام عليك أيها الملك ، وعلي مـن ضـمه مـشهدك ، والتحيـة الكريمـة لك ، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء ، والكرامة المفضية إلي شـرف الـدنيا والآخـرة المتـصلة بالدوام في جوار الحي القيوم ، الذى كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحُكم وإليه المرجـع) ، وفـسر المترجم هذا الكلام فقال : هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دُهَاتهم ، أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه ، ولو لا أنه سفير لأنكرنا ذلك عليه " [1] .

[1] ـ المطرب ، ص : ١٤١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بـيــن الغـــزال ونـــود :

كان حديث الغزال مع (نود) زوج ملك النورمان مسار اهتمام الباحثين والدارسين قديماً وحديثاً ، فما لبث الغزال أن دخل بلاط النورمان حتى نال إعجاب الجميع ، ومن بينهم زوج الملك وتسمي (نود) ، فقد دخلت يوما وهى في أشد زينتها أثناء وقوفه مع الملك ، فبدت كالشمس في بهائها وجمالها ، وأخذ الغزال ينظر إليها ، ولا يميل طرفه عنها ، وكان الملك يحدثه وهو لا يلتفت لما يقول ، وإنما هو منصرف بكل كيانه إلي الملكة الجميلة ، فأنكر عليه الملك ذلك ، وطلب من الترجمان أن يسأله عن تصرفه غير اللائق ، فأجاب الغزال قائلاً للترجمان : " أخبره أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه ، فإنى لم أر قط مثلها ، وأخذ فى وصفها ، والتعجب من جمالها ، وإنها شوّقته إلى الحور العين ، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسُرَّت الملكة بقوله " [1] .

وفي يوم دَعتْ الملكة الغزال إلي قصرها ، وأخذت تطارحه الأحاديث ،فسألها عن علاقة الرجل بالمرأة في بلادهم ، فأجابته الملكة بقولها : " ليست الغيرة فى ديننا ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت " [2] .

وسألته الملكة عن السبب الذى دعا المسلمين إلي الختان ، وتجشُّم المكروه فيه ، وتغيير خلق الله مع خُلُوّه من الفائدة ، فقال للترجمان : (عَرّفها أن فيه أكبر فائدة) [3] .

ونوادره مع الملكة مبنية على خفة ظله وميله إلى الدُّعابة : " كأن تسأله عن سِنَّه ، فيقول لها : عشرون ، فإذا أبدت دهشتها ،قال لها : وما تنكرين من هذا ؟! ألم تر مُهراً ينتج وهو أشهب ؟! " [4] .

وبلغ من ولع (نود) بالغزال : " أنها كانت لا تصبر عنه يوماً حتى يتوجه إليها ، ويقيم عندها يحدثها بسِير المسلمين ، وأخبارهم ، وبلاده " [5] .

١- المطرب ، ص: ١٤٢ .
٢- المرجع السابق ، ص : ١٤٣ .
٣- نفح الطيب ، ص :٢٥٩ .
٤- المطرب ، ص : ١٤٤ .
٥- فصول فى الأدب الأندلسى ، ص : ١١٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويروى عنه ابن سعيد أنها قد جاءته ذات مرة بخمر ، وطلبت منه أن يشربها ، فرفض لأن ذلك لا يجوز في دينه ، ثم أدركته ندامة ، فقال من قصيدة يعبر عن ذلك :

فقُلتُ حَمَاقة مِنِّى وَنَوْكَاً ... فَدَيْتكِ لسْتُ مِنْ أهْل الشمُول
فأيَّة غِرَّةٍ سُبْحَانَ ربِّى ... لوْ أنِّى كُنْتُ مِنْ أهْلِ العُقُول ؟! [1]

ويرى إحسان عباس: " أن افتتان الغزال بالملكة نُود تصنعاً لا حقيقة ، يدل على دهائه في التقرب إلى القلوب ، وإجادته السفارة السياسية ، وقد سُئِل الغزال : هل كانت الملكة من الجمال بالقدر الذى أطنبت فيه ؟ ، فقال لمحدثه تمام بن علقمة نفسه : وأبيك لقد كان فيها حلاوة ، ولكنى اجتلبت بهذا القول محبتها ، ونلت منها فوق ما أردت " [2] .

وعاد الغزال إلي الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق (شنت يعقوب) ، ويقول لنا ابن دحية : " إنه كان يحمل من ملك النورمان كتابا إلي صاحبها ، وهو ملك جليقيه وليون " ، والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز لكي يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية في طريقهم إلى الأندلس ، وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون وسار إلى طليطلة ومنها إلى قرطبة ، والمرجح أن وصوله إلى قرطبة كان سنة (٢٣٢ هـ) أواخر سنة (٨٤٦ م) [3] .

وبصرف النظر عن النجاح الذي حققه الغزال في سفارته ، فإنه قد ظل السفير المخلص لمهمته ولأميره قبل كل شيء ، فقد تحدث عن كثير من الأمور التي أضحت مصدر معلومات عن بلدان المجوس ، لكنه لم يتطرق أبداً للحديث عن جوهر موضوع سفارته ، وإفشاء أسرارها أبداً ، ولئن كان ذلك يعتبر خسارة للتاريخ ، فإنه يعتبر بالنسبة للغزال شرفاً عظيماً ، فقد كلف بمهمة عظيمة عويصة شائكة ، وليس من المعقول أن يروى نتائجها للناس بل للأمير فقط ، واكتفى من الحديث مع الناس أن حدثهم عن الفيكِنج [4] ، والملكة نود صديقته ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذ مأخذ الجدّ الخالص ، وكان هذا من صالحه ، لأنهم لو أخذوه مأخذ الجدّ لأصابه أذى شديد على أيدى الفقهاء .

١- انظر : ـ المغرب ، ص : ٥٨ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ٢٠٨ .
٢- تاريخ الأدب الأندلسى ، ص: ١٦٣ .
٣- انظر : ـ دولة الاسلام فى الأندلس ، ص ٢٨٥ .
ـ المطرب ، ص ١٤٩.
٤- الفيكنج : هم سكان إسكندنافيا .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاختـــلاف في سفــارة الغــزال :

اختلفت المصادر القديمة كما اختلف الباحثون المحدثون فى سفارة الغزال ، هل كانـت إلى القسطنطينية فى المشرق أم إلى أحد بلدان شمال غرب أوربا ؟ وبالتحديـد إلى الـدانمارك أو إلى شـبه جزيرة إسكندنافيا .

فقد ذكر ابن سعيد: " أن عبد الرحمن الأوسط المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، إنمـا أرسـل الغـزال الى صاحب القسطنطينية رسولاً من قبله " [١] .

وفى النفح : " إنه بعث يحيى الغزال إلى ملك القسطـنـطـيـنـية أيضاً ، ولعله ينقل هنا عن المُغرِب " [٢] .

وفى مكان آخر من نفح الطيب نقـل المقـري عـن ابـن دحيـة : " إن الغـزال أرسـل إلى بـلاد المجوس " [٣] .

وفى صفحة أخرى أيضاً نقل المقرى عن ابن حيان : " أن الأمير عبد الـرحمن الأوسـط وجـه شاعره الغزال إلى ملك بيزنطة " [٤] .

وقد علق الدكتور شوقى ضيف على ما جاء فى المُغرِب بقولـه :" والحقـيقة أنـه أرسـل إلى النورمان الشماليين فى بلاد الدانمارك " [٥] .

وهذا ما تؤيده التفصيلات التى ساقها ابن دحية عن هذه الرحلة ، حيث قال وهو يتحـدث عما صادفهم فى الطريق إلى ملك المجوس : " فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل فى البحر الذى هو حد الأندلس فى آخر الغرب " [٦] .

---

١ ـ المغرب ، ص : ٥٧ .
٢ ـ نفح الطيب ، ص :٣٤٦
٣ ـ المصدر السابق ، ص : ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
٤ ـ المصدر السابق ، ص : ٢٥٨ .
٥ ـ المغـــــــرب ، ص : ٥٧ .
٦ ـ المطـــــــرب ، ص : ١٣٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهـذا القـــول واضح الإشارة إلى أن المقصـود هـو الكتـف الأعلـى الـشمالي الغربـي لـشبه الجزيرة الألبيرية ، وهو الداخل فيما يعرف اليوم بالمحيـط الأطلنطي ، والذى يحـده مـن الـشرق خليج بسكاى ، وهذا هو الطريق البحري إلى شمال غرب أوربا والدا نمارك ، ويعززه أيضاً وصف ابن دحية ، وهو الذى يقدم لنا أوسع المعلومات عن الرحلة ، وعن هـذه الـسفارة ، ووصـفه لطريـق عودة الغزال إذ يقول : " ثم انفصل الغزال عنهم ، وصحبه الرسل إلى شنت يعـقوب بكتـاب ملـك المجـوس إلى صاحبها، فأقام عنده ـ مكرماً ـ شهرين " [١] .

أما المستشرق ليفى بروفنسال فقد أنكر فى بحث له عـن هـذه الـسفارة أنهـا كانـت إلى بـلاد النورمان فى بعض البلاد الإسكندنافية الشمالية ، وقال إن الصواب هو أن الغزال توجه فى سفارته السياسية إلى بلاد البيزنطيين فى القسطنطينية ، ورفض روايـــة ابن دحية فى المطـرب [٢] .

ويـشير عبـد الله عنـان إلى أن الغـزال أوفـد في سـفارتين مختلفـتين ، إحـداهما إلى القسطنطينية ، والأخرى إلى الدانمارك [٣] ، وهذا ما يفترضه الدكتور إحسان عباس أيضاً [٤] .
وهذا هو الرأي الصحيح ، والدليل على ذلك أربعـة أمور :

١ـ قصة الخضوع للملك :

هـذه القصة أثبتـتها المصادر القديمة والحديثة ، فمن المستبعد أن تقـع هـذه القـصة للملـك البيزنطـى الـذى كـان يحـاول أن يخطـب ودّ الأمـير المـسلم ، والأغلـب أنهـا كانـت لملـك النورمـان المجوس ، لما عُرف عن النورمان من أنهم كانوا شديدى التمسك بمظاهر الأبـهة والفخامة .
لذلك فإني لا استغرب اشتراط الغزال على المسئول ـ عن الأصول فى البلاط ـ عدم ركوعه للملك .

١ـ المطرب ، ص : ١٤٦ .
وشنت يعقوب : مدينة santlage de compestela الواقعة إلى أقصى الشمال الغربى من شبه الجزيرة .

٢ـ الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص : ٩٦ .
٣ ـ دولة الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص : ٢٨٠ .
٤ ـ تاريخ الأدب الأندلسى ، ص : ١٦١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ ـ تصريـــح الغـــزال :

فإن الغزال قد صرح فى شعره ما يدل على أنه ذهب إلى بلاد النورمان المجوس ، وهو قوله :

إنِّى تعَلَّقــتُ مَجُوسيّـة تأبَى لشمْس الحُسْن أن تـَغرُبَا [١]

٣ـ أحاديـث الغـــزال مع نود :

فإن مثل هذه الأحاديث لا تصدر إلا عن امرأة متحـررة بلغة اليوم ، وهى تنطبق على نـود النورمانية المنطلقــة ، ولا تنطبق على ملكة بيزنطة المتحفظـة ، زوج رجل اشتهر بقساوته ، وكان فظاً غليظ القـلب ، سيىء النية نحوها ، بدليل ما حفظ لنا التاريخ من أنه كان يبعث مـن يتجـسس عليها ، ويحصى له عليها خطواتها .

٤ ـ السـؤال عن الختــان :

فإن السؤال عن الختان كان من الأولى أن يصدر عن ملكة النورمـان المجوسـية لا عـن ملكـة بيزنطة المسيحية الشرقية التى تَعرف مثل هذه الأمور مبدئياً ، وكيف لها أن تجرؤ علـى مناقـشة السفير المسلم لهذا الأمر أمام زوجها الملك القاسى العنيف ؟ .

ولا أنسى هنا قول الملكة نود للغزال عن علاقة المرأة بالرجل الفيكنغ : ليس فى ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيره ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت .

١ـ انظر : ـ المطرب ، ص : ١٤٤ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بـيـــن الغـــزال وزريـــاب:

أقف الآن أمام شخصية لعبتْ دوراً كبيراً فى المجتمع الأندلسى ، وأجد لها اسماً فـى شـعر الغزال الذى وصل إلينا ، ألا وهى شخصية (الحسن على بن نافع) المعروف بزرياب .

يعد زرياب من الشخصيات التى كانت تتميز بخصال وخصائص شخصية وعلمية وفنيـة ، كانت لها أثرها فى تطوير الحضارة الأندلسية ، وكان زرياب فى أوّل أمره تلميذاً لإسحاق الموصـلى موسيقى هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليـه نظـر الرشـيد ، فـشَعَر إسـحاق الموصلى بالغيرة من تلميذه النابه ، فهدده بالقضاء عليه ، فخرج من بغداد ، ووصل إلى القـيروان ، وهناك اكتـسب لقـب زريـاب ، وهنـاك ظهـر أمـره كموسـيقى ممتـاز ، وانتـشر صيته حتـى بلـغ الأندلس ، فاستـقدمه عبد الرحمن الأوســط ، فوفد إلى قرطبة واسـتقبله الأمـير اسـتقبالاً حـافلاً ، ورتب له راتباً كبيراً ، وهيأ له الوسائل ليظهـر فنـه ، ومـن أول الأمـر أظهـر علـى بـن نـافع أنـه موسيقى فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والـشابات ، وقـد ابتكـر زريـاب طريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أنني لم أعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسة فى ذلك العصر ، فأضاف إليـه وتـراً خامساً ، واخترع الفرق الموسيقية التى تجمع بـين العازفـين والمنـشـــدين ، وكـان يلحـن القطعـة الموسيقية تلحيناً كاملاً ، يجمع فيه بين الإنشاد الجماعي والفردي والعزفى ، وهو أول من أنشأ فى الأندلس المسرح الصغير ، الذى تجلس عليه الفِرق الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى (بالستارة) ، وكان زرياب يعمل بنظام تام وهيئة جليلة ، فكان يخصِّص صدر النهار للدرس والتدريس ، وبعد الظهر للقراءة والإطلاع ، وفى الليل يتوجه إلى القصر ، وكان سراة الناس يرسلون إليـه بجـواريهم ليعلمهن ، وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمَرَ ذات مرة بأن يـدفعوا لـه ثلاثـين ألـف دينار مكافأة له على لحن ،فرفض خزنة الأمير إعطاءه المبلـــغ على اعتبار أن ذلك تـضييع لأمـوال المسلمين ، فلم يستطع الأميـــر إرغامهم على الدفع .

ولم يقـتصـر أثر زرياب على الموسيقى ، بل إنه كان رغم ســواد لونه يتولى كبار الوظائف والمسئوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى الجملة فقد كان زرياب شخصية حضارية ممتازة ، فقد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسي كله ، وساعد فى نقله من البداوة إلى الحضارة ، ومن الفوضى إلى التنظيم المتحضر ، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سمتٍ ووقار ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحامىَ الشراب ولا يتعاطاه [1] .

كل هذا جعل الغزال ينظر إلى زرياب على أنه خصم بالنسبة إليه ، وشخص فاقه فى الحظوة لدى الأمير ، وقيل إن سبب هجاء الغزال لزرياب يرجع لما عُرف عنه من التكبر والصَّلَف ، وكان مكروهاً من الناس ، فما كان من زرياب إلا أن شكا الغزال للسلطان فأوغر صدر الأمير عليه ، فأمر فوراً بنفيه ولم يعدل عن قراره إلا بعد أن كلّمه فى أمره أكابر الدولة فتركه وشأنه .

غير أن الدكتور محمد رضوان الداية يسقط دعوى نفى الغزال حيث يقول : " وتسقط دعوى نفى الغزال ، فهى وهم لا شك فى ذلك " [2] .

---

١ - انظر : - الدولة الأموية فى قرطبة ، أنيس نصولى ، ص: ٦٦ - ٦٨ .
- وتاريخ العرب ، فيليب حتّى ، ص ٦١٠ - ٦١١ .

٢- ديوان يحيى بن حكم الغزال ، ص ٢٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغـــزال في العـــــراق:

على أثر الموقف بين زرياب والغزال ، وبالرغم من أنه انتهى وكأنه سحابة ومرّت ، فعادت الأمور إلي ما كانت عليه بين الأمير وشاعره ، إلاَّ أن الغزال لم يعد يجد معنى للحياة فى الأندلس ، ولم تعد ترتاح نفسه إلى محيطه ، فمرّ بمرحلة اشمئزاز وسلبية قرر على أثرها مغادرة البلاد ، والتوجه إلى العراق ، فكانت رحلته إلى بغداد بعد موت أبى نواس بقليل ، وفى بغداد أنِسَتْ نفسه مجتمعاتها وحياتها ، فاجتمع إلى الناس ولمس حبهم للشعر والأدب ، فكان يجالسهم فى حلقاته ويبادلهم أطراف الحديث .

وفى إحدى الحلقات التى جمعته بهم ، وجدهم يلهجون بذكر أبى نواس ، شاعر الخمر والمجون ، ويضعونه فى منزلة لا يساويه فيها أحد ، ولكنهم عندما يتحدثون عن أهل الأندلس وشعرائها يزرون بهم ، ويستهجنون أشعارهم ـ فأراد أن يلقنهم درساً عملياً ـ وفى لحظة صمت خيمت على الحضور ، انبرى لهم بأدب ونعومة قائلاً : مَنْ يحفظ منكم قول أبو نواس ؟ :

وَلمَّا رَأيْتُ الشَّربَ أكْدَتْ سَمَاؤهُمْ تأبَّطتُ ♥ زقّى وَاحتَسَبْتُ عَنَائِى
فلمَّا أتَيْتَ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّه فَهَبَّ خَفِيفَ الرُّوح نحْو نِدَائى
فقلت أذقِنِيهَا فلما أذاقها طَرَحَت إليهِ رَيْطتِى ♥ وَردَائِى
وقلت أعِرْنِى بِذلَةً أسْتَتِرْ بها بَذلتُ له فيها طَلاقَ نِسَائى
وأبتُ إلى صَحْبى ولم أكُ آيباً فكُلٌّ يُفَدِّينى وَحَقَّ فِدَائِى [1]

١ـ انظر : ـ المطرب ، ص : ١٤٨.
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ١١٧ ـ ١١٨ .
♥ تأبطت : وضعه تحت إبطه ، انظر : لسان العرب ، مادة : أبط ، ج ١.
♥ ريطتى : الريطة : كل ثوب رقيق ليّن ، انظر : لسان العرب ، مادة : ريط ،ج٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأعجبوا بالشعر ، ولم يكونوا يعرفونه ، وهم الذين كانوا يتتبعون أقوال أبى نواس ويحفظونه ويروونه ويترقبون منه كل جديد ، لذلك فإنهم فرحوا عندما تلا عليهم الغزال هذا المطلع وأبدوا إعجابهم إذ اعتقدوا أن الأندلسيين مولعون بشعر شاعرهم ، فأخذوا يغدقون مدحهم عليه حتى أفرطوا فغالوا ، وعندما كشف لهم الغزال أن القصيدة هى له وليست لأبى نواس وأكملها عليهم ، زاد أن أنشدهم قصيدة مطلعها :

تداركت فى شُرب النبيذ خَطائـــي وفارَقْـــتُ فيه شيمتي وحيائي

فما كان منهم إلاّ أن انقبضوا وخجلوا وتفرقوا عنه .

على أن الشيء الذى يثير العجب هو ذلك التشابه الكبير بين الغزال وأبى نواس ، فهما متعاصران نشآ فى بيئة حضارية ، فقد وُلد أبو نواس سنة (١٤١ هـ) بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد ، وولد الغزال بعد ذلك بتسعة أعوام ، وكان شاعر قرطبة ، وإن كلاً منهما قد عاش فى كنف أمير يرعى الشعر والشعراء ، ويهتم بالعلوم الحديثة ، فقد عاش أبو نواس فى عهد هارون الرشيد ، ثم الأمين ، والمأمون ، والغزال كان شاباً قوى البناء فى عهد الحَكَم وابنه عبد الرحمن الأوسط ، وقد عُنيا بثقافة الشرق ، وحرصا على نقلها إلى الأندلس ، وإنهاض الحركات العلمية والأدبية ، وتوفى أبو نواس (١٩٩ هـ) وبقى شعره يشرق ويغرب ، ويتابع شعراء المشارقة طريقته الحديثة إنهاضاً وتطويراً ، كذلك صنع الأندلسيون ، فضلاً على أن كلا الشاعرين اتصل بساسة عصره ، وكانت له علاقة بحاكمه ، فقد اتصل أبو نواس بخليفة الشرق ، واتصل الغزال بأمير الأندلس ، وقد صفت هذه العلاقة وطابت بعد أن سجن أبو نواس في عهد المأمون ، والغزال سجنه عبد الرحمن الأوسط ، ثم كانا ـ بعد ذلك ـ مكان عفو ورضا ، وكلاهما كان جميل الصورة ، مطبوعا على الظرف وحلاوة الروح ، وظلت هذه الخصلة – أى الظرف وخفة الدم – السمة الغالبة على كل منهما ، حتى صارا رمزاً للنادرة والفكاهة فى الأدب الفصيح .

وربما كان جمال الصورة والرقة من أسباب حب الظهور لديهما والميل إلى الظرف ، ولكل منهما أسفار فى أنحاء البلاد الإسلامية ، أبو نواس إلى مصر ، والغزال إلى العراق ، كما يروى بعض المؤرخين ويقال إنه مرّ بمصر ، وكما عرف شعر أبى نواس فى الأندلس ، سمع المشارقة عن يحيى الغزال ، ووافق ميلهم العام فى ذلك الحين إلى الشعر الجديد [١] .

١ـ انظر : دراسات فى الأدب الأندلسى ، د/ محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف الإسكندرية سنة ١٩٨٢ م ، ص: ٦٣ ـ ٧٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويشك الدكتور إحسان عباس فى صحة هذه الرواية التى تقول :" إن الغزال سافر إلى العراق " ، بل شك فى أنه رأى المشرق أبداً ، ولكنه لم يعلل لأسباب شكه هذا إلا بقوله : " ليس هناك من الأسباب المقنعة ما يجعلنا نعتقد صحة هذه الرواية ، ولكن إذا لم تكن هناك أسباب تجعلنا نقبل بصحتها ، فليس هناك أسباب تبرر لنا إنكارها "[1] ؛ ثم إن شكه هذا يناقض احتماله أن يكون الغزال قد قام بسفارتين إحداهما إلى القسطنطينية .

لكني أرى الدكتور الداية يقول فى أمر الرحلة : " ليس من خير يدفع ما ذكره ابن دحية من رحلته إلى المشرق ، وإن كنا لا نملك أخباراً واضحة عن مدة غيابه ، ولا تفاصيل واسعة عن فحوى الرحلة "[2] .

غير أن فى شعره أكثر من شكوى ينقلها على لسان زوجته ، أو مخاطبته التى تُعاتبه على كثرة الأسفار وأسفاره البعيدة ، مما يدعم الأخبار القليلة عن كثرة أسفاره ، ورحلته إلى المشرق :

وإنَّ مُقَامِى شَطرَ يَوْم ببلدَةٍ أخَافُ عَلى نفسِى بِها لكَثِيرُ [3]

١- تاريخ الأدب الأندلسى ، ص: ١٥٨ .
٢- ديوان يحيى بن حكم الغزال ، ص :٢٤ .
٣- انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٥٧ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٦٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زهـــــــــــــــــده :

يبدو أن الغزال لم يتحمل الغربة طويلاً ـ بعيداً عن الأندلس ـ فما لبث أن عاد إليها بعد أن تغير أسلوبه فى الحياة ، وتزهد فى الشعر بعد أن شارف الستين ، وركب النهج المبين .

وقد عبر عن هذا ابن دحية فى المطرب بقوله : " لم ينسك نسكاً أعجمياً ، بل ظُرِف ظَرفاً أدبياً "[1] .

وهو فى زهده لم ينهج منهج الرهبان المنقطعين عن الدنيا ، لقناعتهم النظرية بفسادها وعدم جدواها .

بل كان زهده كما قال الدكتور الأوسى :" نتيجة ممارسته الفعلية النشطة للحياة ،حتى استنفد منها كل ما استطاع من ملذاتها ومن حقائقها ، وحتى استنفدت هى الأخرى منه كل قوته ومظاهر نشاطه حتى تركته ، وكأن الهيئة التى رسمها هو لجزء من جسمه تصدق على كيانه كله"[2] ، حيث قال :

فكَأنَّـهُ ، مِمَّا تَشَنَّـجَ جِلْـدُهُ كِيـرٌ تقَـادَمَ عَهْدُهُ مَثْقُـوبُ[3]

ولكن يبدو أن السبب الرئيسى فى امتناعه عن الدنيا وزهده فيها ، يرجع إلى ضعفه أمام الفتيات الحِسان ، وعدم قدرته على مواصلتهن ، لأنه كان يعتقد أنه ليس من الممكن أن يحببن شيخاً هرماً ، وإذا فعلوا ذلك ؛ فإنه سيكون من قبيل التملق والرياء ، فيقول :

قَـالَتْ: أحِـبُّكَ ، قُلتُ: كَـاذِبَـةٌ غُرِّى بِـذا مَنْ ليس يَنْتَقِـدُ
هَـذا كَـلامٌ لَسْـتُ أقبَـلُهُ الشّيْـخُ ليْـس يُحِبُّـهُ أحَـدُ
سِيَّـان قَوْلُكِ ذا وقـولكِ إنّ الرِّيحَ نَـعْقِدُهَـا فتَـنْعَقِـدُ
أو أن تقولى : النَّارُ بَـاردةٌ ! أو أن تقولى : المَاءُ يَتَّقِـدُ[4]

---

١ ـ المطرب ،،ص :١٤٩ .
٢ ـ فصول فى الأدب الأندلسى ، ص: ١٣٠ .
٣ ـ انظر : ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .
ـ شعر يحيى بن الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢١ .
٤ـ انظر : ـ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص : ٢٤٩ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقد صبّ خلاصة تجربته وخبرته فى الحياة فى أشعاره الزهدية ، فقد كان يقتنع أن المصلحة الفردية هى المحرك للأفراد ، وأن الناس فى تربصهم لاختطاف هذه المصالح يُشبهون الثعلب المتربص بالدّجاج ، أو القط المراقب للفأر ينتظر الفرصة المناسبة للوثوب عليه ، فيقول :

مَا أرى هَا هُنَا مِنَ النَاس إلا ثعلباً يَطلبُ الدَّجَاج وذِيبَا
أوْ شَبيهَاً بالقط ألقَى بعَيْنَيْـ ـه إلى فَأرَةٍ يُريد الوُثوبَا [1]

وكانت نظرته للحياة نظرة تشاؤمية مستمدة من الواقع الذى كان يحيط به ، وكان يعتقد أن دوره فى الحياة دور المسجل للملاحظات الدقيقة التى كان يستخلصها من سلوك الأفراد وعلاقة بعضهم ببعض ، فهو لم يستخلص شيئاً من الخيال ، وإنما استمد الحقائق من الواقع مهما بدا مُراً كئيباً مؤلماً .

١- انظر : ـ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص : ٢٥٧ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سلـــوك الغـــزال :

بعد هذا السرد لأهم المراحل فى حياة الغزال ، حق لنا التعرف على سلوكه من خلال شعر الغزال ، وما وصلني من أخباره من الممكن أن أكوّن صورة له توضح لنا سلوكه وقيمه ، التى يلتزم بها ، والمعايير التى تمكنه من الحُكم على الآخرين .

وفى الحقيقة أن بعض الناس قد جانبه الصواب فى الحُكم على الغزال ، حيث أخذ الظاهر من أخباره وشعره ودُعاباته التى كان يتجاوز فيها أحياناً مما جعل هذا بعض الناس يخطئ فى رسم صورته وملامح شخصيته ، والحقيقة أن الغزال كان خفيف الظل ، كثير الدُّعابة والمرح ، ولكن لا يطعن هذا فى شخصيته ، ولا فى فكره ونظرته الجادة إلى الأمور ، وإلا ما كان قد عمل بالسياسة والسفارة بين الملوك .

وعلى الرغم من ذلك أجد ابن حيان فى المقتبس قد عدّه من شعراء الهجاء المغالين فيه ، وأورد كثير من أهاجيه فى (الخصّى نصر)، وفى القاضى (يُخامر الشعبانى) وغيرهم مما جعل بعض الناس ـ كما قلت ـ يعده من شعراء الهجاء ، ولكن بالقراءة المتأنية لشعر الغزال ، أجد أن الغزال فى أهاجيه لم يكن يحمل ضغينة شخصية لأحد ، ولكن كان يهجو من يستغل مكانته أو سلطته ، ويتجبر على الناس ويؤذيهم ، ولذا فهذا الهجاء من باب النقد الاجتماعي الهادف إلى التصدى لأمثال هؤلاء الذين استغلوا وظيفتهم ومكانتهم .

فالخصىّ نصر مات مسموماً بعد أن أعد سماً لقتل الأمير الذى أجبره على شرب السم .

أما القضاة فقد انتقد سوء استغلالهم للسلطة .

والغزال فى هجائه يوضح الأسباب التى دعته إلى ذلك ، والغزال فوق ذلك معروف عنه زهده ، وعدم اهتمامه بجمع المال ، وهو فى هجائه كان شديد الصراحة والوضوح ، ولم يكن أحد عنده فوق مستوى النقد أياً كان منصبه أو موقفه ، وهذا الأمر يتناسب تماماً مع كون الغزال شاعراً شهيراً ، وسفيراً وموظفاً كبيراً فى الدولة ، وهذه المناصب لا تكون إلا لمن يتصف بالنظرة الجادة ، والفهم الصحيح ، والرأى الصائب ، وسلامة المنهج ، وحسن السيرة .

وخلاصة القول : إن الغزال كان صوتاً اجتماعيا عاليا ، لا يستنكف عن الجهر بالرّأي ولا يوارب ولا يهادن ، ويسمى الأشياء بأسمائها ، ولو كانت التسمية جارحة ، إنه يضحى بالكياسة الاجتماعية فى سبيل قول الرأي الصريح ، وتقديم الصورة على حالها ولو كانت قبيحة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اشتهار شعر الغزال في الأندلس وخارجها :

كان شعر الغزال يتمتع بخصائص ومميزات جعلته يبدع فى كل باب طرقه .

فثمة ميزات أسهمت فى انتشار أشعاره ، وهى ميزات تعتبر – بوجه الإجمال – من خصائص الشعر الأندلسى عامةً ، تلك هى السهولة فى الألفاظ واختيارها ووضوح معانيها ، ثم الإبداع فى التشبيهات والروعة فى الإتيان بالكنايات ، وتغلب الخيال فى كل الأغراض ، والتزام القصد ، وعدم المغالاة ، فيما اصطلح عليه البلاغيون باسم المحسنات البديعية ، وأخيراً الإلمام بحوادث التاريخ وصانعيه [١] .

كل هذه الخصائص سهّلت على المثقفين ، وغير المثقفين أيضاً حفظ بعض منظومات الغزال ، فتهافت المعجبون على شعره ، واشتهر فى الأندلس ، وجاوزها إلى المشرق شأنه فى ذلك شعر أبى نواس الذى كان يروى فى المشرق وفى الأندلس ، ومن رواته عباس بن ناصح الجزيرى قاضى الجزيرة الخضراء ـ الذى مرّ ذكره ـ وكان قد وفد على أبى نواس بالمشرق ، وروى عنه فى الأندلس .

ومن الدلالة على حفظ الناس أشعار الغزال ما جاء فى بغية الملتمس : " أرسل ـ أى الغزالَ ـ ملوكُ بنى أمية بالأندلس إلى ملك بيزنطة " [٢] ، وفى ذلك يقول عند ركوبه البحر من قصيدة أنشدنيها أبو محمد على بن أحمد قال: أنشدنى أبو عبد الله محمد بن عمر بن مضاء للغزال :

قَالَ لى يَحْيَى وَصِرْنَا بَيْنَ مَوْجٍ كَالجِبَالِ
وتَولَّتْنَا عُصُوفٌ مِنْ دَبُورٍ وَشِمَالِ
شَقَّتِ القَلعَيْنِ وانْبَتَّتْ عُرى تلك الحِبالِ

وفى معرض الحديث عن ابن حزم يقول إحسان عباس : " فقد كان يحفظ كثيراً من شعر ابن عبد ربه ، وابن درّاج ، وصاعد ، وابن هديل، والصحفي ، والطليق ، والغزال ، وغيرهم .. " [٣] .

١ـ انظر : فصول فى الأدب الأندلسى ، ص : ١٣٦ .
٢ـ بغية الملتمس ، أحمد الضبىّ ، ص: ١٤٦٧ .
٣ـ تاريخ الأدب الأندلسى ، ص : ٢٥٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد حُكى أن تاجراً يدعى عتبة قال : (وجهنى الأمير الحَكم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق ، وكان عبد الله بن طاهر والياً على مصر من قبل المأمون العباسى ، فلقيته بالعراق ، فسألني عن قصيدة الغزال التى مطلعها :

خَرَجَتْ إليْك وَثوبُهَا مَقلُوب وَلِقلبهَا – طرَبَاً إليْكَ – وَجِيبُ

وعما إذا كنت أحفظها فقلت نعم ، فاستنشدنيها فأنشدته إياها ، فَسُرّ بها ، وكتبها ، ونلت بها حظاً عنه) [1] .

يا اللـــه ، قصيدة تشغل الناس عَجَباً !! .

أليس فى ذلك دلالة على شهرتها وشهرة قائلها ؟ ، فعتبة هذا تاجر قد لا يكون له صلة بقرض الشعر ، أو الإطلاع بالأدب ، يحفظ قصيدة برمتها للغزال ويرويها لمن يطلبها ، بل ويتناول أجراً عليها ، ناهيك بأن من اهتم بها ، واستنشده إياها ، وأكرمه عليها هو رجل من أعظم رجال الدولة أيام المأمون ، عُرف بأنه كان ذا باع طويل فى الشئون الإدارية ، والعسكرية ، وهو عبد الله بن طاهر الذى كان ذا ثقافة ، وبلاغة ، ووقار ، وإذا به يهتم ــ وهو فى علياء مجده الأدبي والمعنوي ـ بقصيدة فى المجون للشاعر الغزال .

وأذكر إلى جانب ذلك أن رواية خروج الغزال من الأندلس إلى المشرق ، على أثر حادثة هجائه لزرياب ، ولو أنه يشوبها شيء من الاضطراب فى النصوص لجهة ما قيل فى عدم قبولها ، إلاَّ أن فى خلاصتها ـ سواءٌ صحّتْ أم لا ـ ما يقيد عن انتشـــار شعر الغزال فى المشرق .

فقد جاء فى كتاب (تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي): " ولعله يمر بنا أن يحيى الغزال الشاعر قد أنشد فى مصر من شعره لعبد اللـه بن طاهر أمير مصر للمأمون " [2] .

ويتابع الدكتور محمد رضوان الداية قائلاً :

وقد ذكر الحُميدى قصة الأبيات على أنها : " كانت فى مصر ، وأن صاحبها سعيد بن أحمد الأندلسى الذى رحل إلى المشرق ، وأنه استشهد بأبيات يحيى بن حكم الغزال . وهذا عندى أمثل " [3] .

فمهما يكن من أمر اضطراب الروايات هنا ، فالذى يعنينا هو أن شعر الغزال قد عرف طريقه إلى المشرق ، وذاع كما سبق له أن اشتهر بالأندلس ذاتها .

١ـ انظر : نفح الطيب ، ص :٢٥٦ .
٢ـ تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ، على محمد حموده ، مصر ط١ (١٩٥٧ م) .
٣ـ جذوة المقتبس ، ص : ١٩٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفـــــاة الغـــــزال :

اختلفت الروايات في سنـــة وفاة الغزال ، فقيل : إنه توفي سنة (٢٥٠ هـ) .
فقد ذكر الحُميدى والضبىّ : " أنه عمَّر أربعاً وتسعيــن سنة ، ويطـابقهما فى هذا المقري " [١] .
يذكر ابن دحيـة فى المطــرب : " أنــه عمَّر حتى شارف المائــة ، وقيــل أربى علـيهـا " [٢] .

غير أن الـدكتور أحمد هيكل يرى أن الغزال توفى سنة (٢٥٥ هـ) ، وعلى وجه العموم فإن الغزال نفسه قد أراح الباحثين من هذه القضية عندما قال فى شعره :

مَالِى لا أبْلَى لِتسْعِينَ حِجَّـــة وَسَبْعِ أتـتْ مِنْ بَعْـدِهَا سَنـتـانِ [٣]

****

١ ـ جذوة المقتبس ، ص: ٣٧٥ .
٢ ـ المطرب : ص ١٢٦ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ٢٣٣ .
ـ المطرب : ص : ١٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

شعر الغزال:

رؤية موضوعية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التمهيـــد :

قبل الحديث عن شعر الغزال وفنونه ، أود الإشارة إلى أنه قد مرّ على الشعر الأندلسي فترة غير قصيرة ، لم يتح لجذوره أن تنغرس فى أرضه الجديدة ، بل ظل تابعا للشرق ، نابعاً من تربته ، إذ لم يتوافر له من الأحوال السياسية ، والروافد الثقافية ، والتقاليد الاجتماعية ، ما يعمق جذوره فى التربة الجديدة ليتسنى له أن يستمد غذاءه منها ، فينمو ويثمر ويخصب ويمرع وينتمي إليها ، فما حاولت الأندلس في عصر الولاة ، ولا فى عصر الإمارة الذى عاش فيه الغزال أن تنفصل بشعرها عن الشعر المشرقي ، بل كانت تسعى إليه وتتصل به وتستوحى نماذجه ، وكان مقياس الفحولة والامتياز فى تلك الفتـرة ، هو قـدرة الشاعر على المحـاكاة [١] .

وقد لاحظ ذلك ابن بسام مؤرخ القرن الخامس الهجرى ، عندما نظر فى أدب العصور التى تقـدمته ، فقال ناعيا نزعة التقليد الجامدة : " أهل هذا الأفق أبوْا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أوطنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة مرمى القصبة ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يعرف فيها لسان ولا يـد " [٢] .

وقد رد هذا المؤرخ كثيراً من أشعار النابهين من كبار شعراء الأندلس إلى أصولها المشرقية ، ولكن مع هذا أجد الشعر الأندلسى فى عصر الإمارة ، قد تميز بسمات خاصة تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسى متميز .

ولهذا يمكن القول : إنني أجد للشعر فى عصر الإمارة اتجاهين : اتجاه محافظ ، واتجاه جديد .

---

١ ـ انظر: الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، د/ سعد إسماعيل شلبى ، ط دار النهضة القاهرة ، ص: ٢٣٢ـ٢٣٣.

٢ ـ الذخيرة ، ابن بسام ، ط بيـروت ، ج ١ ، هامش ص ١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(أ) الاتجاه المحافظ :

أما مظاهر هذا الاتجاه المحافظ ، فتتمثل فى أن الشعر الأندلسى كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ، ومدح ، وغزل ، وما إلى ذلك .

وتعطى هذه النزعة التقليدية للشعرالأندلسى عمقا وأصالة ، فهو ليس أدباً ناشئاً تعود أوائله إلى الفتح العربى للأندلس أو بعده بقليل أو كثير، ولكنه يعود إلى هذا الماضى البعيد ، ويعتمد على هذا التراث الخالد ، مثله فى ذلك مثل الأدب العباسى ، فهو ابن للأدب الأموى وحفيد للأدب الجاهلى، وعندما ذهب إلى العراق ، لم ينس هذا الماضى ، ووجدنا كل حركة جديدة تنشأ فى الجاهلية ، أو في العهد الأموى يفيد الشعراء بتقليدها أولاً ، ثم بتطويرها بعد ذلك ، فجديد العصر الأموى بصفة خاصة لا يعد جديداً بالنسبة للأدبيْن العباسى والأندلسى ، بل يعد اتجاها تقليديا ما دام قد وقف عند الموروث لم يتطور به ، ولم يواصل المسيرة المنتظرة [١] .

ويمكن القول : إن الشعراء فى الأندلس كانوا يقلدون الأمويين بصفة عامة منذ الفتح العربى الأندلسى حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، ففى عهد هذا الأمير استقرت الدولة ونشط الشعر ، وتطورت الحضارة وشاعت تعاليم زرياب وغير ذلك .

وأرى الدكتور (سعد شلبى) لا ينتقد الجانب المحافظ حين يقول : " وليس معنى ذلك أننا ننتقد التقليد للجانب المحافظ فى عهد عبد الرحمن الأوسط إلى قيام عهد عبد الرحمن الثالث ، وليس معناه أيضا أن يخلو الشعر من سمات أندلسية خاصة في صدر عصر الإمارة ، فإن الواقع على النقيض من ذلك " [٢] .

أما عن الشعر الجاهلى ، فلشعراء الأندلس كما يقول المستشرق بالنثيا : " وَلَعٌ بدراسته ، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئا أثريا قديما ، فلم يكن له أثر محسوس فى نفوسهم " [٣] .

١- انظر : ـ الأدب الأندلسى ، ص: ٨١ .
ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، ص: ٢٣٤.
٣- الأصول الفنية للشعر الأندلسي ، ص: ٢٥٠ .
٤- تاريخ الفكر الأندلسي ، ص: ٤٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن الدكتور (سعد شلبى) يخالف هذا الرأى ، فيرى (أن لهذا الشعر مكانة تاريخيـــة تتسرب إلى الشعــراء في العصــور التالية ، فلا بد من مشابـه في الأصـول الـسائدة التـى أسس لهـا الشعر الجاهلي من وحدة الوزن والقافية ، وبعض الألفاظ الغريبة ، وقليل من الصور المستمدة مـن الصحراء والوديان ، وأشجار البوادي ، والوقـوف على الأطلال ، وذكر الحيـوان) [١] .

وهذا رأى صحيح ؛ لأني أجد أمثلة كثيرة عنـد شـعراء عـصر الإمـارة يقـتفـون فيهـا أثـر الشعراء الجاهليين ، كما أرى عنـد أبـى المخـشى ،فـى قـصيدته التـى يمـدح فيهـا عبـد الـرحمن الداخل ، ويصف الرحلة إليه :

امتطيْـناها سِمانـــا بُدنـــا فتركناهـــا نِضَـــاءَ بالْعَـنَـا
وذرينى قـد تجاوزت بهـــا مَهَمهَا قـفـراً إلى أهـل النَّـدى
قاصداً خـيرَ منـــافٍ كلهـــا ومنـاف خـير مَنْ فـــوق الثـرى [٢]

فهذه الأبيات تؤكد أن (هذا الشعر يسير على خطى الشعر الجاهلى ، مـن حيـث بنـاء القصيدة الذى يميل فى المدح مثلاً إلى البدء بوصـف الرحلـة إلى الممـدوح ، وتحمـل المـشاق في سـبيل الوصول إليه ، وإرهاق الإبل ، وإتلاف المطايا خلال السفر إليه ، ومن حيث انتزاع الصور والمعانى من البيئة البدوية القديمة ، ثم من حيث التعبير بالأسلوب البدوى القديم كذلك) [٣] .

وأما عن الشعر الأموي المشرقي ، فلا أجد وجه الشبه بين الشعر الأندلـسى وبينـه جزئيـا كشعر الجاهليين ، ولكن يتجاوز ذلك إلى الشكل والمضمون جميعاً ،فأرى معظم شـعراء الإمـارة قـد تمثل فى شعرهم الاتجاه المحافظ ، حيث عالجوا الموضوعات التقليدية الموروثة من العهد الأموي .

أولاً من حيث الموضوعات التقليدية ، فهو يتناول الحماسة والفخر كقـول عبد الرحمن الداخل :

شـتان من قـــام ذا امتعـاض مُنتضـى الشـفْرتيـن نَصـْلا
فجاب قـفـراً وشـــقَّ بحـــراً مساميـــا لجـــة ومحـلا
فشـاد مجـــداً وبزَّ ملكـــاً ومنـبراً الخـطـــاب فصـــْلا [٤]

١- الأصـول الفنيـة للشعر الأندلسي ، ص ٢٥٠ .
٢- أبو المخشى : هو عاصم بن زيد العبّادى، لا يوجد عام محدد لمولده ولا وفاته ولكن الأغلب أنه مات فى عهد قريب من الأميرعبدالرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) وذكر ابن حيان أنـــه مات فى عهد الحَـكَـم الرَّبضـــى (١٨٠ـ ٢٠٦هـ) ، انظر الأدب الأندلسى ، ص ٩٩ .
** انظر الأبيات فى الإحاطة لابن الخطيب ، مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٧٣، ص ٣٥٢ .
٣ ـ الأدب الأندلسى ، ص : ٨٣ ـ ٨٤ .
٤- انظر : الحُلة السيراء ، ابن الآبار ، مطبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٣٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجانب من شعر الإمارة يعالج المديح أيضا ، كما أرى فى قول عباس بن فرناس :

ما غابت الشمس حتى أشرق القمر ... محمد فارتضاه الله والبشر
باليلة أسفرت قبل الصباح الـ ... ـمهدى يفديك منى السمع والبصر
لتطبقنَّ على الد نيا خلافته ... سماء جود لها ماء اللهى مطر
يهابك البدر في أقصى مداخله ... حتى يغيب فلا يدرى له أثر
بذاك تخيرنا غر النجوم كما ... أوحى إليها بذاك الشمس والقمر [1]

وأما الغزل ـ وهو الأكثر شيوعا فى عصر الإمارة ـ فيتراءى لنا الاتجاه المحافظ فيه سواءً منه الحسى الصريح ، أو العفيف ، فمن الأول الحَكَم الرّبضى الذى يتذلل لمحبوبته فيقول :

يجعل الخد واضعا تحت ترب ... للذى يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل للحر ... إذا كان فى الهوى مملوكا [2]

ومن الآخر قول سعيد بن جودى لمحبوبته جيجان :

لا شئ أملح من ساق على عنق ... ومن مناقلة كأس على طبق
ومن مواصلة من بعد مَعتبة ... ومن مراسلة الأحباب بالحَدَق
جريت جْرى جموح غى الصبا طلقا ... وما خرجت لصرفِ الدهرعنْ طلقى [3]

كما أرى الشعر فى عصر الإمارة يحذوا حذو الشعرالمشرقى فى الهجاء ، ومن ذلك قول مؤمن بن سعيد :

لهفي علي أنف المصيف وطيبه ... وحصائدٍ منسوجة كالسنبل
أيام أقبل والسفا في لحيتي ... فتحاً لها ذنب الحصان الأشعل [4]

١- عباس بن فرناس : هو أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلاّمة رياضى من نوع فذ ، وقد وُلد فى مقاطعة تاكرنا من أصل بربري ، وبرع منذ فنونه فى الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة الطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فحلق فى الهواء ثم وقع فى مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، وكان شاعراً حيث نظم كثيراً من مختارات الشعر ، وتوفى فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٧٤هـ .
** انظر : ـ دولة الإسلام فى الأندلس ، ١/ ٢٥٢: ٢٥٣ .
ـ الأبيات فى فصول فى الأدب الأندلسى ، ص : ١٤٦ .

٢ ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، ص٢٥٢

٣- سعيد بن جودى : هو سعيد بن سليمان بن جودى السعدى ، زعيم قبيلة هوازن ، كان فارساً شجاعاً كما كان شاعراً أديباً ، ولقد أورد لنا ابن الآبار قصائده ، وهى تنم عن مقدرته وقوة شاعريته ، وقد وُلد تقريبا عام ٢٤٠هـ ، لكنه توفى فى أواخر عام ٢٨٤ هـ .
** انظر : ـ دولة الإسلام فى الأندلس ، ج ١ ، ص ٣ .
ـ الأبيات فى الحلة السيراء ، ج٢ ، ص : ١٥٨

٤ ـ التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ص : ٢٧١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما عن بقية الأغراض كالخمريات ، والفكاهات ، والموعظة ، والحكمة ، والنصيحة ، والزهد ، فقد تخلف فيها الأندلسيون فى صدر الإمارة عن المشارقة فى العهد الأموى ، وكان لهذه الأغراض شأنها فى النصف الثانى من عصر الإمارة ، فما قيل فى الزهد والخمر والمجون فى صدر عصر الإمارة يمكن أن نعده لونا من ألوان الاتجاه التقليدى لهذه الإرهاصات التى تفتحت وأتت ثمارها فى العصر العباسى من جهة ، وفى النصف الثانى لعصر الإمارة من جهة أخرى ، ولكنها ـ وإن ظهرت فيها هذه النزعة اليسيرة المبكرة التقليد ـ نعدها متأثرة بصفة جوهرية بالبيئة الأ ندلسية ، ثم بحركات التجديد الكبرى التى ظهرت فى العصر العباسى الأول ، وكان أبو العتاهية وأبو نواس من أبطالها .

(بـ) الاتجاه الجديد :

أعنى به ذلك الاتجاه الذي تزعمه الشعراء المجددون في المشرق ، وهم يمثلون طليعة شعراء العصر العباسي وعلى رأسهم : بشار بن بُرد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، وأخذ هذا الاتجاه في النمو حتى بلغ قمته على يد أبى تمام فكان زعيماً له ، وكان له أثره في كثير بعده كتلميذه البحتري ، الذي تأثر ببديع أستاذه ، وعندما وجدت هذا الاتجاه في الأندلس رأيته متأثراً بنظيره لدى المشارقة من ناحية ، واستجابة لأحوال البيئة الأندلسية الطبيعية والسياسية والثقافية والاجتماعية من ناحية أخرى .

ومن هنا لا أشارك الأستاذ أحمد أمين أسفه إذ قال: " نأسف إذ نرى الأندلسيين اقتصروا على أوزان الشرق ، وموضوعات الشعر في الشرق ،واتخذوا أخيلة الشرق أساساً ، ومعانيه دعامة ، فالمديح هو المديح ، والغزل هو الغزل ، وشعر الزهد هو شعر الزهد ، وكان الأمل أن يبتكروا غير هذا حتى لنرى مادح الناصر كمادح الرشيد ، وتشبيب ابن عبد ربه كتشبيب أبى نواس " [1] .

[1] ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسي ، ص : ٢٥٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: (كيف انتقل هذا الاتجاه الجديد من المشرق إلى الأندلس ؟ تشير كل المصادر الأدبية على أن عباس بن ناصح [1] ـ الذي عُرف عنه في عهد الحكم الرَّبضي هذا الاتجاه الشعري الجديد ، والذي امتدّ به الأجل إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ـ كان هو ناقل هذا الاتجاه الشعري ، فقد أوفده الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى المشرق لجمع الكتب ، فالتقى في العراق بأبي نواس فسمع شعره ، ويقال : إنه بقى عنده سنة يكتب شعره ، وعاد إلى الأندلس فأشاعه بين الأندلسيين ، وما لبث هؤلاء أن تمثلوه ، وأنتجوا ما يشبهه بل ما يفوقه في بعض الأحايين ، ومنذ ذلك التاريخ أو قبله بقليل كانت الأندلس تتطلع إلى العراق في أدبها ، كما كانت تتطلع إلى الشام في حنينها) [2] .

لكن ابن حيان يرى في مقتبسه : (أن مؤمن بن سعيد هو ناقل هذا الاتجاه ، فقد رحل إلى المشرق وقابل أبا تمام الطائي ، وروى عنه شعره ، وكان فقيرا يُقرأ عليه بالأندلس ، فقد نقل الاتجاه الجديد متكاملاً إلى الأندلس التي استقبلته استقبال المتعطش له ، فأقبلت عليه تتدارسه وتحتذيه ، حتى خُيّل إلينا أن الأندلسيين قد أهملوا أدبهم ، ولم يحسوا نحوه بوحشة أو اشتياق ، وأقبلوا على هذا الوافد الطارئ في لهفة وحنين ، وظل هذا طابعهم ، أو طابع أكثرهم حتى صرخ في وجههم بعض الأندلسيين المؤرخين الأدباء في عصر الإمارة) [3] .

لقد وجد هذا الاتجاه الجديد في الأندلس أرضاً خصبة بها يغرس ، ومنها يستمد عوامل نموه وازدهاره ، وكانت الأندلس قد نمت شخصيتها بحيث أهلتها لاستقبال المذهب الجديد استقبالاً مثمراً ، وساعد على ذلك طبيعتها ، وثقافتها ، وأحوالها الاجتماعية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط .

---

[1] ـ عباس بن ناصح : هو أبو المعرى عباس بن ناصح الثقفي ، ولاه الحَكَم قضاء الجزيرة مع شذونة ، وكان شاعراً كبيراً خلف ديواناً شعرياً ، ولكنه ضاع ، ولم يبق منه إلا القليل ، ولم أعرف العام الذي ولد فيه ، أو توفى .
* انظر : الأدب الأندلسى ، ص ١٠٥ .

[2] ـ الشعر العربي في الأندلس ، كراتشكوفسكى ، ترجمة / محمد منير مرسى ، ط عالم الكتب القاهرة ، سنة ١٩٧١ م ، ص : ٢٥ .

[3] ـ الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د/ محمد رجب بيومي ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية ، سنة (١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م) ، ص ٣٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مظاهـــر هـذا الاتجـــاه :

لهذا الاتجاه مظاهر أراها في فنون الأندلس ، وألمس له آثاراً في ميـل الـشعر إلى مواكبـة شعر المشارقة ، فإن ما كان يحدث في المشرق كان ينتقل إلى الأندلس ، ويتمثل هذا الاتجـاه الجديد في الاهتمام بأغراض شعــرية لم تكن شائعة من قبل .

ـ الخمريـــات :

كانت الخمريات في مقدمة الفنون التي تمثل فيها الاتجاه الجديد ، وكانت أكثرها شيوعاً على الإطلاق ، فقد شربوها في عصر الإمارة ، في مجالسهم المليئة بالـسُّقاة والجـواري والمغنيـات . على أنه يمكن القول : إن مذهب أبى نواس في نعت الخمر كان شائعاً بالأندلس ، يجاريه الشعراء ويفتنون به ، ومن ذلك قول الأمير عبد الرحمن الأوسط :

ذُكَرَ الصبوح فظل مُصطبحاً يستعمل الإبريـق والقدحـا
مـا زال حيا وهو يشربهـا حتى أماتته الكئوس ضُحَى [1]

ـ الغـــــزل :

ليس المقصود بالغزل عند أصحاب هذا الاتجاه ، الغزل عند أصحاب الاتجـاه المحـافظ ، وإنما المقصود به الغزل عند الشعراء من بنى العباس المجددين وعلى رأسهم بـشار وأبـو نـواس ، فظهرت في البيئة الأندلسية أشكال جديدة للغزل ، ومنها الغزل الشـاذ ، وهو الغـزل بالمـذكر ، ومنه قول شاعر يسمى (مؤمن) ، يخاطب مغنياً اسمه (منصور) ، ويتغـزل في فتـى يلقـب بـابن القط :

قولا لمنصور : أبا نصـــر بحُرمة المضـراب والنـقـر
ألا حكمت اليوم لابن الـــذي لُـقـــب بالقـــط على البـــدر
لا والذي طافـت قريـش له بالبيـت في أيامـه العشـــر
كأنمـا هـاروت في طرفـه إذا رنـــا ينفـــث بالسحـــر [2]

---

٢ ـ الحُلة السيراء ، ١ /١٢٠ .
٣ ـ المقتبس ، ص : ١٣٨ ، (الجزء الذي نشره ملشور أنطونيا) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ المجـــــون :

والمجون له صلة كبيرة بالغزل خاصة الشاذ منه ، لكنَّ فيه تطاولاً على التقاليد وخروجاً على الآداب الدينية ، والاجتماعية ، وهم بذلك يشبهون نظراءهم في المشرق من أمثال حماد وأبى نواس ، لكن الشعراء في عصر الإمارة لم يفحشوا إفحاش شعراء هذا اللون في المشرق ، ومن هذا اللون قول المطرف بن عبد الرحمن الأوسط :

أفنيت عُمري في الشـــراب والوُجـــوهِ المـــِلاح
ولـــم أضيـــع أصيـــلا و لا اطـــلاع صبـــاح
أحيـــى الليـالي سهـــدا في نشـــوة ومـــراح
ولســـت أسمـــع مـــاذا يقـــول داع الفـــلاح [1]

ـ بواكيـــر وصف الطبيعـــة :

أجد لوصف الطبيعة مقتطفات عند شعراء الإمارة ، لكنها ممزوجة بـالغزل والخمريـات ، وهكذا كان المذهب في الشرق ، وفى كتاب الحدائق لابن الفرج الجياني ، والبديع في وصف الربيع لحبيب ، والارتياح يوصف الراح لابن مسلمة ، والتشبيهات لابن الكتاني ، وكلها معارض لوصف الطبيعة ، ولم يصلنا منها إلا البديع والتشبيهات .

ومن هذا اللون قول عبد الرحمن الأوسط وقد كتب إلى صديقه الشاعر عبد الله بن الشمر :

ما تَـراهُ في اصْطبـــاح وعُقـــود القُطـــر تنثـرْ
ونسيـم الرَوْض يَخْتَـــال على مِسْـــكٍ وعَنْبَـــرْ
كُلمَّـــا حَـــاول سَبْقـــاً فهـو في الريحان يَعْثـــرْ
لا تكُن مهمـالة واسبـــق فمـا في البـــطء تعـــذرْ [2]

---

١ ـ نفح الطيب ، ج٣ ، ص : ٥٧٨ .
٢ـ المغرب ، ج١ ، ص : ٥٠ ـ ٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ الزهـــد :

وكان رائد هذا المجال في عصر الإمارة هو شاعرنا يحيى بن حكم الغزال ، وأحمد بن عبد ربه ، لكن هذا لا ينفى وجود شعراء آخرين في هذا العصر ، مثل الشاعر عباس بن ناصح الذي نقرأ له قوله:

ما خير مدة عيش المرء لو جُعلت كمـــدة الدهر والأيـام تفنيهـا
فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضا وابتغ نجاتك بالدنيـا وما فيها [1]

وبعد هذا العرض المقتضب لكل من الاتجاهين المحافظ والجديد في عصر الإمارة ، وبيان مظاهر كل منهما ، أنتقل إلى الحديث عن شعر الغزال ، وأغراضه ، وبيان موقفه من الاتجاهين السابقين .

شعـر الغـزال وموضوعاته :

يعد الغزال بحق أمير شعراء عصره ، ويمثل البداية الحقيقية للنهضة الشعرية التي شاعت وازدهرت في شتى أرجاء الأندلس ، وذلك راجع إلى أنه كان يعيش في عصر يمثل حلقة الوصل ونقطة الالتقاء بين الشعر المشرقي والشعر الأندلسى ، ولقد جاء شعر الغزال صورة صادقة لحياته ومجتمعه ، وما صادفه من أحداث منذ مطلع شبابه حتى قَرُب أجله .

وقد أجمع كثير من المؤرخين والأدباء أن الغزال أثبت مقدرته الشعرية ، وحُسن تصرفه في المعاني ، وهو في الشعر الأندلسى كامرئ القيس أو كبشار بن بُرد ، وهو مقدم على جميع شعراء جيله .

يقول ابن دحية : " يحيى بن الحكم الغزال ، القاعد على كيوان [2] ، وشاعر ذلك الأوان ، وقد أثبت من قوله ما يشهد بإبداعه وحسن تصرفه في المعاني ، واختراعه وطول يده في الأدب وامتداد باعه " [3] .

١ـ بُغية الوعاة ، للسيوطى ، ط القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٨ .
٢ـ كيوان : نجم زحل في السماء .
٣ـ المطـــرب ، ص: ١٢٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويرى (الحُميدي): " إن الغزال كثير القول ، مطبوع النظـم في الحِكَم والجدّ والهزل " [١].

ويقول (الرافعي): " هو شاعر مُفلِق فيلسوف ، وهو في الشعر الأندلسى كامرئ القيس من شعراء الجاهلية ، وبشار من الشعراء المحدثين " [٢] .

ويذهب (غرسيه غومس) مذهباً آخر فيقـول :" عـن الـسر في امتيـاز الغـزال ، أنـه لا يعــود إلى براعته في الشعر بقدر ما هو بسبب حياته الخاصة الطريفة التي كان يحياها " [٣] .
بينما يعده الدكتور إحسان عباس شاعر الأندلس المقدَّم على جميع شعراء هذه الحقبة [٤] .

كما يعــدّه (حنا الفاخوري) في الطليعة من شعراء هذا العهد (لما يمتاز به في شعره من عمق النظرة إلى الحقائق الوجودية ، وسلامـة الطبع ، وسلاسـة التعـبير ، والجـري مـع الطبيعـة الغنية الفيّاضة ، التي تبتعد عن التعقيد والتصنيع والإغراب) [٥] .

ويرى الدكتور (فرُّوخ):" أن الغزال كان أديبـاً ، وشـاعراً مطبوعـاً ، صـاحب بديهـة وابتكار في المعاني ، وإن كان في أسلوبه يسير على نهج المشارقة مع قلـة عنايــةٍ بالديباجـة ، إذا كانـت الـديـباجة تَـحُول بينه وبين كمال التعبير عن المعنى ، كما كـان شأن ابـــن الرومي " [٦] .

لكن (إحسان عباس) ذهب إلى أنَّ سبب تفوق الغـزال علـى أقرانـه (يعـود إلى ميـزتين كبيرتين هما : قيام شعره على النظرة الساخرة ، ووضوح نظراته الفلسفية القائمة على تجربتـه ، وهما خاصيتان عزيزتان في الشعر الأندلسى) [٧] .

١ـ جذوة المقتبـــــس ، ص : ١٩٨ .
٢ـ تاريـخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، مطبعـة الهـلال القاهرة ، ١٩١٣ م ،٣/ ٢٧٣ .
٣ـ الشعر الأندلسى بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة / حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية ، ط٢(١٩٥٦ م) ، ص٣١ .
٤ـ انظر : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص : ٦٥ .
٥ـ الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، حنا الفاخوري ، ط٣ دار الجيل بيروت ، ص: ٢٠١ .
٦ـ تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ ، ط١ دار العلم للملايين ، ص : ١١٦ .
٧ـ تاريخ الأدب الأندلسى ، ص : ١٦٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وشعر الغزال في معظمه جاء كما يقول أحد الأدباء : " تعبيراً عن مواقف ذاتية ، وظواهر اجتماعية اتخذها موضوعات لصياغة قصائده ، وذلك بقصد من الشاعر لتوصيل المعني الشعري ، والتأثير به في نفس المتلقي ، وهذا ما يبدو أكثر وضوحاً في زهدياته " [١] .

كما أن شعر الغزال يصور كثيراً من مراحل الشباب وحماسته ، والغزل الرقيق الذي تشهد فيه دقة الإحساس بالجمال ، والمواقف الحادة الجادة ، وتشعر بدخول عنصر الزمن ، فتتبلور قلة مبالاة أيام الشباب ، وقلة احترازه على شكل حكمة بسيطة صادرة عن تجارب الحياة ، وتظهر واقعيته المحبوكة من الملاحظات السابقة في نظرته إلى الحياة، وعدم اكتراثه بمظاهرها ، وفي نظرته إلى المرأة في نقد لاذع تراه مفرقاً في قصائده ، وطالت أيام الشيخوخة ، وأبلاه الزمان ، فمزج من دعابته ، وواقعيته ، قصائد ومقطوعات في الحياة والموت ، وفي علاقة الرجل المتقدم في السن بالمرأة ، ونظرتها إلى الشيخ ، ووازن بين إقبال المرأة على الشباب لشبابه ، وعلى الشيخ العجوز لمالِه في مفارقات ضاحكة مؤثرة في وقت واحد .

ومن هذا أخلص إلى أن الفنون التي دار حولها شعر الغزال هي : الغزل ، والمجون ، والمديح ، والهجاء ، ووصف الطبيعة ، والفكاهة ، والحكمة ، والشعر الاجتماعي ، والزهد .

فضلاً عن بعض أغراض ملحقة بشعره مثل : الخمريات ، والتهنئة ، والأرجوزة التاريخية ، وسأتناول كل فن من هذه الفنون بالشرح والتحليل على النحو التالي .

١- اتجاهات الشعر الأندلسى ، د/ نافع محمود ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد سنة ١٩٩٠ م ، ص: ٦٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ـ الغـــــزل :

يدور معني الغزل حول : التحدث إلى النساء ، والتودد إليهن ، والغزل بالمرأة يتطلب من الرجل أن يتحدث إليها ، وأن يكون حديثه مؤثراً جذاباً ، حتى يستميلها إلى وده ، ويستهويها إلى حبه ، وهو في هذه السبيل يسلك شتى الوسائل ، ويركب صعب الأمور ، يحتال إذا وصل بالحيلة إلى غايته ، ويدارى إذا نفعت المداراة ، ويتذلل لها ، ويتوسل إليها ، لعل ذلك يغنى من الأمر شيئاً .

على أن للغزل ألفاظاً كثيرة لا يمكن حصرها ، ومن تلك الألفاظ : النسيب ، والتشبيب .

والغزل يعد من أكثر الفنون الشعرية التي طرقها الشعراء الأندلسيون ، فما من شاعر إلا وقد أدلى بدلوه فيه ، ولقد استطاع شعراء الأندلس التعبير عن الحب واللهو بأبيات تعد من أجمل الشعر الأندلسى [١] .

وقد اجتمعت عوامل عدة ساعدت على ازدهار الغزل في الأندلس ، ومن أهم هذه العوامل:

البيئة الأندلسية بطبيعتها الرائعة ، حيث الخضرة والأنهار وغير ذلك ، بجانب الحياة الحضرية الناعمة التي أغرت الشعراء بشتى وسائل اللهو والمجون ، وحررتهم من قيود التقاليد الموروثة .

والعامل الثاني ، يتمثل في الجمال البشرى ، حيث استرعى جمال النساء أنظار الشعراء ، ونبَّه عواطفهم ، فقالوا في الغزل والتشبيب بالنساء ، ووصفوا جمالهن الفاتن في أبيات تتسم برقة العبارة ، وخفة الوزن .

أما العامل الأخير ، فيتمثل في كثرة الجواري الجميلات ، ومجالس اللهو والشراب ، وما يدور فيها من أشعار تصف الجواري ، والساقيات ، والخمر ، وغير ذلك، مما تَعُجْ به هذه المجالس .

١ـ انظر : ـ الغزل عند العرب ، حسان أبو رحاب ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط١ ص : ٩٤٧.
ـ اتجاهات الشعر الأندلسى ، ص : ١٦٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على أن شعراء الأندلس قد مالوا في غزلياتهم إلى الغزل الصريح ، وإن كان هناك شعراء يتميزون بالغزل العفيف ، غير أن النوع الأول كان هو الغالب ، ويرجع السبب إلى البيئة المتحررة نسبيا في الأندلس ، وأيضا بسبب كثرة الجواري .
فالشاعر يعبر عن أحاسيسه تجاه المرأة تعبيراً صريحاً ، حيث يصفها وصفاً حسياً لا تحفُّظ فيه .

ونقطة أخرى توضح أن الغزل في الأندلس لم يخرج عن الإطار العام للغزل العربي ، حيث جاء معظمه تقليدياً تتردد فيه المعاني والأفكار التي تميَّز بها الغزل في الشعر المشرقي .

ويعد الغزل من الفنون التي كانت منتشرة ، والتي تداول على نظمها الأمراء ، وعامة الناس .

فمن غزليات الأمراء قول الحَكَم الربضيِّ حفيد عبد الرحمن الداخل ، الذي نراه يتذلل ويتغزل في إحدى الجواري بقوله :

ظل من فرط حبه مملوكا ولقد كان قبل ذلك مليكا
إن بكا وشكا الهول زيدَ ظلما ببعاد أدنى حماماً وشيكا
تركته جآذر القصر صَبا مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعل الخد واضِعَا فوق ترب للذي يجعل الحرير أريكا
هكذا يُحْسِنَ التَّذلل للحرّ إذا كان في الهوى مملوكا [1]

ومن عامة الشعراء الذين تفجرت مواهبهم في شعر الغزل في عصر الإمارة الشاعر عباس بن فرناس ، ومن قوله :

وللحسن في خديه شمس مقيمة وبدر كمال لا يحول إلى محق [2]

١- الحُلة السيراء ، ٤٩/١ .
٢- يتيمة الدهر ، الثعالبي ، تحقيق/ محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة سنة ١٣٨٧هـ ، ج ٢، ص ١٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فشعراء عصر الإمارة قد عرفوا جميع ألوان الغزل التي شاعت في المشرق ، وأجادوا القول فيها ، وتسلوا بها ولهوا ، وكان على رأس هؤلاء شاعرنا يحيى بن حكم الغزال ، الذي لا تشعر بسيطرة اسم فتاة واحدة ، أو امرأة معينة في شعره ، وإنما هو الغزل الرقيق الدال على عاطفة مشبوبة ، وقدرة على التصرف في معاني الغزل ، فإذا ما استطرد في شعر الغزل انساب نظمه ، وتتابعت أبياته في رقة وعذوبة ، وكلام غير مصنوع يضرب إلى المباشرة والصدق ، والبعد عن التكلف ، والضرب على أوتار القلوب . وللغزال قصائد ومقطوعات غزلية ، لم يثبت فيها على نهج واحد، وإنما جمع في غزله بين طرائق الحسيين والعذريين .

وأجد للغزال مقدمة غزلية واحدة استهلّ بها قصيدته التي توجه بها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ليمدحه ، ويستعطفه لكي يعفو عنه ، وفيها يحذر الغزال نفسه من الميل إلى (زينب) وغيرها ، فقد طعن في السن ، وبلغ الستين ، وعلاه المشيب ، وأصابه الوهن والضعف ، ثم يصف محبوبته التي بلغت ما بلغت من الحسن والجمال والرقة ، فهي عجزاء ، ثقيلة الأوراك ، تامة الخلق ، ضامرة البطن ، إنها درة لم يلمسها أحد قبله قط ، ذات لون خمري ، يقول الغزال من السريع :

بَعْضَ تَصَابيكَ إلي زَيْنَبٍ ... لاَ خَيْرَ في الصَّبْوَةِ للأشْيَبِ
أبْعَدَ سِتِّينَ تَمَلَّيْتَهَا ... كَامِلَة تَصْبَو إلى الرَّبْرَبِ ؟!
كُلِّ رَدَاح الرِّدْفِ خُمْصَانَةٍ ... كَالمُهْرَةِ الضَّامر لم تُرْكبِ
أوْ دُرَّةٍ سَاعَةَ اسْتُخرجَتْ ... لم تُمْتهَنْ بعْدُ ولم تُثْقَبِ
مُشْرَبَةِ اللوْنِ مُتُوعِ الضُّحَى ... صَفْرَاءَ في الآصَالِ كَالمُذْهَبِ [1]

١- انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٣٦٧ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ ـ ١٢٩ .
* رداح الردف : يقال امرأة رداح : ضخمة الرِّدف سمينة الأوراك ، مادة: رح ، انظر : لسان العرب ، لابن منظور، دار الحديث القاهرة ، ج٤ .
* خمصانة : ضامرة البطن ، مادة : خمص ، لسان العرب ، ج٣ .
* ورد البيت الثاني في المطرب ، ص : ١٣٤ ، هكذا :
أبَعد خمسين تقضيتها ... وافيةً تصبو إلى الربرب ؟ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والواضح أن الغزال كان متأثراً بغزل المشارقة ، وخاصة في قصائده ، ومقطوعاته التي نظمها في مقتبل حياته، والتي توحي في معظمها بأن الغزال كان كثير السفر والترحال ، مما كان يدفعه أن يرسل سلامه وتحياته إلى محبوبته التي كانت تقيم في بلدته قرطبة ، فنراه في قصيدته الميمية يطلب من رفيقه أن يقرأ السلام على محبوبته التي هام بها عشقاً ، فقد باعد الزمان بينهما ، فامتلأت نفسه حسرة ، فيذكر الليالي الجميلة التي قضاها مع المحبوبة ، والتي تشبه البدر ، وتفوق الكواكب والأزاهير ، ثم يصف حاله بعد فراق تلك المحبوبة الغادرة ، شاكياً إياها إلى الله ، ومؤكداً أنه سيبقى على الوفاء والعهد ، يقول الغزال من البسيط :

أقْـرِ السَّلام عَلَى إلْـفٍ كَلِفْتُ بِـهِ ... قَدْ رُمْتُ شَوْقاً وَطولُ الشوق لمْ يَرُمِ

ظَبْيٌ تَبَاعدَ عَنْ قُربى وعن نظري ... فالنَّفْـسُ وَالِـهَـةٌ من شِدَّةِ الألَـمِ

كُنَّا كَـروحيْنِ في جسم غذاؤهما ... مـاءُ المَحَبَّـة من هَـامٍ ومُنسَجِـمِ

للـهِ تِـلكَ الليـالي والسُّـرور به ... كَأنَّما أبْصَرَتْها العيـنُ في الحُلـمِ

فَفَرَّقَ الدَّهْـرُ شَمْـلاً كَانَ مُلْتَئِماً ... منَّا وَجَمَّعَ شَـمْـلاً غَـيْـرَ مَلتئـمِ

مَازِلْتُ أرْعَى نُجُـومَ الليْلِ طَـالِعَـةً ... أرْجُـو السُّلُوَّ بها إذ غِبْـتُ عَنْ نِجْمِي

وقَد تَنَاظر والبِرجيسُ♥ في شـرفٍ ... وَقَارَنَ الزَّهْـرَةَ البَيْضاءَ في تَـوَمِ ♥

فذاك يُشْبِهُهُ في حُسْنِ صُـورَتِـهِ ... وذا يزيد بخَـطِّ الشَّعْـرِ وَالقَـلمِ

أشكُـو إلى الله ما ألقى لِفُـرقتـه ... شَكْـوى مُحِبٍّ سقيم حافظِ الـذِّمم

لو كُنْتُ أشكو إلى صُمِّ الهضابِ إذا ... تـفطَّـرتْ للـذي أبْدِيـهِ منْ ألـمِ

يا غـادراً لَم يـزلْ بالغدر مُرتدياً ... أين الـوفاءُ أبنْ لي غيرَ مُحْتشِـم ؟

إن غابَ جِسْمُك عن عيني وعن نظري ... فمَا يغيبُ عن الأسْـرَار والـوهـمِ

إنِّي سأبكيـك ما ناحَـت مُطوَّقـةٌ ... تَبْكى أليفـاً على فـرعٍ من النَّشَمِ ♥[1]

١ـ انظر : ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٠ ـ ٢٢٢ .
♥ البرجيس : كوكب المشترى ، انظر : لسان العرب ، مادة : برجس ، ج١ .
♥ تـــوم : هي الدرة ، انظر : لسان العرب ، مادة : توم ، ج١ .
♥ النشم : هي شجر جبلي تتخذ منه عنق العيدان ، انظر : لسان العرب ، مادة : نشم ، ج ٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتظهر لنا في تلك القصيدة السابقة معاني الغزل العذري ، وهذه القصيدة تمثل لنا المرحلة الأولى من حياة الغزال التي بدا فيها متأثراً بمعجم العذريين ، في نحو قوله : (كنا كروحين في جسم) ، و(إلفين هذا بهذا مغرم كلف) و (ففرق الدهر شملاً كان ملتئماً) و (قد رمت صبراً وطول الشوق لم يرم) .

وفى قصيدة أخرى ، نرى الغزال يكتب إلى محبوبته (شمس) ، وقد تملكه الشوق والوجد، فيدعو بالسُّقيا لديارها ، جرياً على عادة القدماء ، ويؤكد أن حبه لهذه المحبوبة لا يغيب عنه ، فهو يقيم بقلبه معها ، ثم يصف ليلة قضاها مع هذه المحبوبة ، واصفاً مفاتنها في صراحة ، ثم يتحسر على فراقها طالباً من حامل الرسالة ، ومن النسيم ، ومن شعاع الشمس ، أن يبلّغ سلامه إلى محبوبته شمس ، يقول الغزال من الطويل :

كتبْتُ وَشَوْق لا يُفَارقُ مُهجَتـــى ... وَوَجْدِي بكُمْ مُسْتحْكِمٌ وَتذكُّري
بِقرطبة قلبي وجِسْمِي ببلـــدةٍ ... نأيتُ بها عَنْ أهْل وُدِّي ومَعْشَري
كأنْ لم أبـــتْ في ثوبها طُولَ ليلةٍ ... إلى أن بَدَا وَجْهِ الصّباح المنّور
وعانقتُ غصناً فيه رُمّان فِضّة ... وقَبّلت ثِغْراً ريقهُ ريق سُكَر
أأنسى ! ولا أنسى عِنـــاقِكِ خاليَاً ... وضَمّي ، ونقلى نظمَ دُرٍّ وَجَوْهَر
فوا حَزَني أن فَرّق الدّهْرُ بيننَا ... وكدَّر وَصْلاً مِنْكَ غيْرَ مُكَدَّر
سَـــلامٌ سَلامٌ ألـفَ ألـفٍ مكـرَّر ... ويا حَامِلاً عنّى الرسالة كَرّر
ألا يَا نسِيمَ الرّيح بلّغْ سّلامَنا ... وصِفْ كل ما يَلقى الغَريبُ وخَبّر
وقلّ لِشُعَاع الشّمْس : بلّغْ تَحِيتي ... سَمِيَّك واقْرَأهَا عَلى آل جَعْفَر [1]

لقد استطاع الغزال في القصيدة السابقة أن يمزج بين معاني الغزل العذري ، ومعاني الغزل الحسي ، وأن ينتقل من أحدهما إلى الآخر في مفارقة عجيبة لا نكاد نشعر بها .

١- انظر : - العقد الفريد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٣ .
- شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ - ١٧٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى المقطوعة التالية ، نرى الغزال يناجى أحبابه طالبا عودتهم إليه ،لأنه لا يرغب فى فراقهم ، ويحاول جاهداً أن يرضيهم ، ويصلهم ، ويجوب نحو ديارهم ، وعلى الرغم من ذلك هم بعيدون عنه كل البعد ، يقول الغزال من الكامل :

أحْبَابنا عُـــودوا عَلينا عَـــوْدةً ما منكم بَعْد التَّفَـرُّق مَـرْغَـــبُ
كم ذا أداريكُـم بنفســـي جاهِـــداً وكَـأنَّما أرضِـيكم كَـيْ تَـغْضَبُوا
وأزيدُ بُـعداً ما اقـتـربتُ إليكـــم كالسَّـهم أبْعَد ما يُـرى إذ يَـقْـرُبُ
وأجُـوبُ نحوكُمُ المنـازل جاهـــداً ومع اجتهـــادي فَـاتـني ما أطـلُبُ
كَـالبدر أقْـطع منـــزلاً في منـزلٍ فإذا انتهيتُ إلى ذُراكُـــم أغْـرُبُ [1]

ويواصل الغزال السير على نهج الغزل المشرقي ، حيث التشبيب ، والوقوف على الديار ، وما يصاحبهما من تشوق ، وتحرق ، يملآن قلب الشاعر حسرة وألما على المحبوبة التي رحلت عنه ، يقول الغزال من الخفيف :

ريـعَ قلبي لمَّـا ذكَـرتُ الدِّيَـارا وَتَـنَـوَّرتُ بالنخِـيلات نَـــــارَا
وازدهَـثْـنِـي ذات السَّـنـــا ببـــرُوقٍ من لظـاها فما أطيـــقُ اصْطِـبَـارا
والقُروح الفُـؤاد يَـزدَادُ للنَّـــــا ر وَمَيْض السّـعير منهـا اسِتِعَـارا [2]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣١ .
ـ ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، ج٣ ، ط٤ مكتبة النهضة المصرية سنة (١٩٦٦) ، ص : ١١٢.

٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧ .
ـ يتيمة الدهر ، الثعالبي ، ج٢ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ (١٩٨٣) ، ص : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا كان الغزال في السابق قد بدا متأثراً بالغـزل المشرقي في أفكاره ومعانيه ، فإننا نراه سرعان ما يتخلى عن هذه النزعة التقليدية ، ولنتأمل تلك المقطوعة التي يطالعنا بها الغزال ، وفيهـا مـن المعـاني العجيبـة ، والغريبـة الـتي انفـرد الغـزال باختراعهـا ، وأبـدع فيهـا أيّمـا إبـداع ، حيـث يتحـدث عـن (سُليمي) ، هذه المحبوبة الزاهدة حتى في الوصال القليل ، والشاعر يتودد إليها طالباً الوصال ، فترده ، وتحاسبـه على وصالها له في الخيال ، أي أنها في خياله دائماً ، فلا داعي للوصال في الحقيقة ، وهـذا هـو الغريب والعجيـب مما لم أجد له مثيلاً في الغزل العربي ، ثم يصف حاله حيث منعت الليـالي النـوم عـن عينيـه ، وهـذا أيـضا مـن عجيـب المعـاني ، والمحبوبـة تـدرى بحالـه ، وتعلـم مـدى شـوقه لوصـالها ، وسُهاده ، فيتساءل : لماذا صدته ودافعته بالمستحيل ؟! ثم يزيـد متـسائلاً : هـل يمكنـه أن ينـال منهـا وصالاً ونوالاً بعد ذلك في الحقيقة ؟! يقول الغزال من مجزوء الرمل :

وَسُلَيْمـــي ذاتُ زُهْـــدٍ في زَهيـــدٍ من وصَـــالِ
كُلَّمـا قلْـــتُ صِـلِـينـــي حَـاسَبَتْـنِـــي بالخْـــيالِ
والكَـرَى♥ قَـــدْ مُنِـعَـتْـــه مُقْلَـتِي أُخْـرى الليالـــي
وهِـى أدرى فَلمَـــــاذا دَافعَتنِـــي بمُـحَـــــال
أتَرانَـــي أقْـــتَضَيـهـــا بَعْـدُ شيئـــاً من نَـــــوَالِ [1]

ثم تأتى اللحظة الفارقة فى حياة الغزال ؛ وذلك حينما أرسله الأمير عبد الرحمن سفيراً إلى بـلاد النورمان ، لا شك أن انتقال الغزال من بيئة إلى بيئة ، فضلاً عن لقائه بزوج ملك النورمان ، ومـا تقتـضيه المجاملة ، وأمور السياسة والسفارة ، جعل الغـزال ينـتج لنـا غـزلاً عـذباً ، فيـه مـن الابتكـار والجـدّة وطرافة المعاني ، مما يُعـد جديداً على الغزل في عصر الإمارة .

فقد أشارت المصادر القديمة إلى علاقة نشأت بين الملكة نود والغزال ، وكانت اللقاءات بينهمـا لا تخلو من إثارة إعجاب وغزل ، والشاعر قـد سجله شعراً ، لـم يصلنا منه إلا القليل النادر .

ولنتأمل تلك المقطوعة التالية التي يخاطب فيها قلبه الذي تكلف حبـاً أتعبـه ، ولا قِبَـل لـه به، ثم يصرح بأنه قد تعلـق بمجوسـية ، ويقـصد الملكـة (نـود) الـتي وصـفها بـشمس الحـسن الـتي لا تغرب ، وهى تسكن أقصى البلاد ، ثم يخاطب الملكـة واصـفا إياهـا بـرود الـشباب ، ونعـومة الجـسم ، ونهديها بالكوكب ، مما لم يره من قبل ، يقول الغزال من السريـع :

---

[1] - انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٥ .
ـ المقتبس ، السفر الثاني ، ط الرياض ، ص : ٣٦٣ .
♥ الكرى : النوم والنعاس ، انظر : لسان العرب ، مادة : كرا ، ج٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كُلِّفْتَ يا قلبي هوىً مُتْعبِاً غالَبْتَ منهُ الضَّيْغمَ ♥ الأغْلَبَا
إنِّي تعلّقْتُ مَجُوسيّة تأبى لشمس الحُسن أن تَغرُبا
أقْصى بلاد الله في حيثُ لا يُلفى إليه ذاهِبٌ مَذهَبَا
يا نُودُ يا رُودَ الشّباب التي تُطلعُ من أزْرارهَا الكَوْكَبَا
يا بأبي الشّخْصَ الذي لا أرى أحْلَى على قلبي ولا أعْذبا
إن قُلتُ يوما إن عيْني رأتْ مُشْبِهة لمْ أعُد أن أكذِبَا ١

ثم يحدثنا الغزال عن موقف له مع الملكة ، حيث سألته مرّة عن سِنّه ، وقد جاوز الخمسين ، وخطَّه الشيب ، ولكنه كان مكتمل الهيئة ، حسن الصورة ، فقال لها : عشرون سنة ، فتعجبت وقالت : وَمَنْ سِنّه عشرون سنة يكون به هذا الشيب ؟! فقال الغزال : ألم تر مهراً ينتج وهو أشهب ؟ فضحكت الملكة وأعجبت بقوله ، وهذا من باب الدعابة ، وحسن التلطف ، والتودد مع الملكة ، وإن دل فإنما يدل على حسن تصرف الغزال ، ولباقته ، ولذا كان اختياره سفيراً ، يقول الغزال :

قالت أرَى فوْدَيْه قَدْ نَوَّرا دُعَابة توجبُ أن أدْعَبَا
قلت لها : ما بَالهُ ؟ إنَّه قد يُنتِجُ المُهْرَ كَذا أشْهبا ♥
فاسْتَضْحكَتْ عُجْباً بقولي لَهَا وإنما قلْتُ لِكَي تَعْجَبا ٢

وقد علق ابن دحية على الأبيات الثلاث الأوَل بقوله : (وهذا الشعر لو روى لعُمر بن أبى ربيعة ، أو لبشار بن بُرد ، أو للعباس بن الأحنف ، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستُغْرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره مَنْسيا إن كان أندلسياً ، وإلا فما له أُهْمَل ؟! وما حق مثله أن يُهْمل ، وهل رأيت أحسن من قوله : " تأبى لشمس الحسن أن تغربا " ؟! أو كالبيت الأول من القطعة) ٣ .

١- انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، ص : ١٣٧ ـ ١٣٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٢٦١ .
♥ الضيغم : ضغم : الأسد ، انظر : لسان العرب ، مادة : ضغم ، ج٥ .
♥ رود : هي رود الشباب : أي ذات جسم ناعم ، انظر : لسان العرب ، مادة : رود ، ج٤ .
2- المصدر السابق .
♥ أشهبا : أشهب وقيل الشهبة البياض الذي غلب علي السواد ، انظر : لسان العرب ، مادة : شهب ، ج٥.
3- انظر : المطرب ، ص : ١٤٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأصل إلى المقطوعة الأخيرة في موضوع الغزل ، حيث إنه لما أنشد الغزال الأبيات السابقة للملكة ضحكت ، وأعجبت به ، وأمرته بالخضاب ففعل ذلك ، وغدا عليها يوماً ثانياً ، وقد اختضب فمدحت خضابه ، وحسنته عنده ، فأنشد لها أبياتاً يظهر فيها لوناً جديداً من الغزل ، يقول عنه الدكتور (سعد شلبي): " غزل جديد تظهر فيه المرأة طالبة لا مطلوبة ،راغبة لا مرغوباً فيها ، كما يشيع في سائر الغزل ، إنْ في الشرق أو في الغرب " ١ .

والمقطوعة على الرغم من قصرها ، إلا أنها تكشف لنا عن عمق العلاقة بين الغزال والملكة (نود) ، وتبدأ أبيات المقطوعة بتوضيح من الغزال عن أن الملكة قد استحسنت سواد خضابه ، ويصور إحساسه بأنه أحس وكأن شبابه عاد إليه ، ويصف خضابه الأسود فوق شعره الأبيض بأنه مثل الضباب الذي جلّل ، وغطى نور الشمس ، ثم يستمر في وصفه بأن هذا الضباب (سواد الضباب) سرعان ما ينقشع ، ويزول ، ويظهر ما سُتر من ضوء الشمس (شيبه) ، ثم يرد على الملكة بألا تنكر وضح مشيبه ، فهو دليل الفهم ، وعمق الخبرة ، وهو ليس مع شيبه ضعيف الجسم ، بل إنه يتمتع بالعافية ، والعاطفة المشبوبة ، كأنه في سن الصبا والشباب ، فضلاً عن تمتعه بحسن الخلق والأدب ، يقول الغزال من الكامل :

بَكَرتْ تُحسِّنُ لي سوادَ خِضَابي ... فكأن الذي أعَادني لشبابي
ما الشَّيبُ عندي والخضابُ ♥ لِواصفٍ ... إلا كشمسٍ جُلِّلتْ بضبابِ
تُخْفَى قليلاً ثم يقشَعُها الصِّبا ... فيصير ما سُترتْ به لذهابِ
لا تُنكِري وَضَحَ المشيب فإنما ... هو زَهْرةُ الأفهامِ والألبابِ
فَلدىَّ ما تهوينَ من شَأنِ الصِّبا ... وطَلاوة الأخلاق والآدابِ ٢

ويعلق الدكتور (نزار عابدين) على البيت الأخير : " إن البيت الأخير قد يدل على عمق العلاقة بينهما ، فهو يذكر لنا أنه ما زال متمتعاً بقوته الجسدية ، وعاطفته المشبوبة ، كمن هو في سن الشباب ، ويزيد عليهما بأن فيه حسن الأخلاق ، والآداب ، وبهجتها " ٣ .

---

1 ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسي ، ص : ٢٧٣ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .
♥ الخضاب : الذي يصبغ شعره بالحناء ، انظر : لسان العرب ، ج٣ ، مادة : خضب .
٣ـ الغزل في الشعر العربي ، د/ نزار عابدين ، دمشق ، ط١ ، ص : ٢٩٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وألاحظ مما سبق أن الغزال في غزلياته لا يقتصر على امرأة واحدة ، بل أجده يذكر عدة أسماء مثل : زينب وشمس وسليمي ونود ، كما يلاحظ أيضاً أن الغزال قد تأثر في غزلياته بالغزل المشرقي في ألفاظه ومعانيه ، سواءً منها ما يتعلق بالغزل الحسي الصريح أو العذري العفيف ، وهذا أمر طبيعي في تلك الفترة ، فالشعر الأندلسى قد ولد معتمداً على الشعر المشرقي ، حيث كان المشرق هو المعين الذي اقتبس منه شعراء الأندلس كل ما يتصل بالفن الشعري ، سواءً الموضوعات أو الألفاظ وحتى الصور ، لكن عندما انتقل الغزال من بيئة إلى بيئة أخرى ــ أي حينما أرسله الأمير عبد الرحمن إلى بلاد النورمان ــ فالْتقي بالملكة نود لمسنا في غزلياته من الجدّة والابتكار ، ما يدفعنا إلى القول بأنه غزل أندلسى مكتمل المعالم ، وواضح السمات .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ - المجـــــــون :

المجون لغة : " من مجنت الأرض مجوناً ، إذا صلبت وغلظت ، وهو خلط الجد بالهزل ، وصلابة الوجه ، وقلة الاستحياء ، وعدم مبالاة الإنسان بما يصنع أو يقول ، والماجن هو الذي يرتكب المقابح المردية ، والفضائح المخزية ، ولا يمنعه عذل عاذل ، ولا تقريع من يقرعه " ١ .

والمجـون " ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب العامة ، والعرف والتقاليد دون تستر أو استحياء " ٢ .

ويرتبط المجون في بعض جوانبه بالزندقة ، ويرتبط بالشعوبية ، وبالظرف ، وبالتفكه ، وتختلف درجات الشعراء في مراتب المجون حسب تفاوتهم في الأخذ بأساليبه ، وحسب إسهامهم في التعبير عن جانب من جوانبه ، أو الجمع بين عدة جوانب ــ أحيانا ــ كالجمع بين الغلاميات والخمريات ، أو بين الشعوبية والزندقة ، أو بين التفكه والظرف ، والاستخفاف بالآخرين ، والاستهزاء بقيمهم .

وكان من أسباب انتشار المجون وإقبال الناس عليه (اجتهاد بعض الفقهاء بالعراق في تحليل بعض الأنبذة ، كنبيذ التمر ، والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ، ونبيذ العسل ، والبُّر ، والتين ، فشرب الخلفاء هذه الأنبذة ، وشربها الناس ، وتهالك بعض الناس إمعانا في المجون على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء) ٣ .

ويعد المجون من الفنون الجديدة التي عرفتها البيئة الأندلسية في عصر الإمارة ، وله صلة وثيقة بالغزل وخاصة الشاذ منه ، ونشأة هذا الفن ترجع إلى ظهور موجة من التهتك ، حيث انتشرت الحانات ، ودور اللهو ، وكثرت مجالس المجُّان والخلعاء ، فضلاً عن اختلاط الأندلسيين بالبيئة المسيحية التي تعج باللهو ، وكثرة غلمان الفرنج الذين يتميزون بالملاحة والجمال ، ويبدو أن الغزل بالمذكر كان مألوفاً منذ وقت مبكر في البيئة الأندلسية ، ولم يقتصر على مجالس اللهو والمجون ، بل تعدى ذلك إلى أكثر المجالات وقاراً واصطناعاً للجدّ ، وهو مجال مدح الخليفة .

١- لسان العرب ، ابن منظور ج ٨ ، مادة : مجن .
٢- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د/ محمد مصطفى هدّارة ، دار المعارف مصر، ط ٣ (١٩٦٩) م ، ص : ٢٠٤ .
٣- العصر العباسي الأول ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٦ (١٩٩٥ م) ، ص : ٣٨٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويذهب (غرسيه غومس) إلى أن الغزل بالمذكر في الأندلس : " كان من الخصائص المميزة للعقلية العربية ، ورثته فيما ورثت من مشاعر البدو وميولهم " ١ .

لكن الدكتور (نافع محمود) يرد على هذا القول ـ وأنا معه ـ حيث يقول :" ونحن لا نوافق هذا الرأي ؛ ذلك أن الغزل بالمذكر لم تعرفه المجتمعات العربية إلا في العصر العباسي على يد أبى نواس وأمثاله ، وربما جاء ذلك من اختلاطهم بالأمم الأخرى ، فكيف قلد الأندلسيون العرب في ميولهم، وإن ذلك كان ميراثاً لمشاعر البدو ؟ مع أن البدو لم يعرفوا هذا اللون من الغزل ، ولم يطرقوه في أشعارهم " ٢ .

على أن معاني الغزل بالمؤنث انتقلت إلى الغزل بالمذكر ، فتغزل الشعراء بالعيون ، والخدود ، والشفاه ، وتغنوا بسحر الألحاظ ، وأفاضوا في تصوير الأوصاف الحسية ، كل ذلك وصفوه بأسلوب يمتاز بالرقة والعذوبة ، كما نلمس ذلك في قول ابن عبد ربه :

بذِمَامِ الهَوَى أمُتُّ إليه ... وبحُكْم العُقار أقضى عَليهِ
بأبي مَنْ زَهَا عليَ بوجْهٍ ... كادَ يَدْمى لما نظرتُ إليهِ
كُلَّما علّني من الرَّاح صِرْفاً ... عَلّني بالرُّضاب من شَفَتيه
نَاولَ الكأسَ واستمالَ بلحظٍ ... فسقتني عيناه قَبْلَ يَدَيْه ٣

وأما المجون عند الغزال ، فالحق أنه لا يعكس سلوكه الذي عرفناه عنه ، لكن ربما الذي دفعه إليه نوع من المجاملة ، مما تتطلبه أمور السفارة والسياسة ، وذلك مثل غزله في الأمير ميشيل ابن الملكة نود ، وكان على جانب من الحسن والبهاء .

---

١ ـ الشعر الأندلسى ، ص :١١٢ـ ١١٣ .
٢ ـ اتجاهات الشعر الأندلسى ، ص: ٢١١ ـ ٢١٢ .
٣ ـ أبو عمر : أحمد بن عبد ربه ابن حبيب بن سالم الأديب الإمام صاحب العقد الفريد من أهل قرطبة ، كان جدّه الأعلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، وكان ابن عبد ربه شاعرا مذكوراً ، فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدباء ، وجمعها له شعر كثير منه ما سماه الممحصات ، وهى قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد ، وقد ولد في عام (٢٤٥ هـ ـ ٨٥٩ م) ، وتوفى عام (٣٢٧ هـ ـ ٩٣٩ م) .
انظر الترجمة في : ـ كتاب الأعلام ، ص: ٦٩.
ـ والأبيات في : ديوان ابن عبد ربه ، أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي ، تحقيق/ محمد رضوان الداية ، دار الفكر بدمشق ـ سوريا ، ط٢ (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م) ، ص : ١٩٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي قصيدته التي تغزل فيها بابن الملكة (نود)، يقول ابن سعيد في المغرب : " إن الملكة جاءت ليلة بخمر ، وقالت له: اشرب هذه مع ابني هذا ، وكان غلاماً بديع الجمال ، فذكر الغزال أن ذلك لا يجوز في دينه ثم ندم " ، وقال هذه القصيدة التي يبدؤها بوصف الغلام بأنه أغيْد ، وهى صيغة على وزن (أفْعَل) ، دلالة على مدى ليونة أطرافه ، ومدى رقته ، وعينه كحيلة ، وعنقه طويل ، وواضح أنها كلها صفات تمتدح في الأنثى ، ثم يكمل وصف جماله ، بأن ريعان الشباب وتورد وجنتيه يلوح بارقاً ولامعاً كالسيف المصقول ، وهو من أصول كريمة سواء من جهة أعمامه أو أخواله ، ثم يعود الغزال إلى وصف الغلام بأوصاف حسية ، يقول الغزال من الوافر :

وأغْيَدَ ♥ لَيِّنِ الأطْرافِ رَخْصٍ ... كَحِيلِ الطَّرْفِ ذِي عُنُقٍ طويلِ
تَرَى مَاءَ الشَّبَابِ بِوَجْنَتَيْهِ ... يَلُوحُ كَرَونقِ السَّيْفِ الصّقيلِ
مِنَ أبْناءِ الغَطارفِ ♥ قَيْصَري ... العُمُومةِ حِينَ يُنْسَبُ والخُؤول
كَأنَّ أديمَهُ نِصْفاً بِنَصِفٍ ... منَ الذَّهَبِ الدُّلاص ♥ أو الوذِيلِ♥
وَرُبتَما أكَرِّرُ فِيهِ طرْفِي ... فأحْسَبُ انَهُ مِنْ عَظْمِ فِيلِ
علَى قَدِّ سواءٍ لا قصيرٍ ... فَتَحقِرَهُ ولا هُو بالطويلِ
ولكِن بَيْنَ ذلك فى اعْتِدالٍ ... كَغُصْنِ البَانِ في قُرْبِ المَسيلِ ١

ويتطرق الغزال إلى ما كان من الغلام الذي كان يديم النظر إليه ، ويكثر من زيارته بالأصيل ، فجاءه يوماً بزِقّ خمر طيبة الريح كالمسك ليشربها معه ، ويبيت عنده ، وجاءت أمه معه مثل الظبية ومعها ولدها الرشأ كحيل العين ، فتوصيه بابنها وبأنها تخشى عليه البرد في الليل الطويل .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ص : ٣٦٣ .
** ورد الشطر الأول من البيت الأول في كتاب المُغرب ص٥٨ هكذا :
وأغيد لين الأعطاف رخصٍ ... كَحِيلِ الطَّرْفِ ذي عُنُقٍ طَويلِ
♥ أغيد : مالت عنقه ولانت أعطافه .
♥ الغطارف : الغطريف وهو السيد .
♥ الدلاص : اللين البراق .
♥ الوذيل : الفضة المجلاة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأجاب الغزال : بأنه ليس من أهل الفضل والخلق ، وهذا حمق منه وسوء تصرف باعترافه ، ويختم قصيدته متعجباً من هذه الهفوة ، أو السقطة التي أخطأ فيها، لائما نفسه على عدم التعقل في الرد :

يَحِـــنُّ إليّ مُطرّفـاً لِشَـكْلِـي ويُـكْثِرُ لي الزِّيَـارَة بالأصِيـلِ
أتَـى يَـومْاً إلىّ بزقِّ خَمْـــرٍ شَـــمول الرِّيح كالمِسْكِ الفتِيلِ
لِيشرَبَهَا مَعِـي وَيَبيـتَ عِنْـدِي فيثبُـــتَ بَيْننَـــا وُدُّ الخلِيـــل
وَجَـــاءَتْ أمُّـــــهُ مَعَـــهُ فكَانَـا كأمِّ الخِشفِ ♥ والرَّشأ الكَحِيـلِ
تُوصِّيني به وتقول : أخْشَى عليه البَـرْدَ في الليـْل الطويـل
فقُلْـــتُ حَمَاقَـــة مِنِّـى ونوْكَـا فَدَيتُـكَ لَسْتُ من أهل الشمُولِ
فأية غـرّةٍ سُبْحَـــان ربِّـىٌ لـو أنِّى كُنتُ مِنْ أهْل العُـــقُـول ١

ثم أنتقل إلى القصائد التي حاول بعض النقاد أن يظهروا فيها الغزال بصورة غير لائقة ، ويروا أنها كانت سببا رئيسيا في حملة الغزال على المرأة ، وهى القصائد التي يتحدث فيها الغزال عن إصابته بالعنة ، وعجزه عن معاشرة النساء .

ومن هؤلاء الدكتور الغريب حيث يقول : " إن حملة الغزال على المـرأة كانت في مرحلة متأخرة من عمره ، فإذا عرفنا أنه كان معمراً ، وأنه عـاش أكثر من تسعيـــن عاماً ، وأنـه قال ثلاث قصائد في وصف نفسه بالعجز عن مباشرة النساء ، وهو ما يعرف بفن التعنين " ٢ .

ولعل العامل الذي ساعد على رسم تلك الصورة عن الغزال ، هو ذيوع تلك القصائد في المشرق ، حتى أن الغزال لا يكاد يُعرف إلا بها .

فقد روى المقري أن عتبة التاجر قال : " وجهني الأمير الحَكَم وابنه عبد الرحمن إلى المشرق ، وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قِبَل المأمون فلقيته بالعراق ، فسألني عن هذه القصيدة التي يقول في مطلعها الغزال : خرجت إليك وثوبها مقلوب ، هل أحفظها للغزال ؟ قلت : نعم ، فأستنشدنيها فأنشدته إياها ، فَسُـرَّ بها وكتبها ، قال عتبة : ونلت بها حظاً عنده " ٣ .

١ـ المصدر السابق .
♥ الخشف : ولد الظبي .
٢ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ على الغريب ، ص : ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
٣ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقبل أن أدلى برأي في هذا الموضوع ، أشير إلى تلك القصائد .

وأبدأ بالقصيدة الأشهر وهى التي وردت بروايتين :

الأولى أوردها المقري في النفح ، والأخرى أوردها ابن دحية في المطرب .

أما رواية النفح : فنرى فيها الغزال يفتتح قصيدته مخاطباً نفسه ومتحدثاً عن هذه الجارية التي خرجت إليه ، وقد قلبت ثوبها الداخلي وقلبها مضطرب تُسمع خفقاته طرباً إلى الشاعر ، ثم يشبهها بالظبي الذي أصابه الفزع وهو بالفلاة ، ويصف جمال ابتسامتها ، وروعة ثغرها ، وبياض أسنانها التي تشبه الدر النضيد الذي يخلو من العيوب .

ونرى الشاعر يصف حالته ساعة ظهور هذه الجارية على هذه الهيئة ، فتملكه الشوق وداعي الصبا ، فتاقت نفسه إلى داعي الضلالة والغواية ، وهو طَرِبٌ مسرور ، والجارية حسبته مغرما مثلها ، وهى في ريعان الشباب الرطيب ، يقول الغزال من الكامل :

خَرَجَتْ إليك وثوبُها مقلوبُ ... ولِقلبها طَرَباً إليكَ وَجيبُ ♥

فكأنها في الدَّار حِينَ تعَرَّضَتْ ... ظَبْيٌ تَظَلَّل بالفَلا مَرْعُوبُ

وتَبَسّمَتْ فأرَتْك حِينَ تبَسَّمَتْ ... مَصْفُوفَ دُرٍّ لم تَشُبْهُ ثُقُوبُ

وَدَعتْك دَاعِيةُ الصِّبا فتطربت ... نَفسٌ إلى داعِي الضَّلالِ طَرُوبُ

حَسِبتْكَ في حَالِ الغَرامِ كَعَهْدِهَا ... في الدَّار إذ غُصْنُ الشبَاب رَطِيبُ ١

ثم ينتقل الشاعر في التفات جميل ، حيث ينتقل من ضمير المخاطب في الأبيات الخمسة الأوّل إلى ضمير المتكلم بعد ذلك ، فيقول : إنه قد عرف ما في نفس الجارية ، ورغبتها العنيفة ، فضمها إليه ولانت له في استرخاء ونعومة ، ثم يواصل الشاعر وصف ما حدث بعد ذلك بينه وبين الجارية في صراحة غير معهودة ، قل نظيرها في شعرنا العربي :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٢ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٥ .
♥ وجيب : وجب القلب وجيباً أي خفق واضطرب ، انظر : لسان العرب ، مادة : وجب ، ج ٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعرفْتُ ما في نَفْسِهَا فضمَمْتها ... فَتساقطتْ بَهْنانةٌ ♥ رُعْبُوبُ ♥
وقبضْت ذاك الشيء قبضة شاهن ... فنَزَا ♥ إلى عُضنك ♥ حُلبُوبُ ♥
بِيَدي الشِّمال ، وللشِّمال لَطافة ... لَيْسَتْ لأخْرى وَالأدِيبُ أريبُ
فأصاب كَفِّى منهُ حين لمسْتُهُ ... بَللٌ كَمَاءِ الوَرْدِ حين يَسيبُ
تَحَلّلتْ نَفْسِي لِلَذَّةِ رَشْحِهِ ... حتى خَشِيتُ على الفُؤاد يَذوبُ ١

وينتقل الشاعر موضحا ردة فعله ، حيث عجز عن التواصل مع الجارية ، وتحقيق رغبتها حتى لاح نور الصباح ، فتوجه إليها الشاعر متسائلاً ، وهو في حالة شديدة الخجل ألكِ حاجة ؟! فعجبت من سؤاله وسخرت منه سخرية شديدة ، وسبته بأمه ، وهو يودعها منصرفاً عنها :

فَتَقَاعسَ المَلعُونُ عَنْهُ وَرُبّما ... نادَيْتُهُ : خَيْراً ، فَلَيْس يجيبُ
وَأبى ، فحقّقَ في الإبَاء ، كأنّه ... جان يُقادُ إلى الرّدىَ مَكْروبُ
وتغَضّنَتْ ♥ جَنباتُهُ فكَأنهُ ... كِيرٌ ♥ تَقَادمَ عهده مثقوب
حتى إذا ما الصُّبحُ لاحَ عَمُودُهُ ... قَبَساً ، وَحَانَ مِنْ الظلام ذهُوبُ
ساءلتها خَجَلا : أما لك حاجة ... عندي؟! فقلت : سَاخِرٌ وحَرُوبُ
قالت حِرُ أمِّكَ : إذا أردتُ وَدَاعَها ... قَرنٌ وفيه عُوارِضٌ وشُعُوبُ ٢

وأما رواية المُطرب ، فنرى الشاعر فيها يفتتح قصيدته بطريقة الحكاية وبضمير المتكلم قائلا : إنه لم ينس هذا الموقف مع جارية اشتراها واسمها (لعوب) ، حيث برزت إليه مبدية جمالها وفتنتها وقد قلبت قميصها ، ويصفها بأنها حين تعرضت له مثل الظبي المتحير ، وكأنه في فلاة خائف وفزع ، ثم تمضى الأبيات بعد ذلك على النحو الذي سارت عليه في الرواية الأولى مع اختلاف يسير في بعضها ، يقول الغزال من الكامل :

١ـ المصدر السابق .
♥ بهنانة : هى طيبة النفس والأرج ، انظر : لسان العرب ، مادة : بهنن ، ج١.
♥ رعبوب : هى البيضاء الناعمة ، انظر : لسان العرب ، مادة : رعب ، ج ٤ .
♥ نزا : ما تحلب من الأرض من الماء ، انظر : لسان العرب ، مادة : نزز ، ج ٨ .
♥ عضنك : الغليظ الشديد والفرج المكتنز ، انظر : لسان العرب ، مادة : عضن ، ج٦ .
♥ حلبوب : الأسود من الشعر وغيره ، ويقال أسود حلبوب أى حالك، انظر : لسان العرب ، مادة : حلب ج٢ .
٢ـ المصدر السابق.
♥ تغضنت : هى مكاسر الجلد فى الجبين والنصيل ، انظر : لسان العرب ، مادة : غضن ، ج٦ .
♥ كير : هو كير الحداد زهز زق أو جلد غليظ ذو حافات ، انظر : لسان العرب ، مادة : كير ، ج ٧ .
♥ حر : هو الفرج وأصله حِرْحٌ ، انظر : لسان العرب ، مادة : حرر ، ج٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَمْ أنــس إذ بـــرَزَتْ إلىّ لَـــعُـوبُ طَـرباً وحيث قَمِيصُهَا مقْلُـوبٌ
وكَـأنَّهـــا فى الدار حيـــن تعرّضـــتْ ظَبْـيٌ تَـــدَلَه بالفَـــلا مَرْعوبُ ١

وبعد وقوف الغزال عاجزاً عن معاشرة الجارية ، نـراه يحـدثنا في قـصيدة أخـرى كيـف ذهب إلى الأطباء يسألهم عن دواء يعيد إليه قدرته وكفاءته بعد أن كـبرت سِـنّه ، وفـتر نـشاطه ، فنصحه الأطباء بشرب العسل ، ولكنه لم يُـجْد معه نفعاً ، فرجع إلـيهم فـسخروا وأجـابوه بـأن الشيخوخة ليس لها علاج ، ويستحيل أن يعود شاباً ، كمـا يـستحيل أن يعـود الميـت إلى الحيـاة ، فأصيب الغزال بالفجيعة ، وخيبة الأمل مثل الأم التي تتفجـع على ابنها حينما يأتيها الخبر بأنه قد قُـتل ، يقول الغزال من المتقارب :

سَـألتُ الأطِـبـــاءَ عَنْ بَعْـــض مَـا يُـعِينُ على ما يُـــــريدُ الرّجُـــــلْ
إذا ما الشَّـبـابُ انقَضَـى عَـهْـــدُهُ تَـولَّـى ووالتْ عليـــــهِ العِـــلَلْ
فَـسَمَّوْا عَـقَـاقيـــــر لى جَمَّـــةً فأكثرهم قـال شُـــــربُ العَسَـــلْ
وكُـلُّ الذى زَعَـــموا لَـيْـــسَ فى مُشاشِـــى لأجْمَعَـــه مُحْتَـمـــلْ
وَجَـرَّبْتُ ما اسْـطَـعْتُ مِنْ كُـل ما قَـدرتُ فَلَمْ تُـغْنِ عنِّـى الحِيـلْ
فَـعُدتُ إلى بَـعْضِـهـم سَائـــلا كَـذلك يَسْـألهم مَنْ جَـهـــلْ
فقال مقـــالا إذا مَا بَـــلاه بالِيـهِ لم يُـلفِ فيـه خَـــللْ
إذا اسْطَـعْتَ أن تَـستعيـدَ الشَّبَابَ فَـذاك وإلا فلا تَـشْتغِـلْ
أرَيْتُكَ هَـــذا الذى تبتغـــى لـه الطّبُّ يَنْهَضُ أو قد بَطَـــلْ
فقلت لـه : قـد وهى أصْـــلُهُ فـإن هَـــمَّ أسَلَمَـــهُ فانْجَـدلْ
فقال وَمَـعّـر لِـــى وَجْهَـــهُ فمَـــاذا تُـريـــدُ إذنْ يا رَجُـلْ ؟
رأيْـتَ الذى حَضَرتْـهُ الوَفَـــاةُ يَمُـدُّ الطَّبيـبُ له فى الأجَـــلْ
فأعْولتُ إعْـوالَ مَـفْـجُوعـــةٍ تُـخَـبَّرَ أنَّ ابنهـا قـــد قُـتِلْ ٢

١ـ انظر : ـ شعـر يحيى بن حكم الغـزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٢١ .
ـ المُطرب ، ص ١٤٩.
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٨ ـ ٢٠٩.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد .... فهذه هى القصائد التى حاول بعض النقاد أن يظهروا فيها الغزال بصورة غير التى عرفناها عنه ، والذى أراه أن الغزال لم يرد من وراء نظم تلك القصائد إلا المجاراة ، والسير على نهج شاعر مشرقى له شعر ساخر ضاحك فيه لذع أيضا ، والشاعر المقصود بهذه المجاراة هو راشد بن إسحاق المعروف (بأبى حكيمة) ، ومن طريف أخباره أنه كان ينظم شعرا فيه مجون ، حيث كان يسرف فى وصف عنته ، ورثاء متاعه ، ولكن شعره ذاك لم يكن أكثر من كلام للسخرية والدّعابة ، فقد كان فى حقيقته وسلوكه عكس ما كان ينظم من الشعر ، وما يقوله عن نفسه فى شعره .

وهكذا كان الغزال الذى حاول أن يثبت مقدرته الشعرية فى النظم والتصوير أمام شعراء المشرق فى مثل هذا الفن الشعرى .

ثم إن الغزال قد نظم هذه القصائد وهو فى سن متأخرة ، وقد أهرم وبلغ مرحلة متقدمة فى الزهد ، والحكمة ، وكثرة التجارب ، والخبرة بالحياة .

بجانب أن الغزال لم يُعرف عنه المجون فى شبابه .

وهل من المنطقى أن يكون ملتزماً فى شبابه ماجناً فى شيخوخته ؟!

كذلك فإن الغزال كان فى نزاع دائم مع القضاة والفقهاء الفاسدين ، فكيف يقول هذا الكلام عن نفسه ليعطى خصومه سلاحاً يهاجمونه به ويعيرونه ، وهذا أمر غير معقول ! !

ووجه آخر أفترضه لم لا تكون هذه القصائد نصائح يوجهها للشيوخ ، حتى يرتدعوا ويظلوا على وقارهم ، ولا يضعوا أنفسهم فى مواضع هُم فى غنى عنها ؟!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ ـ المـــــديح :

المديح هو فن شعري قديم مُوغِل فى القدم ، ويُقصد به : " تعداد للشمائل الحميدة والمزايا الكريمة ، وإظهار لعاطفة الإعجاب بالفرد أو المجموع ، أو شكران ليد بيضاء سابغة ، وكثيرون أولئك الذين ملكوا على الشعراء مشاعرهم وأحاسيسهم بما فيهم من بطولات نادرة ، وخلائق سمحة كريمة ، وأفعال جليلة عظيمة ، ولهذا كانت معظم المدائح فى الشعر العربى غنائية ، تصدُر عن إعجاب وتقدير فردى " [١] .

وفن المديح فى الشعر العربى من أبرز الفنون الشعرية وأوسعها انتشاراً ، وأكثرها ظهوراً فى كل العصور ، ذلك أن الشعراء ينظرون إلى خلفائهم وقادتهم ، فيعجبهم فيهم البأس ، والسماحة ، والحلم ، والحكمة ، والإباء ، والعدل ، وما إلى ذلك من خصال مستحبة وصفات طيبة ، وطبيعى أن الشعراء إذا كانوا يمدحون أولئك بمثل هذه الصفات إنما كانوا يجرون مع العُـرف السائد القائم على اعتبار تلك الخصال مثلاً أعلى ، يجب على الآخرين أن يتحلوا بها [٢] .

وأما المديح فى عصر الإمارة ، فلم يختلف كثيراً عن نظيره في المشرق من جهة وفرة دواعيه وكثرة شعرائه ، فقد كانت الدولة الأموية بأمرائها ، وخلفائها ، وحُكامها ، ورجالها مقصداً لشعراء الأندلس وغيرها من الأقطار ، على أن الشعر القديم الذي صدر عن شعراء المراحل الأولى من التاريخ الأندلسى فيما وصل إلينا قليل ، ولكنه يدل على هذا الذي أذهب إليه من استمرار هذا التيار من الأغراض الشعرية ، ووجود الشعراء المجوّدين فمنهم أبو القاسم عباس بن فرناس (أواخر القرن الثالث ـ إلى نحو ٢٧٤ هـ) الذي كان جالساً مرة عند أحد ولاة (عبد الرحمن الأوسط) واسمه (محمود بن أبى جميل) ، فغنى ابنٌ لزرياب :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني ... حَمامٌ تداعت في الديار وقوعُ
تداعين فاستبكين مَنْ كان ذا هوىً ... نوائح ما تجرى لهنّ دموعُ

فلما انتهى أخذ عباس بن فرناس العود ، وغنى بهذين البيتين المذكورين ، ثم زاد من عنده ارتجالاً يمدح صاحب المجلس :

شدَدْتُ بمحمودٍ يدا حين خانها ... زمانٌ لأسباب الرّجاءِ قطُوعُ
بنى لسماع الجود والمجد قبّةً ... إليها جميع الأجودين ركوعُ ! [٣]

١ـ مروان بن أبى حفصة وشعره ، قحطان رشيد التميمى ، مطبعة النعمان ، بغداد ، ص : ١٤٦ .
٢ـ انظر: المرجع السابق ، ص : ١٤٧ .
٣ـ طبقات اللغويين والنحويين ، الزبيدى ، القاهرة ، ١٩٥٤ م ، ص :٢٩١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما عن المديح عند الغزال فيعد قليلاً في شعره الذي وصل إلينا ، وكان كله موجهاً إلى أمراء البيت الأموي ، فنجد للغزال ثلاث قصائد تتمايز فيما بينها .

والمديح عند الغزال تقليدي جرى فيه على عادة المشارقة ، حيث وَصف الممدوح بالصفات التقليدية المعروفة من الخُلق والجمال ، وتمام الخَلق من صفات الكرم والشجاعة وغيرها ، وأيضا استقى من المديح في العصر العباسي الصفات الإسلامية يخلعها على الممدوح ، فيصفه بالتقي ، والعدل حتى أَمِنَ الناس ، ونعموا معه بالأمان والاستقرار ، بجانب اقتباسه أيضا من شعراء المشرق في العصر العباسي ، حيث ثورتهم على الأطلال ، ورفضهم الوقوف عليها ؛ خاصة أبو نواس مما يؤكد تأثر شعراء عصر الإمارة بالأندلس بشعراء المشرق في العصر العباسي .

ففي القصيدة الأولى أرى الغزال يمدح الأمير (الحَكَم الرَّبضى) مباشرة من دون مقدمات ، فتساءل تَساؤُلَ الحائر : من أي جهة يمكنه أن يمدح الأمير ؟ ثم انتقل إلى مجموعة من السمات الاجتماعية التي يُمْدَح بها الملوك ، فمدحه بالسيادة والشجاعة والعُلا ، فأعظم الملوك يخضع بين يديه ، وقد غدا مسيطراً على السخط والرضا بجبروته ، وعطائه قد أعيا حسابه العقول ، وماله ــ رغم العطاء ــ لا ينفد ، فقد فاق كعباً وحاتماً وعطاؤه أيضا متجدد بتجدد الأيام ، ثم ينعت الغزال الأمير الحَكَم بالتُّقي والبأس والعدل والندى ، وجعل أمان الأمير وِجَاء من غدر الزمان ، فأصبحت أرض الله بأمان الأمير آمنة ، ونَعِمَ الناس في ظله بالأمان والاستقرار ، يقول الغزال من الطويل :

فَــوَاللهِ لا أدرى وإني لشَاعِرٌ ... إلىَ أي وَجْهٍ مِنْ مَدِيحِك أقْصِدُ

كَأنَّ المُلوكَ الغُلَّبَ عِنْدَكَ خُضَّعاً ... خَوَاضِعُ طَيْرٍ تتَّقى الصَّقْرَ لُبَّدُ

تُقلِّبُ فِيهِمْ مُقْلَةً حَكَمِيَّةً ... فَتَخْفِضُ أقواماً وقوْماً تُسَوِّدُ

وإنَّك تُعطى ما قد أعْيَا حِسابُهُ ... العُقُول فَمَا تَهْدَى له كَيْفَ يُعْقَدُ؟

وَتُعْطى وَتُعْطي ثُم تُعْطي كأنما ... تُريد نَفَاد المَالِ لو كَانَ يَنْفَدُ

مَضَى ما مَضَى مِنْ ذِكْرِ كَعْبٍ ... وَحَاتِمٍ فَقِيلَ هُمَا مِنْ سَائِرِ الناس أجْوَدُ

وَبَعْضُ الذي تُعْطِى كأثمان طيِّىءٍ ... وعَشْرَة كَعْبٍ حَيْثُ غَاروا وَأنْجَدُوا

فَهبْنِي كَبَعْضِ المَادِحِينَ أجزْتَ ... ٠٠٠ هُمْ ببعض عطاياك التي لا تُصَرَّدُ

وجدتُ التَّقى والبَأسَ والعَدْلَ والنَّدى ... إليْك إذا ما استقصى الوَصْفُ تُسنَدُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَمَنْ تُـؤْمِنُوهُ فهو للدّهْر آمِنٌ وَمَنْ لا يَعِشْ ما عاش وهُوَ مُطْرَدُ
ويحسب أرضَ الله في كُلِّ وجْهَةٍ حَبَائِلَ ألقاهَا لهُ المُتَصيِّدُ
وفى بَيْعَةِ الصِّدِّيق قد قيل: فَلتةٌ وقد أكثَرُوا فيها المَقال وفنَّدوا
ولا عُمَر الفاروقَ مَا جَمَع الهَوى وَمَا مِثلهِ فى ذلك الدّهْر يُوجَدُ [1]

ثم أصل إلى أشهر قصائد المدح عند الغزال ، وهى القصيدة التي توجه بها إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي سجنه بعد ما بَدَر منه في قصة الأهُراء ـ التي ذكرت في السابق ـ وقد حاول من خلالها أن يستعطف قلب الأمير لكي يعفو عنه ، ويخرجه من سجنه ، وقد افتتحها الغزال بمقدمة غزلية ـ كنت قد أشرت إليها عند الحديث عن الغزل ـ حيث يقول الغزال من الطويل :

بَعْضَ تَصَابيكَ إلى زَيْنَبِ لا خيْر في الصَّبْوة للأشْيَبِ
أبعَدَ سِتينَ تَمَلَّيْتَهَا كَامِلَةً تَصْبُو إلى الرَّبْرَبِ
كُلِّ رَدَاح الرِّدْفِ خُمْصَانَةٍ كالمُهْرَةِ الضَّامِرِ لم تُركَبِ
أو دُرَّةٍ سَاعَةَ اسْتُخْرِجَتْ لم تُمْتَهَنْ بعد ولم تُثْقَبِ
مُشْرَبَة اللوْنِ مُتُوعِ الضُّحَى صَفْرَاءَ بِالآصَالِ كالمُذهبِ [2]

ولما كان دافع الغزال إلى تلك القصيدة هو أمر يمسه فإن لجوءه إلى افتتاحه بالغزل – على هذا النحو – يكون مناسباً لا شذوذ فيه ، إذ يرى بعض النقاد أن من حق الشاعر " إذا نظم قصيداً أن ينظر ، فإن كان مديحاً صِرفاً لا يختص بحادثة من الحوادث ، فهو مخير بين أن يفتتحها بالغزل ، أو لا يفتتحها ، بل يرتجل المديح ارتجالاً من أولها ، وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل ، أو هزيمة جيش أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، وإن فعل ذلك دلَّ على ضعف قريحة الشاعر ، وقصوره عن الغاية ، أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه " [3] .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥١ ـ ١٥٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٢٥٤.
* لبّد : أقام به ولزق ، انظر : لسان العرب ، مادة : لبد ، ج٨ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ ـ ١٢٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص :٣٦٧ .
٣ـ المُثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، مطبعة نهضة مصر الفجالة ، ط ١ (١٩٦٠ م) ، ص : ٩٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأعود إلى قصيدة الغزال حيث نراها بُـنْـيت على محورين :

الأول : أرى الغزال يتحدث فيه عن صفات الممدوح على وجه الاختصار ، فهو إمام الهدى ، وقد ورث المجد أباً عن أب ، واستمال الأمير أن يفك قيده ، فهو يُذكّره بأحد العُمرين : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد على ذلك في مدحه بأن جعل الخلافة العباسية في المشرق ، تتمنى لو تُسْلِم قيادها إليه ، ليصبح هو الخليفة في المشرق والمغرب ، ثم يعود الغزال إلى وصف الأمير ، فيصفه بالجمال والسخاء ، يقول الغزال:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى إمَامَ الهُدَى ... والوَارثَ المَجْدِ أبَاً عَنْ أبِ
أنِّى إذا أطْنَبَ مُدَّاحُهُ ... أوْجَزْتُ في القَوْلِ فَلَمْ أطْنِبِ
لا فَكَّ عَنِّى اللهُ إن لم تَكُنْ ... أذْكَرْتَنَا عن عُمَرَ الطَّيِّبِ
كَالكَاعِبِ الفَارِكِ قد أنكِحَتْ ... مَنْ لم تُلائمْهُ ولم يُنْجِبِ
إلى جَمِيلِ الوَجْهِ في هَيْئَةٍ ... كَهَيْئَةِ الضّرْغَامَةِ المُغْضَبِ
لا يمكن النَّاظِرُ تأمِيلَهُ ... إلا التِمَاحَ الخَائِفِ المُذْنَبِ
يَخْضَرُّ ما يَلْمِسُ مِنْ يَابِسٍ ... وما يَطَأ مِنْ مُجْدِبٍ يُعْشِبِ
كان امرؤٌ أهْدَى إلى بَعْضِنا ... كُوزاً مُصَرَّاةً على طِيبِ
كأنه إذ نَزَعُوا طِينَهُ ... قَرَنْفُلُ نُظِّمَ في مُحْلَبِ
فَاهْتَزَّتِ النَّفْسُ سُرُوراً بِهِ ... وانْشَرَحَ الصَّدرُ ولم أشْرَبِ [1]

وأما الآخر : فيتحدث عن مشكلته مع الأمير ، ويصف حالته في السجن ، وشدة معاناته ، وتأله في محبسه ، ويستعطف الأمير في العفو عنه ، مؤكداً أنه لم يجمع المال ، ولم يكسب ، ولم يخن الأمانة ، وانتهى الأمر بعفو الأمير عنه ، وإخراجه من سجنه:

وَكَان مِنِّى هَكَذا دَفْتَرٌ ... أعْدَدْتُهُ للفِقْهِ لم يُكْتَبِ
ثُرتُ إليه وتَنَاوَلتُه ... وَكُنْتُ في دهري منَ المُطْرَبِ

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣ .
ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نَـقَرْتُ فيه نَـقـرَةً سَاعَـــةً أشِيـــرُ بالــرَّأس وَبالمَنْكَــبِ
فالرِّجْلُ فى مَوْضِعِـها لم تَــرِمْ مَخَافَةَ الكَبْلِ على أكْعُبِــي
حَتَّـــى إذا ما طَرَبي جَــدَّ بي واللهْوُ إنْ تَرْكَبْهُ يَسْتَرْكَـبِ
قُمْـتُ برجْلِى على وَثْـبَـــةٍ فأوْجَعَتْنِي حَلَـقُ العَقْـرَبِ
وَاسْتَـــضْحَكَ القَوْمُ فأنْبَأتُهُمْ أنَّ الذى يَحْبسُنِى غَرَّ بِـــى
إنْ تُرِدِ المَـــالَ فإنى امْـــرُؤٌ لم أجْمَع المالَ ولـم أكْسَـبِ
وإنْ يَرِدْ زَفْـنَاً يَجِـــدْ بى إذا كلفته أحَـدَ الظُّـــرَّبِ
قد أحْسَنَ الله بنَا عــنـدما كان الذى اسْتَوْدَعْتُ لم يَذْهَـــبِ
إذا أخَذْتَ الحَــقَّ مِـنِّــى فلا تلتمس الرِّبْحَ وَلا تَـــرْغَـبِ [1]

ويواصل الغزال مدحه للأمير عبد الرحمن الأوسط فى قصيدته الأخيرة التى يستعيض فيها عن المقدمة بحديث عن شعره في أربعة أبيات ، على غير عادة الشعراء فى الفخر بالشعر ، حيث جرت العادة على أن يختم الشاعر قصيدته بالفخر بشعره من بين ما يختاره من خواتيم لقصائده على نحو ما صنع البحتري ، حيث (يرد فخره بشعره فصل الختام فى القصيدة ، وهو موقف يتكرر كثيراً أيضا ربما كان الشاعر يهدف منه إلى ترك الإحساس في ممدوحه بالرضا عن هذا الفن الذي يحاول فيه الإجادة ؛ ليقدمه إليه وربما كانت دعوة أخرى غير مباشرة ؛ لزيادة العطاء وتسجل له هذه الظاهرة في خواتيم سبع وعشرين قصيدة) [2] .

وأعود إلى قصيدة الغزال ، فأجده في هذه الأبيات الأربعة يعترف بعجز الشعر عن مكافأة الأمير ، ثم شبه قصائده – التي أهداها له – بالإبل السريعة التي تمتاز بطول العنق وهذا مدح لها، ثم إنها قصائد أصيلة من بنات أفكار الشاعر غير مصنوعة ، والدليل على ذلك – بذاك – يدلل على بُعْد شعره عن التكلف والصنعة ، يقول الغزال من البسيط :

---

[1] ـ المصدر السابق ، ص : ٢٥ .
٢ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنَّ القصَائدَ لم يُجْزئكَ ♥ مُجْريها إلا وقد عُقِدَتْ منها نَوَاصِيهـا
وَسَرَّحُوهُنَّ مَمْدوداً أعِـنَّتُـهَـا تبارزُ الرِّيحَ كُلُّ القَوْمِ يَرْجُـوها
بَكْرِيَّةٌ النَّجْــر♥ لا مما يُلفقُـهُ المُلفِّقُونَ طَـريفـاتٌ مَعَانيـها
فيها نَـتَـائجُ لم آخُذْ برَائعـهـا مِـنْ شعْر آخَرَ قبْـلي قد كَفَانيها [1]

ثم أجد الغزال – في الأبيات الأربعة التالية – يتحدث عن ثورته على الأطلال على نحو ما فعل أبو نـواس في المـشرق ، إذ أراه يفخـر بأنـه لم يجـر في قـصيدته مجـرى الأعـراب مـن وصـف للصحارى الغبراء ، أو بكاء على الأطلال ، أو وقوفه عليها متأملاً جَزِعاً ، لكنه اسـتعاض عـن كـل ذلك بمدح الأمير ، الذي قصرت عنه الصفات ، إذ لم تـتمكن من مشابهته :

لم أجْرِ فِيهَا مِنْ الأعْرابِ وَصْفُهُمُ تلْكَ المَهَامِـــهَ مُغْبَـرا فيَـا فِـيهَـــا
ولا بَكَيْتُ على أطْلال مَنْزلةٍ قَـفْر تُـوارِدُ ♥ فِيهَـا العَيْـنُ صَبـيهَـا
ولا رَمَيْتُ بطَرْفي إثْـرها جَزَعـاً قد شَفَّ نفسي ♥ في زَعْمي تَصَابِـيها
أبو المُطرف بَادي كُـلِّ مَكْرُمَـة نَـعُـــدُّها لِكَـــــريم أو نُـسَمِّـــيهَا
لكن قصَدتُ إلى مَدْح امْرِيء قصُرَتْ عنه الصِّــفاتَ فلَم تبلغه تَشْبِـيـــهَـــا [2]

ثم أرى الغزال بعد ذلك يقدم لنا مجموعة من القيم الخلقية ، والتي خلعهـا علـــى المـدوح فهو سيد إذا أقبل بدت صورته مشرقــة متلألئة تشبه الشمس فـلا تـستطيع العـين إمعـان النظـر فيها، وهو أيضا ثاقب الفكر ، وهو همام يغـاير كـل البـشر ، ثـم يبـالغ الـشاعر حينمـا يجعـل المـدوح خير مَنْ حملته الأرض إذا استثنينا من ذلك الأنبيـــاء فقـط ، ثـم يخـتم لوحـة المـدح بصورة طريفة ، حيث يجعل منابر أرض الشـرق في شـوق إليه ، حتى إن المطايا تُبغض ركَّابها شوقاً إليه :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٧ ــ ٢٤٠ .
ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .
♥ يجزئك : يقنعك ويكفيك .
♥ النجر : الأصل .
٢ـ المصدر السابق .
♥ التوارد : هو تواصل العين صَبْى دموعها ، أي ميلها وانحدارها ، انظر: لسان العرب ، مادة : ورد ، ج٩ .
♥ شفَّ نفسي : أحرقها ، وأظهر ما بها من جزع ، انظر : لسان العرب ، مادة : شفف ، ج ٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَرْمٌ ♥ إذا رُفِعَتْ عنه السُّتورُ لنـا ... لاحتْ له سُـنَّـــةٌ ♥ يُغْشَى تَـلالِيهَا

كالشمس تَـرْجِعُ عنها العَيْنُ حَاسِـرةً ... يَـكَادُ ما جَشَمَـــتُ مِنْ ذاك يُغْـشِيها

وما تَـكَلَّفَ منهُ الفِكْرُ منزلـــةً ... إلا تحَيَّـــر فى أدْنـــى الذي فيهـا

هو الهُمامُ الذى ما مِثْـلُـهُ بَشَـــرٌ ... مِنْ نَـسْـلِ آدم مَاضيها وبَاقيهَا

يا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْهُ الأرْضُ مُذْ سُطِحَتْ ... حَاشَى الذين أحاشِى مِنْ نَبيِّـــهـا

هَذِى مَنَابرُ أرْض الشَّرق قد جَـنَـحَتْ ... شوقاً إليكَ وهَزَّتْـهَا خَوَافيهـا

شُـزْرُ العُيُونِ ♥ إلى رُكَابِهَا أنُـفٌ ... لَحْظَ الفَوَارِكِ ♥ ما تَخْفَى تَـقَـاليهَا[1]

وهكذا جاء المديح عند الغزال تقليدياً في مجمله سار فيه الشاعر على نهج المشارقة ، وإن كان هنـاك بعض الطرافـة والجدة في المعاني والأفكار وبناء القصيدة ، حيث لاحظنا فـى القـصائد الثلاث أن :

إحداها : بدأت بالغزل بداية تقليدية .

والثانية : تمرد فيها على المقدمة الطللية .

أما الأخيرة : فقد بدأها مفاخراً بشعره مما يعطى قدراً من التنوع والتجديد عند الغـزال حتـى في الغرض الواحد .

١ـ المصدر السابق .

♥ القرم : السيد المعظم المقدم فى المعرفة وتجارب الأمور ، انظر : لسان العرب ، مادة : قرم ، ج ٧ .
♥ السُّنَّة : الصورة وما أقبل عليك من الوجه ، وسمى الوجه بذلك ؛ لصقالته وملامسته .
♥ شزر العيون : هو النظر على غير استواء بمؤخر العين ، انظر : لسان العرب ، مادة : شزر ، ج ٥ .
♥ الفوارك : جمع : فارك ، وهى المرأة المبغضة لزوجها ، انظر : لسان العرب ، مادة : فرك ، ج ٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٤ ـ الهـجـــــاء :

الهجاء (مصدر هجا يهجو ، يعنى السب وهو تعداد للمعايب ، وكشف لبـشاعة الرذائـل والنقائص في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، ومـن البـاحثين مـن يذهب إلى أن في الهجاء إصلاحاً للأخلاق لما تحمل عليه من تجنب الرذائل الموجبة للهجو) [١] .

والهجاء فن قديم ، عاطفة البغض والغضب ، والميل الفطري إلى نقد النقـائص والمعايـب ، فهو من الفنون الأدبية الغنائية التي عرفتها الآداب العالمية ، ووجدت في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي ، وهـذا الوجـود أمـر طبيعـي مـرتبط بوجـود أنـاس مـستحقين الهجـاء ، وهـذا الفـن ذو مجريين : شعري ونثرى .

و (إذا كانت الآثار الفنية ومنها الهجاء إفراغ طاقة عاطفية)[٢] ، فإن الشاعر يلجأ إليـه ليتخفف عن طريقه عما يحسه في أعماقه من كبت وحرمان وأذى في الحيـاة كـبير ، فهـو (وسـيلة فنية يتوسل بها الشاعر ؛ للتنفس عمـا تـضيق بـه نفـسه هـو مـن معانـاة تـثير فيـه الغـضب علـى المصاعب ، والعراقيل التي تحُول دون نيل الأهداف ، والغايات المرغوب فيها) [٣] .

وأما عن الهجاء في عصر الإمارة فقد كان من الفنون التي اتجه إليهـا الـشعر الأندلـسى ، وقال فيه الأندلسيون غير أنهم لم يشتهروا به كما اشتهر المشارقة الذين تفننوا فيه ، فلم تكـن لـه فى الأندلس سوق رائجة ، ولم يحرص الأندلسيون على إذاعته والإكثار منه حرصهم على غيره من الفنون .

والذي أثر لدينا من شعر الهجاء قليل لا غناء فيه ، وربما يرجـع ذلـك إلى أنـه ضـاع مـن التراث الأدبي في الأندلس ، فضلاً عن أن كثيراً من المؤلفين أحجموا عن إثباته والاهتمام به مـا أثَّـر في قلته [٤] .

---

١ ـ عنوان الأريب ، محمد النيفر ، المطبعة التونسية ، ط١ ، ص : ١٧ .
٢ ـ علم النفس والأدب ، د/ سامى العانى ، ط دار المعارف ، ص : ٣٨ .
٣ ـ علم النفس في الحياة العملية ، د/ برنهارت ، ترجمة د/ إبراهيم عبد الله ، ط الرابطة ، سنة ١٩٥٥ م ، ص ٢٧ .
٤ـ انظر : اتجاهات الشعر الأندلسى ، ص : ١٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و(ابن بسام) يؤكد ذلك فى ذخيرتـه إذ يقـول : " وقـد صُـنْتُ كتـابى عـن شـين الهجـاء وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء " [١] .

وإذا كان كتاب الذخيرة لم يكن فيه إثبات لمثل هذا اللـون ، وهـو كتـاب مرجعـي أساسـي للشعر ، فإن كثيراً من المؤلفين قد فعلوا مثـل ذلـك ، فـلا نجـد فـى نفـح الطيـب والحُلـة السيراء والقلائد والمطمح والمُعجب والمُطرب وغيرها من المؤلفات الأندلسية شيئاً من الهجاء ، اللهم إلا أبيات قليلة جداً لا تـقوى على أن توضح لنا خصائص هذا الاتجاه من الشعر ، ولكن يمكن أن نقول :" إن الأندلسيين لم يبلغوا في هذا اللون من الشعر مبلغ المشارقة ولم يبرعوا فيه براعتهم " [٢] .

فالشعر الأندلسى لم يخل من الهجاء ، فقد اقـتفى الأندلسيون أثـر المـشارقة مـع اخـتلاف فيمـا بينهم من حيث طول الهجاء وقصره ، فالهجـاء عنـد المـشارقة تكثـر فيـه القـصائد الطـوال ، وتقـل فيـه المقطوعات ، وهذا على عكس ما يلحظه الدارس في هجاء الأندلسيين ، حيث تكثر فيـه المقطوعـات وتكـاد تنعدم فيه الطوال ؛ ذلك لأن الحياة الأندلسية وصخب الأحـداث فيهـا دعـت إلى عـدم الإطالـة في القـصائد عموماً في حين أن الهجاء كان يستلزم ذلك ليحقق الشاعر بأبياته القليلة التي يركز فيها معاني محددة مـا يرجو من سرعة إيلام المهجو . لهذا نجد أن الهجاء في الأندلس لا يندمج في قصيدة مطولة مع فنون أخـرى كالمدح ، أو الفخر ، أو ما أشبه ذلك مثلما كان الأمر في الجاهلية ، وإنما هو فن مستقل يقصد الـشاعر إليـه قصداً ، ويخصص له مقطوعة بعينها لا يشرك معه فيها غرضاً آخر من أغراض الشعر [٣] .

هذا وقد أخذ الهجاء في حقبة عصر الإمارة عدة اتجاهات :

إما أن يكون الهجاء ملاحاة بين اثنين يفصح عمـا بينهمـا مـن أحقـاد ، كمـا نـرى عنـد مؤمن بن سعيد الذي يهجو على بن نافع المعروف بزرياب بقوله :

شكـــوت إليه الشـــوق لما تحملوا شكاية محزون من البـيع جـازع
فقالت وكيف البين تمري دموعها ونـار الهوى تهتاج بين الأضالع
استبصر أو تبكى من الشـوق مثلمـا بكى الخز من إبطي على بن نـافع [٤]

١- الذخيرة ، ابن بسام ، ج١، ص : ٣٥٦ .
٢- اتجاهات الشعر الأندلسى ، ص : ١٦٩ .
٣- انظر : ــ فصول في الأدب الأندلسى ، ص : ١٠٥ .
ــ اتجاهات الشعر الأندلسى ، ص :١٦٩ ـ١٧٠.
٤- التشبيهات ، ص : ٢٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهناك هجاء يعتمد على التصوير لا على اللفظ ، وعلى التجسيم والتشخيص لا السب والشتم والمهاترة ، ويبتعد كثيراً عن الهجاء الذي يتضمن أنواعاً فاحشة من الاتهامات والقذف ، فابن عبد ربه يهجو بخيلاً ، فيصف بخله وصفاً جميلاً وبأسلوب فيه دقة وطرافة ، فيقول :

صحيفة أفنيت ليت بها وعسى عنوانها راحة الرجي إذا يئسا
براعة غزني منها وميض سنا حتى مددت إليها الكف مقتبسا
فصادفت حجراً لو كنت تضربه من لؤمه بِعَصَا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من بخل ومن كذب فكان ذاك له روحا وذا نفسا [1]

وهناك نوع آخر من الهجاء وهو الأشهر في عصر الإمارة ، وهو هجاء القضاة والفقهاء المرائين ، والمكتسبين بالعلم والزهد ، وهذا النوع من الهجاء أقرب للنقد الاجتماعي ، وقد احتفظ لنا الخشني بصور مشرقة لكثير من قضاة الأندلس الذين عرفوا بالنزاهة ، وشهروا بالتقوى والورع غير أن بعض القضاة حادوا عن الجادة ، فلم يتحرجوا من قبول الرشوة سعياً لتحقيق كسب رخيص ، وتهاون بعضهم في إقامة الحدود ، وقد تصدى الشعراء لأمثال هؤلاء القضاة ، فأكثروا من هجائهم ، وتتبع ذلاتهم ، وانتقاد تصرفاتهم المخزية [2] .

وكان من أشهر الشعراء الذين تصدوا لهؤلاء شاعرنا يحيى بن حكم الغزال ، وقد اشتهر في عصره بشعره الهجائي اللاذع ، وضخّم أصحاب كتب التراجم هذا الجانب غير أن ترجمة الغزال التي سجلها الحُميدي وروى فيها عن ابن حزم ، تعطى انطباعاً طيباً عن الشاعر الغزال ، فقد وصفه بأنه (جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده) [3] .

ويعد الهجاء من أبرز الفنون الشعرية عند الغزال ، فقد أظهر فيه مقدرة شعرية فائقة مكّنته من أن يتقدم شعراء عصره في هذا الميدان ، وقد أكثر ابن حيان في المقتبس فيما نقله من أشعاره وأخباره من التنبيه إلى الغزال باعتباره شاعراً هجَّاء ، أو مقذع الهِجَاء ، وأورد نُبذاً من أهاجي الغزال .

١ـ المصدر السابق ، ص : ٢٥٢ .
٢ـ انظر : ـ الأدب العربي في الأندلس ، ص ٢٤٥ .
ـ المُغرب ، ص ٢٦٩ : ٢٧٠ .
3 ـ بغية الملتمس ، أحمد الضبي ، ص : ١٤٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا عرفنا سطوة الفقهاء ومكانتهم وحرص الأمراء على التزام قواعد الشريعة ، وضبط تنفيذها على الناس أدركنا أن الغزال لا يمكن أن يكون متحلّلاً ، سيء السلوك ، راكناً إلى الشراب كما زعم بعض الفقهاء الذين طالما قرعهم وهجاهم ، ودون أن يتعرض للأمراء الذين لا يسكتون عن مثل هذا من رجل عُرف بأنه من رجال الدولة الكبار .

فمن هجاء الغزال للفقهاء تلك المقطوعة التي يبدى فيها تعجبه من ثرائهم جميعاً ، ويتساءل : من أين يستغنون ؟ بينما هو ورفاقه من الشعراء يقطعون البحر والبر طلباً للرزق ، ويرى أن الفقهاء لهم نهج خاص في بلوغ الغنى لن يناله أمثاله ، يقول الغزال من الخفيف :

لَسْتَ تَلْقَى الفقيه إلا غَنِياً لَيْتَ شِعْري مِنْ أينَ يَسْتَغْنُونا ؟
نَقْطَعُ البَرَّ والبحَارَ طلابَ الرزْق والقَوْمُ هَا هُنا قَاعِدُونا
لا يَرِيمونَ مَوْطِناً لا ولا تُبْـ ـصرهُمْ عَيْنُ نَاظِرٍ يَعْجِزُونَا
إنَّ للقَوْمِ مَضْرِبا غَابَ عَنَّا لم يُصِبْ قَصْدَ وَجْهِهِ الرَّاكِبونا [1]

ثم أجد الغزال في البيتين التاليين يصور الفقهاء بالأفيال ، حينما صور لنا الطالب منهم في صورة الفيل ، رامياً بذلك إلى التهكم بهم ، يقول الغزال من الرجز :

جَاءَ بِجِسِمِ الفِيلِ في العُيُون حتى إذا سَارَ إلى سَحْنُون
فَجَاء بالتَوراة والإنْجِيل كأنما سَار إلى جبريل [2]

ثم يأتي الدّور على القضاة الفاسدين الذين تصدى لهم الغزال ففضح أمرهم ، وشهّر بهم ، ومن هؤلاء القاضي يُخامر بن عثمان الشعباني الذي ولاه الأمير عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة ، فعامل يخامر الناس بخلق صعب ، ومذهب وعر ، وصلابة جاوزت المقدار ، فلم تحتمل له العامة ذلك فسلطت عليه الألسنة ، وكثرت فيه المقالة ، وانبرى له شاعر قرطبة يحيى الغزال ، فهجاه هجاءاً شديداً ، وأكثر من ذمه ، ووصفه بالبله والجهل [3] .

---

١ ـ انظر : ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥١ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٤ .
٢ ـ انظر : ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥١ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٦ .
٣ ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولنتأمل جميعاً هذه الصورة الكاريكاتيرية التي يرسمها الغزال لهذا القاضي إذ صوّره في صورة الإنسان الذي تقلد صنعة ليست له ، ثم صوره في إطار صورته الجديدة غير قادر على مواجهة تبعات هذا المنصب ، ويطالبه الشاعر بتقديم استقالته من ولاية القضاء ، فيهدده يُخامر بأن يفضحه بما كان منه فى الأهراء ، فيرد الغزال بأن رأس الفضوح أن يكون يخامر قاضياً وهو بدون علم ولا دين ، ويصفه بالكِبْر ، وأنه يتخبط في فتاواه وأحكامه على غير هدى ، واصفاً إياه بالجاهل السكران الذي لا يتثبت من كلامه .

ثم يختم مقطوعته بما يشبه الحكمة مؤكداً على عدم استطاعة يخامر القيام بأمر القضاء ؛ حيث ينفى أن تحمل الذبابة صخرة ، وينفى أن تقود السلاحف السفن المواخر ، دلالة على أن يخامر حُمِّل من الأمر ما هو أكبر منه ، وأنه سيعجز عن القيام به، يقول الغزال من الطويل:

فَقُلْتُ لَهُ كَلَّفْتَنِي فَوْقَ صَنْعَتي ... كَمَا قَلَدوا فَصْلَ القَضَاءِ يُخَامِرا
فَأصْبَحَ قد حَارَتْ به طُرُقُ الهَوَى ... يُكَابِدُ لُجِّياً ♥ من البَحْرِ زَاخِراً
فقلت : لو استعفيت منها، فقال لي : ... سَأفْضح ما قد كان منك مُغايراً
فقلت له : رَأسُ الفُضُوح إقامَةٌ ... عَلَيْنا كَذَا مِنْ غَيْرِ عِلمٍ مُكابِراً
وَخَبْطُكَ في دين الإلَهِ على عَمىً ... خِبَاطَةَ سُكْرانٍ تَكَلَّمَ سَادِرَاً
فَلَنْ تَحْمِلَ الصَّخْرَ الذُّبابُ وَلَنْ تَرى ... السَّلاحِفَ يُزْجِينَ السَّفينَ المَوَاخِرا [1]

ثم أرى الغزال في البيت التالي يتعجب من توليه يُخامر القضاء رغم بطشه وشدته ، يقول الغزال من الطويل :

فَسُبْحَانَ مَنْ أعْطَاكَ بَطْشَاً وَقُوَةً ... وَسُبْحَانَ مَنْ وَلَّى القَضَاءَ يُخَامِرَ [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٩ .
ـ المقتبس ، د/ مكي ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .
♥ ورد البيت الأول في المقتبس ، ط بيروت ، هكذا :
فقلت له كلفتني غير صنعتي ... كما قلدوا فضل القضاء يخامرا
♥ لجيًا : لج البحر الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه ، انظر : لسان العرب ج ٨ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢ .
ـ قضاة قرطبة ، الخشني ، الدار المصرية ، سنة (١٣٦٦ هـ ـ ١٩٦٦ م) ، ص: ٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى مقطوعة أخرى أرى الغزال يسخر من يخامر سخرية ألمس فيه طرافةً وابتكاراً في الهجاء والذم ما أظن أن أحداً أتى بمثل هذا الهجاء ، حيث يقول الغزال : إنه سمع عجيباً من عجائب يخامر القاضي ، حيث قرأ عليه غلامه سورتي طه وغافر ، فقال يخامر لغلامه يسأله : مَنْ قال هذا الشعر ؟ إنه لشاعر مُجيد ، فودّ الغزال أن يصفعه على قفاه لجهله ، ولكنه خاف بطشه وظلمه ، فأتى يوماً بتيس تفيض عبراته في حسرة ولهفة ، وطلب الغزال أن يقوم الناس لذبح التيس ، فقال التيس : لا تذبحوني إنني يخامر ، يقول الغزال من المجتث :

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً ... مِنْ آبداتِ ♥ يُخَامِرْ
قَرَأَ عَلَيْهِ غُلاَمٌ ... طه وسُورَةَ غَافِرْ
فَقَالَ : مَنْ قَالَ هَذَا ؟ ... هذا لعَمْري شَاعِرْ
أرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ ... فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرْ
أتيتُ يَوْماً بتَيْسٍ ♥ ... مُسْتَعْبِراً مُتَحَاسِرْ
فقلت : قُومُوا اذْبحُوه ... فقال : إنِّي يُخامِرْ [1]

ومن ضحايا الغزال : القاضي الأسوار بن عقبة وقد هجاه الغزال بأبيات ساخرة ، صوره فيها بالمخادع الذي يبدو وكأنه عن الناس في غربة ، ولكنه عكس ذلك إذ أنه يفعل ذلك ؛ ليتمكن من الوثوب ، وكأنما عيناه عيْنَا هرة تتحفز للانقضاض على الفأر الذي رأته من ثقبه ، يقول الغزال من المتقارب :

وَتَحْسبُ مِنْ خِبِّهِ أنَّهُ ... تَراهُ عَنِ النَّاسِ في غُرْبَهْ
وما ذاك منهُ ـ فَلا تَأمَنُو ... هُ ـ إلا لِتُمْكِّنِهُ الوَثْبَهْ
رَأيْتُ لَهُ نَاظِرِي هِرَّةٍ ... تَرَاءى لَهَا الفَأرُ في ثُقْبَهْ [2]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .
♥ آبدات : الكلمة أو الفعلة الغريبة ، انظر : لسان العرب ، مادة : أبد ، ج ١ .
♥ التيس : هو الذكر من المعز ، انظر : لسان العرب ، مادة : تيس ، ج ١.

٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٥٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما القاضي مُعَاذ بن عثمان الشعباني ، فالحق أن الغزال لم يتعرض بالهجاء لشخصه ، وإنما عاب عليه اختياره لرجل من أهل قرطبة ولاه الأحباس ، ولم يكن الرجل أهلاً لهذا العمل ، فيصور لنا الغزال كيف استشاره القاضي معاذ في اختيار هذا الرجل ، فرّد عليه الغزال متهكماً ، واصفاً الرجل بالدب الذي يهدم خلايا النحل ؛ ليأكل شهدها ، ويترك البقايا للذِّبَّان ، يقول الغزال من الخفيف :

يَقُول لى القَاضي مُعَاذ مُشَاوِراً ... وَوَلَّى امْرَءاً فِيمَا يَرَى مِنْ ذَوى العَدْلِ
فَعِيدكَ ! مَاذَا تَحْسِبُ المَرْءَ صَانِعاً؟ ... فقلتُ : وماذا يفعل الدُّبُّ في النحلِ؟
يَدُقُّ خَلايَاها وَيَأكُلُ شَهْدَهَا ... وَيَتْرُكُ للذِّبَّان مَا كَان مِنْ فَضْلِ [1]

ثم أجد الغزال في المقطوعة التالية يهجو رجلين من رجال القاضي مُعاذ ، عُرف عنهما شهادة الزور .

فيقول إن الرجلين أبا حفص ويحيى بن مالك ، نذيرا الحرب ، والدمار ، والهلاك ، فهما حينما ينطقان بالشهادة ، إنما تكون ألسنتهما كالسيوف القاطعة على مَنْ يشهدان عليه زُوراً ، ثم يقول متهكماً وساخراً بأنه قد توجه إلى ديكه قائلاً : إذا رأيت وجه الرجلين فتحمل وتعزّ ، فقد جاءتك إحدى الفواجع والكوارث ، فما كان من الديك إلا أن فاضت دموعه ، وقال إن هذين الرجلين كثيراً ما أبكوني ، يقول الغزال من الطويل :

أتَاكَ أبُو حَفْصٍ وَيَحْيى بْنُ مَالِكٍ ... فَأهْلاً وَسَهْلاً بالوَغَى ♥ وَالمَعَامِع
رجَالٌ إذا صَبُّوا عَلَيْكَ شَهَادَةً ... حَكَتْ فِيكِ وَقْعَ المُرْهَفَاتِ القَوَاطِع
أقولُ لدِيكي إذْ رَأيْتَ وُجُوهَهُمْ ... تَعزْ فَقَدَ جَاءتكَ إحْدَى الفَجَائِع
رَثَا واسْتَهَلّتْ عند ذاكَ دُمُوعه ... وقال : كثيراً ما أفاضُوا مَدَامِعي [2]

---

١ ـ انظر : ـ قضاة قرطبة ، ص : ٥٦ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٤ .
** ورد البيت الثاني من الشطر الأول في قضاة قرطبة ، هكذا:
فديتك ! ماذا تحسب المرء صانعا ؟ فقلتُ : وماذا يفعل الدُّبُّ في النحلِ
٢ ـ انظر : ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٧٠ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٧ .
♥ الوغى : أصوات الحرب ، انظر : لسان العرب ، مادة : وغي ، ج ٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحق أن من يتصفح (قضاة قرطبة) للخشنى ، ويتتبع أخبار هؤلاء القضاة والفقهاء ، يجد الغزال محقاً في كل ما قاله وصوَّره ، فليس هجاؤه مبنياً على أمر شخصي على الرغم من أن الغزال كان يحتل مكانة بارزة في بلاط الحُكم ، وكان يعتبر أحد المقربين إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، لكن ذلك لم يمنعه من التعريض برجال السلطة وفضح أمرهم ، وعلى رأسهم (نصر الصقلى الخَصّي) وكثيرون من الحاشية .

ففى المقطوعة التالية أرى الغزال يخاطب نصراً الذي كان يسكن قرب مقابر قرطبة واصفاً إياه باللاهي العابث ، وعلى الرغم من أنه يرى أمواتاً يمرون عليه كل يوم لكنه لا يتعظ ، بل يتمادى في لهوه وغيّه ، ثم يزداد الغزال في توبيخه ، فيصفه بأنه ليس مجنوناً ، أو قليل العلم حتى يحتاج إلى واعظ ، أو زاجر ، فكيف يكون ذا علم وعقل ، ورغم ذلك يلهو ، ويعبث ، ولا يتعظ بالموت ، ثم يتهمه بعد ذلك بالجحود ، ونكران نعم الله عليه ، فبدلاً من أن يشكره يعصيه ، ويرتكب الكبائر ، ويؤكد له أنه سيرحل عن هذه الدنيا وهذا اللهو ، ويتوعده بعذاب الله حيث لن يقبل له عذراً ، يقول الغزال من الطويل :

أيَا لاهِياً في القَصْرِ قُرْبِ المَقابرِ ... يَرَى كُلَّ يَوْمٍ وَارِداً غَيْرَ صَادِرِ
كَأَنَّكَ قد أيْقَنْتَ أنْ لَسْتَ صَائِراً ... غَدَا بَيْنَهُمْ في بَعْضِ تِلكَ الحَفَائِرِ
تَراهُمْ فتلْهُو بالشَّرابِ وبعض ما ... تَلَذُّ بهِ مِنْ نَقْرِ تلكَ المَزَاهِرِ ♥
وما أنت بالمَغْبُونِ عَقْلاً ولا حِجَى ... ولا بقليل العِلْمِ عِنْدَ التَخَابُرِ
وفى ذاك ما أغْناكَ عَنْ كل واعظٍ ... شَفِيقٍ وما أغْنَاك عن كل زَاجِرِ
وَكَمْ نِعْمَةٍ يَعْصَى بها العَبْدُ ربَّه ... وَبَلْوى عَدَتْهُ عن ركوب الكبائرِ
سَتَرْحَلُ عن هذا وإنك قادِمُ وما ... أنْتَ في شكٍّ على غيرِ عَاذِرِ [1]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٠ ـ ١٧١ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٢ .
♥ المزاهر : العود الذي يضرب به ، انظر : لسان العرب ، مادة : زهر ، ج ٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى مقطوعة أخرى يواصل الغزال هجـــاءه لنصر الخصى ، حيث يتنبأ بمهلكه قبل وقوعه بمدة ، فيقول مخاطباً شخصاً يتخيله ، ويأمره بأن يقول لنصر إن طالعه طالع شؤم ونحس ، وبرجه هو برج القوس الذي ينذر بالشؤم والخراب على من يكون برجه قريباً منه ، ويؤكد بأن معرفته بالنجوم أكدت هلاك نصر ، وكذلك سيحل الكرب بالناس ، حيث ترتفع أسعار الغلال ، والقمح ، ثم بعد ذلك هلاك نصر ، ثم يتهكم على حال أهل نصر بعد مهلكه قائلا : إن أحوالهم ستتغير بعد موته ، فبعد أن كانوا يرفلون في الحرير منعمين ، سيصبحون في ضيق ، وشظف ، وخشونة من العيش ، وسيبكون على من كان يكرمهم ، وتشاركهم النسوة البكاء والنواح عليه ، يقول الغزال من الكامل :

قُـلْ للفَـتَى نَصـرِ أبى الفَـتْح ... إنَ المُقَـاتِـلَ حَـلَّ بالنَّطْـح
وأرَاهُ قَـهْـقَر فيـه ثم مَضَـى ... قُـدُمَا ومُدبـراً إلى الرُّمـــح
وأرى النُّحـــوسَ لَـهُ مُسَاعِدةً ... فانْظُـرْ لنفسكَ واقبلَنْ نُصْحِـي
وَوَجَـدْتُ ذلكَ إذ حَسِبْـتُ لـهُ ... مّما يدلّ على غـــلا القَمْـح
وَنُـــزُول أمْرٍ لا أقُـوهُ بـــه ... لو كان يَبْلُـغُ بي إلى الرّبـــح
وإذا رَأيْـــتَ البدرَ في بُلـــع ... نزل القضـــاءُ بأبْرَح البَـرْح
يا رُبَّ طالعَـــة العشـاءِ أتَـتْ ... بخلاف ذاكَ طوالـعُ الصُّـبـــح
ولـــربَّ رَافِلـةٍ عَشِيّتُـها ... في الوشي أضحت وهى في المسـح
تبْكى عَلَـــى مَنْ كَانَ يُكَرمهَـا ... نحّاء بيـن نـــوادبٍ نُـحِّ [1]

يبدو أن نبوءة الغزال قد تحققت . فقد هلك نصر ، وعندما وَلَّى الأمير عبد الرحمن ابنه عبد الله من حظيته (طروب) ولاية العهد ، ثم بعد ذلك فكر في صرف ولاية العهد عنه إلى ابنه الآخر محمد ، فأغرت طَرُوب نصر الخصّى أن يسقى الأمير عبد الرحمن السمّ ، حتى لا ينفذ فكرته ، وتنزع ولاية العهد عن ابنها ، فتواطأ (نصر) مع الطبيب يونس بن أحمد الحرانى أن يصنع دواء للأمير عبد الرحمن ، فاحتاط عبد الرحمن لنفسه ، ولما حمل نصر الدواء للأمير ، أمره الأمير بشربه ، فشربه مرغما ، وخرج مسرعا إلى الطبيب ، ولكنه مات قبل أن يصل إليه .

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٨ ـ ١٤٩ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٢ .
* بُلـــع : هي منزلة من منازل القمر ، انظر : لسان العرب ، مادة : بلع ، ج١ .
* المِسح : الكساء من الشعر ، وجمعها أمساح ، انظر : لسان العرب ، مادة : مسح ، ج٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال الغزال ملقباً له بأبي الفتح ، ومتشفيا فيه بأنه كان متصانعاً ومنافقاً للأمير والحُكام ، وكان لا يؤتمن على عِرض وأصبحت نهايته حُفَيْرة ضمن حفر المقابر ، ويزداد تحقيراً وشماتة في نصر ، حيث يوضح أن هذه الحفرة ضيقة جداً ، ولم تتعب القوم في تضييقها حتى لكأنها لا تسع القوارير إلا بمقدار ، وإنه صار في قبره أكثر أهل الأرض شقاء ، وإن لفُّوه في مسك وكافور فإن رائحته مُنْتِنة ، ولا تطاق خاصة بعد ثلاثة أيام من موته ، ثم يشير إلى مؤامرة نصر ضد الأمير عبد الرحمن بشيء من السخرية والاستهزاء بأنه قد أزمع قتل الأمير بالسم ، وهذا شيء لم يقدّره الله للأمير ، فلن يشرب السم ، وهذه إرادة الله الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، ثم يتوجه إلى الأمير بأنه لن يضره سوء تدبير أو مكيدة حاقد وخائن ، يقول الغزال من البسيط :

أعْنَى أبا الفَتْح ما قدْ كَانَ يَأمُلُهُ ... من التَّصانُع والتَّشْريف للدُّور
وكُلّ عَرْضٍ وقرضٍ كان يجْمَعُهُ ... حُفَيْرة حُفِرت بين المَقَابير
لم يألها القومُ تَضْيِيقاً ولا وَقعتْ ... فيها الكَرَازينُ ♥ إلا بَعْدَ تقدير
فَصَارَ فيها كَأشْقَي العَالمينَ وإن ... لَفُّوه بالنَّفح في مِسْكٍ وكَافور
ما العَرْفُ ♥ لو أخبرونا بعد ثالثةٍ ... إلا كعَرْفِ سواه في المَنَاخير
وكان أزْمَعُ شيئا لم تكن سَبَقَتْ ... به من الله أحْكَام المَقَادير
إذا أرَادَ الإلَهِ الشيء كَوَّنَهُ ... فلَنْ يَضرُّك فيه سُوء تدَبير [1]

---

١ ـ انظر : ـ ديوان يحيى بن حكم الغزال ، ص : ١٧٢ ـ ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١١ .
♥ الكرازين : القوارير ، انظر لسان العرب ، مادة : كرز ، ج ٧ .
♥ العرف : الرائحة الطيبة والمنتنة ، انظر لسان العرب ، مادة : عرف ، ج ٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويواصل الغزال شماتته في نصر بعد موته ، فأراه في القصيدة التالية التي نظمها عند ذكر الناس لإنزال السلطان (زرياب) مغنيه في مَنيِّة نصر الخصى أثيره بعد موته ، فيذكر تقلب الدنيا بأهلها ، وتبدل أحوالها بهم ، ولكن في شماتة وقسوة ، وإن كانت مغلفة بالحكمة التي برع فيها الغزال ، فيقول على سبيل الحكاية : إن الناس قد ذكروا أن دار نصر قد نزل بها زرياب ، وهو أهل لنيلها فهكذا قدر الإله ، وبذلك جرت سنن الأقدار ، فلقد خرج نصر من داره إلى قبره ليس عليه من حجاب إلا التراب ، وهو في قبره لا يجيب من يدعوه ، ولا يرجع من عنده أحد بجواب ، ثم يتابع بأن الأمور قد تغيرت بعد موته ، فركائبه استغنت عنه ، وأميلُ الركاب لغيره ليركب ، ثم إنه فَقَدَ كل ما كان قد جمعه في دنياه من أموال ومتاع ولم يبق له سوى ثلاثة أثواب هي كفنه ، وهى كل ما خرج به من متع الدنيا ، وفى قبره سيحاسب على كل ما قدمت يداه ، فإما أن يثاب ، وإما أن يعاقب ، وهناك الملائكة المأمورون بالحساب ، وليس مأذوناً لهم ألا يحاسبوه ، ثم يصف أحوال أهل نصر بعد موته ، فقد هانوا وذلوا في حين عزّ آخرون غيرهم ، وهكذا حال الزمان متبدل ومتغير في تصاريفه وأحواله ، ويتعجب الغزال ويتهكم على نصر الذي كان فِعْله في حياته فعل من يظن خلوده وبقاءه بدون شك ، حتى ولو مات فليس عليه بعد الممات حساب ، ويختم القصيدة بتهكم شديد وسخرية واستهزاء ، فَعَلى الرغم من صحة عقله ؛ إلا أن الذهب والفضة قد حيراه ، وذهبا بعقله فَسَاء عمله وفعله ، يقول الغزال من الخفيف :

ذكَرَ النَّاسُ دَارَ نَصْرٍ لِزريا ب ، وأهْلٌ لِنيْلِها زرْيَابُ
هَكَذا قَدَّرَ الإلَهُ وقد تَجْ ـرى بمَا لا تَظُنه الأسْبَابُ
أخْرَجُوهُ منها إلى مَسْكَنٍ لَيْ سَ عليه إلا التُّرَابُ حِجَابُ
لا يُجِيبُ الدَّاعيةِ فيه وَلا يرْ جِعُ مِنْ عِندِهِ إليْه جَوابُ
وتَغَانتْ تلك المَرَاكبُ عنه وَأميلتْ إلى سِوَاهُ الرِّكَابُ
ليْسَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ قد جَمَّعَ إلا ثلاثةٌ أثْوابُ
وَتَلاشَى جَمِيع ذاك فَلَمَّا يبقَ إلا ثَوَابُهُ أوْ عِقَابُ
عَسْكَرٌ جُنَّدُوا فليس بمَأذونٍ لَهُم عنه أن يَكُونَ الحِسَابُ
فرأيتُ الرِّقَابَ من أهْلِهِ دْ لَتْ وَعَزَّتْ مِنْ آخَرِينَ رِقَابُ
وكذلك الزَّمانُ يَحْدثُ في تَصْ ـريفِهِ الذُّلُّ وَالبَلا والخَرابُ
لَتعَجَّبْتُ والذى منه أُعْجِبْ تُ إذا ما نظرتُ شيء عُجَابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَكَأنَّ الـذي تَوَلى الـذي كَـان عليـــــه مُخَـلَّـــدٌ لا يُــرابُ
فِعْلُـهُ بَعْدَهُ كَفِعْـلِ امْرىءٍ ليْـسَ عليه بَعْــد المَمَّـــاتِ حِسَـابُ
وَلَـعَقْلُ الفَـتَى صَحِيحٌ ولكِــنْ حَيَّرتهُ الأوْرَاقُ ♥ والأذْهَـــــابُ [1]

ويستمر الغزال فى هجاء رجال السلطة ، فهذه المرة أراه يهجو عامل تـدمير حينمـا قـصّر عن ضيافته هو وصاحبه المُنيقل ، حيث أراد الغزال شكره ، ولكنه لم يجد ما يشكره عليـه ، فلـم يحسن عامل (تدمير) استقبالهما ، ولم يقدم لهم طعاماً طيبـاً ، فـتهكم عليـه هاجيـاً إيـاه هجـاءً ساخراً لاذعاً وبخاصة البيت الأخير ، يقول الغزال من الخفيف :

قد أرَدْنا حُسْـنَ الثـنَـاءِ عَلَـيكُـمْ مُـذ حَللنـَا فلم نَجِدْ ما نـقُـــولُ
غَيْرَ تَـجْميرنـَا♥ بهَائِــلِ رَمْـــلٍ حَيْثُ شِئْنا مِنْ جَانِبَيْهِ نَـبُـــولُ
وَطَـعـــــامٍ مِنَ الضَّـريع أصَبْنَـا هُ على أنَّـــــــه يَسِيرٌ قَليلُ
لَـيْتَ شِعْـــري ماذا عليْـــك مِنَ الإجْمَالِ لو كان منك فعلٌ جَميـلُ
وَلِعَمْري لأنْتَ أوسَعُ فى العُذر ♥ ولكـــن لِقَـوْلـنَـــا تَـأويـــلُ [2]

ولم تَسلم المرأة من هجاء الغزال وسخريته ، فأجده فـى قـصيدة طويلـة جعـل محورهـــا الأول فى هجاء امرأة تدعى (أم جرج) ، حيث وصفها بطول اللسان ، وحـدة الجـدال ، وشـكلها مضحك ، فهي صلعاء ، وأنفها مرتفع أعلاه مع حدب فى وسطه يثير الـضحك ، ويقـسم مـن شـاهد الغيلان أنها بنت سعلاة ، وهذه المرأة تحاول إغواء الغزال ، حيث دعته إلى فراشها ، فلطمها على غطاء رأسها لطمة أزاحته عن رأس الصلعاء ليس فيهـا خمـس شـعرات ، فبـدت مـضحكة ومـثيرة للسخرية والضحك ، ويبالغ فى السخرية فيصف ظهرها بأنه كظهر الناقـة القويـة حيـث بـرزت عظامه ، يقول الغزال من البسيط :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٣ ـ ١٣٦ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٣ .
♥ الأوراق : هي الفضة ، انظر: لسان العرب ، مادة : ورق ، ج ٩ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٣٥٩ .
♥ تجميرنا : الحبس ، انظر : لسان العرب ، مادة : جمر ، ج ٢ .
♥ العـــذر : الغائـــط ، انظر : لسان العرب ، مادة : عذر ،ج ٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما تَشْتَفى أمُّ جُرْجٍ مِنْ مُلاحاةٍ أو تَسْمَعُ الدِّيكَ يَزْقو عَشْرَ زَقْوَاتِ
جَرْداءُ صَلعَاءُ لم يَبْقِ الزمانُ لها إلا لِسَانـاً مُلِحّاً بالمَلامَـاتِ
رَقَّتْ حَوَاشيهِ واستول مَنْظَرهُ عند التَّكَلُّم تحت الحنَّة الحَاتِي
حتى تَخَالَ لها نَفسا تُصورها أخرى سِوى نفسها عند الخَذالاتِ
قَنْواءُ مَقْرونة منها حَوَاجِبُهَا وَالعَيْنُ غَائِرةٌ تحت البُثُورَاتِ
يَحْلِفُ مَنْ عَايَنْ الغِيلانَ مُجتهداً بأنها غير شكٍّ بِنْتُ سَعْلاةِ
كأنما حَمَلَتْ منها إذا انْبَعَثتْ على مُتُون عِظامى حَدَّ مِبْراةِ
تقولُ مَالَكَ لا تأوي إلى فُرشٍ أعْدَدْتُهنَّ نَقِيَاتٍ وَثِيراتِ
وَزقِّ زَيْتٍ لمن يَبْغى مُلامسةً أشْهَى عِنَاقاً وأدنَّى للذاذاتِ
لَطمتُهَا لَطمةٍ طَارَتْ وقَايتها عن صَلعةٍ ليس فيها خمسُ شَعْراتِ
كأنها بَيْضة الشَّاري إذا بَرقتْ بالمأزق الضَّنْكِ تحت المَشْرفياتِ
لها حُروف نَوَاتٍ فى جَوَانِبِهَا كَقِسْمة الأرض حِيزَتْ بالتُّخومَاتِ
وَكَاهِلٌ كَسِنَام العَنْس حَدَّدَهُ طُولُ السِّفَار وإلحاحُ القُتُوداتِ [1]

وأما المحور الثاني فجعله للتعريض بالرسول الذي أرسل قبله إلى ملك الروم ، وليس إلى ملك النورمان ، كما يزعم الدكتور على الغريب لأن ظاهر الأبيات يدل على ما أذهب إليه .

فنجد الغزال يرغب فى الاعتذار ، ويبين أن هذا الرسول مناسب لتلك السفارة ؛ لأنه يعرف الروم ويعرف ميولهم وأهواءهم ، وأما الغزال فشاعر ، والروم ليسوا ذوى شعر ، ويرى أن يرسل السلطان إليهم رجلاً ذا لحية عظيمة بغير عقل ؛ لأن الروم لحاهم عظيمة طولاً وعرضاً :

يَابْنَ المُحَلِيْنِ مِنْ شِيتٍ إلى حَكَمٍ بالملْكِ طَوْراً وَطوراً بالنُّبُوَّاتِ
وَبالرَّوِيِّ التي فى شأنها عَجَبٌ عند البَدِيهاتِ منهم والرَّوياتِ
ابْن لِى طلبة لم يُرْسِلْ للحْيَتِهِ لكنه كان من أهل المُرُوات
وكان بالدَّهْر ذا عِلْم وَمَعْرفةٍ وَصُحْبَةٍ لِعَلِيَّاتِ الرِّجَالاتِ

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤١ ـ ١٤٦ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكان للرُّوم جَــاراً فى حَدَاثَـتِــهِ يَعْشَاهُمُ فى السَّرايَا والتِّجَارات
وكان يَلعَبُ بالشِّطرَنْج فى مُلــحٍ يَأتي بها وَصُنُــوفٍ من فُكاهاتِ
وكان رُبَّتما غَنَّى على طَــرَبٍ فيها لدى مَلْعَبٍ يَوْمَاً بأصْوَاتِ
وكُلُّ قوْم لهُـمْ حَــالٌ تُـشَاكِلهُـمْ فيما هُمُ فيه مِنْ أهلِ الصِّنَاعاتِ
وإنما نحْــن فى أحْوَالنا سُــوقٌ وَشْكلُنا ليس من تلك الشْكُولاتِ
وإنما هُـو هَــذا الشِّعرُ أقرضُهُ كَمَا أحَاولُ مِنْ دَهْـري لِحَاجَاتي
والرُّومُ ليسوا ذَوى شِعْرٍ فأنشدهم إذا وَرَدْتُ عليهم من مقَالاتــي
ولا يُريدونَ إمْلالــي لِكُـتْبهم ولا حِسَابي ولا فى الدِّين إخْبَاتي
وإنْ يَكونوا عَرتهُمْ لِحْيَةٌ عَظُمَـتْ بِغير عَقْلٍ لدى حَالِ المُبَاهَاةِ
ففِي التُّيوسِ البُشَارِيَّاتِ مُتَّسَعٌ على القِياسِ وفيه كُـلُّ مَبْهَـاةِ
وَهَا هُنَـا وَاحِدٌ فى طُـولِ لِحْيَتِـهِ وَعَرضِها بضَمَانٍ عَشْرُ لِحْيَاتِ
فَسَيِّرُوهُ ففِيه فَوقَ حَاجَتِكُــمْ مَنْ تَبْتَغونَ سِواهُ لِلوِفَــادَاتِ
وَأطْلِقوني وَخَافوا اللهَ فى وَلَدى لا تُونِمُوهُمْ فإنِّــي ذو بُنيَّــاتِ [1]

وأختم الهجاء مع الغزال بتلك المقطوعة القصيرة الطريفة ، التي ألمس فيها ابتكاراً لا أجد له نظيراً فى شعرنا العربي ، فأراه يهجو شخصا اسمه أبو حازم ، فيقول على سبيل الحكاية إنه قد رأى فى منامه سيدنا آدم عليه السلام ـ أبا البَشر ـ فسأله مستحلفاً له بالله : هل أبو حازم من أبنائك ؟ ، فأجابه : إنه ليس من نسله وإلا فَحَوّا أم البشر طالق ، وفى هذا ظرف ودعابة قد يراها البعض تجاوزاً لا يليق ، وأبو حازم هذا لم يهتد إلي خبره أحد ، يقول الغزال من السريع :

سَألتُ فى النَّومِ أبــى آدمَــا فَقُـلْتُ والقَلْبُ به وَامِــقُ ♥
ابْنُــكَ باللهِ أبُـو حَــازمٍ ؟ صلىّ عليكَ المالــكُ الخَالِــقُ
فَقَال لى : إنْ كَانَ مِنِّى ومِنْ نَسْلى فَحَوا أمُكُــمْ طَالِــقُ [2]

---

[1]- المصدر السابق .
٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٩ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٦ .
♥ وامق : التودد ، انظر : لسان العرب ، مادة : ومق ج٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن خلال ما سبق يتضح أن الغزال فى هجائه قد تميز بعدة سمات بارزة :

أولها : أنه تعرض بالهجاء ، والنقد اللاذع للقضاة والفقهاء والقادة على الرغم من صلتهم الوثيقة بالقصر ؛ لأنهم رجاله ، ورغم ذلك لم يتركهم الغزال .

أما الثانية : أن الغزال يعتبر نفسه من أفراد الشعب على الرغم من صلته هو نفسه بالقصر ، ولكنه كان بمثابة لسان حال الشعب يعبر عن ضيقه وغضبه من رجال القصر الذين كانوا يتجاوزون حدود أعمالهم .

أما الأخيرة : أن الغزال كان فى هجائه صريحاً لا يُلَمح ، فقد ذكر أسماء من يهجوهم فى جرأة غريبة ، كما رأينا مع نصر الخصّى ، والقاضي يُخامر وغيرهما ، مما لا أجد له تعليلاً إلا جرأته ، وقوة شخصيته ، وصراحته ، مما يجعلني أتمنى لو كان بيننا الغزال اليوم ، وواجه بالنقد كل المساوىء ، والأوضاع الخاطئة لتغيرت أمور كثيرة ، وبخاصة أن الغزال لم يهج بالسب ، أو الشتم فقط ، بل امتزج هجاؤه بالحكمة ، والموعظة ، وكأنه يقدم الدرس فى كيفية النقد الاجتماعي الهادف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥ ـ وصـــف الطبيعـة :

الوصف هو : " الكشف والإظهار فإذا قالوا : وصف الثـوب الجـسم ، فقـد أرادوا أنـه نمّ عليه ، ولم يستره ، فهو فى عرفهم ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، وقـد نظـر النقـاد المحدثون إلى ما قيل فىالطبيعة الميتة ، وفى الطبيعة المتحركة ، فرأوا أن الـشعر يكـشف عنهـا ، ويرسم حالها وهيئتها ؛ لذلك جمعوا ما كان فى الوصف ، فسموه حينـا بـشعر الطبيعـة ، وحينـا بشعر الوصف ، وألفوا فيه بعضا من الفصول والكتب ، وقد خص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها فى مختاراتهم وتحدثوا عما فيهـا مـن بلاغـة وفـصاحة ، وبعـض هـذه المؤلفـات مطبـوع كتشبيهات ابن أبى عون ، ونهاية الأرب للنويرى ، وبعضها مخطوط كالمحب والمحبوب " ١ .

والحق أن الشعر الجاهلى (قد ألقى بظلاله على وصف الطبيعة فى الأزمان التاليـة ، غـير أن البيئات الجديدة كالشام والعراق قد ظهرت تباعا ، ومع التطور الزمنـى والفنـى ، فـذكر بعـض شعراء العصر الأموى ، دمشق ، والغوطة ، ومناطق أخرى تتميز بالحسن والجمال ، وتابع الشعراء العباسـيون الاهتمـام بالطبيعـة فـى ظـلال الحـضارة الناميـة زمانـاً بعـد زمـان : فكـان فـيهم أبو نواس وأبوتمام والبحترى وغيرهم) ٢ .

وأما الوصف فى الأندلس ، فقد كان أكثر فنون الشعر ، وأبدع الأندلسيون فيـه ، وظهـرت لهم عبقرية نادرة خاصة وصف الطبيعة ، وجمال العُمران ومجالس اللهو والتسلية ، ولـم يظهـر غرضاً مستقلاً فى عصر الإمارة على أنه يمكـن القـول : " إن اهتمـام شـعراء الإمـارة بالوصـف كـان كبيراً ، وعلى الرغم من امتزاجه بأكثر الفنون استطاعوا أن يفتنوا فيه ، كما اسـتطاعوا أن يمنحـوه بعض الاستقلال ، وأن يبدعوا من الصور والخيالات ما يحمل الطابـع الأندلسى ، لقد وصفوا جوانب من مظاهر الحياة الحضرية التى شاهدوها فى مجالس الغناء والـشراب ، كمـا وصـفوا آلات الـصيد وأحوال النساء ، وهناك وصف للطبيعة المصنوعة ومظاهر العمران والقصور ، كمـا وصـفوا معـارك الحرب وآلاتها " ٣ .

١ـ الوصف ، لجنة من أدباء الأقطار العربية ، ط دار المعارف ، ص : ٦ .
٢ـ المصدر السابق ، ص : ٩ .
٣ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، ص : ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى شعر هذه الحقبة ما يصور الطبيعة فى مظاهرها الكبرى ، وفى وجودها المتمثل فى سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحقولها وأزهارها ، ولقد كان جمال الطبيعة من جهة ، والحياة اللاهية التى عاشها بعض الشعراء من جهة أخرى ، سبيلاً إلى ازدهار فن الوصف وتنوعه وإثرائه ، فمن شعر الوصف فى عصر الإمارة ما قاله (عباس بن فرناس) حين جدد الأمير محمد منية الرَّصافة التى أنشأها جدَّه عبد الرحمن الداخل :

وأعرافها الشم التى راح دونها نجوم الثريا والسماكين والنضر
إذا بلغ النظر المكثر فرعها وصوب لم يبلغ إلى الأرض فى شهر
وتنتشر الأبصار منها إلى مدى التنزه بالأطيار والوحش والزهر
وأعجب من أفيائها الغرر التى يقيل بهنَّ البرد فى وعرة الحر
ينم بأخفى سرها غير كاتم صداها فأخفى السر فيها من الجهر
كأن الذى يخفى الحديث ينجوها على أخفض الأصوات يشدوعلى وتر [1]

وأما الوصف عند الغزال ، فألاحظ أن شعر الوصف عنده ـــ على قلته ـــ يتميز بالقدرة الفائقة على تناول الجوانب الخفية من الأمور الموصوفة ، وقد استطاع الغزال أن ينقل لنا ما شاهده ، وما حدث له نقلاً دقيقاً ، وكأنه يشركنا معه فى الحدث الذى مرّ به .

ولننظر إليه حين أرسله الأمير عبد الرحمن الأوسط رسولاً إلى ملك النورمان ، ومعه يحيى بن حبيب ، فركبا السفينة ، ولما حاذوا الطرف الأعظم الداخل فى البحر الذى هو حد الأندلس فى آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بـ (ألوية) ، هاج عليهم البحر ، وعصفت بهم ريح شديدة ، فقال الغزال واصفاً هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر على طريقة الحكاية بأن يحيى بن حبيب رفيقه فى الرحلة البحرية ، قال له – وقد صاروا بين موج ضخم كالجبال ، والرياح العاتية تهب عليهم كالعاصفة من كل اتجاه ، هذه الريح الشديدة قد شقت شراعي السفينة ، ومزقته وقطعت أحبال السفينة ، وبلغ الخطر مبلغه وأن الموت أصبح وشيكا ، وكأن ملك الموت يقعد حيالهم أى بإزائهم – إننا ليس لنا أية قيمة أو أهمية عند هؤلاء القوم إن نحن هلكنا ، يقول الغزال من الطويل :

١ـ فصول فى الأدب الأندلسى ص : ١٤١ ـ ١٤٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَـالَ لى يَحْـيَـــى وَصِرْنَـا بَـيْـنَ مَـــــوْجٍ كَالجِـبَـال
وتَـولَّـتْـنَـا عُـصُـــــوفٌ مِـــنْ دَبُـــورٍ ♥ وَشِمِـــال
شَـقَّـتِ القَـلَـعَيْـــنِ وانْـبَـ ـتَـتْ عُرى تـلـك الحِبَـال
وَتَـمَـطَّى مَلَـكُ المَـــوْ ت إلينـا عَنْ حِيَـــــال
فرأينَا المَـــوْتِ رأى الـ ـعَيْـنِ حَـالاً بَعْـدِ حَـال
لم يَكُـــنْ للقَـــوْمِ فِيـنَـا يا رَفِـيقِـى رَأسُ مَـــال ١

ويواصل الغزال وصفه لما حدث له مع البحر فى مقطوعة أخرى ـ وفى هذا ما يدل على كثرة أسفاره ــ فيقول واصفاً البحر وشدة ظلامه ؛ بأنه شديد السواد ، مختلط الظلام ، يشبه ثوب القس ، وقد جابه الشاعر فى رحلة كثيرة المخاطر على ظهر سفينة سوداء ، سارت به وسط هذه المخاطر الشديدة ، ثم يصف هذا البحر ، وشدة سواده وأمواجه بالجمل الذى استأخرت أردافه ، وامتد عنقه بالموج الشديد ، وكأن الأخطار والظلام ما يزال يتوالى ظلمات بعضُها فوق بعضِها كأيام آخر الشهر العربى الشديدة الظلام ، وبخاصة الأيام الثلاثة الأخيرة ، وفى النهاية يقول : إن الملاح عندما يسير فى هذا البحر المظلم يبيت ملازماً ، وممسكاً بالصارى القلع مخافى الرّدى والهلاك ، يقول الغزال من الطويل :

وَلُبْسٍ كَثَوْبِ القسِّ جُبْتُ سَـوَادُهُ على ظهر غِرْبيبِ القَميص نـآدِ ♥
قد اسْتَأخَرتْ أرْدَافُـهُ وَمَضَـتْ لـه غَوَاربُ فى آذيـهِ وَهَـــوادِ ♥
له ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فوق بعضِهـا دَآدى مَوْصُـولٌ بهـــن دَآدِى ♥
يَبيـتُ بها المَلاّح مِنْ حَذَر الرَّدِى مُلازمَ صَـاريه لُـزُومَ قُـــرَادِ ♥ ٢

وهكذا أجد أن الوصف عند الغزال يتميـــز بالدقـة ، وإن كان لا يخلـــو من روح الدُّعابة والتشبيهات البعيدة والعجيبة ، كما ظهر فى وصفه للسفينة والبحر .

١ـ انظر : ـ المطرب ، ص : ١٣٩ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ٢٠٤.
♥ دبور : ريح تهب من المغرب ، تقابل الصَّبا ، انظر : لسان العرب ، مادة : دبر ، ج ٣ .
٢ ـ انظر : ـ التشبيهات ، ص : ١٨١ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٦.
♥ نـآد : الداهية ، انظر لسان العرب ، مادة : نأد ، ج ٨ .
♥ هواد : الأعناق : وهاديات الخيل وهواديها : متقدماتها ، انظر لسان العرب ، مادة : هود ، ج ٩ .
♥ دآدى : الليالى الثلاث من آخر الشهر القمرى ، انظر : لسان العرب ، مادة : دآدى ،ج ٣ .
♥ قراد : دويبة متطفلة ذات أرجل كثيرة تعيش على الدواب والطيور ، انظر : لسان العرب ، مادة : قرد ، ج ٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٦ ـ الفكـــــاهة :

يقول **الجوهرى** فى اللسان : الفَكاهةُ ، مصدر فَكِهَ الرجلُ ، فهو فَكِهٌ إذا كان طَيِّبَ النَّفْس مَزَّاحاً ، والفَاكِهُ المزَّاحُ ، **وفى حديث أنس : " كان النبى صلى الله عليه وسلم من أَفْكَهِ الناس مع صَبِىٍّ "** ١ .

وأما عن الفكاهة فى الشعر العربى ، فقد (ذاعت وانتشرت فى العصر العباسى ، حين كانت مجالس الخلفاء ، والوزراء ، والأمراء ، والإخوان تعنى بالنوادر والفكاهات ، واستُخدم الشعر فى المجالات الاجتماعية ، كأن يكون تقديماً لهدية ، أو شكراً عليها ، أو تهنئة فى مناسبة سعيدة ، أو تسلية فى حدث أصابهم ، ولعلهم لم يكثروا فى التندر على شىء ، كما أكثروا من التندر على اللحى ، وكانوا يعمدون أحياناً إلى بعض القصائد التى اشتهرت بقوتها الحماسية ، فيقلبونها فى الدعوة إلى شراب الخمر ، والتواصى باللهو ، وما يتصل بذلك مما يثير الفكاهة والإضحاك) ٢ .

وأما فى عصر الإمارة ، فكانت : " الفكاهة لوناً من التسلية واللهو ، فحياتهم القاسية تدفعهم إلى الترويح ، والتفكه بالفكاهات ، والملح حتى صار ذلك علامة تميز شخصية الأندلسى ، فقد انتشرت الفكاهة بين عامة الشعراء ، فنراها فى مجالس الأدباء ، ولقاءات الأنس ، وهم يتفكهون بما يعن لهم من أفكار ، وما يتراءى أمام أعينهم من مثيرات ، وكثيراً من الأهاجى الاجتماعية قالها الشعراء تفكهاً ، وتظرفاً ، وتسلية ، وما أكثر ما قالوا حول الثقلاء ، والبخلاء ، والمغنيين ، والقضاة ، وظفر أصحاب اللحى بفنون من الدعابات الطريفة " ٣ .

فمن شعر الفكاهة فى عصر الإمارة ما رواه صاحب النفح : أن النضر بن مسلمة أحد وزراء الأمير عبد الله بن محمد ، دخل عليه ليطلعه علي رأي ـ في بطاقة كتبها ـ ولكن الأمير لم يعجبه ذلك الرأي ، فكتب لوزيره هذين البيتين :

١ـ انظر : لسان العرب ، مادة : فكه ، ج ٧ .
٢ ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، ص ٣٥ .
٣ ـ المرجع السابق ، ص ١٩٨ : ١٩٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنت يا نضـــرُ آبـده لستَ تُـرجَى لفائـــدة
إنما أنـــــت عـــدة لـكتيـــف ومائـــدة [1]

وأما عن شاعرنا يحيى بن حكم الغزال ، فمن الطبيعي أن تظهر الفكاهة في شعره لما اشتهر به من ظرف وميل إلى الدعابة ، وقد رأينا هذه الدعابة تلازمه في معظم فنون شعره ، وفى أحلك الظروف ، كما رأينا في وصفه لهياج البحر الذي كاد أن يعصف به ، وبصديقه يحيى بن حبيب المعروف بـ (المُنَيْقِلَةِ) .

ومن فكاهات الغزال هذا الموقف الذي يخاطب فيه رجلاً قد جاء يسأله صدقة ، ويلح في السؤال ، فأجابه الغزال يكفى إلحاحك ، ثم سأله ساخراً متهكماً من أوْلى بدرهمي أنت أم عيالي ؟ واعلم يا هذا ! أنني لست ممن يخدع من مثلك ، فإنني لا أؤدي الزكاة إلا رغماً عنى ، وكأن النقود لا تخرج منى إلا بالعصر كما يعصر زقّ الشراب ، وواضح ما في هذا التشبيه من ظرف وفكاهة ، يقول الغزال من الخفيف :

قُلتُ إذ كرَّر المْقَالةَ : يَكْفِى ! أنْت أوْلى بدِرْهَمِي أم عِيَالي ؟
لسْتُ مِمَّنْ يكُونُ يَخْدَعُـــهُ مِثْـ ـلُكَ ؛ فَاعْلَمْ بهَذِهِ الأقْوَالِ
مَا أؤدِّي الزَّكاةَ إلا كَمَا يُعْصَـ ـرُ زقٌّ مُعَسَّلٌ بِالحِبَالِ !! [2]

وكأن الغزال فى الأبيات السابقة يطبق مَثَلُنا الشعبى: ما يحتاجه البيت يَحْرُم على الجامع.

ولنتأمل هذا المشهد الساخر المضحك الذي حوّله الغزال من مشهد قاتم إلى صورة مضحكة ساخرة ، حيث يقول الغزال إنه قد قصد شخصاً يسمى (خالد) ؛ ليمدحه رغبة في أن ينال منه عطية عظيمة فوق ما كان يأمل ، ولكن لم يعطه سوى درهم واحد بعد أن انقطع رجاء الشاعر في أن يعطيه شيئاً ، هذا الدرهم قد أعطاه خالد للغزال بشق النفس والمعاناة ، كما يقتلع الحجام ضرساً صحيحاً بمعاناة وشدة بكاء ، يقول الغزال من الطويل :

١- نفح الطيب ، ج١ ، ص : ٣٥٣ .
٢ - انظر : ـ التشبيهات : باب في البخل ، ص : ٢٥٤ .
ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَصَدتُ بِمَدْحِي جَاهِداً نَحْوَ خَالِدٍ أؤمَّلُ مِنْ جَدْواهُ فوق مُنائِي
فلمْ يُعْطِنِي مِنْ مَالِهِ غير دِرْهَمٍ تكلُّفَهُ بعْدَ انْقِطَاعَ رَجَائِي
كَمَا اقْتَلعَ الحَجَّامُ ضِرْساً صَحِيحة إذا اسْتُخْرِجَتْ مِنْ شِدَّةٍ ببُكَاءِ ! [1]

وهذا التشبيه المضحك مما يرد على ألسنة العامة في عصرنا هذا ،حين يقول شخص لآخر (أخذت من فلان هذا شيئاً بخلع الضرس) .

ومن فكاهات الغزال ، هذه المقطوعة التى يداعب فيها صاحبه ، ورفيق رحلته إلى ملك النورمان ، وهو صديقه يحيى بن حبيب وكان يسميه بالمنيقل ، حيث سأله المنيقل عن أبيه ، فصمت الغزال ، ثم قال له ، إن أباه معلم حسن الحساب ، ويقصد بخله وإمساك يده ، فأجابه المنيقل بأنه قد خلط المدح بالذم ، فداعبه الغزال بقوله إن المدح هو الأدق والأقرب ، يقول الغزال من الوافر :

يُسَائلنِى المُنيقلُ عَنْ أبِيهِ وكَانَ الصَّمْتُ أدنى للصَّوَابِ
فقلت له ولم أظْلِمْهُ شَيْئاً أبُوكَ مُعَلِّمٌ حَسَنُ الحِسَابِ
فقالَ ـ وللفتى أدبٌ وظُرفٌ ـ خَلَطْتَ لنا مَدِيحكَ بالسِّبَابِ
فقلت له المَديحُ أدقُّ فيهِ إذا فكَّرتَ مِنْ حَدْو الصَّوابِ [2]

ومن بديع ظرف الغزال ، ومداعبته للأمير عبد الرحمن الأوسط الذي قد طلب منه الاستعداد لإحدى السفارات ، وقد وعده بكثرة العطايا لزوجته وأولاده ، فتباطأ الأمير في إنجاز ما وعد ،فكتب الغزال إليه تلك المقطوعة يستنجز الأمير ما وعده إياه ، فقال له الغزال : إن الأمير سيوسع لك في العطاء ولأهلك ، فردّ الغزال في ظرف وطرافة أنه لا يشك في ذلك ، ولكن هذا الأمر يشبه قبلة العاشق للمعشوق ، وهو نائم ، فلا هو يحس ، ولا ذلك يشعر بنشوة ، أو لذة ، وكان الأجمل والأطيب أن يكون التنفيذ في نفس يوم الوعد ، يقول الغزال من البسيط :

١ـ انظر : ـ التشبيهات : باب عقده في البخل ، ص : ٢٥٢ .
ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١٩ .
٢ ـ انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٣٦٦ .
ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبْـقَـى الأمِيرُ عَلَـينا هَمَّ ما وَعَدَا فَمَا اعْـتَـدَدْنا بشيءٍ عندما انْـفَـرَدَا
يَقول لى ابْنُ شَهيدٍ والوَزيرُ أبُو عَبْد الإلــهِ وَعَبْد اللهِ قــدْ شَهــدَا
لا تَـأسَفَنَّ على شَيءٍ تُـخَلِّفُـهُ سَيُوسِعُ المَلِكُ الإجْـرَاءَ والصَّـفـدا ♥
فقلت : لا شكَّ لكنى أشبِّهُهُ بِـقُبْلِةِ العَاشِقِ المَعْشُوق قد رَقَـدَا
فَـيَنْـثِنِى عنه لم يَشْعُر بِـقُـبلتِهِ ولم يُصِبْ لذَّة منه ولا رَشَدا
مَا كَانَ أحْلاهُ فى نفسِى وأطيَبَهُ لوْ كَانَ ذلك فى اليَوْم الذى وَعَدَا ١

ومن أشهر مداعبات الغزال ما نقله ابن حيان في المقتبس أن الغزال دخل يوماً على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقال له الأمير مداعباً : جاء الغزال بحسنه وجماله ، فقال له الوزير : أجز ما بدأ به الأمير ، فاستدعى الغزال دواة وقرطاس وأدنى من الأمير ، فصاغ لوقته شعراً حسناً على البديهة كتبه بحضرة الأمير ، فلم يرفع يده إلا مستمداً ، فقال له الغزال من الكامل :

قَـالَ الأمِيرُ مُدَاعِبَاً بِـمَقَـالِـهِ جاءَ الغــزالُ بحُسْنِهِ وَجَمَالِــهِ
دَعْوَى الذى أوْدَى بِهِ منهُ البَلَى لمْ يَقْـصُــر المَمْدُودَ من آمَالِـهِ ♥
أيْنَ الجَمَال ـ له الجمال ـ مِنْ امْرىءٍ أَلقَــاهُ رَيْبُ الدَّهْر فى أغلالِهِ؟ ♥
أم أيْنَـهُ مِنْ خَاضِع مُتَخَشِّعٍ أَلقَـى الزّمَـانُ ثَـغامِـهِ بِـقَـذَالِهِ؟ ♥
وأذَلَّ غَـاربَـهُ ♥ وأنَـكَـب جَـنْبِهِ وَأكَـلَّـهُ بِـخـفَـافِـهِ وَثِـقَــالِــهِ
وَأعَـادَهُ مِنْ بعـدِ جِدَّتِـهِ البِلَى وَأحَالَ رَونَــقَ وَجْهِـهِ عن حَالِـهِ ٢

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٣٥٦ .
♥ الصفدا : العطاء ، انظر : لسان العرب ، مادة : صفد ، ج ٥ .
٢ـ انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٥٥ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٥ .
♥ البيت الثانى يورد فى كتاب البيان المُغرب ، ص ٩٣ ، وهو قوله :
أين الجمال من امرىء أربى على متعـدد السبعين من أحواله
♥ ورد البيت الثالث من الشطر الأول فى البيان المغرب هكذا :
وهل الجمال ـ له الجمــال ـ من امْرىءٍ ألقاهُ رَيْبُ الدَّهْر فى أغلالـه؟
♥ ثغامه : نبت أبيض الثمر والزهر يشبه بياض الشيب به ، انظر لسان العرب ، مادة : ثغم ، ج١ .
♥ قذاله : جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق فأس القفا ، انظر لسان العرب ، مادة : قذل ، ج ٧.
♥ غارب : الكاهل من الخُفِّ ، وهو ما بين السَّنام والعنق ، انظر : لسان العرب ، مادة : غرب ، ج ٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَابتَزَّ ♥ ما كان ارْتَـدَاهُ مَعَ الصِّبا مَنْ بَـــزَّهُ وكَسَـاهُ مِنْ أسْمَـالِهِ ♥
وَحَنى قَـــوَامَ قَنـَاتِهِ فأجَابَـــهُ طَوْعَاً وَقَصَّرَ خَطْوَهُ بشِكَالِهِ ♥
حَانِى المطا وَاهِى القُوى دَانى الخُطا يَمْشِى فَيَعْثُرُ فى صُـــدور نِعَالِـهِ
فإذا نَـظَرْتَ إليه نَحْوَكَ مُـقْبِلا أبْصَرت صَرْفَ الدَّهْـــر فى إقْبالهِ
وَالمَرءُ تَحْدُثُ أخْرياتِ زَمَانِـــهِ أشْيَاءُ لم يَخْـطُـرْنَ قَـطُّ بِبَـالِـهِ
للهِ دَرُّ جَديـدِ أيَّـــامِ الصِّبـــا وَلَـذيذِ صُحْبَتِهِ وطِيبِ خِلالِـهِ
وَنَسِيم أرْوَاحٍ نَعِمَتْ بِبَرْدِهَـــا كانـــت تَـهُـبُّ علىَّ مِنْ آصَـــالِـهِ ١

ويتضح لي من هذا الموقف سرعة بديهة الغزال في الردّ على الأمير ، حيث أوضح أنه قد قارب التسعين ، وقد غيرته أحداث الدهر ، ويتساءل متعجباً : أين الجمال ؟! فقد أصابته الشيخوخة ، وغيرت أحواله ، وانحنت قامته ، وضعفت قوته ،ويتحسر على أيام الصبا والشباب .

---

١ ـ المصدر السابق .
♥ ابتـزَّ : ابتزه ثيابه ، أي سلبه إياها ، والبزُّ : الثياب الجديدة ، انظر : لسان العرب ، مادة : بزز ، ج١ .
♥ أسمال : الثياب البالية ، انظر : لسان العرب ، مادة : سمل ، ج٤ .
♥ الشكال : العقـــال ، انظر : لسان العرب ، مادة : شكل ، ج ٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٧- الحكمـــة:

معنى الحكمة فى اللغة : " حَكَم أصلها واحد وهو المنع ، وأول ذلك الحَكَم وهـو منع الظلم " [١] .

قال الجوهرى : " الحَكَم ، العَالِم وصاحب الحِكمة ، والحكيم المتقن للأمور " [٢] .

وفى لسان العرب : " الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، وهو مـا قـل ودل من الكلام " [٣] .

وتأسيساً على ما سبق يمكن أن أعرف الحكمة فى الأدب بأنها عبارة مكثفة – ذات دلالة مطلقة – تنم عن خبرة وتجربة وهى : " كل قول بليغ موجز صائب ، يصدر عن عقل وتجربة ، وخبرة بالحيلة ، ويتضمن حُكماً مُسلماً فى أمر بخير ، أو نهى عن شر ، وهى تكسب الكلام سحراً ، وحلاوة ، وتجعله مقبولاً فى الذوق قريباً إلى القلب مسلماً به من العقل والشعور والوجدان " [٤] .

والعرب كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة ، والسامية خاصة ، أمة شديدة الميل إلى إرسال الحكمة ، وهى على لسانهم فى كل حال ، يدعمون بها الأقوال ، ويعللون بها الأعمال فيذرونها عن كل فرحة وترحة ، ويوردونها فى جميع أحداثهم ، وما يقصون من اجتماعاتهم وحياتهم [٥] .

وكانت الحكمة قبل العصر العباسى تعد من ثمار التجربة ، والدين ، والتفكير الشخصى الفطرى أكثر مما كانت من ثمار الفلسفة ، ولما جاء العهد العباسى ، وانتشرت حركة النقل ، وشاعت الثقافات العالمية بين العرب ، وانهال العلماء على كل علم يتدارسونه ، ويضعون له الأسس والأركان ، ويحددون له القواعد والغايات ، شاع التفكير الفلسفى فى كل جانب من جوانب المعرفة ، وشاع الجمع والتصنيف ، وراح العرب أولاً ينقلون الحِكم التى حفلت بها آداب الهند ، واليونان ، والفرس ، ويضيفونها إلى حكمهم [٦] .

وأما شعر الحكمة فهو يخضع لثقافة الشاعر ، ونظرته الفلسفية للكون والأ شياء ، وقد يخضع أحيانا لتجربة ذاتية حقيقية مرت بالشاعر فى حياته ، ولكنها تجربة لا مبادىء لها يلتزم بها صاحبها قد يفيد منها فى حياته ، وقد تمر مرّ السحاب دون أن يكون لها تأثير فعّال فى حياة صاحبها إلا فيما نظمه من أبيات كصدى لهذه التجربة [٧] .

---

[1] - معجم مقاييس اللغة ،أحمد بن محمد بن زكريا ، دارالجيل بيروت ، ٢/ ٩١ .
[2] - تاج اللغة وصحاح العربية ،اسماعيل بن حماد الجوهرى ، القاهرة ، ١٩٠١/٥ .
[3] - لسان العرب ،لابن منظور ، مادة : حكم ، ج ٢
[4] - الشاعر الزاهد أبو العتاهية ، رسالة ماجستير ، أ.د/ محمد حسين حماد ، سنة ١٩٧٨ ، كلية اللغة العربية بأسيوط ، ص : ١٧٣ .
[5] - انظر : الحكم والأمثال ، لجنة من أدباء الأقطار العربية ، ط دارالمعارف ، ص ١٠.
[6] - المصدر السابق ، ص : ٤١ .
[7] - المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى الرغم من أن شعراء عصر الإمارة قد تناولوا أغراض الشعر التى نظم فيها المشارقة من مدح ، وهجاء ، ورثاء ، وفخر ، وغزل ..... إلخ ، غير أن الأندلسيين لم يهتموا ببعض الأغراض التى تناولها المشارقة ، وقصَّروا فيها مثل شعر الحكمة ، والذى أراه أن ذلك راجعاً إلى الترف والرخاء اللذين أصبحا مَعلماً من معالم الحياة الأندلسية المرفهة بالإضافة إلى جنوح أهل الأندلس للتمتع بجمال الطبيعة التى حباهم الله بها ، ولذلك انشغلوا بالمتع ، والملذات المادية عن الإجهاد العقلى ، أو الفكرى مما أثر بالسلب على إنتاجهم الشعرى فى هذا المجال .

ولكن مع هذا فإن الشعر فى عصر الإمارة لم يخل من الحكمة سواء أكان من الأمراء الشعراء أم العامة ، فهذا الأمير عبد الرحمن الأوسط يقرر أن الأمل والرغبة يكونان بتوفيق الله مع الاهتمام بالرأى والفكر أيا كان مصدره من الشيب والشباب ، فيقول :

ولقد تعارض أوجه لأوامر ... فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ إن يحو النهى تجارب ... فشبابُ رأى القوم عند شبابها [1]

ومن العامة أجد من الشعراء " حبيب بن عبد الملك " الذى يدعو إلى العمل والأمل مع الرضا بالقضاء والمقادير ، فيقول :

السعد يبلغ بالفتى فوق الذى ... يسعى له والجَدّ من أعوانه
مع أن ذاك مع المقادر زائد ... فلكم جموح رُدَّ فى ميدانه [2]

وأما عن شاعرنا يحيى بن حكم الغزال فإن له من اسمه الكثير ، فهو حكيم قرطبة وشاعرها ، كما وصفه بذلك ابن حيان فى المقتبس بقوله : " كان حكيم الأندلس ، وشاعرها ، وعرَّافها " [3] .

والحكمة عند الغزال لها مصداقيتها ، فهى تصدر عن شاعر عمّر طويلاً ، وأبلاه الزمان ، وكثرت تجاربه وخبرته ، فلا أكاد أعثر على غرض ، أو قصيدة تخلو من بعض الحكم ، فمن شعر الحكمة عند الغزال تلك القصيدة التى جاءت على محورين:

---

[1] ـ أعمال الأعلام ، ابن الخطيب ، تحقيق/ ليفي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص : ١٩ .
[2] ـ حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان : أمير أموي كان بالأندلس في أيام عبد الرحمن الداخل ، وكانت له مكانة خاصة لم تكن لأحد من أهل بيته ، وولاه طليطلة وأعمالها ، ومات في حياة الداخل ، فشهد جنازته ، ولا يعرف العام الذي ولد فيه ، ولكنه توفي سنة ١٦٠هـ ـ ٧٧٨م .
** انظر : ـ الترجمة في كتاب الأعلام ، ج١ ، ص : ٢١٠ .
ـ والأبيات في المُغرب ، ج٢ ، ص : ١٠ .
[3] ـ المقتبس ، ابن حيان ، ص : ١٠٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الأول : فيوضح فيه الغزال أن من يطلب الرزق الحلال ، فعليه أن يسعى دائماً ، وفى كل حال ، وهو لن يكسب إلا القليل ؛ لأن الكسب الحلال – من وجهة نظر الغزال – قليل لا يزيد ، ولا يثمر ، فهو لم ير كسباً حلالاً صافياً قد كثر ، يقول الغزال من الرجز :

طَـالِبُ الرّزْقِ الحَـــلالِ لا يَـقِـــرْ ♥
نَـهَـــارَهُ ولَـيْـلَـــهُ علـى سَـفَـــرْ
فى الحَـرِّ والبَـرْدِ وأوْقَـــاتِ المَطَـرْ
وَمَالِـــهِ فى ذاك نَـــزْرٌ مُحْتَـقَـــرْ
إنَّ الحَـــلالَ وَحْـدَهُ لا يَخْـتَـمِـــرْ
أيْنَ تَـرَى مـالاً حَـلالاً قـد ثَـمِـرْ ؟
مَـا إن رأينـــا صَافِيَـاً مِنْـه كَـثُـرْ ١

وأنا أخالف الشاعر فى هذه النظرة ؛ لأن هذا الأمر ليس على إطلاقه ، فليس شرطاً أن يكون الحلال قليلاً ، والحرام كثيراً .

وأما الآخر : فيوضح فيه الغزال أنه قد خبر الدهر ، وكثرت تجاربه ، فمرّة يحلو الدهر ، ومرّة يكون مراً كالصبر والعلقم ، وقد خرج من هذه التجارب بحقيقة يراها أمرّ شىء فى الحياة ألا وهى الفقر فليس فى الحياة أمرّ منه ، فالكل يفر منه حتى ولو كان إلى النار :

إنِّـى حَلَبْـتُ الدَّهْـرَ أصْنَـافَ الدَّرَرْ
فَـمَرَّةً حُلْـوٌ وأحْيَانـــاً مِـقَـــرْ
وَعَلْـقَـمَـاً حِينـاً وأحْيَانـاً صَبِـــرْ
وجُـلُّ مَا يَسْقِيكَـــهُ الدَّهْـرُ كَـــدِرْ
فلم أجِدْ شَيْئـاً مِـنَ الفَـقْـرِ أمَـــرّ
ألا تَـــرى أكْـثَـــر مَـا فيهـا يَـفِـــرْ
مَخَـافَـةَ الفَـقْـر إلى نَـارِ سَقَـــرْ ؟!

١ـ انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٤٤ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٥ ـ ١٨٦ .
♥ يقر : يقال فلان قار : ساكن : أى القرار والثبوت ، مادة : قرر ، انظر لسان العرب ، ج ٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن بديع ما نظمه الغزال فى الحكمة ، والتى تنم عن فكر عميق ، ونظرة متأنية ، وثاقبة إلى الحياة ، وطول خبرة بها هذه المقطوعة التى يحدد فيها كيفية معرفة الشخص العاقل .

فيقول : إن ذلك يُعرف من خلال أربعة أمور ، أولها مشيته ، وثانيها حركته ، والثالثة نظرة عينيه ، وآخرها ألفاظه ، ويرى الغزال أن الثلاثة الأول ربما أخلفن إلا الأخيرة ، وهى كلامه، وبهذه الأمور الأربعة يسمى المرء عاقلاً ، ثم يوضح الغزال أن هذه الأمور الأربعة دليل على العقل الذى كالمَلِك بالنسبة لأعضاء الجسم ، فإن صحّ العقل صحّ المرء ، وإن هلك العقل هلك المرء ، ثم يوضح الغزال أهمية النظر إلى عقل الإنسان ، وتدبيره ، وليس إلى ما يملكه من مال ، وربما اختلط الأمر على أهل الحجا ، فقد يكون الحمق ، وقلة العقل فى الناسك المتبتل ، فَعَلى العاقل ألا يغتر بالمظهر ، وأن ينظر إلى العقل والتدبير ، ويختم المقطوعة بحكمة يقول فيها إن سُئلت عن فاضل ، فادلل على العاقل ، فهو أولى الناس بالاتصاف بالفضيلة ، يقول الغزال من السريع :

يُعْرَفُ عَقْلُ المَرْءِ فى أرْبَعْ ... مِشيَتُهُ أوَّلُهَا وَالحَرَكْ
وَدَوْرُ عَيْنَيْهِ وألفَاظُهُ ... بَعْدُ عليهنَّ يَدُورُ الفَلَكْ
وَرُبَّتَمَا أخْلَفْنَ إلا التِّى ... آخِرُهَا مِنْهُنَّ سُمِّينَ لَكْ
هَذِى دَلِيلاتٌ على عَقْلِهِ ... والعَقْلُ فى أرْكَانِهِ كَالمَلِكْ
إنْ صَحَّ صَحَّ المَرْءُ مِنْ بَعْدِهِ ... ويَهْلِكُ المَرْءُ إذا ما هَلَكْ
فانظُرْ إلى مَخْرَج تَدْبيرِهِ ... وَعَقْلِهِ ليْسَ إلى مَا مَلَكْ
فرُبَّمَا خلَّط أهْلُ الحِجَا ... وقد يكونُ النَّوْكُ فى ذِى النُّسُكْ
فإن إمَامٌ سَالَ عن فَاضِلٍ ... فادْلُلَ على العَاقِلِ لا أمَّ لَكْ [1]

ومن أبلغ ماقاله الغزال فى شعر الحكمة تلك النصيحة التى يوجه فيها الإنسان إلى أنه إذا ما أعُطى السلطان ، والجاه ، والنفوذ ، فليأخذ حذره من تداول الأيام ودورانها ، فيوضح أن صاحب السلطة والنفوذ يصفه الجميع بحسن الرأى والفطنة ، ولا يعيب عليه أحد طالما بقى فى السلطة ، فإذا زالت عنه السلطة ، وفارقه النفوذ ، قلت مكانته عند الناس حتى يُرمى باللعن والسب ، ويصبح رأيه لا قيمة له ، وكأنه يصدر عن شخص مجنون ، حتى كأن مطيته قد أصابها الذل والهوان ، فأرخت عينيها وأذنيها (وهو معنى طريف قلّ نظيره فى الشعر العربى) ، ويختم قائلاً بأن هذا الشخص فى وضعه بعد زوال سلطانه ، كأنه لم يكن ذا سلطان أو نفوذ ، يقول الغزال من الوافر :

---

١ ـ انظر : ـ بهجة المجالس : باب العقل والحمق ، ص : ٥٤٥ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠١ ــ ٢٠٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن أعْطِيــتَ سُلْطانــاً فَحَــاذِرْ صَوْلَةَ الزَّمَــنِ
أخُـو السُّلطَانِ مَوْصُـوفٌ بِحُسْــنِ الرَّأى والفِطَــنِ
فَسَاعَـــةَ ما يُزاولُــهُ رَمَــاهُ النّــاسُ باللعَــنِ
وَيُصْبِحُ رَأيُهُ المَحْمُــو دُ مَنسُوبا إلــى الأفَــنِ
وَتُـبْصِـرُ فى مِطِيَّـتِــهِ سُقُـوطَ العَـيْــنِ وَالأذُنِ
وَتَسْتَرخِى مَفَاصِلُــهُ وَتُكْسَى كُسْــوَةُ الحَـزَنِ
كَأنَّ بَشَاشَـــةَ السُّلطـا نِ حين تَـزُولُ لم تَكُــنِ ١

ولنتأمل سوياً البيتين التاليين ، وما يفيضان بـه مـن حكمـة بليغـة تكـشف عـن عمـق التجربة بالحياة ، والخبرة بأحداثها ، حيث يؤكد الغزال من خلال أسلوب القصر أن هـذه الـدنيا ليسـت سوى كــرّ لحظة نعدُّ بها الأيام الماضية ، وما لم يحن بعد ، وأن دنيانا ليست سـوى الـزمن الموجود الحاضر الذى نعيشه . أما ما مضى ، وما سيأتى فهما عديمان بالنسبة لنا ، يقـول الغـزال من الطويل :

وَمَا هَـذه الدُّنيا سِوَى كَرّ لحظة نعدُّ بها المَاضى وما لمْ يَحِن بعدُ
هى الزّمَـنُ لا شــىء غيــرَهُ وما مَــرَّ الآتى عديمــان يا دَعْـدُ ٢

وأختم حديثي عن الحكمة عند الغزال بهذه القصيدة التى حاول بعض المعاصرين للغزال أن يتهموه من خلالها بالزندقة ، رغم أن القصيدة تكشف عن فكر عميق ، وتأمـل فـى موضـوع الـنفس بحثاً عن الحكمة وراء ذلك .

١ـ انظر : ـ بهجة المجالس : باب السلطان والسياسة ، ص : ٣٤٨ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٢ .

٢ـ قال الإمام بن حزم فى رسالة (التوفيق على شارع النجاة باختصار الطريق) : وعلم العدد الذى تكلم فيه أندروماخش مؤلف كتاب الارثماطيقى فى طبائع العدد ومن نحا نحوه ، وهوعلم حسن صحيح برهانى ، إلا أن المنفعة به إنما هى فى الدنيا فقط : فى قسمة الأموال على أصحابها ونحو هذا ، وكل مالا ينفع له إلا فى الدنيا ، فهى منفعة قليلة (وفى رواية : تافهة) لسرعة خروجنا من هذه الدار ، ولامتناع البقاء فيها ، وكل ما ينقضى فكأنه لم يكن ، واستشهد بقول يحيى الغزال السابق .
* انظر : ـ رسائل بن حزم ، ط بيروت ، سنة ١٩٨١ م ، ص : ١٣١ ـ ١٣٢ .
ـ ديوان يحيى بن حكم الغزال ، د/ رضوان الداية ، ص ١١٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فبدايةً تناقش هذه القصيدة موضوعات شتى يبدأها الغزال بإعلان أن أمر النفس لا يعلمها إلا الله ، ولكنه يتمنى أن يعرف مصير الروح بعد الموت عندما تغادر الجسد ، وفى أى موضع تكون فيه إلى يوم الحساب ؟ وهل هى فى مكان ما ؟ وهل تشتاق إلى العودة إلى البدن مرة أخرى أم لا ؟ يقول الغزال من الطويل :

تَمَنَّيْتُ أمْراً قد طَوَى اللهُ عِلمَهُ ... وَمَا عِندَ غيرِ اللهِ فيهِ يَقِينُ
تَمَنَّيْتُ أنْ أدْرى وهَلْ تَنْفَعُ المُنى ... إذا زَالَ هَذا الرُّوحُ أيْنَ يَكُونُ ؟
أفى نُسْخَةٍ أمْ هُو مُقيمٌ بِمَوْضِعٍ ... ـ إلى أن يُنادَى بِالحِسَابِ ـ رَهِينُ
وَهَلْ فيهِ عَقلٌ مِثلمَا كَانَ أو بهِ اشْـ ... ـتِيَاقٌ إلى مَا خَلفَه وحَنينُ
وَصَارَ إلى آذِىَّ بَحْر غُطَامِطٌ ... لَهُ أظْهُرٌ تَحْمِينَهُ وَبُطُونُ
جَسَسْتُ بِوهْمِى جَسَّ أعْمَى فرَدَّهُ ... مِنَ الغَيْبِ شَىْءٌ لا يَرَاهُ مُحِينُ
وَيَالَيْتَ شِعْرى أىّ شَىْءٍ مُحَصَّلٍ ... يَرَى شخصَ مَنْ قد مَاتَ وهو دَفِينُ [1]

ثم يتساءل الغزال : هل للنفس قلب وعقل فتحس ؟ لكنه يقرر أن الحديث عن النفس يمثل نوعاً من الخوض فى الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، ويعود مقرراً أن روحه تحن إلى ربها ، وهى فى اتصال مع خالقها رغم أنها سجينة فى حصن الجسد :

أهُوْ هُوَ أمْ خَلْقٌ شَبِيهٌ بِمَا رَأى ... فَهَلْ للقُلُوبِ النَّاعِسَاتِ عُيُونُ ؟
وَكَيْفَ يَرَى وَالعَيْنُ قد مَاتَ نُورُهَا ... وَوَاقِعَهُ شِبْهُ الوَقَارِ سُكُونُ ؟
تَعَالى الذِى لا يَعْلَمُ الغَيْبَ غَيْرُهُ ... وَلا عِنْد مَخْلُوقٍ بِذاكَ يَقِينُ
لئِن كَانَتِ الأرْوَاحُ مِنْ بَعْدِ بَيْنِهَا ... بِهِنَّ إلى مَا خَلْفَهُنَّ حَنِينُ
وَتَمْلِكُ أنْ يَغْشَى الصَّفِىُّ صَفِيَّهُ ... وتعلمُ بَعْدَ المَوْتِ أيْنَ يَكُونُ ؟
فَرُوحِى لا يَنْفكُّ فى وَصْل رَبِّهِ ... وَإنْ حَالَ حِصْنٌ دُونَ ذاك حَصِينُ [2]

١ـ انظر : ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥٣ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٧ .
2 ـ المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى نهاية القصيدة يقرر أنه موصول بالله ، ومحب له ، والكل لا بد أن يحاسب أمام الله ، وإنه إن ناله الأذى من الناس ، فقد قرت عينه بحب الله واتصاله به :

وَيَعْطِفُنى وُدٌّ على الوَصْلِ ثَابِتٌ وَحَبْلُ هوىً لا فَصْلَ فِيهِ مَتِينُ
وَإنْ تكُنِ الأخْرَى فَعُذرَا فإننى إلى أن أنادَى بالحِسَاب رَهِينُ
لَفَارقتهُ إذ بِنْتُ عنه وَإنَّهُ بِقُرْبى لو يَجْدِى علىَّ ضَنِينُ
عليْكَ سَلامُ اللهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا نَاحَ فى أيْكِ الغُصُون حَنُونُ
لئنْ سَخِنَتْ مِن مَعْشَرٍ بِمُصِيبتِى عُيونٌ فقد قَرَّتْ بذِاكَ عُيُونُ

ولقد أورد الدكتور مكى محقق كتاب المقتبس أن الغزال يأخذ برأى المعتزلة فى الاستطاعة ، حيث حرية الإرادة ، فيقول : " إن ابن حيان ذكر عن الغزال أنه كان جدلياً ، متكلماً ، تفنن فى أنواع العلوم ، ويقول بالاستطاعة وهو أول من أفصح بذلك ، وتكلم فيه بالأندلس " [1] .

ويؤكد الدكتور الغريب أن الغزال : " أول من اعتنق أفكار المعتزلة ، وكان فيلسوفاً وليس ابن مسرة الأندلسى " [2] .

وأنا أرى أن القصيدة لم يرد فيها ما يشير إلى آراء المعتزلة ، وأيضاً قصيدة واحدة لا تكفى لكى يقرر هذا الحكم ، وإذا كان الغزال بدأ القصيدة بتساؤلات عن مصير الروح ، وأى موضع تكون فيه فإنه قد استهل القصيدة بأن أمر النفس لا يعلمه إلا الله .

إذن فالقضية منتهية ، فالرجل مؤمن بالغيب ، ويعلم أن الروح علمها عند الله ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، أما تساؤلاته فلا تخرج عن كونها تساؤلات ليس وراءها شىء من أفكار ، أو مذاهب بعيدة عن مبادىء الإسلام ، وقيمه بدليل ما قرره فى نهاية القصيدة من أن الغيب علمه عند الله ، ولا يعلمه أى مخلوق :

---

[1] ـ المقتبس ، السفر الثاني ، ط الرياض ، ص : ٢٥٠ .
[2] ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٩٣ ـ ٩٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَـعَـالى الذِى لا يَعْلَمُ الغَيْبُ غيـــرُهُ وَلا عِنْـد مَخْــلوُقِ بـذاكَ يقيـــنُ

وتأكيده فى النهاية أنه موصول بالله محب له ، ومعتصم بحبله .

وأنتهى إلى أن ما قاله الدكتور الغريب عن شك الغزال فى الحياة البرزخيـة ، وتخبطـه ، ووجود أصداء للديانـات اليونانية فى شعره ، فهذا الكلام لا يعدو أن يكـون حكمـاً بـلا دليـل ، أو يقين ، وأحيلُ الدكتور على الغريب إلى زهديات الغزال ليتأملها أولاً قبل أن يرمى الرجل بالباطل .

ومما سبق يتضح لي أن الحكمة عند الغزال جاءت فى معظمها عقلانيـة ، فللعقـل فيهـا الدور الكبير بجانب خبرات الحياة الكثيرة نتيجة التجارب الكثيرة للغزال ، وهـذا أمـر طبيعـى لمن عمّر دهراً طويلاً ، وتعددت خبراته وأسفـاره ، وهى حكمة آراها صالحـة لكـل عصر وآن .....

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٨ ـ الشعـــر الاجتماعي :

هو فن آخر من فنون الشعر يعبر فيه الشاعر عن شعوره الجماعى ، فهو فى شعره لا يعبر عـن شـعوره فحـسب ، بـل يعـبر كـذلك عـن شـعور أفـراد مجتمعـه ، فيـشاركهم معانـاتهم ، ومشكلاتهم ، والمقصود بهذا اللون من الشعر عرض التجارب ، والظواهر الاجتماعية ، حيث يصور الشاعر الحياة ، ومشكلاتها ، والأحداث ، ويعرضها بغرض الدعوة إلى تقدم المجتمع وقيادتـه إلى وضع أفضل ، وعليه فتجربة الشاعر مستقاة مـن واقـع مجتمعـه الـذى يعـيش فيـه ، أو المجتمـع الإنسانى كله ، وما يسود هذا المجتمع من مشكلات ، وقضايا ، ومواقف متنوعة ومتعددة ١ .

ولا يخفى الدور الاجتماعى للأدب والشعر على وجه الخـصوص ، وإن كـان الأدب ـ كمـا يرى أرسطو ــ يهدف إلى تطهير النفس البشرية من الانفعالات بإثارة عاطفتى الخوف والشفقة ، فإننا نرى أن الشعر يسمو بالمـشاعر ، ويرقــقها ، ويـثير فـى الـنفس قـدراً هـائلاً مـن الأحاسـيس الرقيقة ، مع تعميق قـيم الجمـال والإحـساس بـه فـى الـنفس البـشرية ، وثمـــة رأى آخـر عنـد (شارل لالو) إذ يرى أن الأدب يهدف إلى ادخار الطاقة ، أى يعوض النفس عن المعاناة الفعلية فى الحياة ، وينفــس عن مكبوتاتها ، ومن هنا يكون الأدب علاجاً ناجعاً لمشكلات وآفات اجتماعية ، ويبصِّر الناس بعواقب السلوك السىء ٢ .

بجانب أن للأدب الاجتماعى دوراً كبيراً فى نقل المعارف المختلفة ، والقضايا المتباينة ، والمشكلات المتنوعة إلى أفراد المجتمع ، والتعبير عن شـتى التجـارب الاجتماعيـة التـى ينبغـى أن يقفوا عليها ؛ ليكونوا على بينة من أمرهم ومجتمعاتهم ٣ .

ومن أهم أهداف الشعر الاجتماعى نقد الحياة الفردية الاجتماعية باعتبـار أن الفــرد يتأثر بالبيئة والأوضاع الاجتماعية ، والشعر يتعرض لهـذه الأوضـاع والقـضايا الاجتماعيـة بقـصد تقويم المعوّج منها ، والكشف عن بذور الشر فيها ، ولا شك أن الشعر يهدف إلى التهـذيب الخلقى والاجتماعى ٤ .

---

١ ـ انظر : الأدب والمجتمع ، د/ محمـد كمال الديــن على يوسف ، الدار القومية القاهرة ، ص٤٠ : ٤١ .
٢ ، ٣ ، ٤ ــ انظر : المصدر السابق ص: ٤١ ـ ٤٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحق أن هذا اللون من الشعر يضرب بجذور بعيدة فى شعرنا العربى ، فأراه عند شعراء الصعاليك بما كان يُعرف عندهم بمسمى : (الاشتراكية) ، حيث يستبيحون أموال الأغنياء ليردوها إلى الفقراء ، ولا ينقص سلوكهم هذا إلا الحماية التشريعية ؛ ليكون سلوكاً مشروعاً ، ومن أخبارهم فى هذا أن (عروة بن الورد) سمع أن رجلاً من كنانة بخيل فبعث عليه عيوناً ، فأتوه بخبره ، فشدّ على إبله فاستاقها ، ثم قسمها فى قومه [1] .

ومما قاله فى ذلك :

وإذا افتقرت فلن أرى متخشعاً لأخى غنى معروفة مكدود [2]

أما فى عصر الإمارة بالأندلس فلم أجد ـ فيما قرأت ـ شاعراً نظم فى الاجتماعيات إلا شاعرنا يحيى بن حكم الغزال ، الذى أعده رائداً لهذا اللون من الشعر ، وليس هذا الأمر بغريب على الغزال ، حيث إن شخصيته التى عرفتها ، وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بينه وبين القصر باعتباره من رجال الحكم والسياسة إلا أنه هاجم المنافقين والمنتفعين من القضاة والفقهاء ، وغيرهم من رجال القصر ناقداً الأوضاع الاجتماعية الفاسدة لمجتمعه ، إيماناً منه بدور الشعر فى تناول القضايا والمشكلات الاجتماعية .

ومن أبرز الظواهر الاجتماعية التى تناولها الغزال فى شعره بالنقد والتحليل ، وأكاد أجزم بأنها ظاهرة كل عصر ، ألا وهى ظاهرة زواج الصغيرة من الكبير الغنى – وقد تناولها الغزال فى عدة صور – فأراه فى **الصورة الأولى** يقول على طريقة الحكاية : إن أباً قد خير ابنته فى رجلين تقدما لطلب الزواج بها ، أولهم : شيخ غنى ، والآخر : شاب فقير ، فرأت الفتاة أن الأمرين كليهما أسوأ من الآخر ، وليس لها فى أيهم ميزة حتى تختاره ، ثم استدركت قائلة لأبيها إن عزمت على زواجى من أيهما فسأختار الصغير ؛ لأننى قد أقبل أى شىء إلا النظر فى وجه الكبير ، وختمت قولها بتعليل رائع جميل قائلة : إن سبب اختيارها للشاب ؛ أنه قد يصيبه الغنى فى المستقبل ، أما الكبير فى السن فلن يعود شاباً أبداً ، يقول الغزال من الوافر :

---

١ ـ انظر : شعر الصعاليك ، د/ عبد الحليم حفنى ، الهيئة المصرية للكتاب ، ص ٣٤٥ .
٢ ـ ديوان عروة بن الورد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ص٨٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وخَيَّرَهَا أبُوهَـا بَيْـنَ شَيْخٍ كَثِـيرِ المَالِ أو حَـدَثٍ فَقِـيـر
فقالتْ : خُطَتا خَسْـفٍ ♥ وَمَا إنْ أرى مِنْ حَظْـوَةٍ للمُسْتَخِيـر
ولكـن إنْ عَزمْتَ فَكُـلُّ شَـيءٍ أحَبُّ إليّ مِنْ وَجْـهِ الكَبِـير !
لأنْ المَرْءَ بَعْـدَ الفَقْـرِ يُثْـرى وَهَذا لا يَعُـودُ إلى صَغِـير ! ١

أما **الصورة الثانية** : فأجد فيها الغزال نفسه فى حوار طريف مع إحدى الفتيات الصغيرات ، وكان قد أسن وأصبح شيخاً ، حيث قالت له الفتاة بأنها تحبه ، وردّ عليها متهماً إياها بالكذب ، وبأن تُغر بكلامها هذا شخصاً آخر قليل التجربة والخبرة ، ثم يردف معللاً بأن من طعن فى السن لا تحبه الفتيات الصغيرات ، وأن كلامها هذا من المستحيل تحقيقه أو تصديقه ، فمثله مثل أن تقول بأنه يمكن عقد الريح وربطها ، أو أن النار باردة ، أو أن الماء يشتعل ، فهذه كلها من المستحيلات ، والكلام غير المعقول مثل قولها إنها تحبه ، وهو شيخ هرم ، يقول الغزال من الكامل :

قَالَتْ: أحِبُّكَ ، قُلتُ: كَاذِبَةٌ غُـرِّى بِـذا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هَـذا كَـلامٌ لسْتُ أقبَـلُـهُ الشَّيْـخُ لَيْـسَ يُحِبُّـهُ أحَدُ
سِيَّـانِ قَوْلُـكِ ذا وقَوْلُك إنَّ الرِّيحَ نَـعْقِدُهَا فَتَنْعَقِدُ
أو أن تقُولى : النَّـارُ بَـارِدَةٌ ! أو أن تقُـولى : المَاءُ يَتَّقِدُ ! ٢

ثم أراه فى **صورة أخيرة** ينبه إلى فتنة الصغيرات للشيوخ ، فيؤكد أن الفتاة إذا أظهرت حبها لشيخ كبير السن ، فهى كاذبة ومنافقة ، وتخفى بداخلها بغْضاً ومقتاً له ، وأنها إذا ادعت حب الكبير ، فهى مخادعة له ، وستخادع غيره ، والأدهى من ذلك أن الشيخ إذا هوى ، وعشق فتاة صغيرة فهو مخدوع ، ولن تخلص له هذه الفتاة ، يقول الغزال من الكامل :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨١ .
ـ بغية الملتمس ، ص: ٤٨٦ .
♥ خسف: الإذلال وتحميل الإنسان ما يكره ، لسان العرب ، مادة : خسف ج٣ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٥٤ .
ـ نفح الطيب ، ص: ٢٥٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنَّ الفتـــاةَ وَإنْ بَـدَا لَـكَ حُبُّـهَـا فَـبِـقَـلبِهَا دَاءٌ عَلَيْـكَ دَفِيـــنُ
وإذا ادَّعَيْنَ هَـوَى الكَبير فإنَّما هُوَ للكَبـير خَدِيعَـــةٌ وقُـرُونُ !
وَإذا رَأيْتَ الشَّيـخَ يَهْـوَى كَاعِباً فَعَليه مِنْ دَرَكِ القُرُون دُيُـونُ ١

ومن الظواهر الاجتماعية التى يبدو أنهـا كانـت شـائعة فـى عـصر الغـزال ظـاهرة شـــراء الشيوخ الأثرياء للجوارى الصغيرات ، فأراه فى القصيدة التالية يعاتـب شيخاً كـبير الـســـن رآه يقبّل فتاة صغيرة ، والشيخ يرد عليه بأنه قد اشتراها بماله (ويتحاوران) ، والـشيخ مـصمم علـى موقفه من أن كل شيء مقدّر ، وهذا قدره والغزال يـسخر منـه رافـضاً تعليلـه ، يقـول الغـزال مـن السريع :

أبْصَـرْتُ شَيْخـاً قُرْبَـهُ نَـاهِدٌ ♥ يَلْـثُمَهَـا كَالقَمَـر السَّـــارى
أسْنَـانُـها فِيما يُـــــرَى لُـؤْلُـــؤٌ صُفِّـفُ فى فيهـا بِـأسْطَـار
إلى لِثـــــاتٍ شِبْـهِ مَادِينَـجٍ دَكُّـوا بِـهِ صَنْعَـةَ مِئشَـــــار
أنِّـــى تَوَصَّـلْـتُ إلـى هَـــذِهِ فقال لى : لُطْفِى وَدِينَـارى
خَوفَّـتُـــه اللـــه وَرَوَّعْـتُـهُ مِنْـهُ بِتَـرْدَادٍ وَتَـكْـــرَار
فَـقَـال ـ والشَّيْخُ خبِيـــثٌ إذا كُلِّمَ مِنْ مَشيَخَـةَ النَّـــار ـ :
بِـاللهِ دَعْنـــى أقْضى مِنَ الدُّنيا لُبـــانَـاتى ♥ وَأوْطَـــارى ♥
ألم تَـقُل لى أنْـت أن كُـلُّ مَـــا يَعْلَمُهُ النَّـاس بِمِـقْـدَار ؟
وكُنْـتُ قـد كَـلَّمتُـهُ مَـــرَّةً فلم أجد بُـدا مِنَ إقْـــرَارى ٢

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٥ .
ـ بهجة المجالس ، من باب :فى ذكر النساء وتزويج الأكفاء ، ص: ٤٢ .
♥ ورد البيت الثالث من الشطر الثانى فى مصدره الأصلى تاريخ الأدب الأندلسى ، د/ إحسان عباس ، ص ١٧٥، هكذا :
وإذا رأيتَ الشَّيخَ يَهْوى كَاعِباً فعليه من درك القرون زبون

٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢ ـ ١٩٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥٧ .
♥ ناهد : هى الفتاة التى تكعب ثديها ، ونهد الثدى إذا ارتفع عن الصدر ، وصار له حجم ، انظرلسان العرب ، مادة : نهد ، ج ٨ .
♥ اللبانات : وهى الحاجة من غير فاقة ولكن من همة ، انظر : لسان العرب ، مادة : لبن ، ج ٨ .
♥ الأوطار : كل حاجة كان لصاحبها منها همة ، انظر : لسان العرب ، مادة : وطر ، ج ٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال وَالوَعْظُ مُحَـــالٌ إذنْ ـ وأنْـــت ذو عِلـم وأفكَـار ـ
إنْ كَانت الأعْمَـــالُ مَحْـتومَـــةٌ مِنْ قَبْـل أن يَبْـرَأنا البَـارى
فَلَسْتُ أسْطِيعُ سِوَى مَا تَـرَى إذ كُـلُّ ما كَـانَ بأقْـــــدَار
وَالخيْـرُ وَالشَّرُّ إذنْ طَـاعَـــةٌ ونَحْـنُ فى مِنْهَـاج أبْـــرَار
إذا تُـوفِّـــيتُ فإنِّـــى لِمَـا قُـدِّرَ مِـنْ جَـنَّـةٍ أوْ نَـــار [1]

ومن الآفات الاجتماعية التى عالجها الغزال بشعره قصيدته التى يخاطب فيها إبراهيم ابن أخته ، وكان إبراهيم قد أسرف فى ممارسة لعبة الشطرنج ، والتى كانت دارجة ومنتشرة فى أيامه ، وكان كثير من الشباب ينصرفون إليها ، وينفقون فى ذلك وقتاً طويلاً ، يضيعون به واجباتهم وأعمالهم ، كما أرى من شبابنا فى وقتنا الحالى .

فبدأ الغزال قصيدته مبدياً غمّه وحزنه من هذا الأمر ، ويوضح أنها عمل فى غير برّ وليست له منفعة إلا جلب الاختلاف والتنازع ، ويرى أن أساس هذه اللعبة الشيطان الرجيم الذى يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين لاعبيها ، ويتهكم الغزال ساخراً من ابن أخته قائلاً له : افترض أنك أمهر الناس فى لعبة الشطرنج ، فماذا بعد ذلك يا حكيم ؟! ثم يوضح الغزال بعد ذلك أن لعبة الشطرنج شؤم ، ويطلب من ابن أخته أن يتجنبها ، ويقول إن قوله هو الصواب ولا يعنيه من يقول غير ذلك ، مشبهاً لعبة الشطرنج بالفرس التى لم تنتج إلا مهراً واحداً ضعيفاً ، واليوم ينزى عليها الكثير من الأحصنة ، وهى عقيم لا تنجب . والمقصود أنها عديمة النفع والفائدة ، يقول الغزال من مجزوء الرمل :

غَـمَّنِى عِشْـقُـــكَ لِلشَّطْـ ـــرَنْج هَـــذا يَا بْـــرَهِيمُ
عَـمَـلٌ فى غَـيْـــر بِـرٍّ واخْتِـلافٍ وَلُـــــــزومُ
إنَّـــمَا أسَّسهَـــــا وَيْـ ـحَـكَ شَـيْطَـانٌ رَجِيـــمُ
هَـبْكَ فِيهَـا أَلْـعَـــبَ النَّـا سِ فَمَـاذَا يا حَكِيـــمُ ؟
لُـعْبَـةُ الشَّطْـرنج شُـؤمٌ فَاجتَـنِـبْهَا يَاشَـــؤومُ

[1] ـ المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَلْيَقُلْ مَا شَاءَ مَنْ شَا ءَ فَقُولى : مُسْتَقِيمُ
إنَّمَا جَاءَتْ بِمُهْرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ وَخِيمُ
والتى يُنْزَى عَلَيْهَا اليَوْمَ مَنْ يُنْزَى عَقِيمُ ١

ثم يبين الغزال أن من يختبر قوله فى الشطرنج سيجده صحيحاً ، فهى قد جُعلت لذوى الشأن العظيم من الملوك ، حيث تجبى إليهم النعم ، أو الوزراء ، أو الندماء ، أو الأغنياء الذين ورثوا أموالاً طائلة تحميهم من غدر الزمان ، وتجعل الدهر مسالماً معهم ، ويقصد الغزال من وراء هذا المعنى تنبيه ابن أخته إلى أن لعبة الشطرنج ستشغله عن العمل والكسب ؛ لأنها لعبة الخاملين والأغنياء ، ويختم الغزال قصيدته منبهاً ابن أخته إلى أخذ العِظة والعِبرة ، ويقول له تذكّر ، وتأمل حال من ينتهى من لعبة الشطرنج ويقوم عنها ، ما الذى كسبه ؟ ثم يجيب بأنه لم يكسب سوى شىء يسير ، وقليل من سرور لا يدوم سرعان ما يزول ، وإذا بلغ بيته ووصل إليه تملكته الحسرة واللوم على ضياع وقته فى لعبة الشطرنج :

وَسَيَبْلُو صِدْقَ مَا فَسَّرْتُ فِيهَا مَنْ يَرُومُ
إنَّمَا هِى لأنَاسٍ شَأنُهُم شَأنٌ عَظِيمٌ :
مَلِكٌ يُجْبَى إليْهِ أو وَزِيرٌ أو نَدِيمٌ !
أو رِجَالٌ وَرِثُوا الأمْـ ـوَالَ للدَّهْر سَلُومُ !
فَادِّكِرْ مَا بِيَدِ القَا ئِم عنها إذ يَقُومُ
هَلْ سِوى شىءٍ يسيرٍ مِنْ سُرُورٍ لا يَدُوم ؟
فإذا مَا أبلَغ البَيْـ ـتَ فَمَحْسُورٌ مَلُومٌ ! ١

1 - انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .

٢- المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن القضايا الاجتماعية التى تناولها الغزال فى شعره ، قضية عدم الرغبة فى الزواج ، حيث يرى الغزال فى الزواج سبباً للنكد ، والتنغيص ، وضياع الشباب فى همّ وفكر ، وانشغال بال ، فيقول : إنه يفضل أن يكون خالياً من غير زوجة ؛ حتى لا يشغل باله بمتطلبات الزوجية ؛ لأنه يرى أن الزوج يقضى حياته منغصاً مشغولاً فى كل حين يطلب الطعام لأهله حتى لا يضيع شبابه ، ولم يُضيّعه سوى الزواج ، وليس الصحبة ، ومعاقرة كأس الخمر ، ثم ينبه الغزال إلى أن أفكاره التى توصل إليها تأتت إليه باجتهاده وعلمه، وأنه مهما يطلب ، أو يسعى إلى رزقه ، فسينال الكثير من الرزق شرط أن يكون بلا زوجة ، وإذا خرج للتنزه ، والاستمتاع بالطبيعة ، فسيستمتع بنزهته ، ولن يتكلف شيئاً ، ولن تؤلمه الذكريات ، يقول الغزال من الكامل :

أنَا شَاعِرٌ أهْوَى التَّخَلِّى دُونَ ما زَوْجٍ لِكَيْمَا تَخْلُصَ الأفْكارُ
لَوْ كُنْتُ ذا زَوْجٍ لَكُنْتُ مُنَغَّصَاً فى كُلِّ حِينٍ رزقُهَا أمْتَارُ
كم قَائلٍ : قد ضَاعَ شَرْخُ شَبَابِهِ ! ما ضَيَّعَتْهُ بَطَالةٌ وعُقَارُ
إذ لمْ أزلْ فى العِلْمِ أجْهَدُ دَائِمَاً حَتَّى تَأتَّتْ هَذِهِ الأفْكَارُ
مَهْمَا أرُمْ مِنْ دُونِ زوجٍ لمْ أكُنْ كَلا ، ورَزْقِى دَائِمَاً مِدْرَارُ
وإذا خرَجْتُ لِنُزْهَةٍ هنِيِّتُهَا لا ضَيْعَةٌ ضَاعَتْ ولا تذْكَارُ! [1]

وأنتقل إلى قضية اجتماعية أخرى تناولها الغزال فى شعره ، ألا وهى قضية الخداع والطمع الذى تمكن من كثير من الناس ، حتى صارت هذه العادات السيئة طباعاً تمكنت من نفوس الناس ، وفى المقطوعة التالية يبدأ الغزال بقسم مغلّظ ، فيقسم بالله تعالى الذى جعل أفئدة الناس تهوى إلى الكعبة المشرفة ، ترجو نصيباً من المغفرة ، يقسم الغزال بأنه ما يرى من الناس إلا ما يشبه الثعلب فى مكره يحتال لصيد الدّجاج ، أو ما يشبه ذئاباً خادعة مفترسة ، أو يشبههم بالقط الذى يريد الوثوب على فأر ، وكأن الحياة أصبحت صراعاً خبيثاً أسلحة الناس فيه المكر والخداع ، يقول الغزال من الخفيف :

---

١ ـ انظر : ـ ظهر الإسلام ، ص : ١١٢ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لا ، وَمَنْ أعْمَل المَطَايا إليْـهِ كُـلُّ مَنْ يَرْتجى إليْـهِ نَصِيبَـاً
مَا أرَى هَا هُنا مِنَ النّاس إلا ثَعْلَبَاً يطلُبُ الدَّجَاجَ وذِيبَـا
أوْ شَبيهَاً بالقِـط ألقَى بعَيْنَـيـ ـهِ إلى فَـأرَةٍ يُريـدُ الوُثُـوبَا ! ١

وفى مقطوعة أخرى يتناول الغزال مسألة الرياء من خلال شخصية رجل مُراء مخادع يخدع الناس بتلونه ونفاقه ، وتظهر فيها روح السخرية فيقول : إن المرائى قد خدع الناس بتصنعه هيئة الوقار ، وأحوال ذوى السلطة والمكانة ، فيراه الناس فى خشوع وورع ، وكأنه مريض ضعيف ، ويحاوره الشاعر فى سخرية وظرف عرف بهما الغزال قائلاً له : هل تتألم من شىء ؟ فأجابه : أتألم من ثقل الذنوب . فيرد عليه الغزال كاشفاً حقيقته بأنه كالذئب فى طبعه وغدره ، حين ينتظر الفرصة للوثوب والافتراس ، والعاقل صاحب اللب ، هو الذى يحذرك ويخشى عذرك ، يقول الغزال من الرمل :

ومُـرَاءٍ أخَـذ النَّـا س بِسَمْتٍ ♥ وقُـطُـوبِ
وخُشُـوع يُشْبِـه السُّقْـ ـمَ وضَعْـفٍ فى الدَّبيـبِ ♥
قُلْتُ : هل تَألَمُ شَيئاً ؟ قال: أثْقَـالُ الذنُـوبِ !
قلتُ : لا تُعْـنَ بشَـىْءٍ أنْـتَ فى قَالـبِ ذِيـبِ !
إنما تَبْنِى عَلَـى الوَثْـ ـبةِ فى حين الوُثُـوبِ
لَيْـسَ مَنْ يَخفى عليهِ مِنْـكَ هَـذا بِلبِيـبِ ! ٢

وينتقل الغزال إلى وصف واقع مجتمعه الذى يتفاضل الناس فيه بالمال ، فيصبح الغنى ذا مكانة اجتماعية عالية ووسيلته إليها هى ماله ، فيؤكد فى أسلوب شرط بأن الشخص إذا كان من الأغنياء ، فهو السيد المُطاع ، ولن يبحث الناس عن أصله وحسبه ، فيكفى أنه على هيئة الآدميين فحسب ، يقول الغزال من المتقارب :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص: ١٣٧ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٧ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٣١ .
ـ بهجة المجالس ، من باب : الرياء ، ص : ٢٠٦ .
♥ سمت : هيئة أهل الخير ، انظر لسان العرب ، مادة : سمت ، ج٤ .
♥ الدبيب : دبَّ دبيباً : أى السقم فى الجسم ، انظر لسان العرب ، ج٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا كُنتَ ذا ثرْوَةٍ مِن غِنى فأنْتَ المُسَوَّدُ فى العَالمِ
وَحَسْبُك مِنْ نَسَبٍ صُورَةٌ تخَبِّرُ أنَّكَ مِنْ آدَم ! [1]

وفى بيتين آخرين يصرح الغزال بأن الدنيا قد فسدت وساء حالها ، ولا ترى فيها إلا حزينا مهموماً حتى صار الحىّ من الناس يغبط الأموات ؛ لأنهم فى راحة وسكون ، يقول الغزال من مجزوء الرمل :

لقد فسَدَتْ فما تلْقَى بِهَا من ليْسَ ذا شَجَن
وصَارَ الحَىُّ مِنَّا يَغْـ ـبِطُ الملفوفَ فى الكَفَن ! [2]

وأختم حديثي عن شعر الغزال الاجتماعى بتلك القصيدة الطويلة التى عارض فيها رائية أبى نواس فى مدح الخصيب (أجارة بيتينا أبوك غيور) ، فثمة اتفاق بين القصيدتين فكلاهما اتفق فى الوزن والقافية ، وكلاهما يمثلان مشهد عتاب الزوجة للزوج على سفره ورحيله ، فزوجة أبى نواس تعاتبه على سفره إلى مصر ، وزوجة الغزال تعاتبه على سفره إلى بلاد الروم ، وقد احتوت قصيدة الغزال على ثلاثة محاور :

تحدث فى **الأول** عن استعداده للسفر ، فمعه ما يكفيه من البعير ، والزاد ، والرفيق المؤنس ، فضلاً عن القلب الذكى الذى يعينه فى سفره ، ثم يعرب الغزال عن مخاوفه من رحلته مستلهماً بعض القصص الإسلامية مثل قصة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا شعيب وإقامته بمدْيَن سنين مخافة الموت وهو أجير ، وكذلك قصة الرسول r حينما هاجر من مكة إلى المدينة على ظهر ناقة قوية ، كما يشير إلى قصة كل من سيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما السلام مع قومهما من بنى إسرائيل ، منتهياً من هذه القصص إلى نتيجة واحدة مُفَادها الإيمان بقدر الله ، فقد يهرب الإنسان من الموت لكنه فى النهاية سيدركه ، يقول الغزال من الطويل :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ٢٢٥ .
ـ بهجة المجالس، من باب : الغنى والفقر ، ص : ٢٠٨ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ٢٣٦ .
ـ بهجة المجالس، من باب : الغنى والفقر ، ص : ٢٨٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعَاذِلتِى إنَّ الظَّـــلامَ بَشِـيـــــرُ وَعِنْدِى رَحْـلٌ حَاضِـرٌ وَبَعِيـرُ
وَعِندِى مِنَ الزَّادِ الكَفَـافُ ومُؤنِسٌ إلى جَانِبى عَضْبٌ ♥الغِرار♥ ذكِيرُ♥
وَقلبٌ ذكِـىٌّ ما يَـكَادُ يَخُـونُنِـى إذا خِـينَ مَجْمُوعُ الحَصَاةِ وَقُـورُ
وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانٍ أقَـامَ بِمَـدْيـنٍ سِنِينَ حِذارَ المَوْتِ وهُـوَ أجِـيـرُ
وَأحْمَدُ لَـمَّا أنْكـرَ الـدَّار أرْقلَـتْ بِهِ عَيْسَجُـورُ للفَـــلاةِ عَبُـورُ
وَيَحْيى وعيسى مُوقِنين تَـواريـا بأن ليس يُنجى الهَاربينَ فُـرورُ
فَصَارُوا إلى ما قـــدَّر اللهُ فيهُمُ وَللخَلْق فى حُـكْم الإلـهِ مَصِيـرُ
وقد يَهْرَبُ الإنسانُ مِنْ خيفةِ الرَّدى فيَلحَقُهُ ما خَافَ حَيْثُ يَسِيـرُ
ليُبْـلغَ نفســاً عُــذرَهَا وَلـعَـلـهُ تكُـونُ أمُـورُ بَـعْدَهُ وَأمُـــورُ ١

أما المحور الثانى :

فيبرز فيه جانب الحكمة عند الغزال ، فيقول ما أكثر الذين سافروا وظنوا أنهم لن يعودوا ! فعادوا ، بينما هلك الكثيرون دون سفر ، ثم يشير إلى أثر الرحلة فى نفسه ، فيرى أن مردودها على غربته يبدو حقيراً ، ويصور سطوة الموت على سائر المخلوقات مثل : (الوعول ـ الظباء) ، بل إنه ليدرك الطير وهو يطير ، ثم أخذ الغزال يقلل من روع زوجته ، ويحملها على الأمل فى رجوعه إليها سالماً ، ثم تساءل مستنكراً : كيف يعود والعُمر قد مضى ، والعِظام قد تفتتت ، والمكان بعيد ناءٍ ؟!

ويختم هذا المحور بإظهار ضعفه كإنسان ، معبراً عن لهفه وشوقه إلى زوجته مهما بدا أمامها متجلداً :

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ١٦١ ـ ١٦٢.
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٥٧ .

♥ العضب: مَنْ ليس له أخ ، انظر : لسان العرب ، مادة : عضب ، ج ٦ .
♥ الغرار : المثال الذى يضرب عليه النصال لتصلح ، انظر : لسان العرب ، مادة: غرر ، ج ٦ .
♥ الذكير : ورجل ذكر : إذا كان قويا شجاعا أنفا أبيا ، انظر : لسان العرب ، مادة : ذكر ، ج ٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَكَم ظَـاعِنٍ ♥ قد ظنَّ أن ليْس آيباً فَـــآبَ وَأوْدَى حَاضِـرُونَ كَـثِيـرُ
وَإنْ الذى أعْظمتِهِ مِنْ تَـغَرُّبـى علـىَّ ـ وإن أعْظمـت ذاك ـ يَسِيـرُ
رَأيتُ المَنَايَا يُدْرِكُ العُصْم ♥ عَدْوَهَا فيُنزِلُـهَا وَالطَّيْر مِنْـــهُ يَطيـــرُ
وعلىَّ أمْضِى ثم أرْجِـعُ سَالِمَـــاً وَيَهْـلكُ بَعْـــدِى آمِنـونَ حُضُـورُ
جَعَلتُ أرجِّيها إيَابى وَمَنْ غَـدَا عَلَى مثل حَالِى لا يَكَـــادُ يَحُـــورُ
وَكَيْفَ أبَالـى والزَّمانُ قد انْـقَضى وعَظْمِى مَهِيضٌ والمَكَانُ شَطِيرُ ♥
وإنى وإن أظهرتُ مِنِّى تَجَلُّـداً لَذو كَبِدٍ حَـرَّى عليْـكَ حَسِـيرُ ♥
وإنَّ رَجَائِـى فى الإيَـابِ ، إليكُـمُ وإنْ أنا أظهَرْتُ العَـزَاءَ قَصِيـــرُ ١

أما المحور الأخير :

فأرى فيه الغزال يحث زوجته على المبالغة فى وداعه ، ولعله بذلك يكشف عن اضطرابه من تلك الرحلة مشبهاً رجاء زوجته فى عودته سالماً إليها بحال القارظيْن ـ وهما رجلان قد خرجا فى طلب القرظ ـ فلم يعودا فصارا مثلاً للغائب الذى لا يرجى إيابه تعبيراً عن اليأس ، وفقدان الأمل فى العودة ، ثم يتحدث الشاعر عن يأسه من العودة مصوراً إقامته فى بلاد الغُربة بالجبل الذى لم يتحرك من مكانه ، ومشبهاً حنين امرأته إليه بالناقة المُسنة إلى ولدها الذى مات .

ويختم هذا المحور بالحديث عن أرَقِه ، فهو لم يذق طعم النوم حتى لاح الصباح ، وتساءل مستنكراً : وهل يمكن للإنسان البعيد عن أهله ـ وإن أحاطه السرور ـ أن يكون سعيداً ؟ :

---

١ ـ المصدر السابق .

♥ ظاعن : ذهب وسار ، انظر : لسان العرب ، مادة : ظعن ، ج٦.

♥ عصم : عَصِم الحيوان : كان فى ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر ، انظر : لسان العرب ، مادة : عصم ، ج ٦ .

♥ شطير : البعيد ، انظر : لسان العرب ، مادة : شطر ، ج ٥ .

♥ حسير : هو من اشتدت ندامته على شىء فَـــاته .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإنْ كُنتِ تَبغِينَ فى الوَدَاعَ فَبَـــالِغِى فَدُونَكِ أحْوَالٌ أرَى وَشُهُـــــورُ
وَكُـونِى كَحَـالِ القَارظَيْـن ♥ فإنَّـنى أرَانِى مُقِيمَـاً مَا أقَامَ ثَبِـيـــرُ♥
فَحَنَّتْ حَـنِينَ النَّابِ♥ مَاتَ حُوَارُهَا ♥ تُجَاوُبَهَا نِـيـبٌ فَوَاقِـــدُ خُـورُ ♥
كأنَّ الذى يُـــذرى المَدَامِـــعَ منهُمَـا تَسَاقُطُ مَاءِ الشَّنِّ ♥ وهو غَزيرُ
لك اللــهُ فاسْتَذرى♥ إليه وأعْـظِمِى الرَّجَـاءَ لَـهُ إنَّ الإلـــهَ قَدِيـــــرُ
فَمَـا زِلْتُ حتى لاحَ للصَّبْحَ سَاطِـعٌ مِنَ الشَّـرق وضَّاحُ السَّراةِ شَهيرُ
فأصبَحْتُ مَسْرُوراً بِنَـائِـى مَحِلَّـتِـى وَهَلْ لامْرىءٍ نَائِى المَحَلِّ سُـرُورُ؟ ١

وتمثل هذه القصيدة ملمحاً اجتماعياً يدور حـول عتـاب الزوجـة لزوجهـا علـى أسـفاره الطويلة ، وتركها هى وأولاده للظنون والمعاناة .

ثم أرى الغزال يصف رحلته وما بها من أخطار وأهوال ، ويدعو زوجته لأن تبالغ فـى وداعه وتطمئن إلى أن الأمور كلها مقدّرة بقدر الله .

وتوحى القصيدة بعلو صوت الحكمة من خلال إيمان الشاعر بقدر الله ، وحمل زوجتـه على الأمل فى رجوعه سالماً ، ويتجلى البعد الاجتماعى فى شوق الغزال ، ولهفته إلى العـودة إلى امرأته، ورجائه سلامة الوصول إليها .

وهكذا فالغزال لم يعش بمعزل عن الناس على الرغم من اتصاله بالأمراء ، ولذا رأيناه يتناول القضايا الاجتماعية بفهم ووعى معبراً عن رأيه صراحة فى بعض هذه القضايا .

على الرغم من عدم اتفاقي معه فى بعض آرائه ، ويبقى الغزال شاعراً تعددت مواهبه ، ومواقفه ، وفلسفته فى الحياة التى يغلب عليها طابع السخرية .

١- المصدر السابق .

♥ القرظ : وهوعبارة عن ورق يدبغ به الأدم ، فلم يرجعا ، انظر : لسان العرب ، مادة : قرظ ج ٧ .
♥ ثبـير : وهو جبل بمكة ، انظر : لسان العرب ، مادة : ثبر ،ج ١.
♥ الناب : الناقة المُسنة / حوارها : ولدها / الخور : الضعف
♥ الشَّنِّ : القربة الخلق : أى البالية ، انظر : لسان العرب ، ما دة : شنن ، ج ٥ .
♥ استذرى: التجـأ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٩- الزهـــــــد :

الزهد فى اللغة : " هو الرغبة عن الشىء ، وخصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا " ١ .

وفى الاصطلاح : " ترك المباح المحبوب المقدور عليه لأجل الله ، فتارك المحظورات لا يسمى زاهداً ، وتارك مالاً يؤبه به لا يسمى زاهداً ، وتركه على سبيل السخاء ، والفتوة ، واستمالة القلوب ، والطمع فى الثناء لا يكـــون زاهداً ، وفى إفراد المباح إشارة إلى أن الزهد يتبعض كما أن التوبة تتبعض ، فمن ترك بعض التمتعات من الشهوة ، والغضب ، والرياسة دون بعض كان زاهداً " ٢ .

وخلاصة الأمر : " أنه هو اللجوء إلى الله ، وعدم الاشتغال بالدنيا ، والانقطاع عن الشهوات ، واعتزال الناس ، والقناعة ، والغنى ، والشكر على النعم " ٣ .

وأما عن شعر الزهد (فقد عرف انتشاراً فى العصر العباسى ، حيث أدى انتشار المجون والترف ، والتمتع إلى بروز تيار الزهد والتصوف ، وإلى الإكثار من التوبة والاستغفار فى المجتمع العباسى) ٤ .

وأما عن نشأته فى الشعر الأندلسى وخاصة فى عصر الإمارة ، فيرى الدكتور إحسان عباس : " أنه قد وُلِـــد فى أحضان الثورة على الحَكَم الرَّبضى إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ، ويتغنون بها فى الليل ، ويضمنونها التعريض به ، ويرى أن مما قوى أدب الزهد عوامل بيئية منها الحياة اللاهية فى المدن ، والانقياد لداعى التقوى فى النفس أيام الشيخوخة ، كذلك أعان على استقواء الزهد ؛ التيار المشرقى وذيوع أشعار أبى العتاهية " ٥ .

ويمكن أن يضاف إلى تلك العوامل نشوء مذهب ابن مسرة الذى وصفه صاحبه ابن خاقان ، فقال :" كان على طريق الزهد والعبادة سبق فيها ، وانتسق فى سلك مقتفيها " ٦ .

ونشوء مذهب ابن مسرة فيما أظن نقل الزهد من نزعة فردية إلى أخرى جماعية ؛ لأنه كان يتبنى دعوة استمرت فيما بعد ، وكان لها أنصار وخصوم لعهد طويل .

---

١ ـ لسان العرب ، مادة : زهد ، ج ٤ .
٢ ـ الاتجاه الاسلامى في الشعر الأندلسي ، د/ منجد مصطفي بهجت ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ص ١٤٦ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
٤ ـ زهد المُجَّـان ، د/ على إبراهيم أبو زيد ، ط دار المعارف .
٥ ـ تاريخ الأدب الأندلسى ، ص : ١١٦ ـ ١١٧ .
٦ ـ مطمح الأنفس ،الفتح بن خاقان ،القاهرة ، (١٣٢٥ هـ) ، ص :٥٦ ـ ٥٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويذكر بالنثيا : " أن أخباراً ترجع إلى أقدم العصور الإسلامية فى الأندلس تُحدثنا عن زهاد أندلسيين ، اجتهدوا فى تعذيب أبدانهم ، وحرمان أنفسهم من اللذات ، وآثروا الفقر عن طواعية ، وكانوا يقطعون سواد الليل فى قراءة القرآن ، ويصومون الدهر ، لا يأكلون إلا مرة واحدة فى الأسبوع فى شهر رمضان ، لا يتداوون إذا مسهم مرض ، ويقيمون حياتهم عزباً ، ويخرجون ما بأيديهم للفقراء ، ويفتدون به الأسرى ، ويقطعون العُمر متوحدين بأنفسهم فى عزلة وتأمل ، ويرابطون على الثغور لمحاربة النصارى طلباً للشهادة " ١ .

لكن الدكتور منجد بهجت يرى فى هذا الكلام شيئاً من المبالغة التى لا تتسق مع طبيعة الزهد فى عصوره الأولى ، لا سيما جهلنا بمصادر هذه الأخبار ، وقد ورد النهى الصريح عن بعضها : كتعذيب الأبدان ، ومواصلة الصيام على الصفة التى أوردها ، وإعراضهم عن الزواج ، فقد نهى رسول الله r عن مواصلة الصيام ، وأخبر بأن أفضل الصيام صيام داوود ، كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، وأما صيام رمضان فإن من سُنته تعجيل الفطور ، وتأخير السحور ، كذلك أنكر القرآن الكريم على النصارى رهبانيتهم فقال :{ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ** } ٢ .

ويحدثنا الدكتور الأوسى عن الزهد فيقول : " وكثيراً ما كان يُتخذ الزهد كأحبولة لصيد المراتب الاجتماعية ، والتمتع تبعاً لذلك بامتيازات اقتصادية مغرية ، وهو تصور لا يخلو من تجن ومبالغة كذلك ، صحيح أن عدداً من الشعراء انتقدوا الزهاد ، وتعرضوا لهم بأشعارهم ، ولكن وجه الاعتراض يقوم على قوله: وكثيراً لأن المجتمع الأندلسى كان يضم عدداً كبيراً من الزهاد ، وما جاء فى انتقادهم يؤلف نسبة ضئيلة قياساً بالمجموع " ٣ .

ومن شعراء الزهد فى عصر الإمارة أحمد بن عبد ربه فإن له شعراً كثيراً فى الزهد ، والتوبة إلى الله ، وهذه الأشعار سماها : المحصات ، وقد نقض فيها كل قطعة قالها فى الصبا ، والغزل ، بقطعة فى المواعظ ، والزهد ، محصها بها كالتوبة ، والندم عليها من ذلك قوله :

١- تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٣٢٦ .
٢- انظر : ـ الاتجاه الاسلامى ، ص ١٥١ .
ـ سورة الحديد : (٢٧) .
٣- الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين ، ص ٢٠٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ياعاجزاً ليس يعفــو حين تقتــدر ولا يقضى له من عيشه وطـر
عاين بقلبــك أن العيــن غافلــة عن الحقيقة واعلم أنهـا سقــر
ســوداء تسفــر عن غيـظ إذا سفرت للظالمين لا تبقى ولا تـذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللـذات مزدجر
أنـت المقـول لـه مـا قلت مبتدئــاً هــلا ابتكـرت لبيـن أنــت مبتكـر [1]

ولعل شاعرنا يحيى بن حكم الغزال يشترك مع أحمد بن عبد ربـه فـى أن كـلا منهمـا قـد استغرق الزهد ـ فى ديوانيهما ـ مساحة واسعة ؛ لأن كليهما قد عاش حياة متحررة بعـض الـشىء فى مُـقـتـبـل العُـمر ، فجاء شعرهما صورة صادقة لأهم التجارب التـى مَـرَّا بهـا ، وهـو مـا دفـع الأستاذ أحمد أمين إلى القول بأن شعر الغزال كان إرهَاصاً لشعر ابن عبد ربه ، وكان لشعرهما مقام بالمشرق فضلاً عن الأندلس فأعجبوا بهما [2] .

وللغزال زهديات كثيرة تعكس أصداء التقوى فى نفسه : وهى على مشارف الشيخوخة ، وترصد خبرته فى معاملة الناس ونقدهم ، وقد دعا كثيراً فى شعره إلى الزهد ، فالزهد عند الغزال هو زهـد من تملكه الضجر بعد أن مَـارَسَ الحياة وخبرها ، وبعد أن طـواه الزمـان ، وبـدل خلقـه كله ، وبراه عضـواً فعضواً ، وتدور معانى الزهد عنده فى الدعوة إلى تقـوى الله ، والرضـا بمـا قـسم والقناعة بالقوت ، والاعتدال فى الملبس ، والتواضع ، وعدم الشكوى لغير الله ، والإيمان بأن للعُـمر نهاية ، والكل سيقـف أمام الله يوم القيامة للحساب .

ففى المقطوعة التالية يصور لنا الغـزال كيـف أن الزمـان قـد طـال بـه ، وبـدل خلقـه ، ونحلـه ، وأهزل أعضاءه عضواًعضواً ، ولم يَدْع شيئاً صحيحاً سليماً سوى اسمه ولسانه –ولا تفارق السخرية الغزال حتى فى زهده – فيقـول إنه لو كانت الأسمـاء تبلـى ، فبالتأكيـد سـيبلى اسمـه لطول عُـمره الذى شارف المائة ، ثم يتساءل الغزال متعجباً :كيـف لا أبلـى .... ؟ ، وقـد عمـرت طويلاً ، فقد ضعف نظرى ، ثم ينصح بأن من يرغب فى العيش يتعظ بما يراه من حاله (أى الغـزال) ، فيقول من الطويل :

١ـ ديوان أحمد بن عبد ربه ، تحقيق / محمد رضوان الداية ، ص : ٨٦ .
٢ـ انظر : ظهر الاسلام ، ص : ١١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أَلَسْتَ تَرَى أنَّ الزَّمَانَ طَوَانِى وَبَدَّلَ خَلْقَهُ كُلَّهُ وَبَرَانِى
تَحَيَّفَنِى ♥ عُضْواً فعُضْواً فلمْ يَدَعْ سِوَى اسْمِى صَحِيحاً وَحْدَهُ وَلِسَانِى
وَلوْ كَانَتْ الأسْمَاءُ يَدْخُلها البِلَى لقد بَلِىَ اسْمِى لامْتِدَادِ زَمَانِى
وَمَا لِى لا أبْلى لِتِسْعِينَ حِجَّةً وَسَبْعٍ أتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ
إذا عَنَّ ♥ لِى شَخْصٌ تَخَيَّلَ دُونَهُ شَبِيهُ ضَبَابٍ أو شَبِيهُ دُخَانِ
فَيَا رَاغِباً فى العَيْش إنْ كُنْتَ عَاقِلاً فَلا وَعْظَ إلا دُونَ لَحْظِ عِيَانِ ١

ثم أرى الغزال فى القصيدة التالية يردّ على زوجته أم عُمر حين تسأله عن حالته ، وقد رأت ما حلَّ به من تغير وكبر ، فيجيب بأن الذى تسأل عنه مكشوف وواضح إذا نظرت إليه سترى وجهه ، وقد تغير واربد وابيض شعره حتى صار شهرة لشدة بياضه ، وتقبض جلد وجهه ، وضعف سمعه وبصره ، وثقلت حركته حتى أصبح لا ينهض إلا إذا فزع ، ولو تطاول عليه أحد ، أو ظلمه لم يحرك ساكناً ، ثم يختم قصيدته داعياً إلى أن نتأمل حاله ونتعظ ، ونعتبر مما حلّ به ، يقول الغزال من الرجز :

تَسْأَلُنِى عن حَالَتِى أمُّ عُمَرْ
وهى تَرَى مَا حَلَّ بِى مِنَ الغِيَرْ
وَمَا الذِى تَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ خَبَرْ
وَقَدْ كَفَاهَا الكَشْفُ عَنْ ذاكَ النَّظَرْ
وَمَا تكُونُ حَالَتِى مَعَ الكِبَرْ
اربَدَّ ♥ مِنِّى الوَجْهُ وَابْيَضَّ الشَّعَرْ
وَصَار رَأسِى شُهْرَةً مِنَ الشُّهَرْ ♥ ٢

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
ـ المطرب ، ص: ١٥١ .
♥ تحيفنى : أخذ من جوانبه ونواحيه ، انظر : لسان العرب ، مادة : حيف ، ج٢ .
♥ عَنَّ : أى اعترض ، انظر : لسان العرب ، مادة : عنن ، ج ٦ .
١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٢٨ .
♥ اربدّ : اربد وجهه وتربدّ: أى احمر حُمرة فيها سواد عند الغضب ، انظر لسان العرب ، مادة : ربد ، ج٤ .
♥ الشُّهر : بمعني الشهرة ووضوح الأسر ، ويقصد ظهور الشيء شُنعة بين الناس حتي يُشهرْ الناس ، انظر : لسان العرب ، مادة : شهر ، ج ٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَيَبِسَتْ نَضْرَةُ وَجْهِى وَاقْشَعَرْ
وَنَقَصَ السَّمْعُ بِنُقْصَانِ البَصَرْ
وَصِرتُ لا أنْهَضُ إلا بَعْدَ شَرْ
لَو ضَامَنِى ♥ مَا ضَامَنِى لمْ أنْتَصِرْ
فانْظُر إلىّ وَاعْتَبِرْ ثُمَّ اعْتَبِرْ
فَإنَّ للحَلِيمِ فِىَّ مُعْتَبَرْ ! [1]

وبما أن الغزال قد عَمَّر طويلاً فقد تجاوز التسعين عاماً مما يجعله يمتلك القدرة على تمييز الناس ، فأراه فى المقطوعة التالية يقول إن الناس تتشابه فى الخلق والهيئة ، ولا اختلاف بينهم إلا فى العمل ، وكل شخص مُعرَّض لأن تتناوله ألسنة الناس بالحق تارة ، وبالباطل تارة أخرى ، ومن طبع الإنسان أنه فى شغل بغيره عن نفسه ، فهو يبحث عن عيوب غيره ، ولا يلتفت إلى عيوبه هو ، والأعجب من ذلك أنه يرى الذنوب الصغيرة فى غيره كبائر ، وهو يرتكب الأشد منها والأكثر ، ويتغافل عنها ، وهو يقنع بدنياه ونعيمها ، وما يدرى أن الدنيا ما هى إلا متاع الغرور، ثم يصور لنا ألسنة الناس بالأفاعى التى تمتلك القدرة على اللدغ والاغتيال ، وهى صورة توحى بأثر اللسان فى تحطيم العلاقات الإنسانية ، يقول الغزال من الكامل :

النَّاسُ خَلْقٌ وَاحِدٌ مُتَشَابِهٌ لكِنَمَا تَتَخَالفُ الأعْمَالُ
وَيُقالُ حَقٌّ فى الرجَالِ وَبَاطِلٌ أىُّ امْرىءٍ إلا وَفِيهِ مَقَالُ ؟
وَلِكُلِّ إنْسَانٍ بِمَا فى نفسِهِ مِنْ عَيبِهِ عَنْ غَيْرِهِ أشْغَالُ
يَسْتَثْقِلُ اللمَمَ ♥ الخَفيفَ لِغيرِهِ وَعَليهِ مِنْ أمْثَالِ ذاكَ جِبَالُ
وَيَنَامُ عَنْ دُنياهُ نَوْمَةَ قَانِعٍ بِنَعيمِ دُنيَاهُ ، وَذاكَ خَيَالُ
وَرَأيْتُ ألسِنَةَ الرِّجَالِ أفَاعِيّاً طَوْراً تَثُورُ ، وتارةً تَغتَالُ
فإذا سَلِمْتَ مِنَ المَقَالةِ غَيْرَ مَا تَجْنى ، فأنت الأسْعَدُ المِفْضَالُ ! [2]

---

[1] ـ المصدر السابق .
♥ ضامنى : ضمى : عن ابن الأعرابى : ضمى إذا ظلم ، انظر : لسان العرب ، مادة : ضمن ، ج ٥ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٢ ـ ٢١٣ .
ـ المطرب ، ص : ١٥١ .
♥ اللمم : صغارالذنوب ، انظر : لسان العرب ، مادة : لمم ج ٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أرى الغزال فى المقطوعة التالية يقول إنك إذا أخبرت عن رجل قد برىء من الأخطاء والذنوب ، وصح قوله وعمله فلا تثق بهذا القول ، واسأل من أخبرك عن هذا الرجل ، هل هو من بنى آدم ؟ ، فإن قال : نعم ، فتأكد من كذبه ، ثم ينبه الغزال إلى أننا ـ بنى البشر ـ يستطيع بعضنا أن يخفى عيوبه وذنوبه ، ولكن كلنا أمام الله أصحاب ذنوب وعيوب ، ثم يقول إن الله قد أنعم علينا ، فجعل الذنوب لا رائحة لها ، لأنها لو فاحت رائحتها لهربنا جميعاً إلى الصحارى ، ليس هذا فحسب بل لهرب كل واحد منا من الآخر ، ولضاق البلد الفسيح بمدّعى الصلاح الذين أنْتَنَتْ رائحة ذنوبهم البلد على اتساعه ، يقول الغزال من الوافر :

إذا أخْبَرْتَ عن رَجُلٍ بَرىءٍ مِنَ الآفَاتِ ظَاهِرُهُ صَحِيحُ
فَسَلَهُمْ عنه : هَلْ هُوَ آدَمِىٌّ ؟ فإن قالوا : نعم ، فالقَوْلُ ريحُ !
ولكنْ بَعْضُنا أهْلُ اسْتِتَارٍ وَعِنْدَ اللهِ أجْمَعُنَا جَرِيحُ
وَمِنْ إنْعَام خَالِقِنَا عَلَيْنَا بأنْ ذنُوبَنَا ليْسَتْ تَفُوحُ
فلَوْ فَاحَتْ لأصْبَحْنَا هُرُوباً فُرادَى بالفَلا مَا نَسْتَرِيحُ
وَضَاقَ بكُلِّ مُنتَحِلٍ صَلاحَاً لَنَتْنِ ذنُوبِهِ البَلَدُ الفسِيحُ ! ١

ولعل هذه المقطوعة تؤكد لنا مدى تأثر الغزال بزهديات أبى العتاهية ، وخاصة فى البيت الرابع الذى اقتبس معناه من قوله :

أحْسَنَ اللهُ بنَا أن المَنَايَا لا تُفُوحُ ٢

وأصل إلى أروع وأبدع ما نظمه الغزال فى الزهد الممزوج بالحكمة وعمق النظرة ، والفكر فى مقطوعته ، أكاد أظن لو لم ينظم الغزال غيرها لكفت للتعبير عن شاعرية عبقرية ، وعقلية متميزة ، وتمكن من الإمساك بناصية المعانى والعبارات التى انسابت فى سلاسة ويسر مع ما تحمل من أفكار عميقة .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٩ ـ ١٥٠ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .
٢ـ انظر : ديوان أبو العتاهية ، دار صادر بيروت (١٩٨٠) ، ص ٩٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الغزال :

إنه يرى أن أهل الغنى والثراء إذا ماتوا بنوا مقابرهم من صخور وشيدوها عالية ، كأنهم يتباهون على الفقراء ، ولم يكفهم المباهاة فى القصور ، فتفاخروا عليهم فى القبور وهذا أمر يراه الغزال عجيباً .

وفى المقطوعة يؤكد أنه إن كان التفاخر والتفاضل فى قمم القبور فإن العدل فى قعور هذه القبور ، حيث يستوى الجميع غنيهم وفقيرهم ، ثم يقول إنه قد رضى بتصاريف القدر تجاه هؤلاء الذين تأنقوا فى بنائهم ، وزخرفوه ، وبالغوا فى تزيينه ، ويوبخهم على عدم اتعاظهم بما أصاب الأمم السابقة ، وبما أصاب الأغنياء من تصاريف الدهور ، حيث تهدمت المدائن والقصور ، ويقسم الغزال على أن هؤلاء الأغنياء لو تأملوا ما حدث لغيرهم لتغيرت أحوالهم ، وتبدلت هيئاتهم ، ولما عُرف الغنى من الفقير ، ولا العبيد من السادة ، بل ولا حتى الإناث من الذكور ، ولا من لبس الصوف الخشن من لابس الحرير ، ويختم باستفهام تعجبى قائلاً إذا مات الغنى والفقير ، وأكلهم الثرى ، فهل هناك فضل للكبير على الحقير ؟! الإجابة بالنفى ، يقول الغزال من الوافر :

أرى أهْلَ اليَسَارِ إذا تُوفُّوا ... بَنَوْا تِلْكَ المَقَابر بالصُخُور
أبَوْا إلا مُبَاهَاةً وَفَخْراً ... على الفُقَراءِ حتّى فى القُبُور !
فإن يَكُن التَّفاضُلُ فى ذراهَا ... فإن العَدْلَ فيها فى القُعُور♥
رَضِيتُ بِمَنْ تَأنَّقَ فى بناءٍ ... فَبَالَغَ فيه تَصْرِيفَ الأمُور
ألمَّا يُبْصِروا مَا خَرَّبتْهُ الدُّ ... هُورُ مِنَ المَدَائِنِ وَالقُصُور
لَعَمْرُ أبِيهُمُ لَوْ أبْصَروهم ... لَمَا عُرِفَ الغَنِيُّ مِنَ الفقير
ولا عَرَفُوا العَبِيدَ من المَوَالى ... ولا عَرَفوا الإنَاثَ من الذكور
ولا مَنْ كان يَلْبِسُ ثَوْبَ صُوفٍ ... مِنَ البَدَن المُبَاشِرِ للحَرير
إذا أكَلَ الثَّرى هذا وهذا ... فَمَا فَضْلُ الكَبير على الحَقير؟! [1]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص :١٧٩ ـ ١٨٠.
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٦ .
♥ القعور : العمق ، انظر : لسان العرب ، مادة : قعر، ج٧ .
♥ ورد الشطر الثانى من البيت الرابع فى المصدر الأصلى نفح الطيب ، ص ٢٥٦ ، هكذا :
رَضِيتُ بِمَنْ تَأنَّقَ فى بنَاءٍ ... فبالَغ فيه تصريف الدهور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى الأبيات التالية أرى الغزال يقرِّر فى أسلوب شرط أنّ من ظنَ أنه ناج من حادثات الدهر ومصائبه ، فقد أصابه الغرور وكأننا جميعاً معرضون لأحداث الدهر ونوائبه ، ثم ينصح قائلاً بأن نقابل شدائد الزمن وخطوبه باستهانة ، وألا نغتم لها ، ونسير حيث تسير بنا الأقدار ، وإذا تبدلت الأمور ، وتغيرت الأحوال ، ولم تستقر على حال ، فالكل سواء المحزون والمسرور ، يقول الغزال من الكامل :

مَنْ ظَنَّ أنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ يُصيبهُ بِالحَادِثاتِ فإنَّهُ مَغْرُورُ
فَألقَ الزَّمَانَ مُهَوِّناً لِخُطوبِهِ وَانْجَزّ حيثُ يَجُرُّكَ المَقْدورُ
وَإذا تَقَلَّبَتِ الأمُورُ ولم تَدُمْ فَسَواءٌ المَحْزونُ والمَسْرورُ ١

ثم ألمس قمة الزهد عند الغزال فى تلك القصيدة الرائعة التى يدعو فيها إلى عدم الشكوى لغير الله ، ويرسم فيها حدود الزهد فى نظره ، فيراه مُتمثلاً فى : الرضا بالقوت ، والاعتدال فى الملبس ، والتواضع فى السير ، والإيمان بأن للعمر نهاية ، يقول الغزال من الرمل :

أيُّهَا الشَاكِى إلى مَنْ لَيْسَ فى كَفَيْهِ جَدْوَى
إنَّ شَكْوَاكَ إليْهِ لَيْسَ تُغْنى عَنْكَ شَيَّا
فَاسْأَلِ اللهَ فَلا أقَـ ـربُ مِنهُ حِينَ يُدعى
وَارْضَ بالقُوتِ فإنَّ الـ ـقُوتَ فِيهِ كُلُّ مَكْفَى
لسْتَ تَحْتَاجُ مَعَ المَا ءِ إلى شُرْبِ المُضَرَّى ♥
لا وَلا مَعَ جُبَّةِ الصُّو ف إلى الخَزِّ المُوَشَّى ♥
وَالعَصَا فى الكَفِّ تُغْنِيـ ـكَ عَنِ السَّيْفِ المُحَلَّى
كَم يُرِيدُ المَرْءُ قَدْ أرْ بَى عَلَى السَّبعِينَ يَبْقَى
هَبْكَ عِشْتَ الدَّهْرُ حَتَّى يَنْفَذَ الدَّهْرُ وَيَفنى
أو مَا قُصْرُكَ مَنْ ذا كَ إلى أنْ تُتَوَفى ؟ ٢

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١١ ـ ١١٦ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥٩.
♥ المضرى : هو النبيذ ، والمراد الشراب المعتق المسْكر ، انظر : لسان العرب ، مادة : ضرر ، ج ٥.
♥ الخـــز : ضرب من الثياب تنسج من صوف وإبريسم ، انظر : لسان العرب ، مادة : خزز ، ج ٣.
الموشى : المنمم الحسن المنقوش ، انظر : لسان العرب ، مادة : وشش ، ج ٩.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم يوضح الغزال أن كل بُنيان وقصر مصيره إلى الهدم والفناء ، فكذلك النـاس مـصيرهم إلى الفناء ، ولا يبقى سوى الله ، وما يرضاه من الأعمـال الصالحة:

لَـمْ أجَـدْ حِيـنَ تَـفكَّـر تُ وَرَاءَ اللـهِ مَـرْمَـــى
لا وَلا عَنْـهُ إلا شَـــيْ ءٍ مِنَ الأشْيَـــاءِ مَعْـــدَى
كُـلُّ ما يُغْنـى بهِ النَّـا سُ مِـنَ البُـنيَـــانِ يَـبْلـى
رُبَّ قَـصْـرٍ قدْ رَأيْنَـا هُ عَـزيـــز الأهْـــلِ يُغْشَـى
ثُمَّ أبْصَرنـاهُ مِـنْ بَعْـ ـدُ خَـرَابَـــاً لَـيْسَ يَحْيَـا
أيُّهَا القَـصْـــرُ الـذِى أصْـ ـبَحَ للغِـرْبَـــانِ مَـــأوَى
وَانْقَضَى العِـزُّ الـذِى كُنـ ـتُ بـــهِ إذ كُـنـتَ تَخْـشَى
مَـثْلَ مَـا ارْفضَّ ♥ لهُ دَمْـ ـعِـــى مِنْ شَـأنِـــكَ أيْضَاً
أىُّ شَـــىءٍ مَا خَـــلا اللـ ـهَ وَمَـــا يُرْضِيـــهِ يَبْـقـى ؟ ١

ثم ينبه الغزال أن الإنسان ينبغى أن يكون سعيداً وهانئاً بما عنده ، وإن كان قليلاً :

لا أرَى وَجْهَـاً كَوَجْـــهِ فِيـهِ مَـاءٌ البِـرِّ أوْضَـــا
لا وَلا مِنْ قَـنْـعٍ رَاضٍ بالـذِى يَكْـفِـيـهِ أغْنَـى
لا وَلا مِنْ خُبْزِكَ الخُـشْـ ـكَارِ♥ إذ تَـقْـنَعُ أهْـنَـــا
لا تَسَـــلْ مَنْ كَـــانَ سَـوَّا لاً ♥ وَإنْ أثْـــرَى وَأثْـــرَى ٢

ثم يختم قصيدته بالتأكيد على أن يبتعد الإنسان الزاهد التقى المؤمن عن فعل الـشر ، وعـن سوء النيّة ، وعن الجشع ، وعن الشيطان ، وأن يتمسك بالتـقـوى ، والخوف من اللـه ، فله الأمـر من قبل ومن بعد :

إنَّ للإعْـــــدَامِ فِينـــا تَـحْـتَ شُرْسُـوفَيْهِ ♥ مَأوَى
وَلِعَمِـرى إنَّ للفَـــقْـــ ـرِ مَذاقـــاً لَيْسَ يُنـــسَى ٣

١ـ المصدر السابق .
♥ ارفض : سال وتفرق ، انظر لسان العرب ، مادة : رفض ، ج ٤ .
٢ـ المصدر السابق .
♥ الخشكار : هو خبز أسمر غير نقى ، انظر : لسان العرب ، مادة : خشكر ، ج ٣.
♥ سوّالاً : هو كثير السؤال ، انظر : لسان العرب ، مادة : سوول ، ج ٤.
3 ـ المصدر السابق .
♥ شرسوفيه : هى أطراف اضلاع الصدر مما يلى البطن ، انظر : لسان العرب ، مادة : شرسف ، ج ٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رُبَّ مَلعُـونٍ مِـنَ النَّـا س مِنَ السـلّ أعْـتَـى
وَمنَ الذيبِ عَلَى ابْنِ الـ ـشَّـاةٍ عِنـدَ الجُوعِ أعْـدَى
وإذا هَبَّتْ لـهُ الـرَّيـ ـحُ فـمِنَ إبْلِيـسَ أطغَـى
وَمِـنَ الكَـلْبِ إذا جَـا عَ لِـمَا يَمْـلِكُ أحْمَـى
وَمِنَ الشَّيْطانِ عِـندَ الـرَّ أى للـصَّـاحِبِ أغْـوَى
وَإذا كَـانَ لـهُ حَـقٌّ فَـبِرسَـامٌ ♥ وَحُمَّـى
انْقَضَتْ بَعْضُ لَيَالى الـ ـنَّـاسِ فى سَوْفَ وَحَتَّـى
وَجْـهُ ذِى التَّـقوَى مِنَ ال ـإبْريزِ ♥ فى العَيْنَيْنِ أنْـقَـى
غَيْـر أنَّ الأمْـر للـ ـهِ عَـزيـزٌ لَيْـسَ يَفْـنَى ١

وأختم حديثي عن زهديات الغزال بتلك القصيدة التى دارت حول التوبـة والنـدم وتأمـل الحياة والزمن ، فيعترف الغزال فى بدايتها باقترافه الذنوب إلى أن انقـرض عُمـره ، فخـسر كـل شيء لبعده عن الله ، وضعف إيمانه ، فيقول الغزال من السريع :

مَهْـلاً فليْسَ العَذْلُ ♥ مِنْ شَانِـى لَسْـتُ عن اللـذاتِ بالوَانِـى
مَضَتْ ثَلاثُـون إلى مثلِـهَـا لى وَثَـلاثُون وَثِنْـتَـان
وَالثُّـلثُ منها فى سَبيـل الصِّبـا وفى المَعَاصِى ثُلثُهَا الثَّـانى
وَالثُّـلثُ الثَّالِـثُ فـى غَمْـرَةٍ قَلَّ بِـهَـا بِـرِّى وَإيـمَانِـى
فانْـقَـرضَ العُمْـرُ وَمَـا فى يَدِى مِنْ كُـلِّ هَـذا غَيْـرَ خُسْـرَان
وَكُـلُّ شـىءٍ غير مَـا كان للـ ـه مِنَ الدُّنيـا لِبُطْـلان
لى جَسـدٌ بَـالٍ وَلَكِـنَّـمَـا رُكِّـبَ فيـه رُوحُ شَـيْطَـان
ذو أمَـلٍ غَـضٍّ جَديـدٍ كَمَـا أعْرِفُـهُ أوَّلَ أزْمَـانِـى
كَـأنَّ إيقَـافى فِيمَـا مَضَـى بِـاللـه رَبِّـى غَيْـر إيـقَـان ٢

١ـ المصدر السابق .
♥ البرسام : علة معروفة ، وهى التهـاب فى الغشـاء المحيـط بالرئـة ، انظر : لسان العرب ، مادة : برسم ، ج١.
♥ الإبريز : الحلى الصافى من الذهب .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ٢٣٠ ـ ٢٣٢.
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥٨ .
♥ العذل : اللوم ، انظر : لسان العرب ، مادة : عذل ج٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أجد الغزال يعلن توبته ، وينصح الجميع بأن يعودوا إلى أن المال يفنى والبناء وكل شيء سوى الله ، ويختم بأن الله قد أعطانا أبصاراً وبصائر ، ورغم ذلك نخبط فى الدنيا خبط العميان ، وكأنه متأثر بقول الله تعالى : **(وَمَن كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً)** [1] .

يقول الغزال :

يَامُعْجَباً بِالمَال أضْحَى بِهِ ... فى النَّاس ذا زَهْوٍ وَطُغْيَان
هَيْهَاتَ إنَّ المَالَ يَفْنَى وَمَنْ ... يَجْمَعَهُ عن قَدَر فَانِى
قُلْ أيها البَانِى : أما تَرعَوى ... وَأنْتَ فى سِجْنِ الرَّدى عَانى ؟
هَلْ لك فى خَيَر بمَا أفْنَتِ ال ... أيَّامُ مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَان
لَوْ عَلِمَ البَانُونَ مَا أتْعَبُوا ... أنفسَهُمْ يَوْمَاً بِبُنْيَان
وقد رَأوا مَا فَعَل الدَّهْرُ بِالـ ... ـبُنْيَانِ وَالمَسْكَن وَالبَانِى
كُلُّ امْرىءٍ يَسْعَى إلى شأنِهِ ... وما أرى البُنيَان من شَانِى
عَجِبْتُ مِنْ صِحَةِ أبْصَارنَا ... وَالخَبْط مِنَّا خَبْط عُمْيَان [2]

وبعد .. فهذا هو الغزال وتلك زهدياته التى رسمت صورة دقيقة وجميلة ـ لمرحلة من أخصب مراحل عُمره الممتد ـ جاءت شعراً صادقاً ، وفكراً ناضجاً ، عبر أصدق تعبير عن هذه المرحلة التى تهذبت فيها الغرائز ، وسمت فيها المشاعر ، وما أحوج الناس جميعاً لهذا الفن الشعرى الذى يتلاءم مع كل البيئات وعلى امتداد الزمن .

١٠ـ أغراض ملحقة بشعر الغزال :

للغزال فنون شعرية جاءت على استحياء فى شعره الباقى الذى وصل إلينا ، حيث لم يرد منها إلا بيت ، أو بيتان ، أو مقطوعة ، بحيث لا نعدُّها غرضاً قائماً بذاته ؛ لأنها لم تكن إلا عبارة عن خواطر شعرية استلزمتها بعض المواقف .

١ـ سورة الإسراء : (٧٢) .
٢ـ المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أ ـ الخمـــريات :

لم ينظم الغزال فى مثل هذا الفن الشعرى الذى كان شائعاً فـى عـصر الإمـارة إلا مقطوعـة واحدة ؛ لأن الغزال لم يكن شارباً للخمر بوجه عام ، وذلك راجع إلى نشأته الدينية .

وقد جاء فى المطرب والنفح أن الغزال رحـل إلى العـراق ، وذلـك بعـد مـوت الحـسن بـن هـانىء المعروف بأبى نواس بمدة يسيرة ، فوجدهم يلهجون بذكره ، ولا يساوون شعر أحد بشعره ، فجلس يوماً مع جماعة منهم ، فأزروهم بـأهل الأنـدلس ، واسـتهجنوا أشـعارهم ، فتركهـم حتـى وقعـوا فـى ذكـر الحسن ، فقال لهم : مَنْ يحفظ منكم قوله فأنشدهم قصيدته ، فأعجبوا بالشعـر وذهبوا فى مدحهم له كلَّ مذهب ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا عليكم فإنه لى ، فأنكروا ذلك ١ .

وأجد للقصة خبراً ثانياً ، حيث ترجم للحُميدى فى جذوة المقتبس: لسعيد بن أحمد بن خالد ، فوصفه بأنه من أهل العلم والفـضل ، وأنـه كانـت لـه رحلـة إلى المـشرق ، قـال : أخبرنـى بعـض المـشايخ بالأندلس أن سعيد بن أحمد كان يحكى أنه لما رحل إلى المشرق لقيه أحـد الأدبـاء بمـصر واستنـشده لأهـل الأندلس ، فأنشده ، ففضل بعض التفضيل إلا أنه قـال : لا تخفـى أشـعاركم إلى جانـب أشـعارنا كمـا لا يخفى البدر فى سواد الليل ، فقال له سـعيد : صـدقت ! ، وأيـن لأهـل الأنـدلس بمثـل قـول الحـسن بـن هانىء ؟! وأنشده أبيات يحيى بن حكم الغزال ، وهى قصيدة طويلة يعـارض بهـا الحـسن فلمـا سمعهـا المصرى طرب واهتز ، وقال : للـه درّ الحسن ! ، فلما أكثر قـال له : الـشعر واللـه ليحيـى بـن حكـم الأندلسى ، وإنما أردت تجربة نقدك والنقض عليك ، فردّ ذلك وأنكره حتى صحّ ذلك عنـده ، فخجـل ، وأظهر التعجب ٢ .

وقد افـتتح الغزال مقطوعته بهذا البيـت الـذى يقـول فيـه : إنـه قـد تـدارك خطـأه وباشـره ، واقـترف شرب الخمر حتى لعبت الخمر برأسه ، وفارق خصاله الكريمة ، وحياءه المعروف عنه ، يقـول الغزال من الطويل :

تَدَارَكْتُ فى شُرْبِ النَّبيذِ خَطائِى وفارقْتُ فِيهِ شِيمَتِى وحَيَائِى ٣

١ـ انظر : ـ المطرب ، ص ١٤٨ .
ـ نفح الطيب ، ص ٢٦١ .
٢ ـ انظر : جذوة المقتبس ، ص ٢١٢ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٢١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأظن مع صاحب الديوان أن هناك أبياتاً سقطت بعد هذا البيت ، وفى الأبيات الباقية يوضح الغزال ما حدث له ولصحبه عندما نفد ما معهم من خمر ، فحمل الغزال وعاء الخمر تحت إبطه وقصد إلى الحان بعد معاناة من طول الطريق ، ولما وصل نادى على صاحب الحان الذى أسرع إليه بخفة وذكاء ، ويصف الغزال صاحب الحان بأنه لا ينام إلا قليلاً فاتحاً حانته طوال الليل ؛ ليستقبل الزبائن ، ثم يطلب الغزال من صاحب الحان أن يُذيقه الخمر فلما ذاقها استحسنها ، وطرب لها ، وطرح عليه رداءه مكافأة له ، ثم طلب منه أن يعيره ثياباً خفيفة ؛ ليستتر بها ، وقد أقسم بالطلاق من نسائه ؛ ليأتينه بها ، ثم رجع الغزال بهذه الخمر المعتقة إلى أصحابه ، فاستقبلوه بحفاوة وترحاب وتفدية هو أهل لها :

وَلمَّا رَأيْتُ الشَّربَ أكْدَتْ سَمَاؤهُمْ تأبَّطْتُ زقِّى وَاحْتسَبْتُ عَنَائِى
فلمَّا أتَيْتُ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ فَهَبَّ خَفِيفَ الرُّوح نحْوَ نِدَائى
قَلِيلَ هُجُوع ♥ العَيْنَ إلا تَعِلَّة عَلَىَّ وَجَلِ منِّى ومِنْ نُظرَائِى
فقلت أذقِنِيهَا فلما أذاقنِى طَرَحْتُ إليهِ رَيْطتِى وَردَائِى
وقلتُ أعِرْنِى بِذلَةً أسْتَتِرْ بها بَذلتُ له فيها طَلاقَ نِسَائى
فَوَ اللهِ مَا بَرَّتْ يَمينى وَلا وفَتْ له ، غير أنى ضَامِنٌ بِوفائِى
فأبتُ إلى صَحْبى ولم أكُ آيباً فكُلٌّ يُفِدِّينى وَحَقَّ فِدَائِى ١

ويظهر من المقطوعة السابقة أن الغزال لا يصدر فى هذا الشعر عن الخمر ، عن نفس شاعرة ، أو صدق تجربة ، وإنما هو مقلد لأسلوب أبى نواس (الحسن بن هانىء) تقليداً واضحاً لا لشىء إلا لكى يثبت براعته ، ومقدرته ، وجدارته فى نظم الشعر بمختلف أغراضه .

ب - التهنئة :-

ولم أعثر لهذا الفن عند الغزال إلا على بيتين ، فقد روى ابن حيان فى المقتبس أن يحيى الغزال قد لحق ببيعة الأمير (محمد بن عبد الرحمن) ، وله فيها شعر معروف أصبت منه بعد مدة بخط (عبادة الشاعر) بيتين استشهد بهما على تاريخ لحاق الغزال إلى البيعة .

١- المصدر السابق .
♥ هجوع : النوم ليلاً ، انظر : السان العرب ، مادة : هجع ، ج ٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى البيتين يهنىء شاعرنا يحيى بن حكم الغزال الأمير محمد بن عبد الرحمن مخاطباً إياه بسَمِى النبى تيمناً باسم الرسول r ، وموضحاً أن الله قد فضله على من سبقه ، وعلى مَن بقى ، وقد صور المُلك وهو فى حالة من الحب والفرحة حتى ليكاد يعرفه ، يقول الغزال من المنسرح :

إنْ سَمِـــىَّ النَبـــىّ فضَّلهُ اللــه عَلى كُـــلِّ مَنْ مَضَـــى وَبَـقى
مـــدّ لَـكَ المُلكَ سَاعِدَيْـــه لَـدُنْ أقبـل للحـبّ مَـدّ مُعْـتـنِـق ١

جـ . الأَراجيز التاريخية :

لقد ذكرت فى السابق أن للغزال أرجوزة تاريخية ، ومن المؤسف أننا لم يصلنا منها إلا بيتٌ واحدٌ ، يوضح فيه الغزال كيف أنه أدرك خمسة من الخلفاء المروانيين بالأندلس ، أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن ، يقول الغزال من الرجز :

أدْرَكْتُ بالمِصْر مُلُوكاً أرْبَعَة وَخَامِسَاً هَذا الذِى نحْنُ مَعَهُ ٢

وبعد هذا العرض المستفيض للفنون التى شملها شعر الغزال يمكنني أن أشير إلى ملحوظة هامة ، وهى (خلو شعر الغزال الذى وصل إليَّ من فن الرثاء) ، وهوالفن الأكثر شهرة فى الشعر الأندلسى ، وعلى أية حال فمن أتيح له الاطلاع على شعر الغزال يمكنه أن يحدد ملامح شخصيته ، وأحداث حياته فى كل مرحلة من مراحل عمره ، فقد جاء شعره ترجماناً عبر ، وكشف لنا عن ماهية شخصيته المتميزة والفريدة فى أدبنا العربى .

****

١ - عبادة الشاعر : هو عبادة بن ماء السماء وُلد عام ٣٥٠ هـ ، وتوفى عام ٤٢٢ هـ ، هو شاعر وشاح مصنف ، وله مكانة بارزة فى نظم الموشحات وتطويرها وهو صاحب كتاب { أخبار شعراء الأندلس } ،
** انظر: الترجمة فى جذوة المقتبس ، ص : ٢٧٤ .
** انظر الأبيات فى : ـ ديوان يحيى بن حكم الغزال ، د/ رضوان الداية ، ص :٩١.
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٣٤ .
٢ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٩٨ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٧١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

شعر الغزال :

رؤية فنية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بداية أقرر أن النص الشعرى هو : " صياغة فنية كلامية لتجربة إنسانية تؤثر في العاطفة ، وتثير الوجدان " ، وبجانب أن الشعر ـ كما عرفه القدماء ـ " كلام موزون مقفى ، فإنه أيضا كل تجربة إنسانية مصوغة صياغة فنية موسيقية " [1] .

فالنص الشعرى بناء فنى متكامل ، مواد بنائه الموسيقى بنوعيها : الخارجية والداخلية ، والألفاظ والعبارات والمعانى ، والصور والأخيلة ، وهذه المواد كلها تبرز إلى الوجود مصبوغة بالأحاسيس والمشاعر . وللنقد الأدبى الحديث إزاء هذا العمل الفنى " موقف يحاول تقويمه والحكم عليه " ، وحتى يصل إلى ذلك لم يستطع أن ينظر إليه على هيئته تلك ، ولو فعل لبدا التقويم مُجْملاً لا فائدة منه ، ولا خير فيه ، ولا يمكن أن تنطلق منه أسس وقواعد تفيد الدارسين والأدباء . لذلك كان من الحتم أن ينقض الناقد هذا البناء ، وينظر إلى أجزائه جزئية جزئية ينظر فيها ، ويتأملها وفق معاييره وأحاسيسه نحو هذه الأجزاء ، ويكون هناك الحكم بالجودة أو الرداءة [2] .

وإذا كان النقد المعاصر ينظر إلى النص الشعرى هذه النظرة ، فإن نقادنا القدامى لم يغب عنهم ذلك ، بل إنهم نظروا إلى النص الشعرى تلك النظرة نفسها ، نظروا إلى مفرداته وجمله وأساليبه نظرة تنم عن وعى وفهم دون أن يهملوا النظر إلى النص بكامل هيئته ، وما يقتضى ذلك من متطلبات ، " ولقد وقفوا عند مطلع القصيدة طويلاً ، وعند الانتقال من فاتحتها إلى الأغراض التى تتناولها ، ثم عند خاتمتها ، بل عند الانتقال من كلمة فى البيت إلى صاحبتها التى تجاورها " [3] .

كما تناولوا الألفاظ والمعانى بالدراسة والبحث ، ووضعوا لها أسساً ثابتة ، وتناولوا ـ أيضاَ ـ الوزن والقافية ، ووضعوا لهما ضوابط دقيقة ، وغرضهم من وراء ذلك كله أن يظهر النص الشعرى عملاً فنياً متكاملاً وحدةً وبناءً ونظاماً ، كما أنهم لم يهملوا الجوانب التصويرية الأخرى [4] .

وعلى أية حال فإن النص الشعرى عند النقاد القدامى لا تتحقق له القوة الفنية إلا إذا كان هناك ارتباط بين أبياته ، وتتابع فى معانيه بحيث تكون الأبيات متناسقة لا نفور بينها ، وتكون معانى كل فكرة فى النص الشعرى متدفقة متتابعة لا انقطاع يبدو فيما بينها [5] .

---

[1] ـ قصائد أندلسية ، د/ أحمد هيكل ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٩ .
[2] ـ البناء الفنى المتكامل ، فاروق أحمد على الميهى ، ط الأوفيست ، ص ٥ .
[3] ـ أسس النقد الأدبى عند العربى ، د/ أحمد بدوى ، ط ٢ مكتبة نهضة ، مصر ـ الفجالة ـ القاهرة ، ص ٢٩٦ .
[4] ـ البناء الفنى للقصيدة فى شعر عمر أبو ريشة ، ص : ١٧ .
[5] ـ المرجع السابق ، ص : ١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد هذا التمهيد أعود إلى الغزال وشعره ، فبعد أن تناولته فى الفصل السابق من الناحية الموضوعية ، أعود فى هذا الفصل أتناوله من الناحية الفنية ، تلك الناحية التى أهملها النقاد والدارسون مما يعد إجحافاً للغزال وشعره الذى يعد علامة مميزة من علامات الشعر بالأندلس ، والمتأمل فى شعر الغزال وفى شعر عصر الإمارة بوجه عام . يلحظ تغليب عنصر المقطوعات على عنصر القصائد ، فهى تأتى تبعاً لمناسبات معينة ، وقد اتسعت هذه المناسبات حتى تمثلت فيها أهم نواحى الحياة ، فكانت المقطوعات كذلك مع كثير من الحرية الفنية التى لا تتمتع بها القصيدة ذات التقاليد الملتزمة غالباً .

وهذه المقطوعات قد سايرت نهج مقطوعات مدرسة المجددين فى العصر العباسى ، وقد كان هؤلاء وهؤلاء يعيشون حياة متقاربة ، وميزة أخرى لهذه المقطوعات أنها بعدت عن المعاناة ، والإرهاق الذى يتكبده شاعر القصيدة حين يعدها لتقال فى مناسبة خاصة ، حيث يتعمد إظهار كثير من مواهبه فيها ، وفى الوقت نفسه لم يحتفظ بها التاريخ الأدبى فى صورة متكاملة ، بل ضاع أغلبها ولم يبق منها إلا أبيات متناثرة يعوز أكثرها التلاؤم والانسجام [1] .

وأضيف ملحوظة ثالثة فى تغليب عنصر المقطوعات عند الغزال ، وهي أن الشعر عنده تعبير عن موقف ، أو رأى يقال ، أو تصوير للحظة ، أو ومضة من ومضات الحياة .

ومن هنا اكتفى الغزال بأن يكون شعره لمحة دالة ، وكلمة وجدانية صادقة مؤثرة بانفعاله بها ، وتفاعل السامع معها .

وأما العناصر الفنية التي سأتناولها في شعر الغزال ، فهي :

١ـ التجربة الشعرية .

٢ـ الوحدة الفنية .

٣ ـ الفكرة والعاطفة .

٤ ـ الدراسة اللغوية :

أ ـ الألفاظ . ب ـ التراكيب . ج ـ الأسلوب .

٥ ـ القصة الشعرية ودور الحوار .

٦ ـ الموسيقى الشعرية .

٧ ـ الخيال والصورة الشعرية .

---

[1] ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، ص : ٢٩١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولاً : التجربـــة الشعريـــــة

للتجربة الشعرية مدلولات كثيرة منها الابتكار والخَلْق ، وتدل على المحاولة المستمرة الجادة للتوصل إلى نظرية أصيلة ، أو رؤية مهذبة عميقة .

وقد عرَّف أدباؤنا القدماء التجربة الشعرية ـ ولهم فيها إسهامات جديدة ـ وفى مقدمة هؤلاء ابن رشيق الذى يقول :" وقيل : عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، ويقال : إن الشعر كالبحر أهْون ما يكون على الجاهل ، وأهْول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلباً من عرفه حق معرفته ، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته " [1] .

فالتجربة عنده تعنى ـ بإيجاز ـ صدق المعاناة ، وصدق التعبير عن هذه المعاناة معاً .

وأما التجربة عند النقاد المحدثين من أمثال الدكتور عز الدين إسماعيل وغيره فهى : " الخبرة النفسية للشاعر حين يقع تحت سيطرة مؤثر ما ، فيندمج فيه بوجدانه ، ويستغرق فيه بفكره متأملاً ، ثم يخرجه فى الإطار الشعرى المناسب " [2] .

وعند الدكتور شوقى ضيف : " كُلُّ وجدانى متماسك متناسق تتبادل أجزاؤه التعاون فى التعبير عن حالة أحسها الشاعر ، بل عاشها معيشة عميقة حتى استبانت له بجميع دقائقها وتفاريعها " [3] .

وعن التجربة الشعرية عند الغزال ، فقد جاءت غنية وشديدة العمق ، وهذا أمر طبيعى مع شاعر مثل الغزال عاش حياة ممتدة ، جاء شعره فيها ترجمة صادقة لكل مرحلة من مراحل حياته ، فقد رأينا الغزال فى عدة وجوه . رأينا الغزال العاشق ، والماجن ، والمادح ، والهاجي ، والشارب ، والضاحك ، والحكيم ،والزاهد ، والاجتماعى .

واستطاع الغزال فى كل هذه الوجوه أن يقنعنا بالصورة والحالة التى عليها .

والحق أن شعر الغزال جاء فى معظمه متنفساً رحباً لتجارب ذاتية عاشها هو ، أو موضوعية تبناها يجمعها صدق المشاعر ، وصدق العاطفة ، وصدق التعبير .

---

[1] ـ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ج١ ، ط١ دار الجيل بيروت ، ١٩٧٢ م ، ص : ١١٧ .
[2] ـ الأدب العربي الحديث ، عز الدين إسماعيل ، ط المطبعة الأميرية ، ص : ١٦٢ .
[3] ـ في النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف ، ص : ١٤٥ ـ ١٤٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجدير بي قبل ضرب الأمثلة ــ الذاتية أو الموضوعية ــ لتجارب الشاعر أن أقف على مراحل التجربة التى لا يتم الإنتاج الفنى إلا بها ، وهى : " الانفعال النفسى بالتجربة الجديدة ، ثم استبطان هذا الانفعال من داخل النفس حتى يمتزج بأعماقها ، ويعطيها من لونه ، ويأخذ من ألوانها ، ثم ارتداد التجربة إلى الخارج فى صورة إفراز أو تعبير أقول : إذا وقفنا على تلك المراحل ، وعلمنا أن التعبير الفنى يعتمد دائماً على ذخيرة نفسية وشعورية ـ مختزنة فى باطن النفس ـ تسعى إلى التعبير عن ذاتها فى صورة موحية " [1] .

إذا علمنا ذلك فإن هذا المخزون النفسى منه الذاتى ، ومنه الموضوعى .

أ- التجربة الذاتية :

ومن التجارب الذاتية عند الغزال تجربته مع المرأة التى شهدت معه وضعاً غير مستقر على اختلاف مراحل عمره ، ففى المرحلة الأولى من حياته جاء شعره نتاجاً لتجربة ذاتية صادقة ، حيث تعلقه بالمرأة ورقته فى معاملتها ، ففى قصيدة (أقْر السلام) أرى رقة المعانى ، وحرقة الشوق ، وفرط الصبابة ، حيث يتمثل الشاعر بمعانى شعراء الغزل العذرى المشرقى ، فيصور لنا أرقه ، وسُهاده ، وسيطرة العاطفة عليه ، يقول الغزال (البسيط):

أقْر السَّلام عَلَى إلْفٍ كَلِفْتُ بِهِ قَدْ رُمْتُ شوْقاً وَطُولُ الشَّوْق لم يَرُمِ [2]

ثم يصف المحبوبة وصفا يتميز بالمبالغة فى رقتها وصلته الروحية بها :

كُنَّا كَرُوحَيْن فى جِسْمٍ غِذاؤُهُما مَاءُ المَحَبَّةِ مِنْ هَامٍ ومُنْسَجِمِ [3]

حتى لكأنه وهو مع محبوبته فى حُلم بديع رقيق ، وتطالعنا أيضا لوعة الفراق والأسى إذا غابت المحبوبة عنه :

فَفَرَّقَ الدَّهْرُ شَمْلاً كَانَ مُلْتَئِماً مِنَّا وَجَمَّعَ شَمْلاً غَيْرَ مُلْتَئِمِ [4]

---

[1]- منهج الفن الاسلامي ، محمد قطب ، ط دار الشروق ، ص : ٦ .

[2] - انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٠ ـ ٢٢٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٣٣ ـ ١٣٤ .

[3] - المصدر السابق .

[4] - المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأمضى مع الغزال ، فأطالع إحدى تجاربه الذاتية مع المرأة وعلاقته بها ، وهى علاقة أدق ما توصف به أنها علاقة وجدانية وروحية تغلب عليها مشاعر وأحاسيس الحب العذرى ، ففى مقطوعته التى يقول فيها من (الخفيف) :

رِيْـعَ قَلْـبى لِمّا ذكَـرْتُ الدِّيَارَا وَتَـنوّرتُ بالنُّخَـيلاتِ نَـارَا
وَازْدَهَـتْنِى ذاتَ السَّنا ببُـروقٍ مِنْ لِظاهَا فمَا أُطِيقُ اصْطِبَـارَا
وَالقريحُ الفُؤَادِ يَـزْدَادُ للنَّـا ر وَمِيضُ السَّعِيرِ فيهَا اسْتِعَارَا [1]

فالشاعر يوضح هنا أن قلبه قد ارتاع حين ذكر ديار المحبوبة والتى ذكرته بساكنيها ، ومن هذه الذكرى انبثق نور الذكريات حتى تنورت به النخيلات ، ومن عجب أن هذا النور هو فى حقيقته نار ألهبت قلبه ، وأشعلت أشواقه ، ثم إن هذا الشاعر قد تقرح فؤاده ، ورغم ذلك فهو يزداد تعرضاً لنار الأشواق ، ولهيب الذكريات ؛ وكأنه يستعذب الألم من أجل المحبوبة ، والذكريات تزيده لهيباً وشوقاً ، ورغم ذلك فهو لا يكف عن استرجاع هذه الذكريات على عادة العذريين الذين يكادون أن يقضوا نحبهم من فرط الصبابة والشوق ، وهكذا سار على نهجهم الغزال ، حيث لم يأت بجديد فى هذه التجربة الذاتية الوجدانية ، بل كان القديم معيناً لا ينضب استقى منه الشاعر ، وسار على نهجه .

ومن التجارب التى يمكن أن أدرجها ضمن التجارب الذاتية تجربته فى بلاط ملك النورمان ، حيث التقى مع الملك ، ثم مع زوجه وتغزل فيها ، وأرى أن هذه التجربة تحمل الكثير من المبالغات ، ويتضح فيها التصنع ؛ لأني أظن أن الغزال لم يهم عشقاً بالمرأة ليتمناها ، بل وصفها على هذا النحو الجميل مجاملة منه ، حيث وصفها بشمس الحُسن ورود الشباب ؛ لأن عمله يقتضى هذه المجاملة ، والرقة فى التعامل ، فهو سفير للخليفة عند الملك ، وعليه فمن الضرورى أن يتسم بالذكاء ، واللباقة ، وحُسن التصرف ، وسرعة البديهة ، واللياقة فى التعامل ، والمجاملة فى الحديث .

وإن كنت أظن أن وصف الغزال لهذه الملكة قد صدر عن إعجاب وانبهار بها ، إلا أنه إعجاب بجمال لم يتجاوز حد النظر ، ولم يتعمق فى قلبه أوفى نفسه ، يقول الغزال من السريع :

---

[1] ـ انظر : ـ يتيمة الدهر ، الثعالبي ، تحقيق/ محيي الدين عبد الحميد ، ط الشام ، ص : ٣٩٩ .
ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كُلِّـفْتَ يا قَلْبى هَوى مُتْعِباً غَالبْتُ منه الضَّيْغـــمَ الأغْلبَا
إنى تَـعَلَّـقْـــتُ مَجُوسِيَّـــةً تَأبى لشَمْس الحُسْنِ أن تَـغْرُبا
أقصى بلاد الله لى حَيْـــثُ لا يَلْـفَـــى إليها ذَاهِبٌ مَذْهَبَا
يا نُودُ يارُودَ الشَّبـــاب الـتى تُطْـلعُ مِنْ أزْرَارِهَا الكَوكَـبَا
يا بأبى الشّخص الـذى لا أرَى أحْلى على قَلْبى ولا أعذبا
إنْ قُلْتُ يَوْما إنَّ عينـى رَأتْ مُشْبِهَهُ لم أعْـــدُ أن أكْذِبَا [1]

ثم أرى الغزال يأخذ موقفاً آخر من المرأة ، يظهر لنا من خلاله أنه قد مرّ بتجربـة مريـرة معها ، ألمس ذلك من خلال قصيدته التى تمتلىء سخرية ، وتغلب عليها نظرة التشاؤم وسوء الظن بالمرأة ، حيث ينطلق الغزال فى تجربته من فلسفة شكيّه تجنح نحو تحقير المـرأة ، وأنهـا ليـست أهلاً للاحترام والتوقير ولا تستحق مودة أو محبة ، فيبدأ قصيدته منادياً على مَنْ يتلهف إلى النساء ويتودد إليهن بأن هذا الأمر ضلال منه وعدم تعقل ، ويواصل حديثه ناهيـاً عـن مـودة النـساء ، أو الكلف بحبهن ، حيث يصم من يكلف بهن بالجنون وعدم التعقل ، وهذه نظـرة تـشاؤمية ، وسـوء ظن بالمرأة ، يقول الغزال من الكامل :

يَارَاجِـــياً وُدَّ الغَوَانِى ضَـلَّـــةً فَفُـؤادُهُ كَلَـفاً بِـهِنَّ مُوَكَّـــلُ
لا تَـكْـلَـفَنَّ بِـوَصْلِهِنَّ فإنما الـ ـكَلِفُ المُحِبُّ لهُنَّ مَنْ لا يَعْقِـلُ [2]

ويصل إلى أبعد من هذا ، فيؤكد أن النساء مباحات لمـن يطلـبهن ، معـبراً فـى ذلـك بـشكل مغرق فى الاستهزاء والسخرية منهن والتحقير الشديد ، فهو يرى ومن خلال نظرته التشاؤمية أن النساء لا يحق احترامهن ، وأكاد أظن أن وراء هذا الموقف الذى وقفه الغزال من المرأة حادثة أليمة وقعت للشاعر مع النساء ، الأمر الذى استدعى وصفهن بأحط الصفات :

إنَّ النَّسَـاءَ لِكَالسُّـــرُوج حَقِيـقَـةً فالسِّرْجُ سِرْجُكَ رَيْثَمَا لا تَـنْـزِلُ
فإذا نَـزَلْـتَ فإنَّ غيْرَكَ نَـــازِلٌ ذاكَ المَـكَـانَ وَفاعِـلٌ مَا تَـفْعَـلُ

---

[1]- انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٨ .
[2] - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ٢١٠ ـ ٢١٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أوْ مَنْـزِلِ المَجْتاز أصْبَحَ غادِيَاً عَـنْـهُ وَيَنْـزِلُ بَعْدَهُ مَنْ يَنْـزِلُ
أو كالثِّمَار مُبَـاحَةً أغصَانُهَا تَـدنُـو لأوَّلِ مَـنْ يَمُـرُّ فتُؤكَـلُ

وفى النهاية ينصح الإنسان بأن يحافظ على شبابه ويعطيه حقه ؛ لأن الشباب مدته قصيرة ويتحول بعدها المرء إلى كهولة وشيخوخة ، وأن المرء إذا سُلب شبابه وضاع ،لم يعد ينتفع بشىء بعد ذلك ؛ وبخاصة عند النساء ، فهى نصيحة تكشف عن حرص عميق على الإنسان ودعوة بأن يحافظ على شبابه ولا يستبدل:

أعْطِ الشَّبيبَةَ ـ لا أبَا لكَ ـ حَقَّهَا منها فإنَّ نعِيمَهَـــا مُتَحَـوِّلُ
وَإذا سُلِبْتَ ثِيَـابَهَا لمْ تَنْتَفِعْ عِنْـدَ النِّسَاءِ بِـكُلِّ مَا يُسْتَبْدَلُ

وواضح من التجربة السابقة مدى استهانة الغزال بالمرأة وسوء ظنه بها ، حيث جعلها سروجاً للتداول ، ومنزلاً يتعاقب عليه النازلون ، وثمرة مباحة يأكلها أول من يمر بها ، وأكاد أظن أن هذا المسلك مبالغة شديدة فى سوء الظن بالنساء ، وقد يكون قد تعرض إلى خداعهن وكيدهن ، والشاعر يصدر فى هذه التجربة عن عاطفة صادقة شديدة السخرية بالمرأة ، ودليل صِدقه ؛ هذه التشبيهات المتوالية التى تقوم على مواقف حياته ، انبثق عنها هذا الإحساس المرير تجاه المرأة ، أو لأن هذه التجربة جاءت فى فترة متأخرة من حياته ، ويتضح هذا البيت الأخير من خلال قوله : " وإذا سلبت ثيابها " ، أى ثوب الشباب .

ويطالعنا الغزال فى موقف آخر حيث يوضح ، ومن خلال تجربة ذاتية خاصة أنه يرفض الزواج حتى لا يتألم أو يشقى ، وعلته فى ذلك ؛ أنه يريد المتعة ، وتحصيل العلم دون تنغيص من امرأة ، يقول الغزال (الكامل):

أنَـا شَاعِرٌ أهْوَى التَّخلِّى دُونَ ما زَوْجٍ لكَيْمَا تَخْلُصَ الأفكَارُ
لَـوْ كُنْتَ ذا زَوْجٍ لكُنْتَ مُنَغَّصَاً فى كل حِينٍ رزقُهـا أمْتَـارُ
كَمْ قائِلٍ قد ضَاعَ شَرْخُ شَبَابِهِ ما ضَيَّعتْهُ بَطَالَةٌ وعُقَـارُ[1]

وتعليل الغزال هذا لا أقبله ؛ لأن الزوجة قد تكون عاملاً للاستقرار والهدوء والسكينة .

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص :١٨٢.
ـ ظهر الإسلام ، ص : ١١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن التجارب الذاتية المريرة للغزال تجربته مع الأمير عبد الرحمن الأوسط حين أودعه الأخير السجن بسبب قصة الأهراء ـ التى ذكرت سابقاً ـ حيث أجد الوجدان الصادق فى التجربة ، ومرارة الإحساس ، وشدة الانفعال ، ولعل القصيدة التى قالها فى سجنه وأرسلها إلى الأمير ترسم لنا الأجواء النفسية التى عاشها الغزال فى السجن ، يعانى مرارة الوحدة والحرمان مما دفعه ؛ لأن يستعطف الأمير ، ويرجوه العفو عنه فى صدق يتبدى من خلال مدحه له ليس هذا فحسب ، بل إن الغزال قد استوحى قصة الحُطَيئة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكأنه يلمح إلى مشابهة الأمير عبد الرحمن لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى حُكمه وعفوه ، فأراه يقول (السريع):

مَنْ مُبْلِغٌ عنّى إمامَ الهُـــدَى والوَارثُ المَجْـــدَ أبـــاً عَنْ أبِ
أنِّى إذا أطْنَـــبَ مُـــدَّاحُـهُ أوجَزْتُ فى القَـــوْلِ فلم أطنـــبِ
لا فَكَّ عنّى اللهُ إن لم تكُـــنْ أذكَرتنَـا عـــن عُمَـــر الطَّيِّبِ [1]

وقد أقبل هذا الموقف من الغزال نظراً لما عاناه فى سجنه .

وفى نظري أن الأمر الذى جعل الأمير يعفو عن الغزال ـ بجانب ما سبق ـ هو ما أشار إليه الغزال من الصراع بين العباسيين فى الشرق ، والأمويين فى الغرب ، وأن الشرق يحسد الغرب ويحن شوقاً إلى الأمير عبد الرحمن حتى أن الخلافة تود أن تلقى إليه بزمامها لكفاءته وعدله وحلمه وعفوه :

وأصْبَحَ المَشْرق مِنْ شَوقِـهِ إلـيـــك قد حـــنَّ إلى المَغْـربِ
منبره يَهتـــفُ من وجْـــدِهِ إليـــك بالسَّهـــلِ وبالمَرْحَبِ
أطرَبَـهُ الوقْـــتُ الذى قد دَنَـا وكَـان من قبلـــك لم يَطْـرَبِ
هَفَـا بِـــهِ الوَجْدُ فَلَوْ مِنْبَرٌ طَـارَ لَـوَافى خَطْفَةَ الكَـوْكَبِ [2]

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ ـ ١٢٦ .
ـ المطرب ، ص : ١٣٣ .

[2] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٧ (الهامش) .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٣٦٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن التجارب الذاتية التى عاشها الشاعر ، وكادت تؤدى بحياته رحلته إلى ملك النورمان ، حيث عصفت بهم الرياح ، وتعالت عليهم الأمواج كالجبال ، حيث يعبر الغزال عن هذه التجربة المريرة فى صدق انفعال ، ومعايشة كاملة ، استطاع من خلال تعبيره عنها أن ينقل إلينا هذه التجربة الفريدة لدرجة أن جعلتنا نتعايش معه فى تجربته ونحس بها ، حيث صور لنا مدى الفزع ، والهلع ، وشدة الخوف الذى حل به عندما اضطربت السفينة وشق شراعها ، ورأى ملك الموت أمام عينه رأى العين من شدة فزعه وخوفه ، وعلى الرغم من هذه الأهوال وهذه المعاناة . تطل علينا شخصية الغزال من بينها ساخرة مستهزئة ، فأراه يقول (مجزوء الرمل):

قَـالَ لى يَحْيَى وَصِـرْنَـا بَـيْـنَ مَـوْج كَالجِـبَـالِ
وَتَـوَلَّـتْـنَـا عُـصُـوفُ مِنْ دَبُـور وشِمَـالِ
شَـقَّتِ القِلْـعَيْـن وانْـبَـتَّ ـتِ عُـرى تلك الحِبَـالِ
وَتَمطَّى مَـلَـكُ المَـوْ ـوتِ إلينا عن حِيَـالِ
فَـرَأَيْنَـا المـوتَ رَأىَ العـ ـيْنِ حَـالاً بَعْدَ حَـالِ
لـمْ يَـكُـنْ للقَـوْم فِينـا يَارَفِـيـقِـى رَأسُ مَـالِ ! [1]

ب - التجربـــة الموضوعيـــة :

والمقصود بها التجربة العامة التى تتناول الكون والحياة بكل جوانبها والإنسان عامة ، وإذا كان من عرف الأدب بأنه نقد للحياة ، فمن هذا المنطلق أن التجارب العامة لأى شاعر تشمل تجاربه الخاصة فى إطار يجمعها بتجارب الآخرين وحياتهم ، بل والإنسانية جمعاء .

التجارب العامة تكشف ـ إذن ـ عن تفاعل كامل للشاعر مع كل ما يدور فى مجتمعه ، وما يعيشه الناس بجانب الأحداث السياسية العامة ، والاجتماعية ، والفكرية ، ومن أوضح التجارب العامة للغزال ما تبيَّن لنا من خلال شعره الاجتماعى ، حيث تناول ظواهر اجتماعية عديدة سياسية ، ودينية ، واجتماعية ، وفكرية ، ففى مناقشته لظاهرة النفاق نرى الغزال يصور هذا المنافق الذى يتلون بألون عديدة ، فيظهر الضعف ، والخشوع ، والوقار ، والدعاء ، والخوف من الله فى حين أنه يحمل فى داخله ذئبا خادعاً ماكراً ، ينتظر الفرصة للانقضاض والهجوم .

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأجد أن الغزال يرسم صورة المنافق ، وهى صورة لا تختلف كثيراً من عصر إلى عصر ، فأنا أراها فى حياتنا كما كانت فى الماضى وعبر كل العصور ، يقول الغزال من مجزوء الرمل :

وَمُـــــــرَاءٍ أخَـذ النَّـــا س بـِسَمْـــتٍ وقـُطُـــوبِ
وَخُشُـوعٍ يُشبِـهُ السُّقْـــ ـمَ وضَعْـفٍ فى الدَّبيـــبِ
قلت : هَـلْ تَـــألمُ شَيْئـاً ؟ قال: أثقَـالَ الذنُـــــوبِ
قلت : لا تـُعْـنَ بشـــىءٍ أنتَ فى قَـــالبِ ذِيـــبِ
إنما تبْنِـــى عَـلى الوَثْـــ ـبَـــــةِ فى حِيـنَ الوُثوبِ [1]

ومن القضايا الاجتماعية التى أجد لها مثالا فى عصرنا قضية المتكاسلين عن العمل ، والذين يقضون وقتهم على المقاهى يضيعون المال والوقت فيما لا طائل من ورائه ، ففى قصيدته إلى ابن أخته إبراهيم ينصحه فيها بالبعد عن الشطرنج ، وضياع الوقت والمال ، وكأنه يوجه النصيحة إلى الناس جميعا ، وعبر كل العصور والأزمان منبها إلى خطورة اللهو وضياع المال وداعيا إلى الجد والاجتهاد والسعى ، ونراه فى قصيدته يوضح لابن أخته أنه قد اغتم من حبه للشطرنج ، ويراه عملاً فى غير جد ، وأن هذه اللعبة أسسها الشيطان للهو والوقيعة والخلاف بين الناس ، ثم يرى أن هذه اللعبة لأناس متكاسلين قد ورثوا من المال كثير ، يقول الغزال من مجزوء الرمل :

غَمَّنِى عِشْقُـكِ لِلشَّطْـ ـرنْج عِشْـقاً يَابْرهيـمُ
عَمَـــلٌ فـى غَيْـــر بِـــرٍّ وَاختـــــــلافٍ ولُـــزومُ
إنَّمَـــا أسَّـسَهَـا وَيْـــ ـحَـكَ شَيْطـانُ رَجِـيـمُ
هَبْـــكَ فِيهَـا ألْعَـبَ النا س ، فماذا يَا حَكِـيـــمُ
لُعْبَـةُ الشِّـطْـرنْج شُـؤمٌ فاجْتنبهَا يَا شَـــــؤومُ
إنَّمَـــا هِـى لأنَـــــاسٍ شَـأنُـهُمْ شَـــانٌ عَظِيـمُ
مَلِـكٌ يُجْبَـــى إليـهِ أو وَزِيـــرٌ أو نَدِيـــمُ
أوْ رجَـــالٌ وَرثُـوا الأمْـ ـوَال للدَّهْـــر سُلـــوُم [2]

---

[1]- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣١ ـ ١٣٢.
ـ بهجة المجالس ، من باب : الرياء ، ص : ٢٦ .

[2] - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ عي الغريب ، ص : ٢٢٣ - ٢٢٤ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنتقل مع الغزال فى تجاربه العامة الموضوعية التى تكشف عن شخصية عاشت الحياة بكل جوانبها ، وعايشت الناس ومشاكلهم وقضاياهم منفعلاً لكل ما يعانيه الناس ، ومعبراً بصدق عن هذه القضايا ، فهو لا يقف من هذه المشاكل والقضايا الاجتماعية موقف المتفرج الذى يرصدها فحسب ، بل أجده مشاركاً فيها مما يعطى هذه التجربة العامة صدقاً وانفعالاً يتضح من خلال أشعاره التى تناولتها ، ومن أخطر وأهم تلك القضايا الاجتماعية قضية رجال السلطة الذين يتسلطون على الناس بنفوذهم ، ووظائفهم ، ومكانتهم ، مما يخلق جواً مليئاً بالبغض لهؤلاء الناس الذين لا يلتزمون بتنفيذ واجبتهم الوظيفية ، إنما يستغلون وظائفهم لقهر الناس وجمع المال ، وأنا أجزم بأن الغزال بما يمتلك من شاعرية وخيال ابتكارى يعيش معنا فى عصرنا الذى نلمح فيه هذا الصنف من الناس ، كما وصفهم الغزال تماماً مما يجعل للغزال وشعره قيمة كبرى فى عصرنا الحاضر ، ومن هذا الصنف الفقهاء المرتشون ، حيث يقول الغزال : إنك تراهم بعد الوظيفة ، وقد صاروا أغنياء ، وعندهم المال الكثير ، ويتعجب من أين لهم المال ؟! .

يقــول الغزال من الخفيف :

لَسْتَ تَلْقَى الفَقِيه إلا غَنِّياً لَيْتَ شِعْرى مِنْ أين يَسْتَغْنونا ؟
نَقطعُ البَرَّ والبِحَارَ طِلابَ الرزق وَالقَوْمُ هَا هُنَا قَاعِدونا
لا يَريمونَ مَوطِناً لا ولا تُبْـ ـصِرُهُمْ عَيْنُ نَاظِر يَعْجَزونا
إنَّ للقوْم مَضْرباً غَابَ عنَّا لم يُصِبْ قَصْدَ وَجْهِهِ الرَّاكِبُونا [1]

وأنتقل إلى صنف آخر من هؤلاء وهم القضاة الجاهلون ، فأراه يصف أحد القضاة (يخامر) بالجهل المطبق ، حتى إنه لا يعرف آيات القرآن أو سوره ، والغزال فى نقده لا تنفك تطغى عليه شخصيته الساخرة المستهزئة ، فيصف هذا القاضى الجاهل بالتيس مما يجعل لنقده لذعاً وقسوة ، يقول الغزال من المجتث :

لقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً مِنْ آبِدَاتِ (يُخَامِرْ)
قَرَا عَلَيْهِ غُلامٌ " طه " وسُورة " غافر"
قَالَ : مَنْ قَالَ هَذا ؟ هَذا لِعَمْرى شَاعِرْ !

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٤ .
ـ مقالة للأستاذ محمد عبد الله عنان ، ط مجلة الثقافة القاهرة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أرَدْتُ صَفْـعَ قَـفَـــــاهُ فَـخِفْتُ صَـوْلَة جَائِـــرْ
أتيـت يَـوْمَـاً بِتيـــس مُسْـتعْبِـراً مُتَحَـــاسِـرْ
فقلـت : قومُوا اذبَحُــوه ! فقــال: إنِّــى يُـخامِـــرْ ! [1]

وأنتقل إلى صنف آخر من الناس أجد أمثالهم فى عصرنا الحالى وهم شهود الـزور ، حيث أجد الغزال وحديثه فى إحدى تجاربه العامة عن اثنين منهما يُدْعيان أبـو حفص ، ويحيى بـن مالك ، حيث يصورهم بأن ألسنتهم فى شهادة الزور كالسيوف القاطعة الحادة وبأن مـرآهم يجلـب الحزن والهمّ لكذبهم وزورهم ، وهذه التجربة تفيض سخرية ومرارة ، يقول الغزال من الطويل :

أتَـاكَ أبُـو حَفْـصٍ ويَحْيى بْنُ مَالِـكٍ فأهْلاً وَسَهْلاً بالوَغَـى وَالمَعَامِـع
رجَالٌ إذا صَبُّـوا عليْـكَ شَـهَـــادَةً حَكَتْ فِيـكَ وَقعَ المُرْهَفاتِ القوَاطِع
أقُـولُ لِدِيكِى إذ رَأيْتُ وُجُوهَهُمُ: تَـعَزَّ فقد جَاءَتكَ إحْدَى الفَجَائِـع
رَثَـا وَاسْـتَـهَلتْ عِندَ ذاكَ دُمُـوعَهُ وَقَالَ : كَـثيراً مَا أفاضُوا مَدَامِـعِى [2]

ومن التجارب العامة التى تكشف عن فهـم الغــزال العميـق للقضايا الاجتماعيـة ؛ كأنـه يعيش حاضرنا ، فقد تناول مشكلة اجتماعية تمسُّ واقعنا الاجتماعي الحالي ، وهى قـضيـة عـدم التكافؤ فى الزواج خاصة ، زواج صغيرات السن من كبار السن الأغنيــاء ، والتجربـة صيغت فـى أسلوب قصصى بالغ التأثير ، حيث يعقد موازنة بين شاب فقير ، وشيخ غنى تقدما للزواج من فتاة خيرها أبوها بين الاثنين ، ورأينا الفتاة تميل إلى الشاب ، على الـرغم مـن فقـره ، وحجتهـا فـى ذلك ؛ أنه قد يصبح غنياً ، أما الشيخ الكبير فمحال أن يعود شاباً .

وأكاد أظن أن هذا هـو رأى الغزال نفسه ، فالتعليل يكشف عن فهم عميق وخبرة بالحيـاة وتقلباتها ، وكأن الغـزال يوجهنـا إلى هـذا الأمـر حتـى لا نقـع فـى الخطـأ ، ونجنـى علـى بناتنـا بتزويجهن من كبار السن ، يقول الغزال من الوافر :

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٣.
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .
[2] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٩٧.
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٧٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَخَيَّرَهَا أبُوهَا بَيْنَ شَيْخٍ كَثير المَالِ أوْ حَدَثٍ فَقِير
فقالتْ : خُطتا خَسْفٍ وَمَا إنْ أرَى مِنْ حَظوَةٍ للمُسْتخِير
وَلكِن إنْ عَزَمْت فكُلُّ شَىْءٍ أحَبُّ إلىَّ مِنْ وَجْهِ الكَبير
لأنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفَقْر يَثْرى وَهَذا لا يَعُودُ إلى صَغِير [1]

وأقف الآن أمام تجربة هامة من التجارب الموضوعية التى يخاطب فيها الغزال من خلالها الإنسان بوجه عام ، وبخاصة عندما يمتد به العُمر وتمر به السنون ويفعل به الدهر أفاعيله ، والتى تبدو ظاهرة للعيان ، حيث أجد الغزال يتناول ما يفعله بعض الشيوخ المتصابين ، الذين يلجأون إلى تخضيب شيبهم ، فيستنكر عليهم هذا الفعل ساخراً منهم ، ومؤكداً أن الخضاب لا يعيد شباباً ، وإنما هم واهمون .

ثم يعيب عليهم أيضاً اتخاذهم زوجات صغار السنّ معرباً عن حزنه على هؤلاء الفتيات ، وأنهن لو انتحرن ، وخنقن أنفسهن فهن معذورات ، يقول الغزال من السريع :

يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ مَدَى عُمْرِهِ كَمْ ذا الذِى تَسْطِيعُ أن تصْبرَا
هَلْ أبْصَرَتْ عَيْنَاكَ قَطُّ امْرَءا أعَادَ عُوداً يَابِسَاً أخْضَرَا
مَنْ شَابَ قَدْ مَاتَ وَلكِنَّهُ لا يَسْتحِلُّ النَّاسُ أن يُقبَرا
كَذلِكَ الرُّوحُ الشَّقِىُّ الذِى أخَّرَهُ اللهُ لِمَا أخَّرَا
إنِّى أرْجُو للفتَاةِ التِّى تكُونُ عِندَ الشَّيْخ أن تُؤجَرَا
حَقٌّ لهَا لوْ خَنَقَتْ نفسَهَا عِنْدَ جَمِيع النَّاس قدْ تُعْذرَا
القِطُّ فى الكَانُون مُسْتوْبِرٌ وَالكَلْبُ فى حَبْلَيْن قد كَشَّرَا
وَالمَقْتُ كُلُّ المَقتِ فى عَيْنِهَا أحْسَنُ مِنهُ عِندَهَا مَنْظَرَا [2]

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨١.
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٢٥٢ .

[2] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ١٨٨ ـ ١٨٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

* علق الدكتور على الغريب عَلَى البيت السابع بقوله : القط فى الكانون مستوقد أو مستوثر ، وهو يعنى القط فى حاله كونه مستدفئاً لدى الكانون (الموقد) ، أو مختاراً للمكان الوثير أى : المجلس الوطىء .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولي أن أقول : إن هذه التجربة الإنسانية تكشف عن فهم عميق من الغزال بطبيعة النفس البشرية التى تتمسك دوماً بمظاهر الشباب ، وتتوق دوماً إلى أن تنهل من بحر الملذات والمتع دونما مراعاة لعامل السنّ ، وما يقتضيه من وقار ، وردع للنفس .

وهى تجربة متجددة على مرّ العصور ولا أتجاوز إذا قلت إننا نعايشها فى زماننا الحاضر ، وكذلك فى المستقبل ، فالغزال وقد تناول هذه التجربة وصاغها شعراً إنما يؤكد عمق نظرته إلى الحياة ، فهو يخاطب الشيخ المتصابى ، ويطلب إجابة لسؤاله الذى طرحه عليه : " كم ذا الذى تستطيع أن تصبرا ؟ " ، ويتبعه بسؤال آخر ولا يريد جواباً ، وإنما يطلب من التصابى أن يتأمل حاله :

هَلْ أبْصَرْت عَيْنَاك قط امْرَءا أعَادَ عُودا يابسَاً أخضَرَا

ويتابع مؤكداً أن الشيخوخة والشيب موت للشباب ، ولا يوجد ميتاً قد عاد إلى الحياة .

ويرتبط بذات التجربة زواج الشيوخ من الفتيات صغيرات السن ، ونراه يبتعد عن توجيه الخطاب إلى الشيوخ ، بل يتوجه إلى الناس جميعا ، وينطق بلسانهم راجيا الأجر والمثوبة لهؤلاء الفتيات ، ويزيد بأنهن معذورات إذا قتلن أنفسهن .

ثم يضرب مثلا باستحالة أن يتوائم أو يتوافق الشيخ مع الفتاة ، ولا يمكن أن تسير الحياة بينهن هانئة مستقرة ، كما يستحيل أن يتوافق قط مع كلب ، فما إن يرى أى منهما الآخر حتى ينفش القط شعره مُعلناً غضبه ، وكذلك الكلب يكشر عن أنيابه غاضباً .

ولا أظن أن هناك مثلا أدق من هذا الذى ضربه الغزال فى هذا الموقف .

ثم يقدم لنا الغزال خلاصة تجربته فى الحياة ، فيصوغها حكمة تقع على مرِّ الدهور مصباحاً يضيء للناس دروب الحياة ، حتى يكونوا على هدى وبينة من أمور حياتهم ، فهذه التجربة العامة قد استغرقت فكره ، وعبرت عن ذاته أصدق تعبير ، وكشفت لنا عن عقلية متميزة وجانب من جوانب شخصية الغزال الغنية ، فقد عبّر الغزال عن فهمه للحياة ولأحداثها ؛ بأنه قد استخرج الدرّ من تجاربه ، ومن أحداث الزمن وانتهى إلى أن أحوال الدّهر متقلبة ، ولا شيء فى الدنيا أمَرّ من الفقر ، يقول الغزال من الرجز :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنِّـى حَلَبْتُ الدَّهْـرَ أصْنَـافَ الـدَّرَرْ
فَمَرَّةً حُلْـوٌ وأحْيَانَـاً مِـقَـــرْ
وَعَلقَمَاً حِـينـــاً وَأحْيَاناً صَبِـرْ
وَجُـلُّ مَـا يسْــقِـيكَهُ الدَّهْرُ كَــدَرْ
فلــم أجِدْ شَيئاً مِنَ الفـقْر أمَــرّ
ألا تَـرى أكْثـــــرَ ما فيهَا يَفِـــرّ
مَخَـافـــةَ الفقـر إلى نَـار سَقَـرْ [1]

وأنا أستشف من هذه الحِكَم مدى عمق الثقـافــة الإسلامية عند الغـزال ، والاقتباس واضح من القرآن من قولــه تعالى : (وَتِـلْـكَ الأَيَّامُ نُـدَاوِلُـهَا بَـيْـنَ النَّـاسِ) [2] .

أمـا عن الفقر فيظهر شدة تأثره بالشعر الجاهلى خاصة شعر عُروة بن الورد الذى يقول لامرأته :

ذرينِى للغِنَـّى أسْعَـى فإنِّـى رَأيْتُ النَّـاس شرُهُمْ الفَـقِيرُ [3]

وأختـــم حديثي عن التجربة الشعرية عند الغزال بهذه التجربة التى تبـدو فـى ظاهرهـا ذاتية ، ولكن مع قدر من التأمل أجد أنها تمتزج فيها الذاتية مع التجربة العامة ، حيـث الـشاعر وهو يعرض علينا تجربته الذاتية يعرضها فى معرض إنسانى عام بحيث يتـضح فيهـا سمـو الفكـر ورحابة المعنى ، ففى مطلع القصيدة يتضح الجانب الذاتى ، حيث يبين الشاعر أنه قد عـاش معظـم عمره لاهياً عابثاً باحثاً عن الملذات والمتع ، حيث مضى به الزمــن وانقرض العمـر ، ولم يجـد فـى يده غير الخسران ، يقول الغزال من السريع :

مَهْــلاً فليْسَ العَــذلُ مِنْ شَـانِـى لَسْـتُ عن اللـذاتِ بالوَانِــى
مَضَتْ ثَلاثُـــونَ إلى مِثْلِـهَـــا لِى وَثَـلاثُونَ وَثِنْـتَـــــانِ
وَالثُّـلثُ مِنهَا فى سَبِيل الصِّبَـا وفى المَعَاصِى ثُلُـثُهَا الثَّـانِى

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ١٨٦ .
ـ بهجة المجالس ، من باب : جوامع القول في الغنى والفقر ، ص : ١٠٨ .
٢ـ ســورة آل عُمران ، (١٤٠) .
٣ـ ديوان عروة بن الورد ، مطبعة السعادة ، ص: ٦٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالثُّـلْـثُ الثَّالِثُ فـى غَمْـــرَةٍ قَلَّ بِـهَـا بِـرِّى وَإِيـمَانِـــى
فانْـقَـرضَ العُمْـرُ وَمَـا فى يَـدِى مِنْ كُـلِّ هَـذا غَيْـرَ خُسْـرَانِ [1]

وهذه التجربة التى مرّ بها الشاعر تعد تجربة عامة تنطبق على من عاش مثله عابثاً لاهياً .

فهنا تأتى عمومية التجربة ويوضح الشاعر أن الإنسان لا يعى أن جسده سيبلى ويفنى ، وأنه كان فيما مضى لا يهم سوى الملذات والشهوات ، ولكنه الآن أصبح أكثر قرباً من الله وأعمق إيمانا به :

وَكُـلُّ شـىءٍ غير مَـا كَانَ لِلَّـــ ـهِ مِنَ الدُّنْيَـــا لِبُطْـــلان
لى جَسَـــدٌ بَـــالٍ وَلَكِـنَّـــمَا رُكِّـبَ فِيـهِ رُوحُ شَـيْطَـــان
ذو أمَـــلٍ غَـضٍّ جَديـدٍ كَمَـا أعْرِفُـــهُ أوَّلَ أزْمَـــانِـــى
كَـــأنَّ إيقَـــافى فِيمَـا مَضَـى بِـاللـهِ رَبِّـــى غَيْـرُ إيقَـــان [2]

ثم يوجه حديثه ونصائحه إلى من اغتر فى دنياه ، وسعى إلى المال معجباً به وحريصاً عليه ، ومن عمل للدنيا فقط ، ورفع البناء ظناً منه أن سيخلد وسيبقى أن الدهر فى متعه ، فيقول له الشاعر : ثب إلى رشدك ، وتأمل حال السابقين الذين هلكوا وهلك ملكهم وبناؤهم ، ولم يبق منهم إلا العظة والاعتبار ، ولو أنهم قد علموا ما سيفعله الدهر ببنيانهم لما بنوه ، فالدهر قد أتى على البنيان والمسكين والبانى :

يَامُعْجَبَـــاً بِالمَـــال أضْحَـــى بِـهِ فى النَّاس ذا زَهْوٍ وَطُغْيَـــان
هَيْهَاتَ إنَّ المَـالَ يَفْنَـــــى وَمَنْ يَجْمَـعَـــهُ عن قَـــدَر فَـانِـــى
قُـلْ أيها البَانِى : أما تَرْعَـــوى وَأنْتَ فى سِجْنِ الرَّدى عَـانى ؟
هَـلْ لك فى خَيْـر بمَا أفْنَـتِ الـ أيَّـامُ مِنْ مُلْـــكِ سُلَيْمَـــان
لَـوْ عَلِمَ البَانُـــــونَ مَا أتْعَـبُـوا أنفسَهُـــمْ يَوْمَـاً بِبُـنْـيَـان
وقد رَأوْا مَا فَعَـل الدَّهْـــرُ بِالـ ـبُنْيَانِ وَالمَسْكَـــن وَالبَانِـــى [3]

---

[1]- انظر: ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٠ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٢٥٨ .
[2] ـ المصدر السابق .
[3] ـ المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويأتى الختام رائعاً مؤكداً على ضرورة أن يتنبه الإنسان إلى أموره كلها ، وأن يسير فى حياته على هدى وبصيرة ، فكم من أناس صحت أبصارهم ، ولكن كان سيرهم فى الدنيا خبطاً وانحرافاً وبعداً عن الطريق القويم ، وكأنهم مثل العميان يخبطون فى طريقهم إذا كانوا بلا قائد يقودهم ويهديهم إلى الطريق المستقيم :

عَجِبْتُ مِنْ صِحَّةِ أَبْصَارِنَا وَالخَبْطُ مِنَّا خَبْطُ عُمْيَان [1]

وهكذا أرى أن الغزال قد وصل بتجربته هذه وبصراحته المعهودة إلى أفق إنسانى عالٍ ، فمن منا لم يمر بهذه التجربة أو ببعض منها ، فالغزال وهو يسرد لنا هذه التجربة ، إنما يقصد النصح العام والإرشاد إلى ضرورة العودة إلى الله ، وتعميق الإيمان ، وإذا كان هو قد اقترف خطأ أو ذنباً فإنه يربأ بالآخرين عن الوقوع فيه ، فيقدم لهم تجربته موضحاً أن الذى يبتعد عن الله خاسر لا محالة ، وكل ما كان يحرص عليه باطل ولا قيمة له .

وبعد .... فهذا هو الغزال وتلك تجربته الصادقة النابعة من عقل ، وقلب ، ونفس شاعر قد خَبِر الحياة ، وعاش أحداثها التى احتشدت فى عقله ونفسه ، وعبر عنها فى صدق واضح ، وشعر ارتسمت فيه هذه التجارب ، فجاء هذا الشعر معبراً أصدق تعبير ، يحمل خبرة الحياة ، وحكمة الزمن ، وصدق العاطفة ، وشدة الانفعال ، وانطلاق الخيال ، مما منح شعره مقومات الخلود ، وأسباب الذيوع والانتشار ، وأكسبه الإتقان والاستحسان .

---

[1] - المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانيا : الوحـــدة الفنيـــة

الحديث عن الوحدة الفنيِّـة بعـد التجربـة الـشعريِّة ، منطقـى مقبـول ، إذ الأولى امتـداد طبيعي للثانية إذا تدفقت التجربة من معين واحد ، فأولى بها مصب واحد ، حتى لا تتـشعب بهـا القنوات .

والوحدة الفنية مصطلح قريب التسمية بعيد النشأة ، فقـد فطـن إليـه القـدماء ، واعتمـدوا الوحدة الفنية – وحدة قياس فنى – وفى هذا يقول الجاحظ : " وأجود الشعر ما رأيتـه مـتلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلـم بذلك أنه قد أفرغ إفـراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان " .

ويقول الجاحظ فى موضع آخر : " وقال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنـا أشـعر منـك ، قـال : وبم ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول : البيت وابن عمه " [1] .

ألا ترى معى أن هذا الذى ذكره الجاحظ يعد إلحاحاً على فكرة ، إذ يوحى من قريـب بضرورة التناغم ، والتدفق ، والترابط ، والانسجام داخـل القـصيدة ، والنهـوض بـصهر مراحلـها المتغايرة فى بوتقة واحدة ، وهكذا تلتقى رؤية الجاحظ مع رؤية المحدثين فى الوحدة الفنية والتى تعنى عندهم : " رباط يـضم التجربـة والـصورة والانفعـالات والموسيقى والألفـاظ فـى وشـاج خفـى أثيرى ، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد ، وتدب فيه الحياة ، وتلمح هذه الوحدة ابتـداء مـن دوران أبيات القصيد دوراناً منطقياً شعرياً ، وتنقُّل هـذه الأبيـات تـنقلاً فكريـاً ، ويتـأتى هـذا الـدوران المنطقى فى توافر التجربة الشعرية ، وعرضها عرضاً جميلاً ، وصياغتها صياغة محكمة [2] .

وبالنظر إلى شعر الغزال نجد الوحدة الفنية تتمثل فى شعره فى أوضح صورة وأدق تعبير ، وإذا كنت قد قـلت : إن الوحدة الفنية تتمثل فى وحدة الموضـوع ، وتكامـل الأفكـار فـى إطـار هـذا الموضوع بجانب وحدة الجو النفـسى والـشعور مـع تـرابط أجـزاء القـصيدة ، وعناصـرها فـى تـآلف واندماج ، وعدم تنافر ، فإن هذا كله ينطبق على شعر الغزال سـواءً مقطوعاتـه أم قـصائده إلا فيمـا نـدر .

---

[1] ـ البيان والتبيين ، ج١ ، ص : ٦٦ ـ ٢٠٥ .
[2] ـ الشعر المعاصر علي ضوء النقد الحديث ، مصطفي عبد اللطيف السحرتي ، ط ١٩٤٨ ، ص: ٨٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما يؤكد هذه الوحدة أن شعر الغزال في القصيدة أو المقطوعة جاء تعبيراً عن موقف ، أو حادثة واحدة ، فلم يكن هناك تعدد للموضوعات داخل المقطوعة ،أو القصيدة مما يعد تميزاً لشعر الغزال يختلف كثيراً عن الشعر العربى فى المشرق الذى يقوم على تنوع وتعدد موضوعات القصيدة ، مما يجعله يقوم على وحدة البيت ، وليس على الوحدة الموضوعية كما فى شعر الغزال .

ومثال ذلك قصيدته فى الغزل ، والتى تدور حول موضوع واحد تتكامل أفكاره ، وتدور معانيه وهو الغزل بشقّيّه العذرى والصريح ، فيبدأ موضحاً شوقه إلى محبوبته [شمس] التى ملأ حبها قلبه ووجدانه ، حتى إنه ليؤكد أنه لا يتوق إلى أحد سواها ، وقلبه متعلق بقرطبة حيث المحبوبة . على الرغم من أنه يعيش بعيداً عنها ، وعلى عادة العذريين يدعو بالسقيا لديار المحبوبة التى حوت من يهيم بها عشقاً ، ويرسل تحيته وسلامه إلى هذه المحبوبة ، التى يهيم بها إلى أن تقوم الساعة ، يقول الغزال من الطويل :

كَتَبْتُ وَشَوْقٍ لا يُفَارِقُ مَهْجَتِى وَوَجْدِى بِكُمْ مُسْتَحْكِمٌ وَتَذَكُّرِى
بِقُرْطُبَةٍ قَلْبِى وَجِسْمِى بِبَلْدَةٍ نَأَيْتُ بِهَا عَنْ أَهْلِ وُدِّى وَمَعْشَرِى
سَقَى اللهُ مِنْ مُزْنِ السَحَائِبِ ثَرَّةً دِيَارَكُمُ التِى حَوَتْ كُلَّ جُؤذِرِ
بِحَقِّ الهَوَى أَقْرِ السَّلامَ على التى أَهِيمُ بِهَا عِشْقَاً إلى يَوْمِ مَحْشَرِى [1]

ويكمل الشاعر قصيدته متأثراً أيما تأثير بشعراء الغزل المشرقى العفيف فى أسلوب شرطى يحمل معنى التقرير والتوكيد بأنه حتى وإن غاب عن المحبوبة فهواه غير غائب ، فحبه مقيم بقلبه لا يبرحه ، على الرغم من أن قلبه قد تفطر شوقاً وهياماً بها :

لَئِن غِبْتُ عنهَا فَالهَوَى غيرغَائِبٍ مُقِيمٌ بِقَلْبِ الهَائِمِ المُتَفَطِّرِ

وينتقل بنا الشاعر إلى معنى آخر وإن كان فى ذات الغرض والموضوع وهو الغزل الصريح ، ولي أن أضيف أن هذا الانتقال من العذرى إلى الحسى لا يعد مناقضاً للوحدة الفنية ؛ فكلاهما وجه لعُملة واحدة وهى الغزل ، فالعذرى يتناول الشوق ، والهيام ، والحب ، واللوعة ، والتعلق ، والحسى يكمل ويتم معنى الغزل ، حيث يوضح من خلاله ما شدّه إلى محبوبته وجذبه إليها ، فالغزال هنا راعى التكامل بين الاثنين .

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ ـ ١٧٩ .
ـ العقد الفريد ، ص : ٣٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويحدثنا الغزال عن موقف مع المحبوبة حيث قضى معها الليل معانقاً ومقبِّلاً إلى أن بدى وجه الصباح ، واصفاً قوامها بالغصن ، ونهديها بالرُّمان ، وترائبها المصقولة بالفضة ، وريقها بالحلاوة ؛ وكأنه سكر ، وهى كلها كما نرى من صفات الجمال المحسوس عند المرأة ، مؤكداً أنه لن ينسى هذا الموقف أبداً :

كَأنْ لم أبِتْ فى ثَوْبِهَا طُولَ لَيْلةٍ إلى أن بَدَا وَجْهُ الصَّبَاح المُنوِّر
وَعَانَقْتُ غُصْناً فِيهِ رُمَّانُ فِضَّةٍ وَقَبَّلتُ ثَغْراً رِيقُهُ رِيقُ سُكَّر
أأنْسَى ولا أنسَى عِنَاقَك خَالِياً وَضمْى وَنَقْلى نَظْم دُرٍّ وَجَوْهَر

وفى براعة نادرة ومقدرة فنية عالية ، يرجع بنا الغزال إلى حرقة الشوق ، ولوعة الحنين ، ومعاناة الحب ، شاكياً الدهر ـ على عادة العذريين ـ الذى فرق بينه وبين من أحب وكدّر نهر الوصال بينهما بعد أن كان صافياً ، ويقرر أنه لو كان يعلم ما ستؤول إليه حاله من هذا الحب لما كان قد أحب ، ولما أضل الحب نفسه ، فهو يبكى على فراقها أحر البكاء ، ويشتاق إليها فى كل حين :

فَوَا حَزَنى أنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بيْننا وَكَدَّر وَصْلاً مِنْكَ غيرَ مُكَدَّر
لقدْ غُرِّرتْ نفسِى بحُبِّك ضَلَّة ولو عَلِمْتَ عُقبَى الهَوَى لمْ تُغرَّر
بَكِيتُ فَمَا أغْنى البُكَا عِندَ صُحْبَتِى وَشَوقِى إلى رئمٍ مِنَ الإنْس أحْوَر

ويختم حديثه عن هذه التجربة مرسلاً إليها بالسلام يكرره ألف ألف ، ويطلب من حامل الرسالة أن يكرره كذلك ، ولا يكتفى بما يبلغه حامل الرسالة ؛ وإنما يطلب من النسيم أن يبلغ سلامه إلى المحبوبة ، ويصف لها ما يعانيه الشاعر المحب وهو غريب بعيد عنها ، ويزيد مبالغاً طالباً من النسيم من أن يقول لشعاع الشمس بلغ تحيتى إلى محبوبتى واسمها [شمس] :

سَلامٌ سلام ألفَ ألفٍ مُكَرَّر وَيَاحَامِلاً عَنِّى الرِّسَالةَ كَرِّر
ألا يَا نَسِيمَ الرِّيح بَلِّغ سَلامَنَا وَصِفْ كُلّ مَا يَلقَى الغَرِيبُ وَخَبِّر
وَقُلْ لِشُعَاع الشَّمْس بَلِّغْ تَحِيَّتى سَمِيَّكَ وَاقْرأهَا عَلى آلِ جَعْفَر

وبعد فقد دارت الأفكار كلها حول موضوع واحد وهو الغزل ، وقد انسجمت المعانى ، وتكاملت الأفكار ، حتى كونت لوحة جميلة متكاملة للغزل تنسجم فى موضوع واحد ، وتشملها عاطفة صادقة حارة تنساب ألفاظها وعباراتها فى رقة وعذوبة ، مما نجد له مثيلاً فى العصر الحديث ، وبخاصة عند الشعراء الرومانسيين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أمثلة الوحدة الفنية فى شعر الغزال ما قاله هاجياً نصر الصقّلى الخصّى ، حيث تدور الأبيات حول لهوه وعبثه ، وعدم اتعاظه بما يحدث حوله وغيّه ، على الرغم من أنه ليس بمجنون ، أو قليل العلم ، إلا أنه جاحد ينكر نعم الله ، ويرتكب الكبائر ، وإن له يوماً سيلقى فيه الله ، وسيحاسب على أفعاله ، يقول الغزال من الطويل :

أيَا لاهِيَّاً فى القَصْرِ قُرْبَ المَقابِرِ ... يَرَى كُلَّ يَوْمٍ وَارِداً غير صَادِرِ
كَأنَّكَ قَدْ أيْقَنْتَ أن لستَ صَائِراً ... غَدَا بَيْنَهُمْ فى بَعْضِ تلك الحَفائِرِ
تَرَاهُمْ فَتَلْهُو بالشَّرَابِ وَبَعْضِ مَا ... تَلَذُّ بِهِ مِنْ نَقْرِ تلك المَزَاهِرِ
وَمَا أنْتَ بالمَغْبُونِ عَقْلاً وَلا حِجىً ... وَلا بِقَلِيلِ العِلْمِ عِنْدَ التَّخابُرِ
وَفِى ذاكَ مَا أغْنَاكَ عَنْ كُلِّ وَاعِظٍ ... شَفِيقٍ وَمَا أغْنَاكَ عن كُلِّ زاجِرِ
وَكَمْ نِعْمَةٍ يَعْصَى بهَا العَبْدُ رَبَّه ... وَيَلْوَى عَدَتّه عَنْ رُكُوبِ الكَبَائِرِ
سَتَرحَلُ عَنْ هَذا وإنَّك قَادِمُ ... وَمَا أنت فى شَكٍّ على غير عَاذِرِ [1]

فالغزال هنا لم يخرج عن الموضوع بل تكامل فى أفكاره ، فالمهجو لاهٍ ، وعابث لا يرتدع ، وهى كلها معانٍ متصلة ، ومترابطة بذات الموضوع ، ولم تتباين عاطفة الشاعر ، فهى مزيج من التحقير ، والاستهزاء للمهجو ، مما يثبت الوحدة الفنية لشعر الغزال .

ومن طرائف سخريته وهجائه الظريف ، والذى تتمثل فيه الوحدة الفنية هجاؤه لمن يسمى (أبو حازم) ، حيث تتبدى لنا وحدة موضوع الهجاء ، فهو لا يعدد الأفكار ، وإنما تناول فكرة واحدة ، وهى أنه يريد أن أبا حازم لايَمُتْ إلى بنى الإنسان بصلة ، فيقول : إنه قد سأل آدم عليه السلام فى نومه عن حقيقة نسب أبى حازم ، وهل هو من نسله ؟ ، فقال له آدم عليه السلام : إنه ليس من نسله ، و إلا (فحوا أمكم طالق) ، يقول الغزال من السريع :

سَألتُ فى النَّوْمِ أبِى آدَماً ... فَقُلتُ والقَلْبُ بِهِ وَامِقُ
إبْنُكَ بِاللهِ أبُو حَازِم ؟ ... صَلَّى عَلَيْكَ المَالِكُ الخَالِقُ
فقالَ لى : إنْ كَانَ مِنِّى وَمَنْ ... نَسْلِى فَحَوَّا أمُّكُمْ طَالِقُ [2]

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٧٠ ـ ١٧١ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٢ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعلى الرغم من هذا الهجاء ، وهذه السخرية ، إلا أن الغزال قد التزم الفكرة الواحدة ، ووحدة المشاعر التى تفيض تحقيراً واستهزاءً بالمدعو أبى حازم .

وحتى فى المديح أجد الغزال فى قصيدته التى يمدح فيها الأمير الحَكَم الرَّبضى ، أجده يتناول المديح مباشرة ، ودون مقدمات مما أكسب القصيدة وحدة فنية ، حيث لم تتعدد الأغراض ، بل كان المدح هو الموضوع الوحيد الذى تناولته القصيدة ، وقد جاءت الأفكار معبرة عن كل جوانب المدح سواء منها المعنوية ، والخلقية ، والإسلامية ، وكلها كما نرى تترابط ، وتتكامل تحت غرض واحد هو المديح .

فأرى الشاعر يبدأ قصيدته متحيراً من أى وجه يمدح الأمير ، ويبدأ بالجانب المعنوى ، حيث يصفه بالشجاعة ، والسيادة ، وشدة مهابة الجميع منه ، وقدرته على السيطرة على الآخرين ، فالعظماء يخضعون بين يديه ، بل إنه مسيطر حتى على نفسه فى حال السخط والرضا ، وقد نزه نفسه أن تقارف ما يريب وهو مالك لها متحكم فى رغباتها ، ويوقفها عن أى أمر فيه شبهة ، يقول الغزال من البسيط :

فَو اللهِ لا أدْرى وَإنِّى لشَاعِـــرٌ ... إلى أى وَجهٍ مِنْ مَدِيحكَ أقْصِـدُ
كَأنَّ المُلُوكَ الغُلْبَ عِندَكَ خُضَّعاً ... خَوَاضِعُ طَيْرٍ تَتَّقِى الصَّقْرُ لُبَّدُ
تُقَلِبُ فِيهِمْ مُقْلَةً حَكَمِيَةً ... فَتَخْفِضُ أقْواماً وَقَوْماً تُسَودُ
لأعْطِيتَ سُلْطَاناً عَلى السُّخْطِ والرِّضَا ... عَلَيْهَا فَذَلَّتْ حِينَ تَغْوى وَتَحْرَدُ
وَنَزَّهْتُ نَفْساً أنْ تُقَارِبَ رِيبَةً ... وقَدْ يَلْزَمُ الإنْسَانُ مَا يَتَعَوَدُ
وَقُوفاً عَنْ الأمْرِ الذى فيه شُبْهَةٌ ... مُلُوكاً لَهَا إنْ نَازعْت تَتَأبَدُ [1]

وينتقل الشاعر فى سلاسة إلى وجه آخر ، حيث يصف الممدوح بصفات الكرم ، والجود ، وكثرة العطايا ، حتى أن العقول تعيا عن حصر عطاياه ، فالممدوح مستمر فى العطاء ؛ حتى لكأنه يريد نفاد المال إلى حد أنه فاق رموز الكرم ، الذين يضرب بهم المثل فى العطاء مثل كعب وحاتم ، بل بعض الذى يعطيه يفوق عطايا حاتم الطائى وجود كعب بن مامة ، ويتابع مبالغاً أن الذى يعطيه الممدوح اليوم لا يمنع أن يعطى ، ويجود بمثله فى الغد أى أن عطاءه مستمر ودائم :

وَإنَّكَ تُعْطِى مَا قد أعْيَا حِسَابه الـ ... ـعُقُولَ فَمَا تهْدَى لهُ كَيْفَ يُعْقدُ؟
سِوَى أنَّ آلافَاً تُؤلفُ هَكَذا ... بلا فَهْمٍ مِنْ حَاسِبِيهَا يُرَدَّدُ

---

١ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص: ١٥١ ـ ١٥٤.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَتُعْطِـى وَتُعْطِـى ثُمَّ تعْطى كَـأنمَا تُـريدُ نَـفَـــادَ المَـالِ لـوْ كَـانَ يَـنفَـدُ
مَضَـى مَا مَضى مِنْ ذِكْر كَعْبٍ وَحَاتِمٍ فَـقِـيلَ هُمَا مِنْ سَائِرِ النَّـــاسِ أجْـــوَدُ
وَبَـعْضُ الذِى تُـعْطِى كَأثْمَانِ طَـيِّـىءٍ وَعَشْرَة كَعْبٍ حَيْثُ غَـاروا وَأنْجَدُوا
وَمَا ذاكَ إنْ أعْطَيْتَـهُ اليَـوْم مَانِعَـاً غَـدَا مِنكَ أنْ يَأتِى بأمْثَـالِهِ الغَـدُ

ويستكمل الشاعر صفات الممدوح ، ويخلع عليه الصفات الإسلامية كنتيجة مباشرة للتأثر بالقيم الإسلامية ، وإن كانت البداية وضح فيها التأثر بالقيم العربية التليدة فى المدح ، حيث الوصف بالشجاعة والكرم ، إلا أن الشاعر يضيف هنا بُعداً آخر يتمثل فى إعلاء القيم الإسلامية فى شأن الممدوح ، حيث ينعته بالتقى ، والخشية من الله ، والتزام العدل فى الرعية ، وإدارة شئونهم ، حتى عمّ الأمن والأمان ، وعذت البلاد آمنة ، ونَعُم الناس فى ظل الأمير بالأمن والنعيم والاستقرار :

وَجَدْتُ التُّقى والبَأسَ والعَدْلَ والنَّدَى إلَيْكَ إذا مَا اسْتَقْصِىَ الوَصْـفُ تُسْنَدُ
فَمَن تُؤمِنُوهُ فَهُـوَ للدَّهْـر آمِـنٌ وَمَنْ لا يَعِـشْ مَاعَاشَ وَهْوَ مُطَـرَّدُ
وَيَحْسَـبُ أرْضَ اللـهِ فى كـلِّ وِجْهَةٍ حَبَائِـلَ أَلْقَاهَا لَـهُ المُتَصَيِّـدُ

وهكذا تمثلت الوحدة الفنية فى هذه القصيدة ، حتى دارت أفكارها ومعانيها حول موضوع واحد ، وشملتها عاطفة لم تتجزأ ، تمثلت فى الاعتزاز ، والحب ، والتقدير لهذا الأمير .

وحتى فى مقطوعته الخمرية الوحيدة تتمثل الوحدة الفنية ، وتتبدى لنا فى وحدة متكاملة فى الأفكار والعناصر ، حيث دارت كلها حول الخمر ، وما تفعله بمُدمِنِيهَا الذين يسعون إلى الحانات ؛ ليشربوها ، ثم يوضح آثار الشرب ، وما يحدث بين نُدَماء الخمر ، والشاعر لم يخرج فى هذه المقطوعة عن الموضوع الواحد وهو الخمر ، وسيطرت عليه عاطفة السعادة والنشوة ، مما يؤكد ما سبق من أن شعر الغزال تشمله وحدة موضوعية سبق بها عصره وشعراء زمانه ، يقول الغزال من الطويل :

تَـدَارَكْتُ فى شُرْبِ النَبِيـذِ خَـطَائِى وَفَـارَقْتُ فِيـهِ شِـيمَتى وَحَيَائِى
وَلَـمَّـا رَأيْتُ الشَّرْبَ أكْدَتْ سَمَاؤُهُمْ تَـأبَّطْتُ زقّـى وَاحْتَـسَـبتُ عَنَـائِى
فَـلَمَّـا أتَـيْـتُ الحَـانَ نَـادَيْـتُ رَبَّـهُ فَـهَـبَّ خَـفِيفَ الرُّوح نَـحْوَ نِدَائِى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قَـلِـيلَ هُجُـوعَ العَيْـن إلا تَـعْلَّـةً عَلى وَجَــل مِنِّــى وَمِــنْ نُظَرَانِى
فَـقُـلتُ أذِقْنِيهَـا فَـلمَّـا أذاقَـنـى طَـرَحْــتُ إلَيْــهِ رَيْطَـتى وَرِدَائِى
وَقُلتُ أعِرْنى بِـذلَـةً أسْتتر بهَــا بَذَلْــتُ فِيهَــا طَــلاقَ نِسَــائِى
فَـوَ اللهِ مَا بَـرَّتْ يَمِينى وَلا وَفَــتْ لَـهُ غَيْـر أنِّى ضَامِـنٌ بِـوفائِـى
وَأبْــتُ إلى صَحْبى وَلَـمْ أكُ آيبــاً فكُــلٌّ يُفدِّينــى وَحَــقَّ فِدَائــى [1]

ومن مقطوعاته فى الوصف ، والتى رسم من خلالها صورة كلية اعتمدت على عنصر القص ، يصور لنا الغزال ما حدث فى رحلة له إلى بــلاد النورمان ، حيث هـاج البحـر ، وتعالـت أمواجه كالجبال ، وهبت الريح ، ومزقت الشراع ، وتملك الفزع والخوف كل مـن فـى الـسفينة ، وتبدى لهـم الموت ، حتى لكأنهم رأوه رأى العين ، كل ذلك ممزوجٌ بعاطفة الخوف والفزع الذى ملأ نفس الشاعر ونفس من حوله ، وإن كان الغزال وهو فى أشد حالات الكرب لا ينسى جانب الفكاهة والسخرية ، فختم بها الأبيات التى جاءت فـى وحـدة موضـوعية وفنيـة ، فـدارت حـول موضـوع واحد ، وهو وصف ما حدث فى الرحلة وعاطفتــه وأحاسيـسه لم تـتغير ، فهـى مـزيج مـن الفـزع والخوف فى ترتيب وتماسك بين الأبيات ، وكل بيت منها يسلم للآخر فـى تكامـل يجـذب انتبـاه القارىء فيشده إليه ، يقول الغزال من مجزوء الرمل :

قَــالَ لى يَحْيَـى وَصِرْنَـا بَـيْنَ مَــوْجٍ كَـالجِبَــــالِ
وَتَـوَلَّـتْنَا عُــصُــوفٌ مِــن دَبُـور وَشِـمَــــالِ
شَـقَّـتِ القِلـعَيْنِ وانْـبَـ ـتتْ عُرَى تلـك الحِبَــالِ
وَتَـمَطَّـى مَـلَــكُ المَــوْ تَ إلَيْــنَا عَــنْ حِيَــالِ
فَـرَأيْنَــا المَــوْتَ رَأىَ العَيْــنَ حَـالاً بَعْـدَ حَــالِ
لَـمْ يَكُن لِلــقَوْم فِينــا يا رفِـيـقِــى رَأسُ مَــالِ [2]

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١٧ ـ ١١٨.
ـ المطرب ، ١٤٨ .
٢ ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن فكاهات الغزال هذه الأبيات التى يتحدث فيها عن رجل جاء يسأله ، ويلح فى السؤال فرد عليه فى سرعة بديهة وارتجال ، تكشف عن عبقرية شعرية فذة ، وتمثل كامل للموقف مصبوغاً بشخصيته الظريفة ، وحسن تعليله ، وفى وحدة فنية متناسقة عجيبة ، حيث لم يخرج عن الموضوع ، وإنما تكاملت عناصر الموضوع ، على الرغم من قصر المقطوعة ، فلم يعظ ، وإنما تناول الموقف ، ومزجه بعاطفته الساخرة المستهزئة ، حيث رد الغزال بأن عِيَاله أولى بالدرهم ، وأنه لا يؤدى الزكاة إلا بعد جهد شديد مع النفس ، حيث يعصرها عصراً ليخرج الزكاة ، يقول الغزال من الخفيف :

قُلْتُ إذ كَرَّرَ المَقالةَ : يَكْفِى ! أنْتَ أوْلَى بِدِرْهَمِى أمْ عِيَالِى ؟
لَسْتُ مِمَّنْ يَكُونُ يَخْدَعُهُ مِثْـ ـلُكَ فاعْلَم ، بِهَذِهِ الأقْوالِ
مَا أؤدِّى الزَّكاةَ إلا كَمَا يُعْصَـ ـرُ زِقٌّ ، مُعَسَّلٌ بِالحِبَالِ [1]

وخير ما أختم به حديثي عن الوحدة الفنية فى شعر الغزال ، تلك القصيدة التى ارتسمت فيها الوحدة الفنية بأدق وأجمل صورها ، على الرغم من طولها مما لا أجد له مثيلا فى القصائد الطويلة فى عصر الإمارة حيث طول القصيدة يجبر الشاعر أن تتعدد موضوعاته . أما الغزال ففى هذه القصيدة تناول موضوعا واحدا وهو الزهد ، وهو من الموضوعات التى أبدع فيها الغزال ، ونظم فيها العديد من القصائد ، وذلك مردّه إلى طول عمره ، وكثرة تجاربه وخبراته ، وتمرسه الطويل فى فنون الشعر ، الذى جاء تعبيراً عن مواقف حياتيه ، وخبرة شخصية للغزال نفسه ، صبغها صبغة إنسانية عامة ،فجاءت فى معرض قشيب بصورة بديعة .

فالقصيدة التى بين أيدينا كما أسلفنا تدور أفكارها ومعانيها حول موضوع واحد ألا وهو الزهد ، وجاءت عاطفتها واحدة أيضاً ، حيث الانصراف عن متع الدنيا ولذات الحياة ، فالشاعر متعلق بطاعة الله منصرف تمام الانصراف عن الدنيا وزخرفها وزينتها ، وقد انسجمت الأفكار داخل هذا الموضوع الواحد ، وظللتها هذه العاطفة ، وشملتها أحاسيس هى مزيد من تقوى الله ، وخشيته والأمل فيما عنده ، والانصراف عن بهرج الدنيا وزخرفها .

فيبدأ الشاعر قصيدته بقسم يؤكد لنا فيه أنه متحكم تمام التحكم فى نفسه ، وليس لصبابة الأشواق والشهوات ، سيطرة عليه فى كل حال ، فقلبه قد أغفر من عشق اللهو والملذات وهو بعيد كل البعد عن هؤلاء الذين تحكمت فيهم شهواتهم ، وساقهم الشيطان سوقاً إلى أبواب الخمر ، وما يجرى داخل حاناتها ، يقول الغزال من الطويل :

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٤ .
ـ التشبيهات ، من باب : البخل ، ص : ٢٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لِعَمْرِى مَا مَلَـكْتُ مِقْـوَدِى الصِّبَـا فَـأَمْطُـو للذَّاتِ فى السَّهْلِ وَالوَعْـرِ
وَلا أنا مِمَّــن يُؤثِـرِ اللهْـو قَلبُـهُ فَـأَمْسِى فى سُكْرٍ وَأصْبحُ فى سُكْـرِ
وَلا قَــارِعٌ بَــابَ اليَهُـودِىَّ مُوَهناً وقَـد هَجَعَ النَّـوَّامُ مِنَ شَـهْوَةِ الخَمْـرِ
وَأوْتَـغَـهُ الشيْطَــانُ حتَّى أصَــارَهُ مِـنَ الغَـىِّ فى بَحْـرٍ أضَلّ مِنْ البَحْـرِ [1]

ويتابع الشاعر موضوعه ، ويستكمل معانى قصيدته ، موضحاً أنه لم يكن لاهياً أبداً ، ولا غافلاً عن كتاب الله وما جاء فيه :

كَأنَّى لم أسْمَعُ كِتَـابَ مُحمدٍ وَمَا جَاءَ فى التَّنْزِيل فِيهِ مِنَ الفجْرِ

وواضح أن الشاعر ينعى على هؤلاء الذين انساقوا وراء شهواتهم وشياطينهم ، حتى أوردوهم موارد الهلاك ، وأنسوهم بذكر الله وما جاء فى شرعه ، وتسيطر عليها عاطفة الاستنكار والتوبيخ لهؤلاء الذين أظلتهم أنفسهم ، وفى الوقت نفســه يكشف الشاعر عن زهده وانصرافه عن ملذات الدنيا .

وينتقل الشاعر إلى معنى آخر وثيق الصلة بسابقه ، حيث تتكامل المعانى والأفكار ، فيحدثنا عن حاله هو ، فإنه قد اكتفى من كل ما أعجب به الناس ، وانشغلوا به بالقليل ، بل وبأقل القليل ، فوضّح بأنه يكفيه قليلة ماء ، وخبز بسيط ، وبقل ، ويحمد الله كثيراً على ذلك زهداً فى الدنيا وترفعاً عن ملذاتها :

كَفَانِى مِنْ كُلِّ الذى أعْجَبُوا بِهِ قُلَيْلَةُ مَاء تُسْتَقَى لى مِنَ النَهْـرِ
ففيهَا شَرَابِى إنْ عَطِشْتُ وَكُلُّ مَا يُريــدُ عِيَـالى للعَجِيـنِ وللقِــدْرِ
بِخُبْزٍ وَبَقْـلٍ لَيْسَ لَحْمَـاً وَإنَّنى عليــه كَثِيرُ الحَمْدِ للنَّاسِ والشُّكْـرِ

ويتابع الغزال موضحاً أنه لو عاش مثل عمره ما اشتاقت نفسه إلى الخمر ، ويقسم على ذلك وهذا تأكيدٌ على زهده ، وبيان لانصرافه عن متع الدنيا ، فقلبه متعلق أشد التعلق بالله ، ويرى أن الإنسان لا يحق له أبداً أن يترك نفسه تقوده إلى المعاصى ، وتورده موارد الهلكة ، وإنما هو زاهد ، وهو فى الوقت نفسه قانع بأقل القليل ، وحامد ربه على ذلك ، فلم تطرب نفسه إلى مزهر ، أو عود ، أو زمر ، ولم تطلع إلى شربت خمر ، متعجباً من شاربيها، ومؤكداً أنه لا حاجة للإنسان إلى شربها :

---

١ ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٤ ـ ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ص : ٣٥٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَيَا صَاحِبَ اللحْمَانِ والخَمْرهَل ترى بوَجْهى إذا عَايَنْتَ وَجْهى مِنْ ضُــرِّ؟
وَباللهِ لــوْ عُمِّــرتُ تِسْعِينَ حِجَّــةً إلى مِثْلِهَا مَا اشْتَقتُ فِيهَا إلى خَمْـرِ
وَلا طَرَبَتْ نفسِى إلى مِزهَــرٍ ولا تَحَنَّنَ قلبــى نَحْوَ عُــودٍ ولا زَمْـرِ
وَقد حَدَثُـــونـى أنَّ فِيهَا مَــرَارةً وَمَا حَاجَةُ الإنْسَانِ فى الشُّـربِ للمُـرِّ

وأصل إلى ختام القصيدة ، فأراه يخاطب الإنسان ويدعوه إلى أن يتعقل ويتدبر فى أمره ، وفى حياته مؤكداً أن الإنسان ليس له فى الدنيا سوى الساعة التى يحياها ، والواجب عليه أن يحياها فى طاعة الله ، وانصراف عن ملذات الدنيا ، ويحرص على أن يلقى الله على حال من البر والتقوى ؛ ليرضى الله عنه ، فهؤلاء الذين لقوا الله على خير وطاعة وتوبة مشمولون بعناية الله وأمنه ، ورضاه ، ومغفرته ، وأجسادهم الطاهرة لا يأكلها التراب فهى لا تبلى إلى آخر الدهر :

أخِــى عُدَّ مَا قاسَيْتُه وَتَقَلَبَتْ عَلَيْكَ بِهِ الدُّنيَا مِنَ الخَيْـرِ والشَّــرِّ
فهَلْ لَكَ فى الدُّنْيَا سِوَى الساعَةِ التى تَكُونُ بِهَا السَّرَّاءُ أوحَاضِرُ الضُّـرِّ ؟
فَمَا سَاقَ مِنْهَا لا يُحَسُّ وَلا يُرَى وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا عَمِىٌ عَنِ الفِكْـرِ
فَطُوبى لعَبْدٍ أخْرَجَ اللـهُ رُوحَهُ إليْهِ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى عَمَــلِ البِــرِّ
وَلكِـنَّنِى حُدِّثْتُ أنَّ نُفُــوسَهُمْ هُنَا لِكَ فى جَاهٍ قَلِيـلٍ وَفى قَــدْرِ
وَأجْسَادُهُمْ لا يَأكُلُ التَّرْبُ لحْمَهَا هُنَا لِكَ لا تَبْـلَى إلى آخِــرِ الدَّهْرِ

وواضح أن الغزال فى هذه الزهدية الرائعة قد تكامل عنده المفهوم الصحيح للوحدة الفنية والموضوعية على نحو ما أجد عند شعرائنا المعاصرين ؛ وكأنه يستبق نظريات النقد الحديثة التى تؤكد على ضرورة وأهمية الوحدة الفنية والموضوعية للقصيدة ، حتى لا يتشتت القارىء ، ولا يتوزع انتباهه إذا كانت القصيدة متعددة الأغراض ، وإنما يصلوا تأثير القصيدة مركزاً ومباشراً ، وموجّهاً إلى هدف واحد ، ألا وهو الموضوع الواحد الذى تتناوله القصيدة ، وبالطبع لابد وأن تأتى العاطفة موحدة لا تناقض ولا تنافر بين مكوناتها ، فالانفعال الذى يسيطر على نفس الشاعر يكاد يكون واحداً من بداية القصيدة إلى نهايتها ، ما لمسته وأوضحته فى هذه القصيدة التى ختمت به حديثي عن عنصر الوحدة الفنية عند الشاعر يحيى بن حكم الغزال ، الذى جاءت قصائده ومقطوعاته لوحات فنية متكاملة ، تضافرت عناصرها لتشكل وحدة فنية رائعة لهذا الشاعر المبهر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثا : الفكـــرة والعاطفـــة

العاطفة شعور نفسى عميق ، يفيض من وجدان الشاعر ، ويكون شعره صدى لـه ، وتعـبيراً عما يحـس لا يزيـف شـعوره ، ولا يكـذب ، فالعاطفـة فـى العمـل الـشعرى تلعـب دورا هامـا فـى العمليـة الإبداعية ، وعليها تتوقف إيجابية الأثر الفنى أو سلبيته ، وإذا تـوفر فيهـا عنـصر الـصدق ضـمن العمـل الأدبى خلوده وبقاءه ، فالعاطفة الصادقة هى من أبرز سمات الشعر الجيـد ؛ لأن الـشعر فـى حقيقتـه هـو تعبير عن العواطف التى تجيش بها نفس الشاعر ، وأى شعر لا يصدر عن العاطفـة شـعر زائـف لا خلـود له ، وربما يخدع ببهرجه ومنظره ، لكنه لا يستطيع أن يبهر النفوس ، أو يثير المشاعر .

ومعيار الصدق فى أى عمل شعرى ، أن يكون هذا العمل نابعاً من اندماج الشاعر ، واستغراقه فى حدث أو موقف ، وأيضا ما يكون انفعالاً مباشراً ، لما أحسه الشاعر ، وليس ما يقلد فيـه غـيره ، ويخـرج عن الصدق ، كل ما حاكى الطبيعة محاكة صمَّاء ، وما يساق فى المناسبات ، وليس شرطاً لصدق العاطفـة أن يكون الحدث ، أو المؤثر ، أو الموقـف الـذى انـدمج فيـه الـشاعر بوجدانـه واقعيـاً ، فقـد تكـون التجربـة خيالية ، وصادقة ما دام الشاعر أميناً فى نقل ما تخيله كما عاناه ، وانفعل به وتمثله.

ومن صفات العاطفة قوتها ومصدر تلك الصفة نفس الـشاعر ، وعمـق شـعوره ، فـإذا كانـت حادة قوية استدعت قوة مماثلة للتعبير عنها ، وبهذا يتمكن الشاعر من نقـل هـذه المـشاعر القويـة التى يحس بها إلى المتلقى بنفس القوة الغائرة فى أعماقه ، والتجربـة الـشعرية الجيـدة هـى التـى تتعدد العواطف فيها ، وتستثير فى نفس القارىء ، أو المتلقى أعظم عـدد منهـا ، ويعـد هـذا مـن مقاييس جودة العاطفة فى العمل الأدبى الواحد ، والشاعر النابه العبقرى الذى يُقَدَّم علـى غـيره ، هو الذى يستطيع أن يحشد أكبر عدد منها [١] .

والحق أن كل نتاج عاطفى لا يحسب فى الأدب إلا إذا أثار عواطف مـن يقـرؤه فـى جيـل الأديب أو بعد جيله ، ويعيش من الأدب العاطفى الأدب الذى إذا قرأته قلت عـن صـاحبه : " إنـه يشعر وإنه أحس به ؛ لأنه أهدى إليك شيئا تجده فى نفسك ، وتحس به فى قرارة شعورك " [٢] .

١ـ انظر: ـ شعر خليل مردم بين التقليد والتجديد ، د/ فاروق الميهى ، ط مكتبة الأفيس، طنطا ، ص:١٦٢ـ ١٦٣.
ـ أحمد رامى ، لـ (السعيد حامد السعيد شوارب) ، ط الهيئة المصرية العامة ، للكتاب ، (١٩٨٥) سلسلة أعلام العرب ، ص: ٢٢٩ .
٢ ـ تيـــارات أدبية ، ص: ١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعمل الشعرى هو نتاج الفكرة والوجدان معا ، فلابد أن يمتزج الفكر بالوجدان فى كل عمل شعرى ؛ لأن الوجدان والعاطفة يمنحان العمل الشعرى ذاتيته وروحه ، ويضمنان له البقاء والخلود .

أما الفكرة فهي التى تضمن للعمل الشعرى عنصر الدقة ، ويساعد على تنسيق الخواطر والصور ، وإحكام الروابط بين أجزاء العمل الشعرى فى خلقٍ فنى متكامل .

وفى ضوء ما سبق أقول : إن شعر الغزال جاء فى مجمله تعبيراً عن مواقف أو أحداث مرَّ بها ، واندمج فيها بفكره ووجدانه ، فجاءت أشعاره صورة انعكست عليها عاطفته وأفكاره ، ومن خلال الفنون الشعرية التى عرفناها عند الغزال نلحظ وضوح عاطفته التى تتبدى من خلال أفكاره ومعانيه ، ولنبدأ بالغزل حيث هو أوضح مثال للفكرة والعاطفة ، فالشاعر المتغزل يعبر عن ذاته ، وما يحسه من شوق وحنين إلى المحبوبة ، ففى مقطوعته التى يقول فيها من الخفيف :

ريعَ قَلْبِى لَمَّا ذكَرْتُ الدِّيَارَا وَتَنَوَّرْتُ بِالنَّخِيلاتِ نَارَا
وَازْدَهَتْنِى ذاتَ السَّنَا بِبُرَوق مِنْ لَظَاهَا فَمَا أطِيقُ اصْطِبَارَا
وَالقَرِيحُ الفُؤادِ يَزْدَادُ للنَّـ ر وَمِيضُ السَّعِيرِ فِيمَا اسْتِعَارَا [1]

فالغزال لم يخرج فى الأبيات السابقة عن الإطار العام للغزل العربى ، ففيه تتردد المعانى والأفكار التى ترددت فى الشعر المشرقى من الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، ووصف تباريح الهوى والشوق ، وعليه فالأفكار لا جديد فيها ، أما العاطفة فنكاد نحسُّ من خلال الألفاظ لهيب الشوق ، وحرارة فؤاده ، فلم يعد يطيق صبرا على فراق المحبوبة.
ولنتأمل تلك الأبيات من قصيدته التى يقول فيها الغزال :

أقْرِ السَّلامَ عَلَى إلفٍ كَلِفْتُ بِهِ قدْ رُمْتُ شَوْقاً وَطُولُ الشَّوْق لم يَرُم
ظَبْيٌ تَبَاعَدَ عَنْ قُرْبى وعَنْ نظرى فَالنَّفْسُ وَالِهَةٌ مِنْ شِدَّةِ الألَم
كُنَّا كَرُوحَيْن فى جِسْمٍ غِذاؤهُمَا مَاءُ المَحَبَّةِ مِنْ هَامٍ وَمُنْسَجِم
إلفَيْن هَذا بِهَذا مُغْرَمٌ كَلِفٌ لا وَاحِدٌ في الهَوَى مِنَّا بِمُتَّهَم [2]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧ .
ـ يتيمة الدهر ، ج٢ ، ص : ٣٩٩ .
٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأجد هنا امتزاج الفكرة بالعاطفة ، حيث لم يقف الغـزال علـى الأطـلال ، وإنمـا مباشـرة أرسل بالسلام إلى المحبوبة ، وبدأ بوصف شـوقه وحـنينه إليهـا ، وإن كـان الغـــــزل عُــذرياً تـقــليدياً إلا أن هناك طرافة وجِـدَّة فى البيت الثالث [ماء المحبـة] ، أمـا عـن العاطفـة فأجـد اللوعة ، واللهفة ، وشدة الشوق ، والحنين ، والكلف بالمحبوبة ، مما يعطى القصيدة صفة الصدق وقوة التأثير .

ولنتأمل سوياً المقطوعة التالية للغزال ـ وما زلنا مع غزلياته ـ والتى يقول فيها :

وَسُلَيْمَـــى ذاتُ زُهْـدٍ فى زَهيــدٍ مِـنْ وِصَـالِ
كُلَّـمَا قـُلْــتُ صِلِينِى حَاسَبَتْــنِى بالخَيَـالِ
وَالكَــرَى قدْ مَنَعَتْــهُ مُقْــلتِى أخْــرَى اللَيَالى
وَهْـى أدْرَى فـَلِمَــاذا دَافَعَــتْــنِى بـِمُحَـالِ
أتَــرَانِي اقْــتَضَـيْنا بَـعْـدُ شَيْــئـاً مِنْ نـَوَالِ [1]

حيث أجد كثيراً من المعانى العجيبة والغريبة الطريفة ، فالمحبوبـة زاهـدة حتـى فـى أقـل القليل من الوصال ، وكأنها تريد للشاعر أن يعانى من الشوق أكثـر ما يعانيه دلالاً منها ،رغم أنها تعلـم مقدار حبه لها ، وشوقه إلى وصالها ، والفكرة جديدة طريفـة ، والعاطفــة صـادقة وحـارة ، ففيهَا الرجاء والاستعطاف من الشاعر لها ، والهجر ، والصـدّ ، والدلال ، والتمنع من المحبوبة .

أما فى فن المديح عند الغزال ،فهو مديح لم يخرج عن الإطار العربـى التقليـدى ، وإن كـان فيه نـُدرة عند الغزال إلا أننا نجد بجانب المعانى والأفكار التقليدية معانى جديـدة فيهـا الطرافـة والجِدّة ، ولنتأمل تلك الأبيات فى قصيدته التى يمدح فيها الأمير عبـد الـرحمن الأوسـط ، حيـث يقول الغزال :

لمْ أجْرِ فِيهَا مِنَ الأعْرَابِ وَصْفُهُــمُ تِلـــكَ المَهَامِــهَ مُغْبِراً فَيَـا فِيــهَا
وَلا بَكِيتُ عَلَــى أطْــلالِ مَنْــزِلِــةٍ قَــفْــرٍ تُوَارِدُ فِيهَا العَيْـنُ صَبِّــيهَا
وَلا رَمَيْتُ بِطَـرْفِى إثْرَهَا جَزَعَــاً قدْ شَفَّ نفسِى فى زَعْمِــى تصَابـيهـا
أبُو المُطَرِّفِ بَادِى كُــلِّ مَكْرَمَــةٍ نَـعُــدُّهَا لِكَـريـــم أوْ نُسَمِّيهَــا

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠٤ .
ـ العقد الفريد ، ص : ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَكِنْ قصَدْتُ إلى مَدْح امْرىءٍ قصُرَتْ عنهُ الصِّفاتُ فلمْ تَبْلُغْـــهُ تشبيهَـــا
قَرْمٌ إذا رُفِعَتْ عنهُ السُّتورُ لنَـــا لاحَتْ لهُ سُنَّـــةٌ يُـــغْشَى تلالِيهَـا
كالشَّمْس تَرْجعُ عَنْهَا العَيْنُ حَاسِرةً يَكَادُ مَـا جَشمَتْ مِـنْ ذاكَ يُغْشِيـهَا
وَمَا تَكَلَّفَ مِنهُ الفِكْرُ مَنْـــزلَـةً إلا تحَـيَّـــر فى أدْنـى الـذِى فِـيهَـــا
هُوَ الهُمَـامُ الذِى مَا مِثلُـهُ بَشَـــرٌ مِـنْ نَسْلِ آدَمَ مَاضِيهَـا وَبَاقِـيهَـا
يَاخَيْرَ مَنْ حَمَلَتْهُ الأرْضُ مُذ سُطِحَتْ حَاشـى الذِينَ أحَاشِـى مِنْ نبِيَّـهَـــا [1]

فالأفكار فيها التقليد ، وفيهـا الابتكـار ، فالمـدوح سيدٌ ، وجميـل الطلعـة ، وثاقـب الفكـرة ، والجديد هو ما وصفه به من أنه خير مَنْ حملته الأرض باستثناء الأنبيـاء ، وأن منـابر الشرق فى شوق إليه تكاد منه أن تطيـر إليـــه ، وواضح ما فى هذا من مبالغة وإن كانـت مقبولـة نظراً لأنها فى مقام المدح ، وعاطفـة الـشاعر أكـاد أظـن أنهـا صـادقة ؛ لأن الغـزال لم يعـرف عنـه النفاق ، ولا كثرة المديح وعليه فإنه إن مدح فإنه يمدح صادقاً ، وليس كغيره مـن الـشعراء يبغـــى عطاء ، أو نوالاً ، ولكن تحركه عاطفة صادقة ، وحـب مخلـص واعتـزاز بـولىّ نعمتـه الأمـير عبـد الرحمن الأوسط .

وفى قصيدته الشهيرة التى يمدح بها الأمير عبد الرحمن أيضاً ، ويستعطفه كى يخرجـــه من سجنه ، نتأمل المحور الثانى منها ، الذى يقول فيه الغزال من السريع :

وَكَـــانَ مِنِّـى هَـكَذا دَفْـتَـــرٌ أعْـدَدْتهُ للفِقْـهِ لـمْ يُـكْـتَـــبِ
ثُـــرْتُ إلَيْـــهِ وَتَـنَـاوَلْـتَـــهُ وَكُـنْتُ فى دَهْـرى مِنَ المُطرَبِ
نَـقَـرْتُ فِيهِ نَـقْرَةً سَاعَـــةً أشُيـــرُ بالـــرَّأس وبالمَنْـكَـــبِ
فالرِّجْلُ فى مَوْضِعِهَا لـمْ تَرم مَخَـافَـــةَ الكَبْـلِ على أكْعُبِى
حتَّـــى إذا مَـا طَرَبى جَـدَّ بِـى وَاللهْـوُ إن تَرْكَبْـــهُ يَسْـتَرْكَب
قُمْـتُ بِرِجْلِى عَلى وَثْـبَـــةٍ فأوْجَعَتنى حَـلَـقُ العَقْـــربِ
واسْتضْحَكَ القَـوْمُ فأنبَأتُـهُمْ أنَّ الـذِى يَحْبسُنِى غَـــرَّ بِـى
إنْ تُـــردِ المَالَ فإنِّـى امْـــرؤٌ لـمْ أجْمَع المَـــالَ ولم أكْسَـــبِ

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ٢٣٧ ـ ٢٤٠.
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَإنْ يَرِدْ زَفَناً يَجِدْ بِى إذا كلفتــه أحَـدَ الظُّـــرَّبِ
قد أحْسَنَ اللـهُ بِنَـــا عِندَمَا كَانَ الذِى اسْتودَعْتُ لـمْ يَذهَـبِ
إذا أخذتَ الحَقَّ مِنِّى فَـلا تَـلتَمِس الرِّبْـحَ وَلا تَـرْغَبِ [1]

فمن حيث الأفكار والمعانى جاءت على قدر كبير من الوضوح ، والبعد عن الغموض ،أو التعقيد ، فقد تحدث عن معاناته فى السجن ، وقسوة القيود على رجليه وتألمه منها ، أما العاطفة فجاءت صادقة استطاعت أن ترسم بدقة الأجواء النفسية التى عاشها الشاعر ، فمن ذوب وجدان صادق توضح مدى معاناة الشاعر ، وتجرعه مرارة الوحدة والحرمان فى السجن ، وقد اصطبغت العاطفة باللون الغائم الذى يكشف عن حزن دفين ، وألم عميق .

أما عن الهجاء ، فمن المؤكد أن هجاء الغزال كان أقرب إلى النقد الاجتماعى ، فهو لا يهجو لأمر شخصى ، وإنما لأمر عام يعم الناس ، وهجاء الغزال فى معظمه ملىء بالمعانى الطريفة ، والأفكار الجديدة الممزوجة بعاطفة السخط والغضب فى حق المهجو ، ولنتأمل ما قاله فى الفقهاء المرتشين من الخفيف :

لَسْتَ تَلْقى الفقِيهَ إلا غَنِياً لَيْتَ شِعْرى مِنْ أيْنَ يَسْتَغنونا ؟
نَقطَعُ البَرَّ وَالبحَارَ طِلابَ الر زق وَالقَوْمُ هَا هُنُا قَاعِدُونَا
لا يَرِيمُونَ مَوْطِناً لا وَلا تُبْـ ـصِرُهُمْ عَيْنُ نَاظِرٍ يَعْجَزُونا
إنَّ للقَوْم مَضْرَباً غَابَ عَنَّا لمْ يُصِبْ قَصْدَ وَجْهِهِ الرَّاكِبُونا [2]

فالمعانى جديدة يتعجب الغزال من ثرائهم بينما هو والناس يقطعون البر والبحر طلباً للرزق ، فلا ينالون مثل ما ينال الفقهاء ؛ لأن الفقهاء لهم نهج خاص فى بلوغ الغنى ، وواضح مدى حنق ، وغضب الغزال على هؤلاء الفقهاء الذين يستغلون مناصبهم فى جمع المال .

وأجد الغزال فى الأبيات التالية يسخر من القاضى يخامر ، واصفاً إياه بالْبَله والجهل ، حيث يقول الغزال من الطويل :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ ـ ١٢٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٦٧ .
٢ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فـقُلتُ لهُ كَلَّفْتنِى غَيْرَ صَنْعَتِى كَمَا قَـلَّدُوا فَضَلْ القَضَاءِ يُخَامِرَا
فَأصْبَحَ قَدْ حَارَتْ بهِ طُـرُقُ الهَوَى يُكَابدُ لُجِّيـاً مِنَ البَحْرِ زَاخِـرَاً
فقلتُ : لوْ اسْتعْفيْتَ مِنهَا فقال لى : سَأفْضَحُ مَا قَدْ كانَ مِنْكَ مُغَايِرَاً
فقلت له : رَأسُ الفُضُوح إقَـامَـةٌ عَلَيْنا كَذا مِنْ غَيْر عِلْم مُكَابِـرَاً
وَخَبْطُكَ فى دِيـن الإلـهِ على عَمىً خِبَاطـةُ سَكـرَان تَكلَّـم سَـادِرَاً
فلَنْ تحْمِلَ الصَّخْرَ الذبَابُ وَلنْ تَرَى السْـ ـسَلاحِفَ يُزجِـينَ السَّفينَ المَوَاخِرا [1]

فأرى هنا جدة الفكرة وطرافتها ، حيث جاء بها الغزال فى صورة من صور الحوار القصصى الساخر ، فيصوره الغزال فى صورة أشبه بالصور الكاريكاتيرية فى عصرنا الحاضر ، حيث صوره فى صورة إنسان تقلد عملاً ليس يقدر على تحمل تبعاته فهو جاهل أبله ، وحاله يشبه حال الذباب الذى يسعى لحمل الصخر ، أو السلاحف التى تحاول جرّ السفن ، فالصورة جديدة نابضة بالحياة وبالحركة ، والعاطفة واضحة حيث السخرية الشديدة ، والغضب ، والضيق ، يملأ نفس الغزال تجاه هذا القاضى الجاهل .

وللغزال مقطوعة أخرى يهجو فيها هذا القاضى ، يقول فيها من المجتث :

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً مِنْ آبدَاتِ يُخَـامِـرْ
قَـرَا عَلَيْـهِ غُـلامٌ طَـهَ وَسُـورَة غَـافِـرْ
فقَـالَ : مَنْ قَـالَ هَـذا؟ هَـذا لِعَمْرىَ شَاعِرْ
أرَدْتُ صَفْـعَ قَـفَاهُ فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرْ
أتِيْـتُ يَوْمَـاً بتَـيْسٍ مَسْتعْبِـراً مَـتَحَاسِرْ
فقلتُ : قُومُوا اذبَحُوهُ فقَـال : إنِّى يُخَامِـرْ [2]

١ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨٩ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .
٢ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففى الأبيات السابقة نلمس أسلوب القصة والحوار التحليلى ، حيث القاضى لا يفرق بين القـرآن والشعر مما أغرى الشاعر بصفع قفاه ، ثم يصوره فى صورة مضحكة طريفة ، فيشبهه بالتيس الذى تظاهر بالأسف وعندما أريد ذبحه صرخ ، وقال : إنى يخامر ، وواضح ما فى هذا من السخرية والاستهزاء ، والتى هى من سمات شخصية الغزال ، وواضح أيضاً جدة المعانى ، وطرافة التصوير الذى ينقل الصورة واضحة إلى المتلقى الذى يمتلىء استهزاء من هذا القاضى ، فصدق عاطفة الغزال قد انتقلت إلى القارىء من خلال أبياته مما يدل على قوة تأثير شعر الغزال .

ومن المقطوعات الطريفة والجديدة فى الهجاء ، والتى لم نجد لها شبيهاً فى شعرنا العربى هجاؤه لمن يدعى (أبو حازم) ، حيث يلجأ إلى طريقة الحكاية ، والتى عهدنا ها فى أهاجيه ، حيث يدور حوار فى المنام بين الشاعر وبين آدم عليه السلام ، فيسأله الشاعر هل أبو حازم من نسله ؟ فيجيب آدم عليه السلام بالنفى ، ويزيد إذا كان أبو حازم من نسلى حقاً (فحوّا أمكم طالق) ، يقول الغزال من السريع :

سَألتُ فى النَّوْم أبِى آدَمَا فقلتُ وَالقَلْبُ به وَامِقُ
إبْنُكَ باللهِ أبُو حَازم ؟ صَلَّى عَلَيْكَ المَالِكُ الخالِقُ
فقال لى : إنْ كَانَ مِنِّى وَمِنْ نَسْلِى فَحَوَّا أمُّكُمْ طَالِقُ [1]

فالمعانى كما رأينا طريفة جديدة ، وتكشف عن سخرية عميقة ، وسخط عارم من الشاعر على أبى حازم إلى الدرجة التى تجعل الشاعر ينفى انتسابه إلى الآدميين .

ومن فكاهات الغزال التى أرسل بها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، يستنجزه ما وعد به قوله من البسيط :

أبْقَى الأمِيرُ عَلَيْنا هَمَّ مَا وَعَدَا فمَا اعْتَدْنا بشىءٍ عِندَمَا انْفرَدا
يَقُولُ لى ابْنُ شَهِيدٍ وَالوَزِيرُ أبُو عَبْدِ الإلَهِ وَعَبْدِ اللهِ قدْ شَهِدَا
لا تَأسَفَنَّ عَلَى شىءٍ تُخَلِّفُهُ سَيوَسِعُ المَلِكُ الإجْرَاءَ والصَّفَدَا
فقلتُ : لا شك لكنى أشَبِّهُهُ بِقُبْلَةِ العَاشِقِ المَعْشُوق قد رَقَدَا
فَيَنْثِنى عَنْهُ لمْ يَشْعُرَ بِقُبْلته وَلَمْ يُصِبْ لذةً مِنهُ وَلا رَشَدَا
مَا كَانَ أحْلاهُ فى نفسى وَأطيَبَهُ لو كان ذلكَ فى اليَوْم الذى وَعَدَا [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٩٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٥٩ ـ ١٦٠ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأجد هنا معنى طريفاً تخلل هذه الفكرة ونحسبه جديداً ، فالغزال يشبه إنجاز الأمير لما وعد به بعد مدة ، بقُبلة العاشق للمعشوق وهو نائم ، فلا هذا يحس ولا ذاك يستلذ ، وواضح ما فى الفكرة من جدّة ، وخفة ظل تميز بهما الغزال ، وبديهة شعرية تُميز الغزال عن غيره ، وإذا كان هذا هو حال الفكرة ، فالعاطفة واضحة ، وتبرز من خلال الكلمات ، ففيها حبه وتقديره للأمير ، وفيها أيضاً ظرف الغزال وخفة روحه ، وأيضاً حرصه على أن يضمن لعياله ما يُعِينَهُم أثناء سفره ، وهى عاطفة تبرز حُنُو الأب ، وحرصه على عياله .

وعندما أراد الغزال تناول إحدى القضايا الاجتماعية ، وهى عدم التكافؤ بين الفتاة الصغيرة فى السن ، والشيخ الكبير الذى يريد الزواج بها ، أبرز هذه القضية من خلال عدة مواقف نختار منها اثنين :

<u>الموقف الأول</u> : لفتاة صغيرة السن خُيرت بين اثنين أحدهما شاب فقير ، والآخر شيخ غنى ، فاختارت الشاب الفقير ، يقول الغزال من الوافر :

وَخَيَّرْهَا أَبُوهَا بَيْنَ شَيْخٍ كَثِير المَالِ أو حَدَثٍ فَقَيرِ
فَقالتْ : خُطَّتا خَسَفٍ وما إن أرَى مِنْ حَظْوَةٍ للمُسْتَخِيرِ
وَلَكِن إنْ عَزَمْتُ فكُلُّ شَىءٍ أحَبُّ إلىَّ مِنْ وَجْهِ الكَبِيرِ
لأنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفقرِ يَثْرى وَهَذا لا يَعُودُ إلى صَغِيرِ [1]

<u>وأما الموقف الآخر</u> : فيتحدث الغزال عن نفسه حين تعرض لإغواء فتاة صغيرة السن ، فردّ عليها بأنها لا تريد إلا خداعه ، حيث يقول من الكامل:

قَالتْ : أحِبُّكَ ! قُلتُ : كاذبةٌ غُرِّي بِذا مَنْ لَيْسَ يَنْتَقِدُ
هَذا كَلامٌ لسْتُ أقْبَلُهُ الشَّيْخُ لَيْسَ يُحِبُّهُ أحَدُ
سِيَّان قَوْلُكِ ذا وَقَوْلُك إنَّ الرِّيحَ نَعْقِدُهَا فَتَنعَقِدُ
أوْ أنْ تقولى : النارُ بَارِدَةٌ أوْ أنْ تَقُولى : المَاءُ يَتَّقِدُ [2]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨١ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٥٤ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ٢٥٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولأعد إلى **الموقف الأول** : الـذى أورده الغزال فى صورة حكاية ، وهى أهم مـا يميـز شعر الغزال الاجتماعى ، حيـث أجـده يميـل إلى الـسرد القصـصى ، والتـصوير الـواقعى ، مُهتمـاً بالبسـط والوصف ، والتحليل ، والتعليل ، فجَاءَ شعره هيّناً سلساً فيه بساطة التناول والعمق فى آن واحـد ، فالفتاة تقف متحيرة بين الاثـنين ، ثـم تعمـل عقلـها وفكرهـا لتنتهـى إلى النتيجـة التـى ترتضيها ، وهى اختيار الشباب وهى أيضاً فكرة الغزال ، وإن كان قد أوردها على لسان الفتاة التى اختارت الشاب الفقير ، وأتبعت هذا الاختيار بتعليل يكشف عن فهم عميق للحياة ، حيث الشاب قد يُغنى ، فأمامه العُمر وبه القوة ، أما الشيخ فقريب مـن الفنـاء ، فيـستحيل أن يعـود صـغيراً ، وتبرز العاطفة من خلال موقف الفتاة فهى متحيرة بين الاثنين ، وأكاد أحس بهـذه الحـيرة التـى شملـت الفتاة ، وهى تحاول أن تختار بين الاثنين ، ثم تغلـب عليهـا الحكمـة والتعقـل ، وتبـدى حرصـها علـى حياتها مستقبلاً من خلال اختيار هذا الشاب الفقير .

أما الموقـف الثـانى : فـالفكرة فيـه واقعيـة ، وأكـاد أجـد لهـا واقعـاً ملموسـاً بالحيـاة الاجتماعية التى نعيشها ، مما يوضح أن هناك مواقف اجتماعية متكررة على مرّ العصور ، وفى كل المجتمعات ، فالفتاة الصغيرة تحاول خداع الغزال بادعائها حبه ، ولكنه يرد عليها بخبرة الشيخ الحكيم المجرب بأن ما تحس هو إحساس غير صادق ، وهى كاذبة ، فالـشيخ لـيس يحبـه أحـد ، والجديد فى المعانى هو ما تبع هذا القول بتعليله أن هذا الكلام كالريح التى لا يمكن أن نعقـدها ، أو المـاء الذى لا يمكن إشعاله كقول الفتاة التى تدّعى حبه ، وهنا نجد العقلانية ، وعدم التهور الـذى قـد يحـدث عن بعض الشيوخ المتصابين .

ولأتوقف قليلاً أمام زهديات الغزال ، حيث نجـد لـه معـانى طريفـة وجديـدة نعـدها مـن ابتكاراته ، وهذه قد نتجت من استغراقه واندماجه فى ذات الموضوع دون تـصنّع أو تكلـّف ، بـل تأتى المعانى عفوية لترسم صورة صادقة لما عليه نفس الشاعر ؛ وبخاصة لأن زهديات الغزال جاءت فى مرحلة متأخرة من حياته التى مُلئت خبرة وتجربة ، فيقول فى إحدى زهدياته من الطويل :

ألسْتَ تَرَى أنَّ الزَّمَـــانَ طَـــوَانى وَبَـــدَّلَ خَلْقَـهُ كُلَّـــــهُ وَبَـرَانِـى
تَـحَيَّفنى عُضْـواً فَـعُضْـواً فلمْ يَدَع سِوَى اسْمِى صَحِيحَاً وَحْدَهُ وَلِسَـانـى
وَلَـوْ كَـــانتِ الأسْمَاءُ يَدْخلهَا البِلَى لـقد بَلَـى اسْمِى لامْـتِـدَادَ زَمَـانِـى
وَمَـا لى لا أبْـلى لِتسْعِيـنَ حِجَّـةً وَسَبْـع أتَـتْ مِنْ بَعْـدِها سَنَـتَـــان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذا عَنَّ لى شَخْصٌ تَخَيَّل دُونَهُ شَبيهُ ضَبَابٍ أو شَبيهُ دُخَان
فَيَا رَاغِبَاً فى العَيْش إن كُنتَ عَاقِلاً فَلا وَعْظَ إلا دُونَ لَحْظِ عِيَان [1]

فأفكار الشاعر غلب عليها التقليد حيث الزمان قد أتى عليه ، وأنقص من خلقه ، وأهزل أعضاءه عضواً عضواً ، ولم يترك سوى لسانه واسمه ، ومن طريف المعانى ماقاله فى البيت الثالث (من أن الأسماء قد تبلى بطول العُمر) ، وهو معنى جديد من ابتكارات الغزال ، وواضح مافى الأبيات من صدق عاطفة ، حيث الغزال فى مرحلة الشيخوخة ، وهى المرحلة التى يصدق فيها قول المرء كثيراً ، ويعمق فيها الفكر ، فالغزال يصدر فى شعره فى هذه المرحلة عن عاطفة صادقة ، ونفس قد امتلأت زهداً من متع الدنيا الفانية بجانب عمق الإيمان ، وشدة الخشية من الله .

بينما نراه فى المقطوعة التالية يُذكّرنا بأبى العتاهية فى زهدياته ، فيقول الغزال من الوافر :

إذا أخْبَرْتُ عَنْ رَجُلٍ بَرىءٍ مِنَ الآفَاتِ ظَاهِرُهُ صَحِيحُ
فَسَلَهُمْ عَنهُ هَلْ هُوَ آدَمِىٌّ فإن قَالوا نعَمْ فَالقَوْلُ ريحُ
وَلَكِنْ بَعْضُنا أهْلُ اسْتِتارٍ وَعِندَ اللهِ أجْمَعُنا جَرِيحُ
وَمِنْ إنْعَام خَالِقِنا عَلَيْنا بأن ذُنُوبَنا ليْسَتْ تَفُوحُ
فلَوْ فاحَتْ لأصْبَحْنا هُرُوباً فُرَادَى بِالفَلا مَا نَسْتَرِيحُ
وَضَاقَ بكُلِّ مُنْتحِلٍ صَلاحَاً لَنَتْن ذُنوبهِ البَلَدُ الفسيحُ [2]

فالغزال يوضح هنا أن الناس قد غرقوا فى الذنوب ، وليس هناك من إنسان يَسْلَم من فعل المعاصى ، ولكن هناك من يتستر ، وهناك من يكشف فعله ، أما عند الله فكلنا جريح ، ومكشوف أمره ، ومن نعم الخالق أن الذنوب ليست لها رائحة ، وإلا فرّ الناس من بعضهم ، وكما قلنا فالمعانى والفكرة اقتبسها الغزال من أبى العتاهية الذى يقول فى مطلع إحدى قصائده :

أحسن الله بنا أن المنايا لا تفوح [3]

---

١ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ .
ـ المطرب ، ص : ١٥٠ .
٢ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٩ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥ .
٣ ـ فصول فى الأدب الأندلسى ، ص : ٢١٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومع تأثر الغزال بأبى العتاهية إلا أننا نراه فى البيتين الخامس والسادس يلحق المعنى المأخوذ من أبى العتاهية بمعنى طريف من ابتكاراته ، حيث افترض أن رائحة الذنوب قد فاحت ، فتكون النتيجة أن تضيق الأماكن بأهلها .

ولنتأمل معاً هذه المقطوعة التى يتضح من خلالها مدى تأثر الغزال العميق بالقرآن الكريم ، حيث يقول من الوافر :

أرَى أهْلَ اليَسَار إذا تُـــوفوا بَنَوْا تلك المَقَـابر بالصُّخُـور
أبَـوْا إلا مُبَاهَـاة ً وَفَـخْـــرَاً عَـلَـى الفقراءِ حتَّى فى القُبُور
فإن يَكُن التَّفَاضُلُ فى ذرَاهَـــا فإن العَــدْلَ فيها فى القُعُــور
رَضِيتُ بِمَنْ تـأنْـــقَ فى بِنَـاءٍ فَبَالَغَ فيـهِ تَصْريفَ الدُّهُـور
ألمَّا يُبْصِروا مَا خَـــرَّبْتهُ الدُّ هُــورُ مِنَ المَدَائِنَ والقُصُور
لَعَمْــرُ أبيهُــمُ لو أبْصَــرُوهُـمْ لَمَـا عُـرفَ الغَنِـىُّ مِنَ الفقـير
وَلا عَرفوا العَبيـــدَ مِنَ المَوالى وَلا عَـرفـوا الإنَـاثَ مِنَ الذُّكُور
وَلا مَنْ كان يَلْبسُ ثَوْبَ صُوفٍ مِنَ البَـــدَنِ المُبَــاشِرِ للحَـرير
إذا أكَــلَ الثّــرى هَـــذا وهَـــذا فمَا فَضْلُ الكَبيرُ على الحَقير [1]

المقطوعة تكشف عن زهد ساخر من كل متع الدنيا وزيفها ، ونرى التأثر فى أفكاره ومعانيه بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : **(اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ)** [2] .

وواضح أن المعانى مستوحاة من الآية الكريمة الأولى ، فالغزال يدعو فى عاطفة صادقة إلى امتناع الناس عن التهافت على متع الدنيا ، وأن يزهدوا فيها ، وأن يكون عملهم لآخرتهم ، وأن الناس جميعاً متساوون فى القبر ، ولا فرق بين غنى أو فقير إلا بالتقوى ، والغزال تظهر شخصيته التقية ، ونفسه المليئة بالمعانى الدينية من خلال المقطوعة ، وهذا ينطبق على كل زهدياته ، حيث تتبدى لنا نفسه المليئة بمعاني الإسلام وقيمه ، وخبرة الحياة وتجاربها .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .
٢ـ سورة الحديد : الآية (٢٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن تجارب الغزال ، والتى يقدم من خلالها إلينا ما انتهى إليه نتيجة خبرته الطويلة للحياة ، هذه المقطوعة التى يتحدث فيها عن زهده ، وقناعته ، ويختمها بدعوة الناس إلى أن يتأملوا حياتهم الفانية ، وأن يكون همهم عمل الخير ، حتى تكون لهم المكانة العظيمة عند الله بعد موتهم ، فنجده يقول فى بعض أبياتها من الطويل :

كَفَانِى مِن كُلِّ الذى أعْجَبُوا بِهِ ... قُلَيْلَةُ مَاءٍ تُسْتَقى لى مِنَ النَّهْر

فَفِيهَا شَرَابى إنْ عَطِشْتَ وَكل مَا ... يُرِيدُ عِيَالى للعَجِينِ وَلِلقِدْر

بِخُبْز وَبَقْلٍ لَيْسَ لَحْماً وَإننى ... عَلَيْهِ كَثِيرُ الحَمْدِ للنَّاسِ وَالشُّكْر

فَيَا صَاحِبَ اللحْمَان وَالخمر هَلْ تَرى ... بوَجْهى إذا عَايَنْتَ وَجْهى مِنْ ضُرِّ؟

وَباللهِ لوْ عُمِّرْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً ... إلى مِثْلِهَا مَا اشْتَقتُ فيهَا إلى خَمْر

وَلا طَرَبَتْ نفسِى إلى مِزْهَر وَلا ... تحَنَّنَ قَلبى نحْو عُودٍ وَلا زَمْرِ

وقدْ حَدَّثونى أنَّ فِيهَا مَرَارَة ... وما حَاجَة الإنْسَان فى الشُّرْب للمُرِّ

أخِى عُدَّ مَا قاسَيْتَه وتَقلبْتَ ... عليك به الدُّنيا مِنَ الخَيْر وَالشَّرِّ

فهَلْ لكَ فى الدنيا سِوَى السَّاعة التى ... تكُونُ بهَا السَّرَّاءُ أوْ حَاضِرُ الضُّرِّ ؟

فَمَا سَاقَ مِنهَا لا يُحَسُّ وَلا يُرَى ... وَمَا لَمْ يَكُنْ منها عَمِىٌّ عَنِ الفِكْر

فَطَوبى لِعَبْدِ أخْرَجَ اللهُ رُوحَهُ ... إليه مِنْ الدُّنيا عَلَى عَمَلِ البِرِّ

وَلكنى حُدِّثْتُ أنَّ نُفُوسَهُمْ ... هُنَالِكَ فى جَاهٍ قليل وفى قَدْر

وَأجْسَادَهُمْ لا يَأكُلُ التُّرب لحْمَهَا ... هُنَالِكَ لا تَبْلى إلى آخِرِ الدَّهْر [1]

فهو يتحدث عن قناعته ، ورضاه بالقليل من العيش والطعام ، ويؤكد أنه قد ملك نفسه ، ولم يطعها فى معصية ، ثم يدعو المؤمنين جميعاً إلى فعل الخير ، ونلحظ هنا أنه قد اعتبر المؤمنين جميعاً إخوة ، وحق الأخوة النصيحة الصادقة ، وواضح أن الأفكار كلها تقليدية ، وكذلك العاطفة الصادقة ، حيث الإيمان العميق مما يبرز إخلاصه ، وحبه للدين ، وقيمّه ، والتزامه بما يدعو إليه من القناعة ، والرضا ، وعمل البرّ ، ومن خلال ما سبق يمكن القول إن الغزال فى زهدياته يقدم ردّاً واضحاً وبليغاً على مَنْ شككوا فى دينه ، واتهموه بالزندقة ، فهو كما رأينا عميق الإيمان ، شديد الخشية من الله ، ملتزم بقيم الإسلام وآدابه ،حيث وجدناه يدعو إلى القناعة والرضا بما قسم الله ، وداعياً إلى عمل الخير والبرّ ، ومذكراً الناس بآخرتهم ، حيث سنقف جميعاً أمام الله للحساب كُلٌّ على ما قدمت يداه .

---

١ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٤ ـ ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقبل أن أختم جانب الفكرة العاطفة عند الغزال ، كان لا بد لي أن أتعرض لقصيدته فى النفس ، حيث أجد فيها قلق الغزال حول مصيره بعد الموت ، وأى موضع تكون فيه روحه إلى يوم الحساب ، وهل تشتاق الروح إلى أن تعود إلى البدن ؟ ، يقول الغزال من الطويل :

تَمَنَّيْتُ أمْراً قدْ طَوَى اللهُ عِلمَهُ وَمَا عِنْد غيرِ اللهِ فيهِ يَقينُ
تمَنَّيْتُ أنْ أدْرى وَهَلْ تَنفع المُنَى إذا زالَ هَذا الرُّوحُ أيْنَ يَكُونُ ؟
أفى نُسْخَةٍ أمْ هو مُقِيمٌ بِمَوْضِعٍ ـ إلى أن يُنادِى بالحِسَابِ ـ رَهِينُ
وَهَلْ فِيهِ عَقلٌ مِثلمَا كَانَ أوْ بِهِ اشْتِيَاقٌ إلى مَا خَلفَهُ وَحَنِينُ
وَصَارَ إلى آذِى بَحْرٍ غَطامِطٍ لهُ أظْهُرٌ تَحْمِينه وَبُطُونُ
جَسَسْتُ بِوَهْمِى جَسَّ أعْمَى فَرَدَّهُ مِنَ الغَيْبِ شَىءٌ لا يَرَاهُ مُحِينُ [1]

وواضح هنا تحير الغزال فهو لا يعرف جواباً ، وإن كان قد استهلَّ القصيدة بأن أمر النفس ، والروح لا يعلمه إلا الله ، أما أسئلته التى اتُهِمَ فيها بالتعريض بالغيب ، وأهاجت عليه الفقهاء فهى لا تخرج عن كونها أمنية فى نفس الشاعر ، ولكنه أباح بها من خلال القصيدة ، والغزال كما علمنا صاحب فكر ، ونظرات فلسفية ، وقد عدّه ابن حيان فيلسوفاً ، وعليه فالأسئلة ليست إنكاراً للروح ، أو لما بعد الموت من حياة البرزخ ، وإنما هى تأملات فيما بعد الموت ، الشاعر ينطلق فيها من إيمان عميق ؛ لأن الروح من أمر الله .

وأرى الغزال بعد ذلك يقترب من الحياة البرزخية ، فيتساءل عن حال الإنسان فى هذه الحياة البرزخية ، ويعجز عن التفسير :

وَيَالَيْتَ شِعْرِى أىَّ شَىءٍ مُحَصَّلٍ يَرَى شَخْصَ مَنْ قدْ مَاتَ وَهْوَ دَفِينُ
أهُوْ هُوَ أمْ خَلْقٌ شَبِيهٌ بِمَا رَأى فَهَلْ للقُلُوبِ النَّاعِسَاتِ عُيُونُ ؟
وَكَيْفَ يَرَى وَالعَيْنُ قد مَاتَ نُورُهَا وَوَاقِعُهُ شِبْهُ الوَقَارِ سُكُونُ ؟ [2]

فالأبيات هنا تمثل نزعة شكيّة فى الحياة البرزخية تكشف عن الحيرة والتخبط فالأمر غيب ، ولا يدرى حقيقته سوى الله .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٧ ـ ٢٢٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥٣.
[2] ـ المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى ختام القصيدة يعود الغزال ليقرر أن الأمر كله لا يعلمـــه إلا اللـه :

تـعَالى الذِى لا يَعْلمُ الغَيْبُ غَيْرُهُ وَلا عِنْـدَ مَخْـلوقٍ بـذاكَ يَـقـينُ
لئـنْ كَانتِ الأرْوَاحُ مِنْ بعدِ بينها بِـهِنَّ إلى مَـا خَـلْـفهُـنَّ حَـنِـيــنُ
وتمْـلِـكُ أنْ يَغْشَى الصَّفِيُّ صَفِيَّهُ وتَـعْلمُ بَـعْـدَ أيْــنَ يَــكُــونُ ؟
فَـرُوحِي لا يَـنْفكُّ فى وَصْلِ رَبِّــهِ وَإنْ حَالَ حِصْنٌ دُون ذاك حَصينُ

فالأبيات هنا تقرر أن هذا الحديث عن النفس يمثل ضرباً من الخوض فى أمور الغيب ، وأن الغزال بعد تساؤلاته لم يكن الهدف شكاً ، أو جنوحاً عن الدين ، وإنما تساؤلات أجاب عنها فى نهاية القصيدة بأن الأمر كله للـه ، وأن روحه تحن دوماً إلى الحياة العليا ، ولا تزال فى اتصال مع خالقها .

ولا يمكن أن نتهم الغزال في أفكاره هذه بالبعد عن منهج الإسلام ، وإنما جاءت أفكاره متفقة تماماً مع ما قرره الإسلام ، وأكدت عليه آيات القرآن في قوله تعالى :{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلا قَلِيلاً }[1] ، وقوله تعالى : {يَا أَيَتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً }[2] .

وبعد فقد رأيت الغزال يصدر في شعره عن عاطفة صادقة ، وجاءت أفكاره انعكاساً لها بدون زيف ، فقد استطاع أن يعبر عن مواقف حياته ، وتجاربه ، وأفكاره ، وآرائه بمعان تؤكد هذه الأفكار وتبرزها ، وقد اجتمعت في الغزال صفتان : الابتكار والجدّة ، والاقتباس والتأثر بالتراث العربي المشرقي ، وقد أبرزت هذا من خلال ما سبق ، وانتهيت إلى أن الغزال صاحب رؤية متفردة ، وفكر مستنير متجدد تمكن من خلال شعره أن يوّصل للمتلقي رؤيته وأفكاره .

---

١ ـ ســـورة الإسراء ، (٨٥) .
٢ ـ ســـورة الفجـــر ، (٢٧ : ٣٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رابعاً : الدراســة اللغــويـة

تتمثل الأهمية الأولى للغة فى التفاهم ، والتواصل الضرورى بين الناس لكن اكتسبت مع الزمن صفة أسمى وأرقى من مجرد الرمزية ؛ لأنها اتصلت بخواطر الناس وأفكارهم ، فأصبحت جزءاً من هذه الأفكار من أجل ذلك استخدمها الأدباء وسيلة تعبير عن الصورة الفكرية ، والايحاءات الذهنية ، والخواطر الذاتية ، والانفعالات الوجدانية ، وتحويلها إلى أفكار ومعان مفهومة لدى الآخرين .

فالحق أن الشاعر ليس له من أداة تعبيرية يبرز من خلالها وجدانه ، ويخرج ما يطوف فى ذهنه من أفكار سوى الكلمة ، بل هو مطالب فوق ذلك أن يصنع بالكلمة الصورة ، والتمثال ، ويقدم النغمة الموسيقية ، بل ويعطى النص بعد ذلك من نبض حياته ما يجعله قادراً على الإثارة والتأثير ، وهو لا يملك لهذه الصناعة الضخمة الشاملة غير اللغة التى تدور على ألسنة الأمة الناطقة بها ، والتي يتدبرون بها معاشهم [1]

والكلمة بيد الشاعر كاللون للرسام ، وكالحجر بالنسبة للمثّال ، وكالنغمة الموسيقية بالنسبة للموسيقى ، وهذه المادة من الممكن أن تكون فى متناول أى إنسان غير أن الصناعة الفنية هى التى تعطيها قيمتها ، وتمدها بالحياة ، وتمنحها الأثر الخلاق فى التعبير عن المعنى الذى يقصده الشاعر ويسعى إليه ، وبسبب ذلك أراها تختلف دلالاتها فى المعجم عن دلالاتها فى الأثر الأدبى ، أعنى التجربة الشعرية مثلاً أنها فى التجربة قطعة من نفس الشاعر ، وفكره، وعالمه ، أما فى المعجم اللغوى فهى تدل على معنى كلى عام ، ومادامت لها هذه المنزلة فلا بد أن تكون اللفظة مختارة بعناية ؛ لتنقل شعور الشاعر ، فلا تتشابه الألفاظ فى المعنى غير أنها تختلف فى المدلول ، فيكون لكل لفظة دلالتها الخاصة ، فالألفاظ رمز يقترن كل منها بخواطر وملابسات توقظ الذهن متى طرقه ذلك اللفظ ، ولا يشترك فيه معه لفظ آخر . وإذا ترادفا فى ظاهر المعنى فالمترادفات لا تتشابه فى المدلول تماما [2] .

إن ألفاظ الأدب وتراكيبه ينبغى أولاً أن يلتزم فيها العرف العربى الصحيح من ناحية اللفظة ، وسلامة بنيتها ، وصحة دلالتها ، وسلامة التركيب ، بوضع كل لفظ فى موضعه الذى يقتضيه المعنى ، وضبطه الضبط الواجب على حسب قواعد النحو والإعراب كما يوجبه موقعه ومعناه فى الجملة [3] .

---

[1] ـ انظر : عوامل تنمية اللغة العربية ، د/ توفيق محمد شاهين ، ط مكتبة وهبة ، القاهرة ، ص ٢١ .
[2] ـ انظر : خلاصة يومية العقاد ، ط دار نصر للطباعة ، القاهرة (١٩٦٨) .
[3] ـ انظر : النقد الأدبي ، د/ بدوي طبانة ، ص : ٢٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا ما نظرت إلى شاعرنا يحيى بن حكم الغزال لوجدنا كثيراً من شعره ينم عن دراية ، وخبرة فنية عالية ، وذوق أديب رائع ، كما يدل على شاعر مُنح ذوقا رقيقا ، وطبعا أصيلا ، فهو شاعر مطبوع ألفاظه يختارها بعناية ، وكل لفظة فى شعره قطعة من نفسه ، ثم تؤدى معناها فى شعره كما يُمْلِيهَا شعوره دون اضطراب ، وما يحملها من الدلالات والإيحاءات ، بحيث جاءت ألفاظه فى مواقعها تماماً ، حتى لا يمكن استبدال لفظة بأخرى ، وأما تراكيبه فتميزت بالسلاسة والسهولة ، والبعد عن التعقيد ، وغموض المعنى .

أ ـ الألفـــــاظ :

الألفاظ هى الوحدات التى تتركب منها العبارات عندما يضم بعضها إلى بعض ، وللأدباء عناية باختيار الألفاظ فى كلامهم المنثور والمنظوم ، وهم يعرفون أثرها البالغ فى إخراج الكلام الواضح القوى الجميل ، والذى يؤثر فى المتلقين ويمتعهم ، وتؤثر اللفظة الواحدة فى الكلام بعامة من جهة موافقتها لقواعد كلام العرب ومخالفتها لها ، من جهة دلالاتها على المراد ، ومستوى أدبيتها ، وجزالتها ورقتها وألفتها وغرابتها وإيحاءاتها ونحو ذلك ، ولا ريب أن هذه التأثيرات قوية ومهمة[1] .

وقد وضع النقاد قواعد عامة للألفاظ من شأنها أن ترقى بالعمل الشعرى ، وأن تكون عوناً للأديب لاتباع أحسن الطرق فى التعبير عن المعنى المراد فما ينبغى مراعاته فى اللفظة المفردة أن تكون غير وحشية ولا عاميه ، وأن تكون جارية على العرف العربى ، وألا توحى بمعنى مستقبح ، وألا تكون كثيرة الحروف ، وألا يكون هناك تنافر بين حروفها حتى لا تثقل على اللسان[2] .

فقبل أن أفصل القول فى الأ لفاظ الشعرية عند الغزال أشير إلى ظاهرتين هامتين تتبدى لنا فى ألفاظه :

الظاهرة الأولى : تتمثل فى أن الغزال قد أكثر من استخدام أسماء كثير من الحيوان بما يتفق مع السياق الذى استخدم فيه اللفظ فى شعره ، مثل لفظ (الظبى) : حين عبر به عن الجارية المسماة (لعوب) :

وَكَـأنَهَا فى الـدَّار حِينَ تـعَرَضتْ ظَبْيٌ تَظـلَّ بِـالفَلا مَرْعُوبُ [3]

---

١ ـ انظر : الصورة الفنية ، ص: ١٨٩ ـ ١٩٠ .
٢ ـ انظر : سر الفصاحة ، ابـن سنان الخفاجى ، ط ١ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص : ٦٥.
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(الجؤذر) وجاء فى معرض تشبيهه لعيون النساء :

سَقَى اللـهُ مِنْ مُزْنِ السَّحَائِبِ ثَـرْةً ً دِيَارَكُمُ التِـى حَـوَتْ كُلَّ جُؤذرِ [١]

(الرشأ و الخشف) فى معرض حديثه عن ابن الملكة نود حيث وصفه:

وَجَـاءَتْ أمُّـهُ مَـعَـهُ فَـكَـانَـا كَـأمِّ الخِـشْفِ وَالرَّشَـأِ الكَـحِيلِ [٢]

ولفظة (المهرة) التى وصف بها محبوبته زينب ،الضامره البطن ، والممتلئة الأرداف:

كُـلُّ رَدَاحِ الـرِّدْفِ خُمْصَانَـةٍ كالمُـهْرَةِ الضَّـامِرِ لَـمْ تُـرْكَـبِ [٣]

وجاء لفظ (المهر) بصيغة المذكر ، حين وصف الغزال نفسه ، وقد ابيض شعره بالمهر الأشهب ، يقول :

قُـلْـتُ لَـهَا : يَا بِـأبى ؟ إنَّـهُ قدْ يُـنْـتَـجُ المُـهْرُ كَـذا أشْـهَبَا [٤]

(الذئب والشاه) حين تحدث عن بعض أنواع من الناس أصحاب الخلق السيء :

وَمِـنَ الذِّيـبِ عَلَـى ابْنِ الـ ـشَّـاةِ عِنْدَ الجُـوعِ أعْـدَى [٥]

(الكلب) حين ورد فى وصفه للجشع السيء من الناس :

وَمِـنَ الكَـلْـبِ إذا جَـاعَ لِـمَـا يَمْـلِـكُ أحْمَـى [٦]

(الهرة والفأر) حين صور بهما شخص القاضى أسوار بن عقبه يصفه بالخديعه والمكر :

رَأيْـتُ لَـهُ نَـاظِرى هِـرَّةٍ تَـرَاءى لَـهَا الفَـأرُ فى ثُـقْبَهْ [٧]

ثم أرى الشاعر يستخدم لفظ (القط والكلب) ولكن بمعنى آخر غير الذى سبق ذكره ، حيث يوضح أن القط المستدفىء فى الكانون ، والكلب المربوط فى حبله ، ويكشر عن أنيابه أحسن منظرا فى عين الفتاة من منظر الشيخ الكبير الذى تزوجت منه :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٧.
ـ المغرب ، ص : ٥٨ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٢٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٣٦٧ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٩ .
ـ نفح الطيب ، ج١ ، ص: ٣٤٥ .
٥ ، ٦ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥٩ .
٧ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٥٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القِــطُّ فى الكَانُونِ مُسْتَوْبِرٌ وَالكَلْبُ فى حَبْلَيْنِ قدْ كَشَّرَا
وَالمَقْتُ كُلُّ المَقْتِ فى عَيْنِهَا أحْسَنُ مِنْــهُ عِندَهَا مَنْــظَرَا ١

ثم أراه يستخدم (الثعلب و الذئب والدجاج والقط والفأر) مُجْتمعة فى معرض الحديث عن سوء أخلاق الناس ، وخداعهم ، وافتراس بعضهم لبعض :

مَا أرَى هَا هُنَا مِنَ النَّاسِ إلا ثَعْلَبَاً يَطْلُبُ الدَّجَاجَ وَذِيبَا
أوْ شَبِيهَاً بالقِطِّ ألقَى بِعَيْنَيْـ ـهِ إلى فَأرَةٍ يُرِيدُ الوُثُوبَا ٢

(الفيل) حيث صور الفقهاء بالأفيال سخرية وتهكما عليهم :

جَاءَ بِجِسْمِ الفِيلِ فى العُيُونِ حَتَّى إذا سَارَ إلى سَحْنُونِ ٣

(الذباب و السلاحف) حيث شبه عدم استطاعة القاضى يخامر حمل مسئولية القضاء بعدم استطاعة الذباب حمل الصخر ، وعدم استطاعة السلاحف جرّ السفن :

فَلَنْ تحْمِلَ الصَّخْرَ الذبَابُ وَلَنْ ترَى السَّلاحِفَ يُزجِينَ السَّفينَ المَوَاخِرا ٤

(الدب والنحل والذِّبَّان) حيث صور القاضى وهو يستغل وظيفته فى العدوان على حقوق غيره بما يفعله الدب الذى يهدم خلايا النحل ، ويأكل شهدها ، ولا يترك إلا البقايا للذبان :

قعِيدَكَ ! مَاذا تَحْسِبُ المَرْءَ صَانِعاً فَقُلتُ : وَمَاذا يَفْعَلُ الدُّبُّ فى النَحْلِ؟
يَذُقُّ خَلايَاهَا وَيَأكُلُ شُهْدَهَا وَيَتْرُكُ للذِّبَّانِ مَا كَانَ مِنْ فَضْلِ ٥

(التيْس) حيث وصف القاضى يخامر بالتيس للسخرية منه والاستهزاء به:

أتَيْتُ يَوْمَاً بِتَيْسٍ مُسْتعْبِراً مُتَحَاسِرْ
فَقُلتُ : قُومُوا اذبَحُوه فَقَالَ : إنِّى يُخَامِرْ ٦

١ـ انظر : ــ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٨٨ ـ ١٨٩ .
ــ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٦١ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٣٧.
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٦٢ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٦ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٥١ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٩٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٤ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٩ .
٦ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٣.
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(الديك) وجاء فى معرض سخريتــه أيضاً من شاهدى الزور أبى حفص ويحيى بن مالك ، حيث يقول لديكه:

أقُولُ لِـدِيكِى إذ رَأيْـتُ وُجُـوهَهُمْ تَـعَزَّ فـقدْ جَاءَتْكَ إحْدَى الفَجَائِعِ
رَثَـا وَاسْتَـهَلَّتْ عِنـدَ ذاكَ دُمُـوعُـهُ وَقَـالَ : كَثيراً مَا أفاضُوا مَدَامِـعِى [1]

(الصقر لبدّ) واستخدم فى معرض القوة ، وخشية الطيور منه مثلمــا تخضع الملوك للأمير الحَكَم :

كَأنَّ المُـلُوكَ الغُـلَّبَ عِنـدَكَ خُضَّعَاً خَـوَاضِعُ طَـيْرٍ تَـتَّقِى الصَّقرَ لُبَّـدُ [2]

(الضيّغم) وهو الأسد الواسع الأشداق ، ويأتى به الشاعر حين وصف شدة هـواه ، وسيطرة الهـوى علـى قلبه :

كُلِّـفْتُ يَـا قَـلبى هَـوَىً مُـتْعِباً غَـالَبْتَ مِنهُ الضَّيْـغَمَ الأغْـلَبَا [3]

(الأفاعى) حيث شبه بها الشاعر ألسنة من يخوضون فى أعراض الناس ، ويتسلطون عليهم بالهجاء :

وَرَأيْتُ ألْسِنَـةَ الـرِّجَالِ أفَـاعِيـاً طَـوْراً تَـثُـورُ وَتَـارَةً تَـغْـتَالُ [4]

ومما سبق يتضح لي أن الغــزال قد استخدم لفظ الحيوان بدقة وحرفية فائقة ، حيث جاء كل لفظ منسجماً مع سياقه ، وموضحاً للمعنى الذى يريده الشاعر .

<u>أما الظاهرة الأخرى</u> : فترجع إلى ما سبق ذكره من أن الغزال كان على علم بالنجوم ، والظواهر الفلكية ، ولذلك نراه يكثر من الألفاظ المختصة بهذا الجانب ، فمن تلك الألفاظ (البرجيس) وهو كوكب المشترى ، وقيل هو المريخ ، ويرمز فيه الشاعر إلى العلو ، والسمو ، والشرف :

وَقَـدْ تَـنَـاظَرَ والبِرجِيسُ فى شَرَفٍ وَقَـارَنَ الزَّهْرَةَ البَيْضَـاءَ فى تَـوَمٍ [5]

(نجوم الليل) وقصد بها الشاعر طول سُهاده ، وسهره جراء شوقه للمحبوبة:

مَا زِلْتُ أرْعَى نُجُومَ اللَيْلِ طَالِعَةً أرْجُو السُّلُوَّ بِهَا إذ غِبْتُ عن نِجْمِى [6]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٨ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٣٤ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥١ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .
٣ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٦١ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٥١ .
٥، ٦ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢١ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(النجم) وقد جاء فى سياق آخر ، حيث رمز به إلى الجمال ، والحسن ، والتلألؤ :

نَـجْـمٌ مِنَ الحُـسْنِ مَا يَجْـرى بِهِ فَلَكٌ كَـأنَهُ الدُّرُّ وَاليَـاقُوتُ فى النَّظْمِ ١

(البدر) وقد اسُتخدم دائماً تعبيراً عن الجمال والبهاء والعلو :

ذاكَ الذِى حَازَ حُـسْنَاً لا نَـظِيرَ لهُ كَالبَدْر نُـوراً عَلا فى مَـنْزِلِ النَّعَمِ ٢

ثم أراه يستخدم لفظ البدر فى موضوع آخر ليس بمعنى الجمال ، ولكن لانتقاله مـن منـزل إلى منزل ، ويقصد منازل القمر :

كَـالبَدْر أقْـطَـعُ مَنـزلاً فى مَـنزل فإذا انْـتَـهَيْتُ إلى ذراكُمْ أغْـرَبُ ٣

(الشمس) وقد استخدمت للتعبير عن الجمال الـمُشرق الذى وصف به ملكة النورمان :

إنِّى تَـعَـلَّقْـتُ مَجُـوسِـيَّةً تَـأبى لِشَـمْـسِ الحُسْنِ أن تَـغْرُبَـا ٤

(الكواكب) ورمز به الشاعر إلى بياضها وبهائها وجمالها فى معرض حديثه ، وهو يصف الملكة نود (ملكة النورمان):

يَـانُـودَ يَـارُودَ الشَّباب التـى تُطلِعُ مِنْ أزرَارِهَا الكَـوكَـبَـا ٥

(الضباب) واستخدمه الشاعر بمعنى البياض الذى غطى رأسه وهو الشيب فى حديثه عـن نفسه عند الملكه نود ، يقول :

مَا الشَّيْبُ عِندِى وَالخِضَابُ لِوَاصفٍ إلا كَشَـمْسٍ جُـللَـتْ بِـضَبَابِ ٦

(مزن السحاب) وهو مـن الأ لفـاظ التـى دارت علـى ألـسنة الـشعراء فـى معـرض الـدعاء بالسُّـقيا لديار المحبوبه :

سَـقَـى اللهُ مِـنْ مُـزنِ السَّحَائِبِ ثرَّةً دِيَارُكُمْ التِـى حَوَتْ كُلَّ جُؤذِرِ ٧

١، ٢ ـ المصدرين السابقين .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣١ .
ـ ظهر الإسلام ، ص : ١١٥ .
٤، ٥ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٤٥ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٤ .
٦ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .
٧ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أراه يستخدم ماء السحاب ، ولكن بصفة العذوبه ، والنقاء ، حيث وصف به ريق الجارية :

حَـاوَلتُ مِنهُ رَشْفَـةً فَـكَـأنهَا عَسَلٌ بِـمَـاءِ سَحَابةٍ مَـقْطوبٌ ١

(الدآدى) وهى الليالى الثلاث الأخيرة من الشهر ، حين يـشتد الظـلام ، ويغيـب القمـر ، وجاءت اللفظة فى معرض حديثه عن شدة ظلام البحر المحيط ، حين كان الغزال فى أحد أسفاره :

لـهُ ظُلُـمَاتٌ بَعْضُـهَا فَـوْقَ بَعْضِهَا دَآدِىءُ مَـوْصُـول بهـنَّ دَآدِىء ٢

(النطح) وهو من منازل القمر التى يُتشاءم بها ، و (الرمح) وقد يكون المقـصود بـه بـرج القوس ، واستخدم هذين اللفظين وهما رمز الشؤم ، حين تنبأ بمهلك نصر عن طريق إطلاعـه علـى النجوم :

قُـلْ للفَتى نَـصْر أبـى الفَـتْح إنَّ المُـقَـاتِلِ حَلَّ بِـالنَّـطْـح
وَأرَاهُ قَـهْـقَـرَ فِيـهِ ثُمَّ مَضَى قُـدُمـاً وَمُـدبَّـراً إلـى الـرُّمْـح ٣

(البُلَـع) وهو من منازل القمر ، و ينذر بالهلاك وبالموت :

وَإذا رَأيْـتَ البَـدْرَ فى بُـلـعٍ نَـزَلَ القَـضَـاءُ بأبْـرَح البَـرْح ٤

(القمر) حيث يصف به جمال الفتاة الصغيرة ، وشدة بهائها وبياضها :

أبْصَـرْتُ شَـيْخَـاً قُـرْبَـهُ نـاهِدُ يَلـثُـمَهَا كَـالقمِـر السّارى ٥

ومما سبق يظهر لي مدى ثقافة الغزال ، ومعرفتـه بعلـم الفلـك ، وقـد اسـتطاع أن يوظـف بعض المصطلحات ، والأمور الفلكية فى شعره توظيفاً فنياً بارعاً .

١ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢١ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٦ .
ـ التشبيهات ، ص: ١٨١ .
٣، ٤ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٨ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١١ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا ما نظرت إلي الألفاظ بوجه عام عند الغزال أقول : إنها جاءت ملائمة للموضوع ، وعبرت عن المعانى أصدق تعبير ، ففى غزلياته ترق الألفاظ وتعذب ، وفى مجونه وخمرياته أجد التكشف إلى حد كبير ، والوصف الدقيق للموضوع وكثرة اقتباساته من أصحاب مدرسة المحدثين فى العصر العباسى ، وفى مدائحه أجد الفخامة والجزالة والمبالغة ، أما فى أسفاره ورحلاته فأجد السهولة والوضوح والوصف الدقيق ، وفى هجائه أجد السخرية والألفاظ اللاذعة والتهكم فى ظرف وخفة ، أما فى زهدياته فأجد الألفاظ قد لانت حتى لأحس أنها ابتهالات خاشع ، وحيث أجد الألفاظ محملة بالإيحاءات الدينية ، والمستوحاة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف .

فإذا ما تتبعت ألفاظ الغزل عنده وجدت أن الألفاظ الغزلية مستوحاه من معجم الغزل العذرى ، وأيضاً معجم الألفاظ الغزلية الصريحة ، فمن ألفاظ الغزل العذرى عند الغزال : { التصابى ـ الإلف ـ كلفت ـ الشوق ـ والهة ـ روحين ـ الهوى ـ الفراق ـ ريع ـ الوفاء ـ البكاء ـ النوى ـ الطيف ـ الفؤاد ـ المهجة ـ القلب ـ أهيم ـ عشقاً } .

وواضح من الألفاظ السابقة أنها كلها تقليدية ، وردت فيما قاله شعراء المشرق العذريون ، وكأن الألفاظ الشعرية أصبحت تراثاً مشتركاً لشعراء المشرق والمغرب على السواء ، فمن شواهد الألفاظ السابقة ، قوله :

بَعْضَ تَصَابِيكَ عَلى زَيْنَبِ لا خَيْرَ فى الصُّبْوةِ للأشْيَبِ [1]

وقوله :

أقْرَ السَّلامَ على إلفٍ كَلِفْتُ بهِ قد رُمْتُ صَبْرَاً وطُولُ الشَّوق لم يَرِمِ
ظَبْيٌ تَبَاعَدَ عَنْ قُربى وعن نظرى فالنَفسُ وَالِهَةٌ من شِدَّةِ الألَمِ
كُنَّا كَرُوحَيْن فى جِسْمٍ غِذاؤهُمَا مَاءُ المَحَبَّةِ مِنْ هَامٍ ومُنْسَجِمِ [2]

وقوله:

ريْعَ قَلبى لَمَّا ذكَرتُ الدِيَارَا وَتَنَوَّرَتُ بِالنَّخَيلاتِ نَارَا [3]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٠ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧ .
ـ يتيمة الدهر ، الثعالبى ، ط الشام ، ص: ٣٣٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله :

كَتَبْتُ وَشَوْقٍ لا يُفَارِقُ مُهْجَتِى وَوَجْدِى بكُم مُسْتحْكِمٌ وتذكُّرى [1]

فألفاظ الغزل الصريح الذى يدور حول مفاتن المرأة الجسدية وجمالها الحسى ، فأجد { رداح الردف ـ خمصانة ـ كالمهرة الضامر ـ الدرة ـ ظبى ـ نجم ـ البدر ـ الزهرة البيضاء ـ الجؤذر ـ قبّلْت ـ الثغر ـ الريق ـ الرُّمان ـ الريم ـ الشمس ـ الكوكب } ، ويلاحظ أيضاً أن الشاعر لم يأت بألفاظ غير التى قال بها القدماء فى الشعر الحسى ، ومن شواهد ذلك قوله :

كُلِّ رَدَاح الرِّدْفِ خُمْصَانَةٍ كَالمُهْرَةِ الضَّامِرِ لمْ تُرْكَبِ

أوْ دُرَّة سَاعَةَ مَا اسْتُخْرِجَتْ لمْ تُمْتَهَنْ بَعْدَ ولمْ تُثْقَبِ

مُشْرَبَةِ اللَّوْنِ مُتُوعِ الضُّحَى صَفْرَاءِ بالآصَالِ كَالمُذْهَبِ [2]

وقوله :

كَأنْ لمْ أبِتْ فى ثوبها طولَ ليْلةٍ إلى أنْ بَدَا وَجْهِ الصَّبَاح المُنَوَّر

وَعَانقتُ غُصْناً فيهِ رُمَّان فِضةٍ وَقَبَّلتُ ثَغْرَاً ريقَهُ ريقُ سُكْر

أأنْسَى وَلا أنسَى عِناقِك خَالياً وَضَمِّى ، ونُقلِى نظمُ دُرٍّ وَجَوهر [3]

وقوله :

يَانُودُ يَارُودَ الشَّبابِ التى تُطِلعُ مِنْ أزْرَارهَا الكَوْكَبَا [4]

وهكذا بدت لى ألفاظ الغزال واضحة المعنى ؛ لأنه تأثر فيها بألفاظ الغزل المشرقى ، حيث سيطرت الألفاظ الرقيقة التى تحمل المعانى الغزلية ، فكشفت لى عن شوقه وحبه ، وفرط صبابته ، ولم أجد بينها لفظة مستهجنة ، أو غريبة الوقع على الأذن ، فكانت معبرة عن هذا الموضوع ، ولم أجد بينها لفظة أعجمية باستثناء لفظة البرجيس ، وهو كوكب المشترى أو المريخ ، وأما الباقى فهو عربى أصيل تأثر فيه الشاعر بشعراء المشرق ، واقتبس منهم معظم الصفات التى قيلت فى المرأة .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٤ .

٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
ـ المطرب ، ص : ١٣٤ .

٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٨ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٤ .

٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٣٩ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما بالنسبة لمدائح الغزال على الرغم من قلتها ، فأرى فيها فخامة الألفاظ ، وجزالتها ، ورصانتها ، وقوة إيحاءاتها ، فالمعاني هي المعاني كما هي في المشرق ، وكذلك الألفاظ التي جاءت جزلة قوية مثل { الملوك الغلب ـ خضعاً ـ خواضع ـ تسود ـ سلطاناً ـ البأس ـ الوارث المجد ـ هو الدهر آمن ـ الضرغام ـ المغضب ـ قرم ـ الهمام } ، فقد غلب على تلك الألفاظ استخدام الجمع ، وصيغ المبالغة التي توحي بقوة وجبروت الممدوح ، وشدته ، وبأسه فى مواضع الشدة التي تستلزم الشجاعة والجسارة ، ورباطة الجأش ، وعلو الهمة ، والرهبة التي تملأ من يواجهونه ، ومن شواهد ذلك قوله :

كَأنَّ المُلوكَ الغُلْبَ عِندَكَ خُضَّعاً ... خَوَاضِعُ طيْرٍ تَتَّقى الصَّقرَ لُبَّدُ
تُقَلِّبُ فِيهِمْ مُقْلَةً حَكَمِيَّةً ... فتخْفِضُ أقْوَاماً وَقَوماً تُسَوِّدُ [1]

وقوله :

إلى جَمِيلِ الوَجْهِ فى هَيْئَةٍ ... كَهَيْئَةِ الضِّرْغَامَةِ المُغْضَبِ [2]

وقوله :

قَرْمٌ إذا رُفِعَتْ عَنهُ السُّتورُ لنا ... لاحَتْ لهُ سُنَّةٌ يُغْشَى تَلالِيهَا [3]

وقوله :

هُوَ الهُمَامُ الذِى مَا مِثْلُهُ بَشَرٌ ... مِنْ نَسْلِ آدَمَ مَاضِيهَا وَبَاقِيهَا [4]

وإذا كنت قد وجدت الفخامة والمبالغة فى جانب القوة ، فإننى أجد السهولة مع صفات الكرم والجود مثل ألفاظ :{ تعطى ـ تهدى ـ تريد نفاد المال ـ أجود ـ أجزتهم ـ عطاياك ـ الندى ـ بادى كل مكرمة } ، ومن شواهد ذلك قوله :

وَتعْطِى وَتعْطِى ثُمَّ تُعْطِى كَأنمَا ... تُرِيدُ نَفَادَ المَالِ لَوْ كَانَ يَنْفَدُ
مَضَى مَا مَضَى مِنْ ذِكْرِ كَعْبٍ ... وَحَاتِمِ فقيل هَمَا مِنْ سَائِرِالناس أجْوَدُ [5]

وقوله :

فَهَبْنِى كَبَعْضِ المَادِحِينَ أجَزْتهُمْ ... بِبَعْضِ عَطَايَاكَ التى لا تُصَرَّدُ
وَجَدْتُ التُّقى والبَأسَ والعَدْلَ والنَّدَى ... إلَيْكَ إذا مَا اسْتقْصَى الوَصْفُ تُسْنَدُ [6]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥١ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .
٣ ، ٤ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٧ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .
٥ ، ٦ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٢ ـ ١٥٣ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما من جهة عراقة الممدوح وأصالته وعلو نسبه ، فتطالعنا ألفاظ مثل { الوارث المجد أباً عن أب ـ ما مثله بشر من نسل آدم ـ خير من حملته الأرض ـ إمام الهدى } ، فأراه يقول :

مَنْ مُبْلِغ عَنِّى إمَام الهُدَى وَالــوَارثَ المَجْـــدِ أبـاً عن أبِ [1]

وقوله :

يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلتَــهُ الأرْضُ سُطِحَتْ حَاشَى الذِينَ أحَاشِى مِنْ نَبيِّهَا [2]

وواضح أن الألفاظ كلها فصيحة صحيحة مباشرة دالة على الصفات ليس فيها غمــوض ، أو إلتواء ، وإن كان هناك بعض الألفاظ التى يشوبها شيء من الغموض فى المعنى مثل { تحرد ، تصرد } فى قوله :

لأعْطِيْتَ سُلطانَاً عَلَى السُّخطِ وَالرِّضَا عَلَيْهَا فذلتْ حينَ تغوى وَتَحْرُدُ [3]

وقوله :

فَـهَبْنِى كَبَعْضِ المَادِحينَ أجَزتَـهُمْ ببعْضِ عَطَايَاكَ التى لا تُصرَّدُ [4]

وأما فى هجائه فأجد خفة الألفاظ وطرافتها التى تفيض سخرية ، وتهكماً فى المهجو ، وَصَلتْ إلى حد التجريح مثل { لاهياً ـ أشقى العالمين ـ رأس الفضوح ـ خبطك فى دين الإله ـ التيس ـ صفع قفاه ـ الوغى والمعامع ـ الفجائع ـ جرداء ـ صلعاء ـ لسان مُلـِّح ـ قنواء ـ مقرونة حواجبها ـ الغيلان ـ بنت سعلاة } وواضح أن الغزال قد استخدم ألفاظ الهجاء أدق استخدام للتعبير عن مدى سخطه وغضبه واستهزائه بالمهجو ، مما يكشف عن مدى تأثره أيضاً بشعر الهجاء فى العصر العباسى ، إذ كان أقذع وأفحش . ويرجع هذا لطبيعة الغزال ووظيفته الدبلوماسية ، فقد كان سفيراً ومتحدثاً باسم الأمير ، فأراه يقول :

أيَا لاهِياً فى القصْرِ قُرْبَ المَقَابرِ يَرَى كُلَّ يَوْم وَارِداً غَيْرَ صَادِرِ [5]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٨ .
ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٤٠ .
ـ السفر الثاني من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .
٣، ٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٤ .
ـ دولة الإسلام في الأندلس ، ص : ٢٥٣ .
٥ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٠.
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله :

أتَـاكَ أبُـو حَفْـصٍ وَيَحْيَى بْنُ مَالِكٍ فأهْلاً وَسَهْلاً بالوَغَى وَالمَعَامِعِ [1]

وقوله :

أقُـولُ لِدِيكِـى إذ رَأيْتُ وُجُوهَهُمْ تـعَزَّ فقد جَاءَتْكَ إحْدَى الفَجَائِعِ [2]

وقوله :

فَصَارَ فِيهَا كَأشْقَى العَالمينَ وَإن لفُّوهُ بالنَّفْحِ فى مِسْكٍ وَكَافور [3]

وقوله :

أرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ فَخِفْتُ صَوْلَةُ جَائِرْ
أتَيْتُ يَوْمَاً بِتَيْسٍ مُسْتَعْبِراً مُتحَاسِرْ
فقلتُ : قُوموا اذبَحُوه فقَال : إنِّى يُخَامِرْ [4]

وقوله :

جَرْدَاءُ صَلْعَاءُ لَمْ يَبْقِ الزَّمَانُ لهَا إلا لِسَاناً مُلِحَّاً بالمَلامَاتِ [5]

وقوله :

قَنْوَاءُ مَقْرُونةٌ حَوَاجِبُهَا وَالعَيْنُ غَائِرةٌ تحْت البُثُورَاتِ
يَحْلِفُ مَنْ عَايَنَ الغِيلانَ مُجْتهداً بأنهَا غيْر شَكٍّ بِنْتُ سَعْلاةِ [6]

أما عن الشعر الاجتماعى عند الغزال فقد ناقش القضايا الاجتماعية المتنوعة ، وقد وُفِقَ ـ فيما أري ـ إلى حد كبير لاستخدام الألفاظ الدالة على هذا الجانب الاجتماعى المتنوع والمتعدد الجوانب والأشكال ، ففى جانب الأسرة تطالعنا ألفاظ مثل { أبوها ـ حدث فقير ـ الشيخ ـ الفتاة ـ الكبير ـ الصغير ـ زوج ـ عيالى ـ أنا خاله وهوابن أختى ـ خاضب الشيب ـ منغصاً ـ من دون زوج ـ الفقر ـ يثرى } ، وقد دارت هذه الألفاظ فى محيط الأسرة والاستخدام اليومى لها ، وهى سهلة واضحة المعنى مباشرة ، وبعيدة عن التعقيد والغموض ، ومن شواهد ذلك قوله :

١، ٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٧ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٧٠ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٢ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١١ .
٤ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .
٥ ، ٦ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٤١ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَخَيَّرَهَا أبُـوهَا بَيْـنَ شَـيْخ كَثـير المَـالِ أوْ حَدَثٍ فَقـير [1]

وقوله :

ولكنْ إنْ عَزمْتَ فكـــلُّ شَـىءٍ أحَـــبُّ إلـيَّ مِنْ وَجْـهِ الكَبير
لأنْ المَـرْءَ بَـعْدَ الفقـر يُثْـرى وَهَـذا لا يَـعُـودُ إلى صَـغِـير [2]

وقوله :

أنَـا شَاعِرٌ أهْوَى التَّخَلِى دُون مَا زوج لكَيْمَا تَخْلصَ الأفْكَـارُ [3]

وقوله :

أنَـا خَالُـهُ وَهُـوَ ابْنُ أختى فمَا الذِى ألامُ عَلَيْـهِ والـدِّمَاءُ تَـفُـورُ [4]

وقوله :

يَـا خَـاضِبَ الشَّيْـبِ مَدَى عُـمْـره كَمْ ذا الذِى نَسْطِيعُ أنْ تَصْبِرا [5]

وأما النفاق الاجتماعى وهو أحد أهم الأمـراض الاجتماعيـة الخطـيرة ، فتطالعنـا ألفـاظ مثل: { ثعلب ـ ذئب ـ قط ـ فأر ـ مراء } وهى كما أرى ألفاظ محددة المعانى ، وواضحة تـدور علـى الألسنة فى سياق وصف النفاق والمنافق ، فأراه يقول :

مَا أرَى هَـا هُنَـا مِنَ النَّاس إلا ثَـعْلبَـاً يَطْـلُبُ الدَّجَـاجَ وَذيبَـا
أوَ شَبيهَاً بالقِطّ ألْقى بعَيْنَيْـ ـهِ إلى فَـأرَةٍ يُـريـــدَ الـوُثـوبَا [6]

وقوله :

وَمُـــرَاءٍ أخَـذ النَّـاس بِـسَمْـتٍ وَقُـطُـوبِ [7]

وقد لاحظت أن الألفاظ التـى استخدمها الغـزال فـى شعره الاجتمـاعى ، قـد اتـسمت بالـسهولة وبالوضوح الشديد ، وقد وضَّحت ذلك وبينّت ضرورة سهولتها حتى يتسنى للقارىء ، أو المتلقى أن يعيش المشكلة كما عرضها الشاعر .

---

١ ، ٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨١ .
ـ بغية الملتمس ، ص : ٤٨٦ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٢ .
ـ ظهر الإسلام ، ص : ١١٢ .
٤ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٩٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٤٥ .
٥ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨٨ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثانى ، ص : ٢٦١ .
٦ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٧ .
٧ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣١ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٠٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما زهدياته فهناك نوعان من الألفاظ أولهما : الألفاظ التى صورت حالته فى الكبر ، وصورت هيئته التى صار عليها بعد أن عبثت به يد الزمن ، وبدلت خلقه وأضعفته ، ومثال ذلك { الزمان طوانى ـ بدل خلقى ـ برانى ـ تحيفنى ـ البلى ـ الغيَّر ـ الكبر ـ اربد وجهى ـ ابيض الشعر ـ نقص السمع ـ نقصان البصر ـ لا انهض ـ عُمرت تسعين حجة } ، وهى كما أرى ألفاظ صريحة ، ومعبرة عن حالته التى أصبح عليها بعد أن امتد به العُمر ، وبلغ التسعين ، فتميزت بالوضوح ، والبعد عن الغموض و الغريب ، فهو يرسم من خلالها صورته ، وقد كبر سنّه ، وتبدى حاله ، ومن شواهد ذلك قوله:

ألسْتَ تَـرَى أنْ الزمَـانَ طَـوَانِـى وَبَـدَّلَ خَـلـقِـى كُـلَّـهُ وَبَـــرَانِـى
تَـحيَّـفـنِى عُضْـواً فَـعُضْـوَاً فـلمْ يَـدَعْ سِوَى اسْمِى صَحِيحَاً وَحْدَهُ وَلِسَانِى
وَلَوْ كَـانتْ الأسْمَاءُ يَـدْخُـلهَـا البِـلَـى لقَـدْ بَلِى اسْـمِى لامْـتِـدَادَ زَمَـانى [1]

وقوله : وَهْـى تَـرَى مَـا حَـلَّ بى مِـنَ الغِيَّـرْ [2]

وقوله : وَمَـــا تَكُـونُ حَـالتِى مَعَ الكِـبَـرْ
ارْبَـّـد مِنِّى الوَجْـهُ وَابْـيَـضَّ الشَّعَرْ [3]

وقوله : وَنَـقَـصَ السَّمْعُ بِنُـقْصَانِ البَصَـــرْ
وَصِـرْتُ لا أنْـهَضُ إلا بَـعْـدَ شَـرّ [4]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ .
ـ المطرب ، ص : ١٥١ .
٢، ٣، ٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٨٣ ـ ١٨٤ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٢٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما النوع الآخر من الألفاظ فقد استمدها الغزال من النبع الإسلامى العظيم سواءٌ من القرآن الكريم ، أو من الحديث الشريف ، أو من الآداب والقيم الاسلامية ، أو مما قيل فى الزهد من الشعراء الذين سبقوه ، وبخاصة زهديات أبى العتاهية مثل : { نعيم دنياه ـ صغيرة ـ آخر العهد ـ كفنى ـ اللحد ـ يشيع ـ التراب ـ اعتبر ـ المنايا ـ ذنوبنا ـ جريح ـ صلاحاً ـ ذنوبه ـ العدل ـ القبور ـ الدهور ـ ثوب صوف ـ الحادثات ـ مغرور ـ المقدور ـ تقلبت الأمور ـ أوتغه الشيطان ـ الغى ـ الزجر ـ كفانى ـ الحمد ـ الشكر ـ لا تبلى ـ الشاكى ـ اسأل الله ـ ارضه ـ انقضى العز ـ ماء البر ـ التقوى ـ الأمر لله ـ غمرة ـ إيمان ـ يفنى ـ أفنت } ، وكما رأيت من كثرة تلك الألفاظ أقول : إنها قد تناولت معظم معانى الزهد من البعد عن الدنيا ، ومحاربة الشيطان ، وهوى النفس ، والعمل للآخرة ، وتقوى الله والقناعة بما قسم ، والحث على عمل البر ، وفعل الخير ، وتنبيه الغافل إلى آخر ما حملته هذه الألفاظ من معان تميزت فى مجملها بالوضوح ، وأنها مألوفة لا تمجها الأذن ، فقد اعتادت الأذن الإسلامية العربية على هذه الألفاظ وثيقة الصلة بقيم الإسلام وآدابه ، ومن شواهد ذلك قوله :

وَيَنَامُ عَنْ دُنيَاهُ نَوْمَةَ قَانِعٍ بِنَعِيمِ دُنْيَاهُ ، وذاكَ خَيَالُ [1]

وقوله :

وَمَا أفارقُ يَوْمَاً مَنْ أفَارقُهُ إلا حَسِبْتُ فِرَاقِى آخِرَ العَهْدِ
انْظُرْ إلىّ إذا أدْرجْتُ فى كَفَنِى وَانظرْ إلىّ إذا أدْرجْتُ فى اللحْدِ
وَاقْعُد قَليلاً وَعَايْنِ مَنْ يُقيمُ مَعِى مِمَّنْ يُشَيِّعُ نَعْشِى مِنْ ذوى وُدِّى
هَيْهَاتَ كُلُّهُمْ فى شأنِهِ لَعِبٌ يَرْمِى التُّرابَ وَيَحثوهُ على خدِّى [2]

وقوله : فَانْظُرْ إلىَّ وَاعْتَبِرْ ثُمَّ اعْتَبِرْ [3]

وقوله : لا أرَى وَجْهَاً كَوَجْهٍ فيهِ مَاءِ البِر أوْضَا [4]

وقوله : وَمنْ إنْعَام خَالقِنَا عَلَيْنَا بأنْ ذنُوبَنَا ليْسَتْ تَفُوحُ [5]

وقوله : ولكن بَعْضَنا أهْلُ استِتار وَعِندَ اللهِ أجْمَعْنا جَرِيحُ [6]

---

١ ــ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٣.
ـ المطرب ، ص : ١٥١ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٥٨.
ـ العقد الفريد ، ص: ١٩٠ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٨٤.
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٢٨ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١١٤.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٩ .
٥ ، ٦ ــ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٥٠.
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٢٥٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله : وَضَـاقَ بكُلِّ مَنتحِلٍ صَلاحَاً لنتنِ ذنُوبهِ البَلـــدُ الفَسِيـحُ [١]

وقوله : أبَوْا إلا مبَاهَـــاة وفخـراً عَلى الفُقرَاءِ حتى فى القُبُـور [٢]

وقوله : ألمَّـا يُبْصِروا مَا خرَّبَتْـــهُ الدُّهُورمنَ المدَائِنِ وَالقُصُـــور [٣]

وقوله : وَلا مَنْ كَانَ يَلبسُ ثـــوْبَ صُوفٍ مِنَ البَدَنِ المُبَاشِرِ للحَرير [٤]

وقوله :

مَـنْ ظَـــنَّ أنَّ الدَّهْـرَ ليْـسَ يُصِيبهَ بالحَادِثاتِ فإنهُ مَغْرورُ

فألقَ الزَّمَانَ مُهَوِّناً لِخُطوبهِ وَانْجَزّ حَيْثُ يَجُـرُّكَ المَقْـدُورُ

وَإذا تَـقَـلبّتِ الأمُور وَلمْ تَدُمْ فَسَواءٌ المَحْزرنُ وَالمَسْـرورُ [٥]

وقوله :

وَأوْتَـغَـهُ الشَّيْطانُ حَتى أصَارَهُ مِنَ الغَىِّ فى بَحْر أضَلّ مِنْ البَّحْر [٦]

وقوله :

كَـفَـانى مِن كُلِّ الذى أعْجَبُوا بهِ قُلَيْلَةُ مَاءٍ تُسْتقى لى مِنَ النَّهْر [٧]

وقوله :

بِخُبْز وَبَـقْـلٍ ليْسَ لحْمَاً وإننى عَلَيْهِ كَثـير الحَمْـدِ للــهِ والشُّكْر [٨]

وقوله :

وَأجْسَادَهُمْ لا يَأكُلُ التُّرَبُ لحْمَهَا هُنَـالِكَ لا تَبْـلى إلى آخِـر الدَّهْر [٩]

على أني ألاحظ أن الغزال فى زهدياتـه قـد استعمل بعـض الألفـاظ الغريبـة فـى المعنـى ، والبعيدة عن المألوف مثل لفظ (المُضَرَّى) ويقصد به الخمر المعتـقة :

لِسْتَ تَـحْـتَـاجُ مَـــعَ المَـــا ..... ءِ إلى شُـربِ المُضَـرَّى [١٠]

١ـ المصدرين السابقين .

٢، ٣، ٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٠ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٦.

٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٧٨ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص: ٢٦٠ .

٦، ٧ ، ٨، ٩ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٥ .
ـ العقد الفريد ، ص : ٣٥٢ .

١٠ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١١٣.
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(ارفضَّ) ومعناه سال وتفرق وتتابع تقطره (الدمع) حيث يقول :

مَـثْـلَ مَا ارْفَـــضَّ لهُ دَمْـــ ـعِـيَ مِـنْ شَـأنِـكَ أيْضَـاً [1]

(الخشكار) وهى كلمه فارسيه مُعَّربه ويقصد بها الخبز الأسمر حيث يقول :

لا وَلا مِنْ خُبْزِكَ الخُشْـ ـكَار إذ نَـقْـنَـــعُ أهْـــنَـا [2]

(شرسوف) وهى أطراف أضلاع الصدر مما يلى البطن والجمع شراسيف حيـــث يقول :

إنَّ للإعْـــــدام فِينـــا تَحْتَ شُرْسُوفيْهِ مَأوَى [3]

(البرسام) وهى لفظة مُعرَّبة يقصد بها عله معروفه فى الغشاء المحيط بالرئه حيث يقول :

وَإذا كَـانَ لـهُ حَـــقٌ فَـبِـــرْسَامٌ وَحَمَّـــى [4]

ومما سبق فقد اتضح لي أن الغزال قد مضى فى معظم شعره فى اختيار الألفاظ الدقيقة والواضحة المعنى لا يشوبها إيهام ، فلم يبتعد عن الاستخدام العربى للفظ ، حتـى وإن كـان معربـاً فكما استخدمه العرب استخدمه الغزال ، مما يـدل علـى شدة تـأثر الغـزال بـالأدب الـشرقى مـع ملاحظة ، وفرة الثـــروة اللغوية للغزال ، ودقة استخدام الألفـاظ بحيـث جـاء اللفـظ فـى موضـعه تماماً ، بحيث لا يمكن الاستغناء عنه أو استبداله .

ب – التراكيب :

وهى الجمل والعبارات التى تكوّن الأبيات والقصائد ، وتنشأ العبـارة مـن مفـردات تـنظم بطريقة مخصوصة . وقد حظيت الجملة بعناية كبيرة من قِبَل البلاغيين والنقاد ، وتكلموا عن سائر أحوالها ، وبينوا أسباب نجاحها فى تحقيق البيان والتأثير .

ولأثر التراكيب البالغ فى إنجاح العمل الشعرى كان لزامـا أن تكـون فـى صـميم الدراسـة الفنيـة للـشعر ، إذ بهـا نـستطيع معرفـة مـدى سـهولة التركيـب ، والـنظم وخلـوه مـن التعقيـد والإغراب ، وبها نكشف عن مدى التزام الدقة فى صياغة الجملة ، حتى لا تحتمل أكثر من دلالة ، وأيضا توضح مدى مراعاة مقامات التقديم ، والتأخير ، والحذف ، والذكر وغير ذلك .

١، ٢، ٣، ٤ـ المصدرين السابقين .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولنقــرأ للغزال قوله [السريع]:

بَعْضَ تَصَابِيكَ إلى زَيْنَبِ لا خَيْرَ فى الصُّبْوَةِ للأشْيَبِ
أبْعَدَ سِتِّينَ تَمَلَّيْتَهَا كَامِلَةً تَصْبُو إلى الرَّبْرَبِ [1]

ألاحظ هنا دقة تركيب الجملة ، فأجده بدأ بلفظة (بعض) ولم يقل (كل) ؛ لأنه قد أصبح فى سن لا تسمح له بالصبابة والعشق ، وجاء كلمة (زينب) مجرورة بالكسرة لضرورة التصريع وحقها أن تجر بالفتحة ؛ لأنها ممنوعة من الصرف ، ولكن هذا يجوز فى الشعر ويعقب على صدر البيت بجملة اسمية منسوخة ، واستخدم (لا) النافية للجنس ، والتى تفيد النفى المطلق لخبرها عن جنس اسمها ، وفى البيت الثانى يستفهم مستنكراً أن تعاوده الصبابة والأشواق ، وقد أوفى على الستين .

وأمضى مع الغزال حين يقول مخاطباً الملكة (نود) زوج ملك النورمان عندما أشارت عليه بالخضاب بعدما أنكرت عليه شيبه ، فنراه يقول [الكامل]:

لا تُنْكري وَضَحَ المَشِيبِ فإنمَّا هُوَ زهْرَة الأفهَامِ والألبَابِ
فلدىَّ ما تَهْوينَ مِنْ شَأنِ الصِّبَا وَطُلاوَةِ الأخْلاقِ والآدَابِ [2]

ففى البيتين أجد أسلوب القصر (إنما) للتأكيد على أن المشيب هو دليل الفهم والعقل ، وقد عبر عن المشيب بكلمة (وضح) ؛ ليبين وضوحه وعدم خفائه ، واستخدم الأسلوب الخبرى الطلبى ليؤكد المعنى فى ذهن الملكة ، وجاء بكلمة (زهرة) ؛ ليبين جمال وجلال وروعة المشيب وأثره العظيم فى تعقل الإنسان ، ولأن الزهرة هى التى تنتج عنها الثمرة .

أما البيت الثانى فقدم الظرف للقصر والتخصيص (فلدى) ، ثم جاء بعده بما تريد الملكة منه ، وما تحب أن تراه عليه من الصبا والأخلاق والآداب ، وجاء الفعل (تهوين) ؛ ليبين مدى خبرة الغزال بنفسية النساء وما يرغبنه فى الرجال .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٣٣ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٥٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن بديع شعر الغزال فى الغزل [السريع]:

يَـا نُـودُ يَـا رُودَ الشَّبَابِ الـتّـى تُطْـلِـعُ مِـنْ أزْرَارِهَـا الكَوْكَـبَا
يَا بِـأبِـى الشَّـخْـصُ الذِى لا أرَى أحْـلَـى عَـلَـى قَـلْـبى وَلا أعْـذبَا
إنْ قُـلْـتُ يَـوْمَاً إنْ عَـيْـنِـى رَأتْ مُـشَـبِـهَهُ لَـمْ أعُـدْ أنْ أكْـذِبَـا [1]

فأول ما ألاحظه تكرار أداة النداء (يا) ، وهى للبعد والمقصود هنا بعد المكانة وعلوها ، وليـس بعد المكان ، ثم التصريح باسم الملكـة تعظيماً وتفخيماً لهـا ، وَلِقَـصْر الحسن والجمال عليها ، ثم الوصف الرقيق العذب لشبابها وفتنتها ونضارتها ، ولنتأمل براعته ودقته فى التلميح ، وليس فى التصريح حيث قال : (تطلع من أزرارها الكوكبا) فهو لم يصرح ، وإنما ترك القارىء يتأمل ما وراء الكلمات ، وجاءت كلمة (الكوكب) بدلالتها الغنية بكل معانى البهاء والجمال والبريق والعلو والوضوح .

وفى البيت الثانى استخدم أداة النداء (يا) ليس لغرض النداء وإنما للتنبيه ، وكأنه ينبه القارئ إلى شدة تأثره بجمال الملكة وإعجابه بها حتى ملكت عليه قلبه ونفسه ، واستخدم كلمة (الشخص) الذى ليس لا أحلى منه ولا أعذب ، وكأنه يجسد الجمال فى شخص الملكة ، ويأتى الشطر الثانى من البيت ، وقد استخدم اسم التفضيل (أحلى – أعذب) ليبين ما أحس به من جمال فهذه الملكة بهرته بجمالها ، وكرر حرف النفى (لا) للتاكيد على تفردها بهذا الجمال .

أما البيت الثالث فجاء فى أسلوب شرط ليؤكد أنه لو ادعى يوماً ما أنه قد رأى مثلها يكون كاذباً ، وفى هذا مبالغة شديدة تبين شدة جمال الملكة وتفردها بهذا الجمال ، وألاحظ الدقة فى استخدام كلمة (مشبهة) ،أى أنه ليس هناك مجرد شبه بينها وبين غيرها من النساء ، وألاحظ ملاحظة غريبة هى أنه قد خاطب الملكة بضمير المؤنث في البيت الأول ، وبضمير المذكر في البيتين الثانى والثالث ، وهذا أمر لا يخرج عن الاستعمال العربي لمعاني الغزل .

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأنتقل إلى لوحة شعرية أخرى نقتطف منها هذين البيتين للغزال حيث يقول [الطويل]:

وَلمـَّا رَأيْتُ الشَّرْبَ أكْـدَتْ سَمَـاؤهُمْ تَـأبَطْتُ زقِّـى وَاحْتسَبْتُ عَنَـائِى
فلمـَّا أتَيْـتُ الحَــانَ نَـادَيْتُ رَبَّـــهُ فَـهَبَّ خَـفيفَ الـرُّوح نَـحْوَ نِدَائِى [1]

حيث ألاحظ أن الشاعر قد استخدم هنا الجملة الشرطية ، فجاءت أداة الشرط (لَّـا) لتبين إصرار الشاعر على ذهابه إلى الحانة وشرب الخمر ، وجاءت كلمة (تأبطت) لتبين مدى حرصه على زق الخمر ، حيث وضعه تحت إبطه ولم يقل حملته ، وتأتى جملة (احتسبت عنائى) لتوضح مدى شوقه إلى الخمر ، وتحمله العناء فى سبيلها وهو لا يندم على ذلك . ويأتى البيت الثانى مبدؤاً بحرف العطف (الفاء) الذى يفيد الترتيب والتعقيب ؛ ليوضح لنا كيف أسرع فى طريقه إلى الحانة شوقاً ولهفةإلى الخمر ، وأروع من هذا أنه بعد أن وصل الحان نادى على صاحبه ، ولم يستخدم بين الفعل (أتيت) والفعل (ناديت) أى حرف عطف ، أو فاصل ؛ ليدل على أنه لم يكن يشغله شىء سوى الخمر ، ثم إن صاحب الحان لبى النداء خفيفاً ، وجاء لندائه فقال إنه (هب خفيف الروح) ، وكان الأَوْلى أن يقول خفيف الجسم والحركة ، وإنما قال الروح ، وكأن الغزال فى حالة نشوة خفّ فيها جسمه حتى أصبح كأنه روح ، وانعكس هذا على الخمّار الذى أصبح هو الآخر روحاً خفيفة .

وقد غلب على هذه الأبيات الجملة الفعلية وفعلها الماضى الذى يفيد وقوع الحدث فى الزمن الماضى وأيضاً يفيد التوكيد والتقرير .

ومن روائع تصوير الغزال للظلام وهو يجوب البحر فى رحلة كثرت مخاطرها يقول [الطويل]:

ولُبْسٍ كثَوْبِ القسِّ جُبْتُ سَـوَادَهُ على ظَهْرِ غِربيبِ القمِيص نَـآدِ
قدْ اسْتأخَرَتْ أرْدَافهُ ومَـضَتْ لـهُ غَــوَاربُ فى آذيِــهِ وَهَــــوَادٍ
لهُ ظلمَاتٍ بَعْضُهَا فـوْق بَعْضِهَـا دَآدِىُ مَــوْصُــولٌ بهِــــنَّ دَآدِى
يَبيتُ بهَا المَلاحَ مِنْ حَذَرِ الـرَّدَى مُـلازِمَ صَـاريـه لُـزومَ قُـــرَادِ [2]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٨ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٦ .
ـ التشبيهات ، ص: ١٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث يبدأ الغزال المقطوعة بـ (واو رُب) فهى حرف جر شبيه بالزائد ، ثم يشبه ظلام الليل بثوب القس الأسود ، وصور السفينة بأنها أيضا سوداء فى الظلام . أما فى البيت الثانى فقد صور امتداد الظلام بالبعير الذى تمطى ، وتأخرت أردافه ، وتطاول عنقه ، وأعلى ظهره ، وهو فى هذا تأثر بقول امرئ القيس فى وصفه لليل الذى تطاول عليه بظلامه وأحزانه يقول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونآء بكلكل [1]

والغزال يقول (استأخرت أردافه) وهى صورة مأخوذه من البيئة العربية ، وأظن أنها لا مثيل لها فى البيئة الأندلسية ، وقد استخدم أداة التوكيد (قد) للتوكيد والتقرير . ويأتى البيت الثالث وهو مقتبس من قول الله تعالى : { **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ** } [2] ، وفى هذا أجد الغزال متأثر تماماً بالتراث العربى القديم وبالقرآن الكريم ، ويتضح حُسن تمثله بما اقتبس ، وجاءت كلمة (موصول) بعد كلمة (دآدى) ؛ ليوضح مدى امتداد الظلام واستطالته ، وهذا يوافق الحقيقه فى أن الليل فى الشمال الأوروبى أطول من النهار ويشتد ظلامه . ويأتى البيت الرابع موضحاً شدة هلعه وفزعه من الهلاك فى أنه يلزم الصارى ، واستخدم اسم الفاعل (ملازم) ؛ ليدل على شدة التزامه وتمسكه بصارى السفينة كما يلتصق القراد بجسم الحيوان ، واستخدم المفعول المطلق للتوكيد ، واستخدم لفظة (القراد) ؛ ليدل على شدة اللصوق ، وقد قدم الشاعر (الجار والمجرور) فى البيت الثالث للتنبيه ، وجاءت الجملة الاعتراضية (من حذر الردى) للتنبيه على شدة الخوف والفزع الذى تملكه .

وفى قول الغزال [السريع]:

إلى جَمِيلِ الوَجْهِ فى هَيْئَةِ كَهَيْئَةِ الضِّرْغَامَةِ المُغْضِبِ
لا يُمْكِنُ للنَّاظِرُ تأمِيلَهُ إلا التِمَاحَ الخَائِفِ المُذْنِبِ
يَخْضَرُّ مَا يَلمِسُ مِنْ يَابِسٍ وَمَا يَطأ مِنْ مُجْدِبٍ يُعْشِبِ [3]

---

١ ـ ديوان امرؤ القيس ، تحقيق/ مصطفى عبد الشافى ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ص ١١٧.
٢ ـ سورة النور ، الآية (٤٠) .
3 ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فأول ما ألاحظه على الأبيات النقلات السريعة بينها دون رابط إلا أنها كلها فى مدح الأميـــر عبد الرحمن ، وألاحظ عدم استقامة المعنى فى البيت الأول ، إذ يصفه بجمال الوجه ، وهيئته تشبه هيئة الأسد الغاضب ولا صلة بين الصفتين ، فجمال الوجه يوحى بالهدوء والمودة ، وغضب الأسد يوحى بشدة الرعب والفزع . والبيت الثانى لا يمكن أيضا استساغته إذ كيف يكون الحاكم مثيراً للفزع والرعب للمحكومين ؛ لدرجة أنهم يخشون النظر إليه ، ويقفون أمامه فى خوف وفزع . ويأتى البيت الثالث عكس ماسبق فهو مصدر الخير ، والنعمة لأهله ، ولشعبه ولبلده ، فهو مبارك إن لمس يابساً أخضرّ ، وإن مشى على أرض مقفرة نبت العشب ، فالغزال هنا لم يوفّق فى هذا المديح ، فاضطربت معانيه وأفكاره ، فلم تستقم كما عهدنا فى شعره ، وإن كان استخدام المضارع فى البيت الثالث دقيقاً ؛ لأنه يفيد التجدد والاستمرار .

ومن بديع شعر الغزال فى المدح قوله فى مدح الأمير الحَكَم الرَّبضى [الطويل]:

فَوَ الله لا أدرى وإنى لشَاعِرٌ إلىَ أى وَجْهٍ مِنْ مَدِيحِك أقْصِدُ
كَأنَّ المُلوكَ الغُلَّبَ عِندَكَ خُضَّعاً خَوَاضِعُ طَيْرٍ تتَّقى الصَّقْر لُبَّدُ
تُقلِّبُ فِيهِمْ مُقْلَةً حَكَمِيَّةً فَتَخْفِضُ أقواما وقوْما تُسَوِّدُ [1]

حيث يبدأ بالقسم الصريح ، وتأتى جملة جواب القسم موضحة أنه لا يدرى من أى وجه يمدحه ، وفى هذا مبالغة دقيقة توحى بأن أوجه المدح فى الممدوح كثيرة متعددة لدرجة تحير معها الشاعر ، وتأتى الجملة الاعتراضية (وإنى لشاعر) ؛ لتوضح أنه رغم كونه شاعراً إلا أنه أمام فضائل ممدوحه قد تحيّر ، ويأتى البيت الثانى طريفا فى معناه جديداً فى بناء الجملة ، حيث يشبه الملوك الغُلَّب بالطير الضعيف الخاضع الذى يخشى الصقر لبد ويقصد به الأمير الحَكَم ، ونلحظ هنا تأثر الشاعر يحيى الغزال بقول النابغة الذبيانى فى مدح النعمان بن المنذر :

كَأنك شَمْس والمُلوك كَواكِبٌ إذا ظهرت لم يبد مِنهُم كَوكب [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٥١ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .
٢ ـ ديوان النابغة الذبيانى ، تحيق/ محمد أبو الفضل ، دار المعارف ، ط ٣ (١٩٨٤ م) ، ص ٧٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالغزال قد تأثر بالمقارنة والتفوق واختلف فى الوصف ، فالنابغة قد وصف النعمان بأنه شمس ووصف الملوك بأنهم كالكواكب ، أما الغزال فقد وصف الأمير الحكم بأنه كالصقر فى قوته ، والملوك ـ رغم قوتهم ـ بالطيور الضعيفة دلالة على تفرده بالقوة وشدة البطش . وفى البيت الثالث أجد استخدامه لكلمة (تقلب) أى تقلب نظرك فيهم ، وجاء بكلمة (مقلة) لتتناسب مع الفعل ، وتتناسب مع الوصف السابق ؛ لأن الصقر يتميز بحدة النظر وقوته ، وجاء الوصف (حَكَميَّة) نسبة إلى الأمير الحَكم (الممدوح) دلالة على التميز والتفرد أيضاً ، ويأتى ختام البيت ليوضح قوة الأثر لهذه النظرة الحكمية ، فتخفض هذه النظرة أقواماً وأقواماً تسود .

وأنتقل إلى أبيات أخرى للغزال أقرأ منها [الطويل]:

فلم يُعْطِنى مِنْ مَالِهِ غيْرَ دِرهَمٍ تُكَلِّفَهُ بَعْدَ انْقِطَاع رَجَائِى
كَمَا اقْتَلَعَ الحَجَّامُ ضِرْسَاً صَحِيحَةً إذا اسْتُخْرِجَتْ مِنْ شِدَّةٍ بِبُكَاءِ [1]

فالغزال فى هذين البيتين قد أتقن تركيب الجملة ، فجاء حرف الجر (من) للتبعيض ، وجاء الفعل (تكلفه) ليوضح شدة صراع المعطِى مع نفسه ، حين أراد أن يعطى الغزال درهماً حتى أنه كالحجام الذى يقتلع ضرساً صحيحة ، والفعل (يقتلع) زادت حروفه ليدل أيضاً على شدة المعاناة والألم والجهد ، وأنه أخذ وقتاً لكى تمتد يده بالدرهم ، ووصف الضرس بأنها صحيحة لأنها تكون أشد ثباتاً فى الفك ، ومستعصية على الخلْع ، وجاء عجز البيت موضحاً لهذا المعنى (شدة ـ بكاء) .

ومن بديع قول الغزال [الخفيف] :

لَيْسَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ قَدْ جَمَّـ ـعَ إلا ثَلاثَـــةٌ أثْوَابُ
وَ تَلاشَـــى جَمِيعُ ذاكَ فلمَّا يَبْقَ إلا ثَوَابُهُ أوْ عِقَابُ [2]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١٩ .
ـ التشبيهات ، ص : ٢٥٢ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٣٥ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فألاحظ هنا استخدام أسلوب القصر (النفي والاستثناء) للتوكيد على أنه يقرر حقائق لا سبيل إلى إنكارها ، وجاء الفعل (جمَّع) ليدل على شدة معاناة من يجمع المال ، فلم يقل (جَمَعَ) ، وإنما استخدم صيغة (فعّل) دليل شدة العناء والتعب ، ويقصد بالثلاثة أثواب (الكفن) ، واستخدم الفعل (تلاشى) للدلالة على فناء الإنسان ، وفناء الكفن شيئا فشيئاً حتى ينتهي إلى التراب ، وفى عجز البيت الثاني يأتي بالتضاد (الثواب – العقاب) ومؤكداً بأسلوب القصر ليؤكد ويقرر مصير كل إنسان إلى واحد من اثنين ، إما أن يُثاب ، وإما أن يعاقب .

ولنتأمل هذين البيتين فى وصف أم جرج تلك العجوز المتصابية [البسيط]:

قَـنْـوَاءُ مَقْرُونَـةٌ مِنْهَا حَوَاجِبُهَـا وَالعَيْنُ غائِرة تحْت البُثورَاتِ

يَحْلِفُ مَنْ عَايَنَ الغِيلانَ مُجْتهداً بأنها غَيْرَ شَكٍّ بِنْتُ سَعْلاةِ [1]

فألحظ هنا دقة الغزال فى الوصف فيصف الأنف والعين ، ثم يصفها ككل فيما يسمى بالإجمال بعد التفصيل ، فوصف أنفها بالأقنى ، فهى قنواء ذات أنف ارتفع أعلاه مع حدب فى وسطه ، وضيق فى فتحتيه ، ثم وصف حاجبيها بأنها مثل القرون فى قبحهما ، أما العين فهى غائرة تحت البثورات ، واستخدم اسم الفاعل (غائرة) وهو يدل على صفة التجدد .

وفى البيت الثانى يبدؤه بقسم صريح ، واستخدم الفعل (عاين) ليدل على المشاهدة والرؤية الصحيحة الحقيقية ، وجاءت كلمة (مجتهداً) لتأكيد القسم وتغليظه ، وأكد جملة الجواب (بأن) وقد غير شك للتأكيد على صحة الرؤية ووضوحها ، وجاءت كلمة (غير) منصوبة على نزع الخافض ، وجاء الوصف الإجمالى لهذه العجوز بأنها بنت الغول دلالة على خبثها وقبحها .

ومن شعر الغزال الذى يصور فيه حال أهل نصر بعد وفاته قوله [الوافر] :

وَلَـرُبَّ رَافِلَةٍ عَشِيَّتَهَا فى الوَشْى أضْحَتْ وَهِىَ فى المَسْحِ

تَبْكِى عَلى مَنْ كَانَ يُكَرِمُهَا نَحَّاءَ بَيْنَ نَوَادِبٍ نُحِّ [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤١ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥١ .

٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٤٩ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ألحظ هنا كما عهدنا فى شعر الغزال دقته فى تركيب الجمل والتزامه قواعد العربية لا يحيد عنها ، فيبدأ بحرف الجر الشبيه بالزائد ، مسبوقاً بـ (لام) الابتداء ويعبر فى دقة من خلال التضاد بين الحالة وضدها ، فيقول : (إن أهله كانوا يرفلون فى وشى من الثياب المزينة ، وصاروا من بعده فى بؤس يلبسون كساء من الشَّعْر) ، ففى الحالة الأولى استخدم لفظتين (رافلة ـ الوشى) دلالة على رغد العيش والغنى ، وفى الثانية استخدم لفظ (المسح) للدلالة على شظف العيش ، وشدة الحاجة ، وجاء استخدامه لكلمة (عشيتها) ، وبعدها كلمة (أضحت) للدلالة على سرعة تبدّل أحوالهم بعد موت نصر فما بين (عشية وضحاها) تغير الحال .

وفى البيت الثانى يوضح كثرة بكائهم واستمرارهم فى الحزن باستخدام المضارع (تبكى) ، واستخدم صيغة المبالغة (نحَّاء) ؛ ليدل على شدة حزنهم ودوام نواحهم .

وننتقل بعد ذلك إلى قول الغزال [مجزوء الرمل]:

وَمُـرَاعٍ أخَـذَ النَّـاسِ بِسَمْتٍ وَقُطُوبِ
وَخُشُوعٍ يُشْبِهُ السُّقمَ وَضَعْفٍ فى الدَّبِيبِ
قلت : هَلْ تَألَمُ شَيْئاً؟ قال : أثْقَالَ الذنُوبِ [1]

وأول ما ألاحظه استخدام (واو رُب) فى بداية الأبيات ، وهى تفيد التكثير ، وصرح بمن يخبر عنه ، وهو المرائي المنافق للتحذير ، ثم عدد صفاته فى ترتيب دقيق ، فبداية وصفه من بعيد بأنه مُقطّب ما بين الحاجبين ، وعليه سمت الهدوء ، ثم يقترب ليصف خشوعه وخضوعه ولينه فى الكلام ، وكأنه مريض ضعيف ، ثم يبدو كالمتألم ، فيسأله الغزال هل تتألم من شيء ؟ فيجيبه: أتألم من ثقل ذنوبي ! ، ولنتأمل ثانية قول الغزال (أخذ الناس) وتوحي بقوة تأثير خداعه على الناس وسيطرته على فكرهم ، ثم وصف الخشوع بالمرض أدق ما يكون تأثيراً فى نفس من يقترب منهم ، أما (أثقال الذنوب) فألاحظ فيها التصوير المادى للذنوب ، وكأنها أثقال ينوء بحملها إمعاناً فى الخداع والمراءاة ، وقد استخدم الفعل الماضى فى البداية (أخذ) للتقرير والتوكيد .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٣١.
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٠٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن بديع قول الغزال فى وصف المخادعين الماكرين [الخفيف]:

لا وَمَنْ أعْمَلَ المَطَايَا إليْهِ كُلَّ مَنْ يَرتَجِى إليْهِ نَصِيبَاً
مَا أرَى هَا هُنَا مِنَ النَّاسِ إلا ثُعْلبَاً يَطلبُ الدَّجَاجَ وَذِيبَا [1]

فيطالعنا بالقَسَم الشديد لذات الله عز وجل (لا) هنا للقسم (ومن أعمل المطايا إليه) وهو الله عز وجل الذى جعل الناس يسرعون بالمطايا إلى بيته الكريم للحج ، وكل يرجو نصيبا من الغفران ، وجاء الفعل يرتجى مضارعا للتجدد والاستمرار ، وجاءت كلمة نصيباً نكرة للعموم والشمول ، وتبدو الدقة (فى أعمل المطايا إليه) ، وكان أمر الحجيج بيد الله ، فهم مسوقون لبيته الكريم ، فالشاعر قد أسند الفعل إلى الله رغم أن الظاهر أن الناس هى التى تسرع بالمطايا إلى بيت الله ويتضح ، مدى تأثر الغزال بالقرآن الكريم تركيباً ومعنى ، فتركيب القسم مقتبس من القرآن : (فَلاَ وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم) [2] ، وأما المعنى فمأخوذ من قوله تعالى : (وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) [3] .

أما البيت الثانى فأجد غرام الغزال بأسلوب القصر الذى استخدمه كثيراً وهو للتوكيد ، حيث يؤكد أن معظم الناس مخادعون مثل الثعالب التى تحتال فى طلب الدجاج ، وكلمة (ثعلبا) جاءت نكره للتحقير ، والفعل (يطلب) جاء مضارعاً ليوضح استمرارية الخداع والاحتيال .

ومن رائع شعره الاجتماعى تلك الأبيات التى يقول فيها [الكامل]:

قالتْ : أحِبُّكَ ، قلتُ : كَاذِبَةٌ غُرِّى بِذا مَنْ لَيْسَ يَنتَقِدُ
هَذا كَلامٌ لسْتُ أقْبَلُهُ الشيخ لَيْسَ يُحِبُّهُ أحَدُ
سِيّانَ قَوْلُكِ ذا وَقَوْلُكِ إنَّ الرِّيحَ نَعْقِدُهَا فَتَنْعَقِدُ [4]

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٦١ .
٢ ـ سورة النساء ، الآية (٦٥) .
٣ ـ سورة الحج ، الآية (٢٧ : ٢٨) .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٥٥ .
ـ المقتبس ، السفر الثاني ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فألاحظ على الأبيات أنها جاءت حوارية حيث يدور الحوار بين الغزال وفتاة صغيرة السن ، وبلا مقدمات قالت له : أحبك ، وبدون أن يتردد اتهمها بالكذب ، وألحظ عدم استخدام حروف العطف ليؤكد الغزال أن هذا الأمر مرفوض تماماً ولا يحتاج إلى تفكير .

ثم يعلل لما قاله فى البيت الثانى فى جملة اسمية للثبات والتقرير (الشيخ ليس يحبه أحد) ، وجاءت كلمة (أخذ) نكرة للعموم والشمول .

أما فى البيت الثالث فأجد توضيح استحالة هذا الأمر بقوله (إن قول الفتاة للشيخ الكبير بأنها تحبه) مثل قولها (إن الريح نعقدها فتنعقد) وهذا ضرب من المستحيلات ، ولجأ إليه الشاعر ليقطع الطريق تماماً على الفتاة حيث لا تعلق أو تتعلل بأى حجة ، أو أن تلجأ لأى أساليب أخرى ، ويلاحظ أيضا دقة الشاعر فيما اختار من تراكيب وجمل ليرد على الفتاة مثل (كاذبة) ، وهى خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنتِ وحذفه للاهتمام بغيره والتنبيه عليه ، والجملة الأخرى جاءت فى نفس السياق (هذا كلام لست أقبله) ونُكر الكلام لتحقيره وذمه ، وجاء النفى ليؤكد ما سبق وأردفه بجملة الشيخ (ليس يحبه أحد) وهى تعليل رائع لقوله .

ولنتأمل مع الغزال قوله [الوافر]:

يُسَائِلُنِى المُنْيِقلُ عَنْ أبِيهِ وَكَانَ الصَّمْتُ أدْنَى للصَّوَابِ
فقلتُ لهُ ولمْ أظلِمْهُ شَيْئاً أبُوكَ مَعَلَّمُ حَسَنُ الحِسَابِ [1]

فألاحظ هنا استخدام المضارع الدال على التجدد والاستمرار ، والفعل (يسائلنى) يوحى بتكرار السؤال والإلحاح عليه ، وتأتى الجملة الاعتراضية لتنبيه (ولم أظلمه شيئا) ، والردّ جاء بصيغة الجملة الاسمية الدالة على الثبات ، واستخدم الصفة المشبهة (حسن) ، وهى تفيد ـ أيضاً ـ اللصوق والثبات يلاحظ ما وراء الجملة من تعريض طريف بأبيه فهمه المنيقل ، فقال (خلطت لنا مديحك بالسباب) ، فالغزال هنا ملتزم بقواعد اللغة لا يعدوها .

وبداية يتميز شعر الغزال بوضوح التراكيب ، وسهولة التعبير ، حيث لا يجد المتلقى صعوبة فى إدراك مقصد الشاعر من العبارة ، ولنقرأ للغزال قوله [مجزوء الرمل]:

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٠ .
ـ المقتبس ، السفر الثاني ، ط الرياض ، ص : ٣٣٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيُّهَا الشَّاكِى إلى مَنْ ليْسَ فى كَفَّيْهِ جَدْوَى
إنَّ شَكْوَاكَ إلَيْهِ ليْسَ تُغْنِى عَنك شَيَّا
فاسْأل اللهَ فَلا أقْ ـربُ مِنهُ حِينَ يُدْعَى [1]

فأجده هنا نادى الشاكى على وجه العموم ، والمشكو إليه جاء بصيغة ضمير الغائب دلالة على عدم حضوره وعدم الاهتمام به ، مما يقرب المعنى فى أن من نشكو إليه لن ينفعنا .

ويأتى البيت الثالث موضحاً المقصد والهدف (فاسأل الله) ؛ ليؤكد على أن الشكوى لا تكون إلا لله ، ويستعين على أداء المعنى بأسلوب التفضيل (لا أقرب منه حين يدعى) .

ولنتامل ـ أيضا ـ قول الغزال :

لَمْ أجِدِ حِينَ تَفكَّرْتُ وَرَاءَ اللهِ مَرْمَى
لا وَلا عَنهُ إلى شَىءٍ مِنَ الأشْيَاءِ مَعْدَى [2]

فأجد أن الغزال استخدم أداة النفى (لم) وهى تفيد النفى للماضى أى أنه وصل إلى هذه النتيجة ، ووضح هذا المعنى بالظرف (حين) والفعل الماضى (تفكرت) .

ويأتى البيت الثانى فيطالعنا التوكيد اللفظى فى صدر البيت بتكرار حرف النفى (لا) تعظيماً لذات الله ، وتحقيراً لما سواه ، حيث عبر عما سوى الله بـ (شىء من الأشياء) .

ومن روائع تراكيبه وجمله قوله :

كُلُّ مَا يُعنَى بهِ النَّاسُ مِنَ البُنْيَانِ يَبْلَى
رُبَّ قَصْرٍ رَأيْنَاهُ عَزِيزَ الأهْلِ يُغْشَى
ثُمَّ أبْصَرْنَاهُ مِنْ بَعْدُ خَرَاباً لَيْسَ يَحْيَا [3]

فأجد الغزال قد استخدم الجملة الاسمية التى تفيد الثبوت والتقرير ؛ لأن المقام يقتضى تقرير حقيقة ، وهى أن كل ما على الأرض يفنى ، ثم جاء البيتان التاليان تفصيلاً وتفسيراً لهذه الحقيقة ، فيضرب مثلا بالقصر الذى يغشاه الأعزاء ، وذوى المكانة ، وبعد فترة يتحول إلى خراب ليس فيه مظهر للحياة ، وألاحظ هنا دقة استخدام الشاعر لحرف النسق (ثم) والتى تفيد الترتيب والتراخى .

١، ٢، ٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١١١ ـ ١١٦ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن بديع قول الغزال فى الزهد فى هذه الأبيات التى يقول فيها [الوافر]:

إذا أخْبَرتَ عَنْ رَجُلٍ بَـرىءٍ مِـنَ الآفـاتِ ظاهِـرُهُ صَحِيـحُ
فسَلْهُمْ عَنْـهُ هَلْ هُـوَ آدَمِىٌ ؟ فإنْ قالوا : نَعَمْ ، فالقولُ ريـحُ
وَلـكِنْ بَعْضَنَـا أهْـلُ اسْتِتَـار وَعِنْدَ اللـهِ أجْمَعْنَـا جَرِيـحُ [1]

فألحظ الدقة فى البيتين الأول والثانى باستخدام أسلوب الشرط ، حيث يرتبط الجواب بفعل الشرط ، وأيضاً استخدام أداة الشرط (إذا) وهى ظرفية ، وقد استخدم الفعل الماضى المبنى للمجهول بعده (أخبرت) ؛ ليبين عدم الاهتمام بالفاعل ، وإنما يكون الاهتمام بالخبر نفسه ، وقد عبر عن الصلاح بقوله : (برىء من الآفات) ؛ ليوضح أن أى نقص فى أخلاق الرجال هو آفة ومرض ، وهذا من أدق التعبيرات التى صادفناها فى شعر الغزال ، الذى جاء للاستنكار (فسلهم عنه هل هو آدمي ؟) ، ويستكمل بأسلوب شرطى مستخدماً أداة الشرط (إن) التي تفيد الشك ، ويأتى الجواب موضحاً أن هذا الشخص غير موجود ، ومَنْ يقل غير ذلك فقوله كالريح لا استقرار ولا ثبات لها ، فالقول ريح ، وهذا جواب جملة اسمية ؛ لتفيد الثبات والتوكيد ، ولكنه يستدرج فى البيت الثالث بأن هناك بعض الناس من الناس الذين يمكنهم أن يتستروا على نقائصهم وعيوبهم ، وألحظ الدقة فى استخدام كلمة (بعض) ؛ ليدل على أن هذا الأمر يختص به بعض الناس دون الآخر ، وأما الله فكلنا مكشوفون عنده فهو الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور (وعند الله أجمعنا جريح) ، وقد أكد هذا المعنى من خلال الطباق بين (بعضنا ـ أجمعنا) .

ومن روائع تراكيبه فى قصيدة النفس قوله [الطويل]:

تـعَالى الذِى لا يَـعْلمُ الغَيْبُ غيْـرُهُ وَلا عِنـدَ مَخْـلوقٍ بذاكَ يَـقِينُ [2]

حيث أجد فى البيت اسم الموصول (الذى) يشير إلى الله عز وجل ، ويبدأ بتمْجيد الله (تعالى) وجاءت جملة الصلة مفسرة لاسم الموصول (لا يعلم الغيب غيره) ومؤكدة من خلال أسلوب القصر على تفرد الله عز وجل بعلم الغيب ، وجاء الشطر الثانى مؤكداً لنفس المعنى ، وقد أجاب الشاعر فى استخدامه لكلمة (مخلوق) ، ولم يقل أحداً دليل أن الكل مخلوق وحادث ، ويستحيل على المخلوق أن يعلم شيئا عن الغيب ، ثم استخدم اسم الإشارة (ذاك)،وهو للبعيد للتأكيد على بُعد علم الغيب عن أى مخلوق .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٤٩ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى بيت آخر من نفس القصيده يقول الغزال :

فَـرُوحِى لا يَنْفكُ فى وَصْلِ رَبِّـهِ وَإنْ حَالَ حِصْنٌ دُونَ ذاكَ حَصِينُ

فقد أضاف لفظة الروح إلى ياء المتكلم ؛ ليخبرنا عن نفسه ومدى تعلقه بالله عز وجل ، واستخدم الفعل الناسخ (لا ينفك) للاستمرار والدوام حتى وإن كانت روحه سجينة فى بدنه فهى دائما فى شوق إلى خالقها ، واستخـــدم الفعل (حال) وعبر عن الجسد بكلمة (حصن) أى وحتى وإن وقف الجسد حائلاً بين روحه وشوقها إلى الله دلالة على عمق صلته بربه .

وأختم حديثى عن تراكيب الغزال وجمله بهذين البيتين من إحدى قصائده فى الزهد حيث يقول [الطويل]:

لِـعَمْـرىَ مَـا مَـلَـكْتُ مِقْوَدِى الصِّبَا فأمْطوَ لِلذاتِ فى السَّهْلِ وَالوَعْر

وَلا أنا مـمَّنْ يُؤثِـــر اللهْـوَ قَـــلبُـهُ فأمْسِى فى سُكْرٍ وَأصْبحُ فى سُكْر [1]

وقد استخدم أسلوب القسم (لعمرى) ثـم يتبعـه بجـواب القسم (ملكت مقودى الصبا) ويلاحظ دقته فى لفظ (مقودى) وهو الحبل ، أو اللجام الذى تقاد به الدواب وتساق أى لم يُسْلم زمام نفسه إلى الصبا ، وجاءت كلمة (ملكت) لتتناسب مع كلمة (مقودى) ، (فأمطو) والمقصود بها فأسرع أو أمشى ، ونلحظ دقة تركيب العبارة ، فالمقود يتماشى مع المطية ، وجاء الطباق (السهل والوعر) للعموم والشمول ، وفى البيت الثانى يؤكد على النفى السابق بأنه بعيد عن شهوات النفس والغى واللهــو ، وجاءت كلمة (يؤثر) دقيقة فى موضعها حيث تلتها كلمة (قلبه) فالإيثار هو حالة نفسية ، وقلبية ، ولذلك كان تركيب الغزال للجملة دقيقاً .

وبعد ... فلعلى ـ بعد أن تناولت تراكيب شعر الغزال وجمله وعباراته ـ يمكن لى أن أؤكد أنها قد جاءت سلسة واضحة وبعيدة عن التعقيد ومعبرة بدقه عما أراده الغزال فى شتى أغراض الشعر عنده ، فالغزال لم يبتعد عن التراكيب العربية الصحيحة الفصيحة إلا فى النذر اليسير فهو قد تأثر بأساليب القدماء وبالأسلوب القرآنى ، والتزم بلاغة التقديم والتأخير ، مما يؤكد على حسن تمكنه من الشعر العربى ، وسعة ثقافته ، وتنوع معجمه اللغوي بجانب طرافته فى بعض الأحيان .

١ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٤ .
ـ العقد الفريد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جـ . الأسلوب :

يعرف الأستاذ أحمد حسن الزيات الأسلوب : : إنه طريقة الكاتب ، أو الشاعر الخاصة باختيار الألفاظ وتأليف الكلام " [1] .

بينما الأستاذ أحمد الشايب يعرفه بأنه :" طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير " [2] .

ويعرّف أحد النقاد الغربيين وهو إريك يورباخ الأسلوب : " بأنه الطريقة الخاصة التى ينظر بها شاعر ما للواقع ويفسره " [3] .

على ذلك فالأسلوب هو النمط أو الطريقة التى يلتزمها الأديب في التعبير عن إبداعه أو مكنونه أو معاناته ، ولكل شاعر أسلوبه الخاص به ، وإن كان هذا لا ينفى التأثر بمن سبقه ، وعلى الرغم من ذلك يبقى الأسلوب دليلاً على تفرّد الشاعر وتميزّه ، والأسلوب يختلف باختلاف الموضوعات ، والأغراض والشعراء أنفسهم ، وكما يقول علماء البلاغة : لكل مقامٍ مقال ، فالشاعر من خلال أسلوبه يكشف عما فى نفسه من مشاعر وعواطف ، وعما فى عقله من أفكار ومعان ؛ لينقلها إلى القارىء ، كل ذلك من خلال الأسلوب ، ولقد قسَّم علماء البلاغة الأسلوب إلى : خبرى وإنشائى ، وقسموا كل قسم منها إلى أنواع عديدة ، فهناك الخبر الابتدائى : وهو ما خلا من أدوات التوكيد ، وهناك الخبر الطلبى : وهو ما أكد بمؤكد واحد ، أما إذا استخدم الشاعر أكثر من وسيلة توكيد فهو خبر إنكارى ، وإنما ينوع الشاعر بين هذه الأساليب الخبرية على حسب ما يريد قوله وأيضا باعتبار المتلقى [4] .

أما الأسلوب الإنشائى فأنواعه عديدة منها : " الاستفهام والنداء والتمنى والأمر والنهى والتعجب ، وكلها تخرج عن معناها الحقيقى إلى المعنى المجازى ؛ لتكشف عن معان ، وخواطر تعتمل ، وتضطرب فى عقل ، ووجدان الشاعر " [5] .

---

[1] ـ دفاع عن البلاغة ، أحمد حسن الزيات ، ط الرسالة ، سنة ١٩٤٥ ، ص : ٦٥ .
[2] ـ الأسلوب دراسة نقدية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية ، أ.د/ أحمد الشايب ، ط الفاروقية ، ١٩٣٩، ص٣٧ .
[3] ـ علم الأسلوب ، تحقيق/ صلاح فضل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ (١٩٨٥م) ص : ٧٨ .
[4] ـ انظر : ـ في محيط النقد الأدبي ، د/ إبراهيم علي أبو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٨٥) ، ص٧٢ .
ـ مستتبعات التركيب ، د/ عبد الغني بركة ، ط دار الطباعة المحمدية ، ص : ٧٥ .
[5] ـ مستتبعات التركيب بين البلاغة القديمة والحديثة والنقد الحديث ، ص : ٨٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبالنظر إلى شعر الغزال أجده قد زاوج بين الخبر والانشاء ونوع فى استخدامه لكلا الأسلوبين ، وإن كنت ألحظ غلبة الأسلوب الخبرى على شعره وذلك راجع إلى أن الغزال كان شعره تعبيراً عن مواقف وتجارب وخبرات فى الحياة استوجبتها حياته وأسفاره وعمله ، فهو فى كل شعره يقص علينا مالاقاه فى حياته ، ويكشف لنا عن خبراته فى صورة حِكَم حتى لقد لُقب بشاعر الحكمة ، ولا يخفى على أى دارس للشعر أن يَعرف الأسلوب المناسب للحكمة ، وهو الأسلوب الخبرى التقريرى لأنه يقرر حقائق حتى فى زهدياته وشعره الاجتماعى تتبدى لنا الحكمة واضحة جلية ، مما جعلني أقرر ـ كما أسلفنا ـ غلبة الأسلوب الخبرى على شعر الغزال .

ولنتأمل تلك الأبيات التى يقول فيها الغزال من الخفيف :

قَـالَ قَـوْمٌ : إنَّ الغَزَالَ نَـبِـيــهُ وَأشَارُوا ـ وَمَا اسْـتَـشِيروا ـ إلَيْهِ
لمْ يَكـنْ ذا لِـذاكَ بَـلْ وَجَـدُونى أيْسَـرَ العَالمِيـنَ فَـقْـدَاً عَلَيْـهِ
ابْنَ سَبْعِينَ قدْ نَضَتْ حِقَبُ الأيَّـ ـام ثَـوْبَ الشَّبَابِ عَنْ مِنكَبَيْـهِ [1]

فألحظ فى الأبيات السابقة استخدام الغزال للأسلوب الخبرى التقريرى ؛ لأن الغزال يتحدث عن نفسه ويقرر أن الوشاة من رجال السلطان أشاروا على السلطان بالسفارة ، وزينوا له قيام الغزال بها ، وعللوا طلبهم بأن الغزال نبيه ، وهوخبر طلبى ، مؤكد بأنه للتقرير والتوكيد ، وفى البيت الثانى يقرِّر الغزال أنه لم يكن ليصلح لهذه السفارة (لم يكن ذا لذاك) ، وهو خبر ابتدائى لا يحتاج إلى توكيد بعكس الأول الذى احتاج فيه الوشاة إلى أن يؤكدوا للسلطان نباهة الغزال وذكائه ، وفى البيت الثالث يعلل الغزال عدم أهليته للسفارة حيث كبر فى السن ، فيقول عن نفسه (ابن سبعين) خبر ابتدائى للتقرير ، (قد نضت حقب الأيام ثوب الشباب عن منكبيه) الأسلوب هنا طلبى احتاج فيه الشاعر إلى المؤكد (قد) والماضى بعدها ؛ ليؤكد أن الزمن قد نزع ثوب الشباب عن منكبيه ؛ ليؤكد أنه لا يستطيع القيام بأى سفارة .

ومن أساليبه الخبرية تلك الأبيات من قصيدته التى مدح بها الأمير عبد الرحمن ، حيث يقول من البسيط :

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٤١ .
ـ العقد الفريد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنَّ القَصَائِدَ لـمْ يُجْزِئكَ مُجْرِيهَـا إلا وَقَـدْ عُقِـدَتْ مِنهَـا نوَاصِـيهَا
وَسرَّحُوهُـنَّ مَمْـدُوداً أعِنَّتُـهَا تـُبَـارز الرِّيحَ كُلَّ القَـوْمِ يَرْجُوهَا
بَكْرِيَّـةُ النَّجْرِ لا مِمَّا يُلفِّقُهُ الـ ـمُلفِّقُـونَ طَرِيفَـاتٍ مَعَـانِيهَـا
فِـيهَا نَتَـائِجُ لمْ آخُذْ بِـرَائِعِهَـا مِنْ شِعْـرِ آخَرَ قَبْـلِي قدْ كَفَانِيهَا
لمْ أجْرِ فِيهَا مِنَ الأعْرَابِ وَصْفهُمُ تِلكَ المَهَامِـهَ مُغْبِـرَاً فَـيَا فِيهَـا [1]

فالشاعر ـ فى هذه المقدمة ـ يؤكد بداية أن الشعر يعجز عن مكافأة الأمير ، ويؤكد قوله بـ (إن) ثم يصف قصائده فى مدح الأمير فى أسلوب خبرى ابتدائى بأنها كالإبل الطويلة الأعناق السريعة ، ويواصل وصفه حيث يصف الإبل ، وهو يقصد القصائد بأنها أصيلة وينسبها إلى بكر بن وائل (بكرية النجر) وليست ملفقة ، وإنما هى صادقة غير مصنوعة ، أو متكلفة بدليل طرافة معانيها التى لم يأخذها من غيره (لا مما يلفقه الملفقون طريفات معانيها) ، ثم يوضح أنه قد خالف شعراء العرب فى عدم وصفه للأطلال ، أو الصحارى الغبراء (تأثر بما فعل أبو نواس بالمشرق) حيث يقرر فى أسلوب خبرى ابتدائى بأنه (لم أجر فيها من الأعراب وصفهم تلك المهامه مغبراً فيا فيها) .

ومن أساليبه الخبرية التى جاءت للتحسر والتعجب من تغير نفوس الناس ، وشيوع الحقد والحسد بينهم هذان البيتان ، حيث يقول من مجزوء الوافر :

لـقَـدْ فَـسَـدتْ فَـمَا تَـلْقَى بِـهَا مَنْ لَـيْسَ ذا شَـجَـنِ
وَصَـارَ الحَـىَّ مِنَّـا يَغْبِـطُ المَلْـفُـوفَ فى الكَـفَـنِ [2]

فقد جاء الأسلوب خبراً إنكارياً ، فقد استخدم الشاعر (اللام) و (قـد) للتوكيد على فساد أخلاق الناس ، وامتلاء نفوسهم بالحسد .

وفى موضع آخر أرى الغزال يؤكِّد فى أسلوب خبرى طلبى ناصحاً غيره من كبار السن بعدم الانخداع بحب الفتيات الصغيرات ؛ لأن وراء ذلك هلاكاً وخراباً ، فيقول من الكامل :

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٧.
ـ بهجة المجالس ، ص : ٣٦٩ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٦ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٨٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنَّ الفـتَـاةَ وَإنْ بَدَا لَكَ حُبُّـهَا فَبِـقَـلْبِهَا دَاءٌ عَلَيْـكَ دَفِـينُ
وَإذا ادَّعَيْنَ هَوَى الكَبير فإنمَّا هُـوَ للكَبـير خَديعَـةٌ وَقُـرُونُ
وَإذا رَأَيْتَ الشَّيْخَ يَهْوَى كَاعِباً فَعَلَيْهِ مِـنْ دَرَكِ القُرُونِ دُيُونُ [1]

فيبدأ بالتوكيد ويليه فى البيتين التاليين بالشرط ، وهو أسلوب خبرى فى ظاهره ولفظه ، وإنشائى فى معناه ، وغرضه النصح والتوجيه للشيوخ وكبار السن .

ومن بليغ شعر الغزال فى الحكمة قوله من المتقارب :

إذا كنت ذا ثروة من غنى فأنْـت المُسَوِّدُ فى العَـالَمِ
وحسبك من نسب صورة تخَبِّـر أنَّـك مِـن آدم [2]

فقد جاء الأسلوب خبرياً ابتدائياً لتقرير هذه الحكمة التى تنم عن واقع عاشه الغزال ، وخبرة اكتسبها من مواقف حياته ، حيث يقرر أن صاحب الثروة والغنى هو السيد ، ويكفيه حسباً ونسباً غناه وشكله الآدمى ، حيث إن الناس تعميهم الأموال والغنى عن أى شىء آخر .

ويقول فى قصيدة أخرى يخاطب فيها إبراهيم ابن أخته مستنكراً حبه للشطرنج ، وناصحاً إياه بتجنب هذه اللعبة ، حيث يقول من مجزوء الرمل :

غَـمَّنِى عِشْقُـكَ لِلشَّـطْـ ـرَنْجِ عِـشْقَـاً يَابْـرَهِيمُ
عَـمَلٌ فى غَـيْـرِ بِـرٍّ وَاخْـتِـلافٍ وَلُـزومُ
إنَّـمَـا أسَّـسَـهَا وَيْـ ـحَـكَ شَيْـطانُ رَجِـيـمُ [3]

ففى البيت الأول استخدم الأسلوب الخبرى الطلبى من خلال الجملة الفعلية وفعلها الماضى وهو للتقرير ؛ لبيان استنكاره ورفضه لحب لابن أخته للشطرنج ، أما فى البيت الثانى فيعلل لاستنكاره ورفضه بأسلوب خبرى ابتدائى جاء على صيغة الجملة الاسمية التى تفيد الثبات والتقرير (عمل فى غير بر) ، ويأتى البيت الثالث خبرى وطلبى مؤكد بأسلوب القصر (إنما) بأن هذه اللعبة أسسّها الشيطان للهو الناس ، وإيقاع العداوة بينهم .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٥ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٤٢ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٦ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٠٨ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وألاحظ هنا تنوع الخبر ما بين الابتداء والطلب ، وأيضاً تنوع الجملة ما بين الفعلية والاسمية بجانب أنه لجأ إلى الخبر الطلبى فى البيت الثالث للتوكيد على خطورة هذه اللعبة ، فيكفى أن الذى أسسها هو الشيطان .

ومن زهديات الغزال تلك الأبيات التى يقول فيها من الكامل :

النَّاسُ خَلْقٌ وَاحِدٌ مُتشَابِهٌ لكِنَّمَا تَتَخَالفُ الأعْمَالُ
ويَقالُ حَقٌ فى الرجَالِ وبَاطِلٌ أى امْرىءٍ إلا وفِيهِ مَقَالُ
ولكُلِّ إنْسَانٍ بمَا فى نفسِهِ مِنْ عَيْبِهِ عَنْ غيْرِهِ أمْثالُ
يَسْتَثقِلُ اللمَمَ الخَفِيفَ لِغيْرِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ أمْثالِ ذاكَ جِبَالُ
وَيَنَامُ عَن دُنيَاه نَوْمَةَ قَانِعٍ بِنَعِيمِ دُنْيَاهُ وَذاكَ خَيَالُ [1]

فالأبيات هنا كلها خبرية ابتدائية عدا البيت الخامس ، فقد استخدم فيه المفعول المطلق للتوكيد المبين للنوع أي أن الناس جميعاً تتشابه فى الخلق ، وتختلف فى الأعمال وأى إنسان لا يَسْلم من أقوال الناس سواءٌ بالحق أو بالباطل ، والأسلوب فى البيتيْن الأوليْن خبرى ابتدائى للتقرير ، أما فى الأبيات التالية أجد الأسلوب ـ أيضاً ـ خبرياً وغرضه التعجب والاستنكار ، حيث يستنكر الشاعر أن ينشغل الإنسان بعيوب غيره عن عيوب نفسه ، ويرى الذنوب جبالاً ، ويزداد تعجبه من هذا الشخص الذى لا ينام قانعاً وهو واهم ، وفى شغل بغيره عن نفسه .

ولنتأمل تلك الأبيات التى أنشدها الغزال فى وصف ابن الملكة (نود) زوج ملك النورمان حيث يقول من الوافر :

وَأغْيَد لَيِّن الأطْرَافِ رَخْصٍ كَحِيلِ الطَّرفِ ذى عُنقٍ طويلِ
تَرَى مَاءَ الشَّبَابِ بِوَجْنَتيهِ يَلوُحُ كَرَونق السَّيْفِ الصَّقِيلِ
مِنْ أبْنَاءِ الغَطَارِفِ قَيْصَرى الـ ـعُمُومَةِ حِينَ يُنسَبُ وَالخُؤولِ
كَأنَّ أدِيمَهُ نِصْفاً بِنِصْفِ مِنَ الذَهَبِ الدَّلاصِ أو الوَذِيلِ [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢١٢ .
ـ المطرب ،ص : ١٥١ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠٥ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد جاءت الأبيات كلها خبرية ابتدائية للوصف والتقرير ، ولم يحتج الشاعر إلى أى وسيله من وسائل التوكيد ؛ لأن ذهن المتلقى خالٍ ولذا كان الأسلوب خبرياً ابتدائياً وبدأه بـ :(واو رُب) ، وهى حرف جر شبيه بالزائد ، ثم عقب بالجملة الاسمية التى تفيد الثبات والتقرير ، فوصف ابن الملكة بالجمال ، وطول العنق ، والليونة ، وجمال العينين . وفى البيت الثانى جاءت الجملة الفعلية وفعلها ماضى للتقرير (ترى ماء الشباب بوجنتيه) ، ثم عقب فى نفس البيت بجملة فعلية مشبها بها الغلام برونق السيف المصقول (يلوح كرونق السيف الصقيل) . وفى البيت الثالث حذف المبتدأ ، وبدأ بالخبر للتنبيه ، والاهتمام ، وبيان عراقة أصله ونسبه (من أبناء الغطارف) . أما فى البيت الرابع فقد جاءت الجملة الاسمية منسوخة بأداة التشبيه (كأن) ؛ ليقرر جمال هيئته وجسمه .

ومن بليغ قول الغزال فى وصف رحلة بحرية مع صديقه يحيى بن حبيب تلك الأبيات التى يقول فيها من مجزوء الرمل :

قَـالَ لى يَـحْيَى وَصِـرْنَـا بَـيْـنَ مَوْجٍ كَـالجِـبَـالِ
وتَـوَلَـتَّـنَا عُـصُـوفٌ مِـنْ دَبُـورٍ وَشِـمَالِ
شَـقَّـتْ القِلْـعَيْنِ وَانْـبَـ ـتَّتْ عُـرَى تِلكَ الحِـبَالِ
وَتَـمطَّى مَـلَـكُ المَـوْتِ إليْـنا عَـنْ حِـيَـالِ
فَـرَأيْنا المَوْتَ رَأىَ الـ ـعَيْنِ حَـالاً بَعْـدَ حَـالِ
لَـمْ يَـكُنْ لِلقَـوْمِ فِينا يَـا رَفِيـقِـى رَأسُ مَـالِ [1]

فقد عبّر عن هذا الموقف بأسلوب خبرى للتقرير ، وهو خبر ابتدائى لم يلجأ فيه الشاعر أيضاً إلى أدوات التوكيد ، وألاحظ كثرة الخبر الابتدائى عند الغزال ؛ لأنه يقصّ علينا خبرات وأحداث ومواقف جديدة على القارئ ، وبدأ على طريقة الحكاية البيت الأول (قال لى يحيى) ، ثمّ تتوالى الأساليب الخبرية بعد ذلك فى وصف الأمواج والرياح والأخطار ، واستخدم فيها الجملة الفعلية ، ويلاحظ دقة استخدامه للجملة الفعلية ؛ لأن الفعل يجعل القارىء يعيش الحدث ، وينفعل به (تولتنا عصوف – شقت القلعين – تمطى ملك الموت – رأينا الموت) .

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠٤ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أساليبه الخبرية التى جاءت للهجاء ، وفيها قدر كبير من الابتكار والطرافة ، قوله فى عامل تدمير الذى لم يحسن ضيافته هو وصاحبه يحيى بن حبيب ، حيث يقول من الخفيف :

قَـدْ أرَدْنَـا حُسْنَ الثَـنَـاءَ عَلَيْكُم مُـذ حَـلَـلْـنَـا فلَـمْ نَـجِدْ مَـا نقولُ
غَـيْرَ تَـجْمِـيرَنَا بِـهَائِـلِ رَمْـلٍ حَـيْثُ شِئنا مِنْ جَانِبيهِ نَبُـولُ
وَطَـعَامٍ مِـنَ الضَّريـع أصَبْنَـا هُ عَلَى أنَّـهُ يَـسِيـرٌ قَـلِـيـلُ [1]

فقد بدأ بخبر طلبى واستخدم أداة التوكيد (قد) وبعدها الماضى للتقرير والتوكيد (قد أردنا حسن الثناء عليكم) ، ثم يهجوه بشكل مبتكر ، وفيه طرافة وخفة ، فلم نجد ما أقول ، ثم يواصل ما حدث من هذا العامل الذى قدم إليهما طعاماً سيئاً كطعام أهل النار الضريع ، وهذا أبلغ فى الهجاء من المباشرة .

ومن روائع قوله فى الحكمة التى أوردها فى أسلوب خبرى ابتدائى قوله من السريع :

يُـعْرفُ عَـقْلُ المَـرْءِ فى أرْبَعْ مِـشْـيَـتُـهُ أوَّلُـهَـا وَالحَـركْ
وَدَوْرُ عَيْـنَـيْـهِ وَألـفَـاظُـهُ بَـعْـدُ عَلَيْـهِنَّ يَـدُورُ الفَـلَكْ [2]

حيث أرى تسلسل الجُمل وتكاملها ، فبدأ الغزال بإجمال فى البيت الأول ، ثم فصل بعد ذلك للتوضيح ، وبدأ بالجملة الفعلية المبدءوة بالفعل المبنىّ للمجهول ؛ لينصرف الاهتمام إلى نائب الفاعل (يعرف عقل المرء فى أربع) ، والبيتان أسلوبهما خبرى ابتدائى للتقرير والتوضيح .

ومن قوله فى الهجاء (الطويل) :

أتَـاكَ أبُـو حَفْصٍ وَيَحْيَى بْنُ مَـالِكٍ فَـأهْلاً وَسَهْـلاً بِـالوَغَى وَالمَعَـامِـع
رِجَـالٌ إذا صَـبُّوا عَلَيْـكَ شَـهَـادَةً حَـكَـتْ فِيكَ وَقعَ المُرْهَفَاتِ القَوَاطِع [3]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠٣.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٩.
٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠١ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٢٤٨ .
٣- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٩٧ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٧٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فألحظ هنا استخدام الأسلوب الخبرى ، فيأتى مرة جملة فعلية ، ومرة جملة اسمية ، ففى البيت الأول يصف أبا حفص ويحيى بن مالك (بالوغى والمعامع) أى أنهما نذيرا الخراب والدمار ، وصرح باسميهما تحقيراً لا تعظيماً ، وزاد فى السخرية بقوله (أهلا وسهلا) . وفى البيت الثانى بدأ بقوله (رجال) ونكرهما للتحقير والإستهزاء ، ثم أتبعها بجملة شرطية تبين فساد خلقهما ، وأنهما شهودا زور .

ومن رائع قوله فى الغزل هذه الأبيات التى يتغزل فيها بالملكة نود زوج ملك النورمان ، حيث يقول من السريع :

كُلِّفْتَ يا قلبى هَوَىً مُتْعِبَا غالَبْتَ منهُ الضَّيْغَمَ الأغْلَبَا
إنِّى تعلَّقْتُ مَجُوسيّة تأبى لشمس الحُسن أن تَغرُبا
أقْصى بلاد الله فى حيثُ لا يُلفَى إليْهِ ذاهِبٌ مذهبا [1]

فقد جاءت الأبيات فى أسلوب خبرىّ يبدؤها بوصف حاله ، فقد صور شغفه وشدة ميله لهذه الملكة الجميلة ، ويخبرنا بأن قلبه قد تملكه الحب الشديد الذى بلغ من شدته أنه إذا أصاب الأسد القوى أخضعه وألانه . وفى البيت الثانى يؤكد مستخدماً أداة التوكيد (إنّ) أنه وقد تعلق بالملكة المجوسية التى يصفها بأنها شمس الحُسن ، وقد استخدم الخبر الطلبى ؛ ليؤكد حسنها وجمالها ، ولذلك تعلق بها . ثم يتابع فى البيت الثالث بأن هذه الملكة موطنها أقصى بلاد الله ، حيث لا يوجد طريق إليها ، ويتابع فى القصيدة وصف الملكة ذات الجمال النادر والحسن الآخاذ .

ومن بليغ استخدامه للأسلوب الخبرى تلك الأبيات التى نظمها فى مدح الأمير الحكم ، حيث يقول من الطويل :

فَوَ الله لا أدرى وإنِّى لشَاعِرٌ إلىَ أى وَجْهٍ مِنْ مَدِيحِك أقصِدُ
كَأنَّ الملوكَ الغُلَّبَ عِنْدَكَ خُضَّعاً خَوَاضِعُ طَيْرٍ تتَّقى الصَّقرلُبَّدُ
تُقلِّبُ فِيهِمْ مُقْلَةً حَكَمِيَّةً فَتَخْفِضُ أقواماً وتَرْفَعُ آخَرِينَ [2]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٣٧ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٤ .
٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٥١.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث يبدأ بأسلوب خبرى إنكارى تعددت وسائل توكيده ما بين القسم واللام المزحلقة الداخلة على خبر إن مؤكداً على أنه شاعر ، وله خبرة ودراية بالشعر وبالمدح ، ولكنه ـ مع هذا ـ متحير بأى جانب يبدأ مديحه للأمير ، وفى البيت الثانى يصفه بـ (الصقر والملوك الغلب الأشداء) على الرغم من شدتهم فهم أمامه كالطيور الضعيفه زيادة فى التعظيم ، والتضخيم ، والمدح . وبعد ذلك يتناول صفة أخرى مميزة له وهى عمق نظرته وحدتها حتى لكأنه بتلك النظرة يخفض أقواما ويسود آخرين.

ومن غزلياته التى لجأ فيها إلى الأسلوب الخبرى قوله من الطويل :

كَتَبْتُ وشَوْقٌ لا يُفَارقُ مُهْجَتى ووجدى بكمْ مُسْتحْكِم وَتذكُّرى
بِقرطبة قلبِى وجسْمِى بِبَلْدَةٍ نأيْتُ بها عن أهل وُدِّى وَمَعْشَرى
سَقَى اللهُ مِن مُزنِ السَحَائِبِ ثَّرة دِيَاركُمْ التى حَوَتْ كُلِّ جُؤذر [1]

ففى البيت الأول يقرر أنه كتب إلى مَنْ هام بها عشقا وقلبه مملوء شوقاً إليه ، فذكرياتها لا تفارق وجدانه . وفى البيت الثانى يأتى بجملة اسمية ،فقدم الجار والمجرور للتخصيص والقصر ، وتوضيح شدة تعلقه بهذه التى تسكن قرطبة .

أما فى البيت الثالث فقد جاء به فى أسلوب خبرى لفظاً إنشائى فى معناه ،فقد مَالَ إلى الدعاء (سقى الله من مزن السحائب ثرة دياركم) .

وأمضى مع الغزال حيث نقرأ له هذه الأبيات من (الوافر) :

أرَى أهْلَ اليَسَار إذا تُوفوا بَنَوا تلك المَقَابر بالصُّخُور
أبَوْا إلا مُبَاهَاة ً وَفَخْرَاً عَلَى الفقراءِ حتَّى فى القُبُور
فإن يَكُن التَّفَاضُلُ فى ذرَاهَا فإن العَدْلَ فيها فى القُعُور [2]

فأراه هنا يبدأ بالمضارع (توفوا ـ بنوا) الذى يفيد التوكيد والتقرير على غفلة أهل الغنى واليسار فى بنائهم للقبور بالصخور الشديدة الصلابة . وفى البيت الثانى يوضح سبب هذا الأمر بأنهم يريدون التباهى والتفاخر على الفقراء وهو خبرى للتعجب والاستنكار ، ويزيد من تعجبه تذييله فى البيت الثانى (حتى فى القبور) . ويأتى البيت الثالث فى أسلوب خبرى طلبى يؤكد على أن العدل المطلق هناك فى القبر ، على الرغم من أنه قد يكون فى الدنيا بعض التفاضل .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأختم حديثى عن الأسلوب الخبرى عند الغزال بهذه المقطوعة فى النقد الاجتماعى ، والتى جاءت فى أسلوب خبرى جاء فى الأبيات الأول والثانى والثالث خبرى ابتدائى ، وفى البيت الأخير خبرى طلبى ، حيث يقول من الوافر :

وَخَيَّرْهَا أَبُوهَا بَيْنَ شَيْخٍ كَثِير المَالِ أو حَدَثٍ فَقَيرِ
فَقالتْ : خُطَّتا خَسَفٍ وما إن أرَى مِنْ حَظْوَةٍ للمُسْتَخِيرِ
وَلَكِن إنْ عَزَمْتُ فكُلُّ شيءٍ أحَبُّ إلىَّ مِنْ وَجْهِ الكَبيرِ
لأنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفقر يَثْرى وَهَذا لا يَعُوُد إلى صَغيرِ [1]

ففى البيت الأول يقرّر على سبيل الحكاية موقف الفتاة التى ترك لها أبوها حرية الاختيار بين اثنين شاب فقير ، وشيخ غنى ، فالخبر هنا للتقرير والتوضيح . وفى البيت الثانى أجد أول ردّ فعل للفتاة حيث تقرر أنه لا وجود لأى ميزة فى الاثنين ، وتستدرك فى البيت الثالث على أنها تقبل أى شىء إلا النظر إلى وجه الكبير ، ويأتى البيت الأخير تعليل لما قبله وهو تعليل مؤكد بـ (إن) موضحة سبب اختيارها للشاب الفقير ؛ لأنه قد يصيب الثراء فيما بعد ، أما الكبير فلا يعود صغيراً .

ومما سبق ألحظ كثرة الأسلوب الخبرى فى شعر الغزال ، ولعل ذلك مرجعه إلى أن شعر الغزال جاء تعبيراً عن مواقف و حكايات يُعد الأسلوب الخبرى أيسر الأساليب ؛ لتوصيلها للمتلقى ، حيث إن هذه الخبرات تعد جديدة على القارىء ، وذهنه فارغ منها ، وبالتالى الأسلوب الخبرى هو الأنسب ، ثم لاحظنا أن الغزال نوّع فى أساليبه الخبرية ما بين الابتدائية والطلبية والإنكارية، مما يؤكد شاعريته بجانب تميزه فكريا ، فقد تعددت أغراض الخبر عند الغزال ، فمنها ما جاء للتقرير والتوكيد، ومنها ما جاء للوصف بجانب السخرية والتحقير والتهكّم ، وأيضا التعجب والاستنكار وكذلك الدعاء .

وإن كان الأسلوب الخبرى قد غلب على شعر الغزال فهذا لا يعنى عدم استخدام الأساليب الإنشائية ، بل لقد استخدم الغزال الأسلوب الإنشائى ؛ ليكشف عن مكنون نفسه ، وعاطفته ، ومن ذلك استخدامه لأسلوب النداء الذى جاء به بغرض التنبيه والاستنكار لمن يشكو إلى الناس ، ويستجديهم وينسى الله عز وجل ، فيقول من مجزوء الرمل :

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨١ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيُّهَا الشَّاكِى إلى مَنْ لَيْسَ فى كَفَّيْهِ جَدْوَى
إنَّ شَكْوَاكَ إلَيْهِ لَيْسَ تُغْنِى عَنك شَيَّا [1]

ثم أجد الغزال يستخدم النداء بغرض التمنى ، حيث يتمنى الشاعر عودة أحبابه إليه ، حيث لم يعد يرغب فى فراقهم ، يقول من الكامل :

أحْبَابَنَا عُودُوا عَلَيْنا عَوْدَةً مَا مِنكُمْ بَعْدَ التَّفَرُّق مَرْغَبُ [2]

فألحظ هنا حذف الشاعر لأداة النداء ، وهو جائز لغرض التأكيد على قرب الأحباء إلى قلبه ، وعدم حاجته فى ندائهم لأداة النداء .

وفى أبيات أخرى أرى الغزال يستخدم النداء لغرض آخر هو إظهار تودده وحبه وتعلقه بالملكة نود ، وعلى الرغم من استخدام أداة النداء (يا) للبعيد لأن المقصود منها بُعد المكانة وعلوها ، وليس بعد المكان ، وكرر النداء فى نفس البيت للتأكيد على شدة إعجابه ، وتعلقه بها ، حيث يقول من السريع :

يَا نُودُ يَا رُودَ الشَّبَابِ التى تُطْلِعُ مِنْ أزرَارِهَا الكَوْكَبَا [3]

ومن أغراض النداء عند الغزال التنبيه وطمأنة زوجته التى قلقت عليه لسفره ، فهو يطمئنها أنه قد استعد لهذا السفر بالزاد والراحلة والصحبة ، ويستخدم حرف النداء الهمزة لزيادة الاطمئنان ، وأنها قريبة من قلبه ، فيقول من الطويل :

أعَاذِلَتِى إنَّ الظَّلامَ بَشِيرُ وَعِنْدِى رَحْلٌ حَاضِرٌ وَبَعِيرُ
وَعِنْدِى مِنْ الذَّاتِ الكَفَافُ وَمُؤْنِس إلى جَانِبى عَضْبُ الغِرار ذَكِيرُ [4]

ثم أجد الغزال ينوع فى أغراض النداء ، وفى أدواته ، حيث أراه يستخدم أداة النداء (أيا) للتنبيه والتعجب من نصر الخصى الذى يغفل عن أحوال الدنيا ، وأمورها ولا يتعظ بالموت ، حيث يقول من الطويل :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١١١ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٩.
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٣١ .
ـ ظهر الإسلام ، ص : ١١٢.
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٣٨ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٤ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٦١ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أيَا لا هِيَّـاَ فى القَصْرِ قُرْبَ المَقابِرِ يَـرَى كُـلَّ يَـوْمٍ وَارِداً غَيْـرِ صَـادِرِ
كَـأنَّكَ قَـدْ أيْقَـنْتَ أن لسْتَ صَائِـرَاً غَدَا بَـيْـنَهُمْ فى بَعْضِ تـلك الحَفائِرِ [1]

ومن أغراض النداء التى أوردها الغزال للتعجب والاستنكار ، مما يفعله الشيوخ المتصابين الذين يخضبون شيبهم ، فيستنكر عليهم هذا الفعل ، ويستتبع هذا التعجب بالاستفهام : هل تعودون شبابا ؟ ويؤكد أن هذا الأمر مستحيل ! فيقول من السريع :

يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ مَـدَى عُمْـرِهِ كَمْ ذا الذِى نَسْتَطِيعُ أنْ تَصْبـرَا
هَلْ أبْصَرَتْ عَيْنَاكَ قَـطُّ امْـرَءا أعَـــادَ عُـوداً يَابســاً أخْضَـرَا [2]

ومن النداء الذى جاء للتنبيه والنصح ، حيث نصح من يرجو محبة الغوانى بأن هذا الأمر لا يصح لعاقل ، فالعاقل هو مَنْ لا يأمن للنساء ، فيقول من الكامل :

يَا رَاجِيَاً وُدَّ الغَـوَانِى ضَلَّـةً فَـفُؤادُهُ كَـلَـفَـاً بِـهِـنَّ مُـوَكَّـلُ
لا تَكْلَـفَـنَّ بِـوَصْلِهِـنَّ فإنمَـا الكَلِفُ المُحِبُّ لَـهُنَّ مَـنَ لا يَعْقِلُ [3]

ومن أساليب الإنشاء التى استخدمها الغزال الأمر ، حيث بدأ فى إحدى قصائده الزهدية باسم فعل الأمر (مهلاً) أى تمهل حيث يتوجه بالأمر إلى من يعذله ويلومه ، موضحاً له أن اللوم ليس من شأنه ، ولا هو عن اللذات بالمتمهل الزاهد فيها ، فيقول من السريع :

مَـهْـلاً فليْـسَ العَـذْلُ مِنْ شَـانِى لَسْـتُ عَن اللـذاتِ بِـالـوَانِى [4]

ويأتى الأمر بغرض آخر فى إحدى غزليات الغزال ، حيث يطلب من أحد الرفاق أن يبلغ سلامه إلى التى تعلق بها ، وأن يصف حاله وشوقه إليها ، حيث يقول من البسيط :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٢ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨٨ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٦١.
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٠ .
ـ المطرب ، ص: ١٤٦ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣٠ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٨.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقْـرَ السَّلامَ على إلـفٍ كَـلِـفْـتُ بهِ قد رُمْتُ صَبْرَاً وطُولُ الشّوق لم يَرِمِ
ظبيٌ تباعَدَ عَنْ قُربى وعن نظرى فالـنفسُ والـهَــةٌ من شِــدَّةِ الألَــمِ [1]

ومن أغراض الأمر التى جاءت للتمنى فى شعر الغزال ، حيث يتوجه بالأمر إلى أحد الأمراء بأن ينجز ما وعد به ، حيث يقول من الكامل :

أنْجِزْ فَدِيتُكَ مَاوَعَـدْتَ فإنَّ لِى فى المَطْلِ والإنْجَازِ قَوْلاً حَاضِرَا [2]

وفى البيت الثانى يأتى بغرض آخر وهو النصح والتوجيه ، حيث ينصح هذا الأمير بأن من كمال الحزم ، وعلو المكانة ، ألا يرد شاعراً أتاه بغير عطاء :

وَاعْـلَمْ بِـأنَّ مِـنْ الحَـزَامَةِ للفَـتَـى أنْ لا يَرُدَّ بِغَيْرِ نُجْحٍ شَـاعِرَاً

ومن أغراض الأمر التى جاءت للتأمل ، وإعمال العقل والتدبير فى حال الإنسان بعد مماته ، وكيف ينفض عنه الناس بعد أن يدخلوه إلى لحده ، حيث يقول من البسيط :

انْـظُرْ إلـىَّ إذا أدْرَجْتُ فى كَـفنِى وَانْـظُـرْ إلىَّ إذا أدْرَجْـتُ فى اللحْدِ
وَاقعُدْ قَلِيلاً وَعَايْنْ مَـنْ يُقِيمُ مَعِى مِـمَّنْ يُشَـيِّعُ نَـعْشِى مِنْ ذوى وُدِّى [3]

وفى إحدى هجائيات الغزال استخدم أسلوب الأمر للسخرية والـتحقير بنـصر ، حيـث ينذره بالخراب وقرب أجله ، فيقول من الكامل :

قُـلْ للفَتى نَـصْر أبـى الفَـتْح إنَّ المُـقَـاتِلِ حَلَّ بِـالنَّـطْـح
وَأرَاهُ قَـهْـقَـرَ فِيـهِ ثُمَّ مَضَى قُـدُمـاً وَمُدبـَّراً إلـى الـرُّمْـح
وَأرَى النُّحُـوسَ لَـهُ مُسَـاعِدةً فانْـظُـرْ لِنَـفْسِكَ وَاقْبلَنْ نُصْحِى [4]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٠ .
ـ العقد الفريد ، ص : ٣٥٣ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩١ .
ـ ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص : ١١٣ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص :١٥٨ .
ـ العقد الفريد ، ج٣ ، ص : ١٩٠ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٨ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا رأينا أن استخدام الغزال لأسلوب الأمر لم يجر على نسق واحد ، فقد تنوع أغراضه ما بين الهجاء والغزل والتمنى والنصح حسب الموقف الذى استخدم فيه الأسلوب ، وإن كنت أرى أن الغزال اقتصر على فعل الأمر ، وجاء مرة اسم فعل الأمر ولم يستخدم الفعل المضارع المسبوق بلام الأمر .

ومن الأساليب الإنشائيه الأخرى التى استخدمها الغزال فى شعره أسلوب الاستفهام ، فأراه بدأ به إحدى مقطوعاته فى الزهد ، حيث يستفهم داعياً إلى تأمل حاله ، وكيف بدل الزمان خلقته ، وبرى جسده وأهزله ، حتى لم يبق منه صحيحاً غير اسمه ولسانه ، ثم يستفهم متعجبا كيف لا يبلى ؟ وهو قد تخطى عمره التسعين عاماً ، يقول الغزال من الطويل :

أَلَسْتَ تَرَى أنَّ الزَّمَانَ طَوَانِى وَبَدَّلَ خَلْقَه كُلَّهُ وَبَرَانِى
تَحَيَّفَنِى عُضْواً فَعُضْواً فلم يَدَعْ سِوَى اسْمِى صَحِيحَاً وَحْدَهُ وَلِسَانِى
وَلَوْ كَانَتْ الأسْمَاءُ يَدْخُلها البِلَى لقد بَلِى اسْمِى لامْتِدادِ زَمَانِى
وَمَالِى لا أبْلى لِتسْعينَ حِجَّةً وَسَبْعٍ أتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ [1]

ومن معانى الاستفهام عند الغزال فى زهدياته ، هذا الاستفهام الذى جاء به للزجر والردع لمن يهتمون بالدنيا ، ولا يعملون للآخرة ، حيث يقول من السريع :

قُل أيُّها البَانِى : أمَا تَرْعَوى وَأنْتَ فى سِجْنِ الرَّدَي عَانِي ؟ [2]

ويأتى الاستفهام عند الغزال للتمنى والرغبة فى معرفة الحقيقة ، حيث يقول فى قصيدة النفس من الطويل :

تَمَنَّيْتُ أنْ أدْرى وَهَلْ تَنْفع المُنى إذا زالَ هَذا الرُّوحُ أيْنَ يَكُونُ؟
أفى نُسْخَةٍ أمْ هو مُقيمٌ بِمَوْضِع - إلى أن يُنادِى بالحِسَابِ - رَهِينُ [3]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ .
ـ المطرب ، ص : ١٥٠ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٣١.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٨.
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٧.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن روائع استخدام الغزال للاستفهام ما جاء به للاستنكار والتوبيخ ، حيث أراه فى هذا البيت من قصيدته التى ينهى فيها عن لعبة الشطرنج ، حيث يوبخ ابن أخته ويسخر منه بسبب حبه للشطرنج ، فيقول من (مجزوء الرمل) :

هَبْكَ فِيهَا أَلْعَبَ النَّا س ، فَمَاذَا يَاحَكِيمُ ؟! [1]

ومن فكاهيات الغزال ـ والتى ورد فيها الاستفهام للتعجب والدهشة ـ تلك الأبيات التى ردّ بها الغزال على قول الأمير عبد الرحمن الأوسط :جاء الغزال بحسنه وجماله ، فرد الغزال باستفهام يؤكد ظرفه وخفة روحه وتساءل متعجباً : أين الجمال ؟

حيث يقول من الكامل :

أيْنَ الجَمَال ـ له الجمال ـ مِنْ امْرىءٍ ألقاهُ رَيْبُ الدَّهْر فى أغلاله؟
أم أينَهُ مِنْ خَاضِعٍ مُتَخَشِّعٍ ألقى الزَّمَانُ ثَغَامِهِ بِقَذَالِهِ
وأذَلَّ غَارِبَهُ وأنكَبِ جَنْبِهُ وَأكَلَّهُ بِخفَافِهِ وَثِقَالِهِ [2]

ومن بديع استخدام الغزال لأسلوب الاستفهام ـ حيث جاء به لتأكيد حكمة توضح أنه ليس هناك كامل يتطابق قوله وفعله ـ قوله من (الكامل) :

لَسْنَا نَرَى مَنْ لَيْسَ فِيهِ غَمِيزَةٌ أىُّ الرِّجَالِ القَائِلُ الفَعَّالُ [3]

ومن طريف استخدام الغزال لأسلوب الاستفهام ما استخدمه فى معرض الهجاء المقذع لمن يدعى أبو حازم ، حيث يستفهم فى سخرية شديدة ، وهو يتحاور مع سيدنا آدم u ، حيث يسأله فى منامه عن حقيقة نسب أبى حازم ، فيقول من السريع :

سَألتُ فى النَّومِ أبى آدمَاً فَقُلْتُ والقَلْبُ بِهِ وَامِقُ
أبْنُكَ باللهِ أبُو حَازِمٍ ؟ صلىّ عليكَ المَالِكُ الخَالِقُ
فَقَال لى : إنْ كَانَ مِنِّى ومِنْ نَسْلى فَحَوا أمُكُمْ طَالِقُ [4]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٤ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٦ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٥ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ، ص : ٢١٥ .
ـ نفح الطيب ، ج٣ ، ص : ٤٣٨ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا أرى الغزال أجاد وأبدع فى استخدامه لأسلوب الاستفهام على الرغم من قلته فى شعره إلا أنه نوّع فى أغراضه ما بين التمنى والاستنكار والتعجب والتأمل والسخرية إلى غير ذلك من الأغراض التى أوضحناها .

ومن الأساليب الإنشائية الأخرى التى وردت فى شعر الغزال ـ على الرغم من قلتها ـ النهى والتمنى والتعجب ، حيث أراه فى البيت التالى ينهى عن التعلق بالنساء متهما مَنْ شغف بهن أنه غير عاقل ، فيقول من الكامل :

لا تَكْلَفَنَّ بوَصْلِهِنَّ فإنَّمَا الكَلِفُ المُحِبُّ لَهُنَّ مَنْ لا يَعْقِلُ [1]

وفى موضع آخر استخدم النهى ؛ ليوضح طمأنة الملك له بأنه سيجزل له العطاء ، وسيرعى أهل بيته وأولاده بعد سفره ، فيقول من البسيط :

لا تَأسَفَنَّ عَلَى شَىءٍ تُخَلِّفُهُ سَيُوَسِعُ المَلِكُ الإجْرَاءَ وَالصَفَدَا [2]

ويستخدم أسلوب النهى للتحذير والتنبيه من الفقيه المخادع ، وضرورة أخذ الحذر والحيطة منه نظراً ؛ لأنه مخادع ، حيث يقول من المتقارب :

وَمَا ذاك مِنْهُ ـ فلا تَأمَنُو ه ـ إلا لِتُمْكَنَهُ الوَثْبَهْ
رَأيْتُ لَهُ نَاظِرَى هِرَّةٍ تَرَاءَى لَهَا الفَأرُ فى ثُقْبَهْ [3]

وفى إحدى غزلياته وحواراته مع الملكة نود التى أنكرت عليه شيب شعره ، وحسنت له خضابه ، أراه استخدم أسلوب النهى ؛ لتنبيهها إلى أن الشيب ليس نقصاً أو عيباً ، وإنما هو دليل التعقل والحكمة والخبرة ، فيقول من الكامل :

لا تُنْكِرى وَضْحَ المَشِيبِ فإنمَا هُوَ زهْرَةُ الأفْهَامِ وَالألْبَابِ [4]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١١ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٩ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٦ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٥٨ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٤٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأتابع أساليب الإنشاء عند الغزال فأجد أسلوب التمنى ، وقد ورد نادراً ، ومن ذلك قوله فى قصيدته التى يتحدث فيها عن مخاطر السفر محاولاً أن يطمئن زوجته ، ويتمنى أن يعود بعد سفره سالماً ، ويؤكد أن السفر ليس دائما سببا للهلاك ، فقد يهلك المقيم ، ويعود المسافر سالماً غانماً ، فيقول من الطويل :

لَعَلِّى سَأَمْضِى ثم أَرْجِعُ سَالِماً وَيَهْلَكُ بَعْدِى آمِنِينَ حُضُورُ
جَعَلْتُ أَرَجِّيهَا إِيَابِى وَمَنْ غَدَا عَلَى مِثْلِ حَالِى لا يَكَادُ يَحُورُ [1]

ومن استخدامات الغزال لأسلوب التمنى ما أورده فى قصيدة النفس ، حيث يتمنى أن يعرف ماذا يحدث للمرء بعد موته ، فيقول من الطويل :

وَيَالَيْتَ شِعْرِى أَىَّ شَىءٍ مُحَصَّلٍ يَرَى شَخْصَ مَنْ قَدْ مَاتَ وَهُوَ دَفِينُ [2]

أما التعجب فأجد قول الغزال فى إحدى قصائده الغزلية ، حيث يتعجب من الليالى التى فاضت بالسرور ، وهو مع محبوبته ، ومرت سريعة كأنها حلم ، حيث يقول من البسيط :

للهِ تِلْكَ اللَّيَالِى والسُّرُورُ بِهَا كَأَنَّمَا أَبْصَرَتْهَا العَيْنُ فى الحُلُمِ [3]

وفى بيت آخر يتعجب من أيام الصّبا الجميلة التى تمتلىء بالصحبة ، والعشرة ، والصفات الطيبة ، حيث يقول من الكامل :

للهِ دَرُّ جَدِيدِ أَيَّامِ الصِّبَا وَلَذِيذِ صُحْبَتِهِ وَطِيبِ خِلالِهِ [4]

وبعد ... فلقد طفت فى أجواء شعر الغزال ، وتوقفت عند أساليبه التى تنوعت ما بين الخبر والإنشاء ، وبعد عرضى لكل منها على حده ، أستطيع أن أوجز ما سبق بأن الغزال لم يخرج عن الإطار التقليدى للأساليب ، وعبرت فى دقة عن المعنى الذى أراده الشاعر ، وكشفت عن عاطفته وأحاسيسه ، ولاحظنا كثرة الأسلوب الخبرى ، وقلة الأسلوب الإنشائى ، وأوردت العلة فى ذلك آنفاً ، ثم لاحظت أن هناك بعض الأساليب التى وردت فى شعره على استحياء ، وعلى الرغم من ذلك جاءت معبرة عن المعنى ، كاشفة لإحساس الشاعر ومشاعره .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٦٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٧.
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٨ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٣.
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٠ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .
٤ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢١٨ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خامسا : القصة الشعرية ودور الحوار

إذا كانت القيمة الفنية للقالب الشعرى تكمن فيما يرسمه من صور وأخيلة ، فإن قدْر القصة يكون – أولاً – فى قدرتها المتميزة على تصوير الواقع ورصد دقائقه ، وإذا كان الشعر تعبيراً عن اللحظات الخاصة فى الحياة والقصة تعبيراً عن الحياة . الحياة بتفصيلاتها وجزئياتها كما تمر فى الزمن ، فإن تزاوجاً ؛ نتج ما نسميه (القصة الشعرية) [1] .

وإن هذا اللون الجديد المتولد (يجعلنا نحيا التجربة النفسية الواحدة فى نطاق أوسع وأفق أرحب ، إذ تطري تفكيرنا ، ومشاعرنا ، وتسمو بخيالنا وتأملاتنا ، فنحيا التجربة مرتين أو نحياها على نحو مزدوج : حياة الحادثة الواقعة ، وحياة الفكر العلوى ، والخيال السامى ، ويمثل الحوار دوراً هاماً فى أغلب الفنون الأدبية لا سيما القصة الشعرية بما يحدثه من تشويق وإثارة مبعثهما الخيال المحلق ، والتشوق الممتع للقول وجوابه) [2] .

ويرى بعض الباحثين أن أول من استعمل أسلوب القصة الشعرية هو امرؤ القيس فى لاميته التى يصور فيها قصته مع عشيقته ، والتى يقول فيها :

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل

بينما يرى بعضهم الآخر أن عمر بن أبى ربيعة هو خير من استعمل القصة فى شعره وذلك مثلاً فى رائيته التى تحدث فيها عن قصته مع العشيقة التى طلع عليه الصباح عندها ، فدهشت ، ثم استعانت بأختيها ، فأخفينه بينهن حتى خرجن به من الحَىّ فكن كالمِجَن [3] له كما قال :

فكان مجنى دون من كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصر [4]

---

[1] ـ انظر : النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، د/ سيد قطب ، ط دار الفكر ، ص : ٧٦ .
[2] ـ انظر : القصة الشعرية في العصر الحديث ، دأ عزيزة مريده ، ط دار الفكر ، ص : ٢٣ .
[3] ـ المجن: الدرع ، انظر: لسان العرب ، مادة : مجن ، ج ٨ .
[4] ـ شعر الصعاليك ، د/ عبد الحليم حفنى ، ص : ٤١٠ ـ ٤١١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن الدكتور عبد الحليم حفنى : " يؤكد أن الدارس لشعر الصعاليك لا يشك فى أن الذين أسسوا القصة فى الشعر العربى ، بل والذين وصلوا إلى مستوى القصة الشعرية الكاملة بمفهومها الفنى فى شعرهم هم الصعاليك ، وأن هذا النهج لو وجد من الشعراء من تابعه لكان للقصة فى الشعر العربى شأن غير ما كانت عليه " [1] .

وأما عن القصة الشعرية فى الأندلس ، فكانت إحدي ملامح البنية النصية فى شعر الأندلس كما كان لدى شعراء الأندلس محاولات عديدة عبر تاريخهم الطويل فى النظم على طريقة الحكاية ، وكان الحوار هو : " الخطوة الأولى نحو هذا الاتجاه ، مما جعل القصيدة أو المقطوعة أشبه بالحكاية أو القصة القصيرة من حيث توافر عناصرها الأساسية ، هذا وقد ظهر هذا الاتجاه فى الشعر الأندلسى منذ البواكير الأولى – أى فى فترة عصر الإمارة – ، وكان العامل التاريخى والبيئى والسياق الاجتماعى من أهم المؤثرات التى ساعدت على ازدهار هذا اللون الفنى فى الأندلس " [2] .

وبالنظر إلى شاعرنا يحيي بن حكم الغزال ، فلعل القارئ يستطيع أن يدرك من خلال عرضي السابق لبعض قصائده ومقطوعاته ، أنه كان يلجأ كثيراً إلى الأسلوب القصصي ، وليس هذا بغريب ؛ لأن حياة الغزال التي عرفناها هي عبارة عن أحداث ومواقف مختلفة استطاع الغزال أن يعبر عنها بشعره ، وأن يجعل المتلقي يعيش معه تلك الأحداث والمواقف ، ولذا كان الاعتماد كثيراً على أسلوب الحوار الذي هو من عناصر القصة .

وقد عدّ الدكتور إحسان عباس أن من أهم السمات البارزة في شعرالغزال هو إتقانه للقصص الشعري [3] .

---

١ ـ المرجع السابق .
٢ ـ الشعر فى عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د/ محمد مجيد السعيد ، ص ١٧٠ .
٣ ـ انظر : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص : ١١٨ ـ ١١٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل إن الدكتور سعد شلبي يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ، فـأراه يقـدم الغـزال علـى امرئ القيس وعمر بن ربيعة في هـذا المجـال – أي الأسـلوب القصـصي – ، كقـصص الرحيـل وراء الحبيب ، وحكايات الصيد ، ومغامرت الصيادين ، ولامرئ القيس والأعشى وزهير مواقف يتمثـل فيها هذا الأسلوب ، وعن غزل امرئ القيس القصصي أخذ عمـر بـن أبـي ربيعـة ، ولكـن هـذا كلـه يتضاءل بجوار ما قدم الغزال في هذا المجال ، فإن أتى هؤلاء الشعراء بالسرد القصصي لحادثة تأتي عرضا في أثناء القصيدة ، فإن الغزال يجعل القصيدة كأنها قصة ، ويتكـرر ذلـك في قـصائده الطـوال ومقطوعاته القصار ، وفي عامة أغراض شـعره ، ويزيـد هـذا الأسـلوب حيويـة في شـعر الغـزال مـا يتضمنه من حوار أحياناً [1] .

وعلى أية حال فإن الغزال لم يكن يلجأ إلى أسلوب القصة والحوار دائماً ، بل كان يلجـأ إليه في الأحداث والمواقف الهامة في حياته ، كسفارته إلى بلاد النورمان ، ولقائه مع الملكـة نـود ، وما دار بينهما ، وأيضاً عند مناقشة بعـض القـضايا الاجتماعيـة الخطـيرة الـتي كانـت منتـشرة في مجتمعه ، وأيضاً في هجائه للقـضاة والفقهـاء الفاسـدين في عـصره ، أو في محاولتـه لإثبـات المقـدرة الشعرية أمام شعراء المشارقـة .

فأما عن سفارة الغزال إلى بلاد النورمان وكان معـه صـديقه يحيـي بـن حبيـب ، والـتي وردت في محاورة بين الاثنين في شكل قـصة تحكـي مـا لاقـاه الغـزال وصـاحبه مـن أهـوال في هـذه الرحلة ، حيث هاج البحر عليهم ، وأحاطت بهم المخاطر ، وأوشكو على الهلاك ، وهذه القـصـــة تنقل إلى القــارئ ما شاهداه وما حدث لهما نقلاً دقيقاً حتى لكأنه من فـرط دقتـه ، يـشرك القـارئ معه في الحدث وتتوافر بعض عناصر القصة الفنية في هذه المقطوعـة الـتي وردت عـن هـذه الحادثـة حيث أجد التشويق ، وتصاعد الأحداث ، ووصولها إلى الذروة ، حيث يصل القارئ إلى أكبر قدر من الإثارة .

فبدأ الغزال المقطوعة بالحوار بينه وبين يحيـى بـن حبيـب ، ثـم وصـف الرحلـة ، ووصف الموج ، ويتصاعد الموقف ، حيث تشتد الريح ، فتمزق القلعين ، وتقطع الحبال ، ثـم يـصل الغزال بالقارئ إلى قمة التشويق ، حيث يقول : وكأن ملـك المـوت يقعـد حيـالهم ، ولم يعـد لهـم طريـق للنجاة ، ثم يخاطب صديقه في هذا الموقف العصيب موضحاً أنهما لم يعد لهما قيمة ، أو أهمية إن هلكـا .

١ـ الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، د/ سعد إسماعيل شلبى ، ص : ٣٨٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ورغم توافر عناصر القصة في هذه المقطوعة من شخصيات وتصاعد للأحداث ، إلا أننا لم نعثر عن النهاية ، وكيف نجا هو وصديقه من هذه المحنة (وأكاد أظن أن للمقطوعة تكملة توضح كيف نجا الغزال وصديقه وقد تكون ضاعت ضمن ما ضاع من شعره) ، يقول الغزال مصوراً هذه الرحلة من مجزوء الرمل :

قَـالَ لى يَحْـيَى وَصِرْنـا بَـيْنَ مَـوْجٍ كَـالجِبَـال
وَتَـوَلَّـتْنَـا عُـصُـوفٌ مِـن دَبُـور وَشِـمَـال
شَـقَّـتِ القِلـعَيْنِ وانْبَـ ـتتْ عُرَى تلك الحِبَال
وَتَمَطَّـى مَـلَـكُ المَـوْتَ إلَيْنَـا عَـنْ حِـيَـال
فَـرَأَيْنَـا المَـوْتَ رَأى العَيْنَ حَالاً بَعْـدَ حَـال
لَـمْ يَكُن لِلْـقَوْم فِينـا يارفِيقِـى رَأسُ مَـال [1]

ثم تأتي قصته مع الملكة نود زوج ملك النورمان ، والتي يورد فيها محاورة طريفة بين الملكة والغزال أوردها في إحدى مقطوعاته القصصية ، حيث يدور الحوار بين الاثنين ، فقالت له الملكة إنه قد شاب ، وابيض شعره ، فظنها الغزال دعابة توجب أن يُرَد بدعابة فقال لها : قد يأتي المهر أشهباً فما كان من الملكة إلا أن ضحكت عجباً بقوله ، يقول الغزال من السريع :

قالـت أرَى فوْديْـه قَـدْ نَـوَّرا دُعَـابة توجبُ أن أدْعَبَـا
قلـت لـه : مـا بَـالـهُ ؟ إنـه قد يُنتِجُ المُـهْـرَ كَذا أشْـهَبَا
فاسْتَضْحكَتْ عُجْباً بقولى لَهَا وإنما قلـت لكى تَعْجَبـا [2]

وأكاد أجزم بأن الغزال قد أورد نهاية هذه القصة فى مقطوعة أخرى تختلف وزناً ورويا حيث تتواصل الأحداث ، فقد قام الغزال بخضاب شعره بالسواد بناءً على طلب الملكة ، ورأته فى اليوم الثانى ، فاستحسنت سواد خضابه ، وأحس هو أن هذا الخضاب قد أعاد له شبابه لكن هذا لم يُنس الغزال مدح نفسه فى الحالين ، فالشيب والخضاب عنده كالشمس المغطاة بالضباب ، ثم يتوجه إلى الملكة قائلاً لها : إن المشيب هو دليل التعقل والفهم اللذين يتصف بهما الغزال فضلاً عن حسن خلقه وأدبه ، يقول الغزال من الكامل :

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩.
٢ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٣٧ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٦١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بَـكَرتْ تُحسِّنُ لى ســـوادَ خِـضَابى فكـأن الذى أعَادنى لشبابـى
ما الشَّيبُ عندى والخِضَابُ لِوَاصِـفٍ إلا كشمــسٍ جُللـتْ بضبــابِ
تُخفَى قليــلاً ثم يقشَعُـها الصِّبَــا فيَصِيــرُ مَـا سُترتْ به لذهـابِ
لا تُنكِـرى وَضَـــحَ المَشِيـــب فإنمَـا هـو زهرةُ الأفهَـامِ والألبَـابِ
فَـلدىَّ ما تهــوينَ من شَـأنِ الصِّـــبَا وطُــلاوةِ الأخْـــلاق والآدابِ [1]

وفى قصيدة غزلية أخرى يتناول الغزال قصة أخرى دارت أحداثها بينه وبين الملكة نود وابنها الأمير ميشيل ، حيث طلبت منه أن يصف ابنها ، فوصفه متغزلاً فيه ، حيث خلع عليه صفات النساء من أنه أغيد ، وليّن الأطراف ، وكحيل الطرف بجانب وصفه بصفات العظمة ، فهو من أبناء الملوك من ناحية أبيه وأمه ، ويعيش حياة ناعمة رغدة ، وهذا الوصف ورد من خلال بنية قصصية تعتمد على السرد ، كما فى قوله من الوافر :

وأغْيَدَ لَيّـنِ الأطْـرافِ رَخْـصٍ كَـحِيـلِ الطَّـرْفِ ذى عُنُـق طويلِ
تَـرَى مَاءَ الشَّـبَـابِ بِـوَ جْنـتَيْـه يَـلُوحُ كَـرونق السيْـفِ الصّقيـلِ
مِنَ ابْنـاءِ الغَطـارفِ قيْصَرى الـ ـعُمُومةِ حِينَ يُنْسَبُ والخُـؤول
كَـأن أديمَـــهُ نِـصْفاً بِـنـصفٍ منَ الـذَّهَـبِ الـدُّلاص أو الوذِيلِ
وربتـمـا أكـــرِّر فِيــهِ طرْفِـى فأحْسَـبُ انَـــهُ مِــنْ عَـظْمِ فِيــلِ
عَلَــى قَـــدٍّ سَـــوَاءٍ لا قَصِيـر فتَحْقِـــــرَهُ ولا هُـــو بالطويـلِ
ولكِـــن بَيْـنَ ذلك فى اعْـتِـــدالٍ كَـغُصْنِ البَـانِ فى قُـرْبِ المَسيلِ
يَحِـــنُّ إلىّ مُطّرفـا لِشَـكْـلِـــى ويُـكثر لى الزيـــــارة بالأصـيـــلِ [2]

ثم يواصل الغزال قصته مع الملكة وابنها معتمداً على الحوار الذى دار بينه وبين الملكة ، حيث جاءه ابنها يحمل زق خمر ؛ ليشربها معه ويبيت عنده ، وقد حضرت أمه معه ، والتى تشبه أم الظبى ، فتوصى الغزال به ، وتقول أخشى عليه البرد فى هذا الليل الطويل ، فردّ عليها الغزال بأنه فداء لها ، وسيحمى ابنها ، ولكنه لا يشرب الخمر ، ويتعجب من سوء تصرفه ومن هذه الهفوة التى سقط فيها لائماً نفسه عن عدم التعقل فى الردّ ومجاراة الملكة ، يقول الغزال :

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩.
٢ - انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أتـى يَـوماً إلىّ بـزقِّ خَمْـــر شَـــمُول الرِّيح كالمِسْكِ الفَتِيـل
يشربها مَعِـى ويَبِيـتَ عِنـدى فيثبـت بيننـا ودّ الخلِيـل
وَجَـاءَتْ أمُّـــهُ مَعَـهُ فكَانَـا كأُمِّ الخِشف والرَّشـا الكَحِيـل
تُوصِّينِى بهِ وتقول : أخْشَى عليه البَـرْد فى الليْـل الطويـل
فقلـــت حماقــة منِّـى ونوكـا فَدَ يتُكَ لسْت مِن أهْل الشُّمُول
فأية غـرّةٍ سُبْحَـانَ ربِّـــىٌ لَـوْ أنِّـى كُنتَ مِنْ أهْل العُقُـول [1]

على أن المتأمل فى شعر الغزال الاجتماعى يجده يلجأ إلى أسلوب القصة والحوار فى تناول بعض قضايا المجتمع ، ففى المقطوعة التالية أرى الغزال يلجأ إلى استخدام أسلوب القصة للتعبير عن هذا الموقف الاجتماعى لكى ينقل من خلالها رأيه إلى القارىء فى تشوق وإثارة لا تتوافر إلا فى عنصر القصة ، حيث تتحاور فتاة مع أبيها الذى خيرها بين اثنين تقدما للزواج منها ، أحدهما شيخ كبير السن كثير المال ، وبين شاب فقير ، فردت على أبيها بأنها لاترى مزية فى اختيار أيهما ، ثم فكرت وتأملت بقلبها وعواطفها ما قد يحدث مستقبلاً ، فاختارت الشاب الفقير ؛ لتقارب السن ، وأنه قد يصير غنياً بعد فقره ، وعللت رفضها للشيخ بأنه لن يعود شاباً أبداً ، يقول الغزال من الوافر :

وَخَيَّرَهَا أبُوهَا بَيْنَ شَيْخ كَثير المَال أو حَدَثٍ فَقَيرِ
فَقالتْ : خُطَّتا خَسَفٍ وما إن أرَى مِنْ حَظْوَةٍ للمُسْتَخِير
وَلَكِن إنْ عَزَمْتُ فكُلُّ شىءٍ أحَبُّ إلىَّ مِنْ وَجْهِ الكَبير
لأنَّ المَرْءَ بَعْـدَ الفقر يَثْرى وَهَذا لايَعُـوُد إلى صَغير [2]

ومن خلال الحكاية السابقة أرى الغزال قد أوجز فى القصة إيجازاً شديداً ، وركز على العقدة والحل ، مما يؤكد مدى فهم الغزال لفنيات القصة وأصولها البنائية فى وقت مبكر جداً ، مما نبه عليه نقاد القصة فى العصر الحديث ، فالعقدة تجلت فى موقف الفتاة ، والحل وضح فى رأيها النهائى من خلال تعليلها العميق . وأظن أن هذا الحل هو للغزال نفسه ، وكأنه ينصح أولياء الأمور باختيار الكفء فى السن لبناتهم ، مما يؤكد لنا مدى قرب الغزال من قضايا المجتمع ، وحرصه على معالجة هذه القضايا بشكل طريف مبتكر وهو القصة .

---

[1] ـ المصدر السابق .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨١ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن القضايا الاجتماعية التى اهتم بها الغزال ، وتعد امتداداً للقضية السابقة . ما يقوم به بعض الشيوخ من كبار السن من شراء الجوارى ـ صغيرات السن ـ للاستمتاع بهن مما يخرج الشيخ عن وقاره وحلمه ، ويجعله مسخاً لصفات الوقار والحلم المفترض أن تكون فى الشيوخ ، وهى قضية تناولها الغزال فى شكل حكاية دار حوارها بين الغزال ، وبين هذا الشيخ الذى لم يحدده ، وكأنها قضية عامة ، وأكاد أجزم أنها موجودة حتى فى عصرنا الحاضر ، حيث أجد كبار السن يسعوْن للزواج من فتيات صغيرات السن ، والحوار يدور على النحو التالى ، فالغزال قد رأى الشيخ وبجانبه فتاة صغيرة السن جميلة ، فسأله كيف توصلت إليها ؟ فأجابه الشيخ بدينارى ، فخوفه الغزال من الله ، فرد عليه الشيخ بأن يتركه ينعم بدنياه ، ويستمتع بخير متاعها ، ثم يكرر الغزال تخويفه ، والشيخ يرد بمثل ما قال حتى يئس الغزال ، وأيقن أن وعظ هذا الشيخ محال ، خاصة وأن الشيخ قال : إن كل شىء بقدر ، وفى النهاية سنموت ، وكل حسب ما قدر له إما إلى الجنة ، أو إلى النار ، يقول الغزال من السريع :

أبْصَرتُ شَيْخاً قُـرْبَهُ نَـاهِـدٌ يَلْـثُـمَهَا كَالقَمَر السَّـارى
أسْنَـانُـها فِيما يُـرى لُـؤْلُـؤٌ صُفِّـفَ فى فيها بِـأسْطـار
إلى لِثَـاتٍ شِبْـهِ مَادِينَـجٍ دَكُّـوا بِـهِ صَنْعَةَ مِـئشَـار
أنى تَـوَصّلْتُ إلـى هَـذِه فقال لى : لُطْفِى وَدِينَارى
خَـوَّفْتُـه اللـه وَرَوّعْتُـهُ مِنْـهُ بِتِرْدَادٍ وَتَـكْـرَار
فقـال ـ والشيخ خبيثٌ إذا كُلِّم مِنْ مشيخة النّـار ـ :
بِـاللهِ دَعْـنى أقْـضى مِـنَ الدْ دُنيْا لُـبَانَـاتى وَأوطَـارى
ألم تَـقُل لى أنت أن كُلُّ مَـا يَعْـلَـمُهُ النـّاس بِمِقْـدار ؟
وكُـنْتُ قـد كَـلَّمـتُهُ مَـرّةً فلم أجد بُـدّاً مِنَ اقْـرارى
فـقـال وَالوَعْظُ مُحَـالٌ إذنْ ـ وأنـت ذو عِلـم وأفكـار ـ
إن كانت الأعمالُ مَحْـتومَـةً مِنْ قَبْل أن يَبْرأنا البَارى
فَلَسْتُ أسْطِيعُ سِوى مَا تَرَى إذ كُلُّ ما كـان بأقْـدَار
وَالخيْر وَالشَّـر إذنْ طَـاعَـةٌ ونحنُ فى مِنْهَـاج أبْـرار
إذا تُـوفِّـيتُ فإنـى لِـمَـا قُـدِّر مِنْ جَـنّـةٍ أو نَـار [1]

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢ ـ ١٩٤ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٧.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويتضح من خلال المحاورة السابقة أنها غير المقطوعة الأولى ، فالفتاة فى الأولى لها الاختيار وأمامها الفرصة متاحة بهذا الاختيار ، واختارت ما يتفق ، وعواطفها وشبابها .

أما فى الثانية فالفتاة مملوكة ؛ ليس لها حق الاختيار ، ومن هنا كان ذكاء الغزال فى أن جعل المحاورة بينه وبين الشيخ ، فهو الذى يملك وله حق أن يبقى الفتاة ، وأن يعتقها ، فالبناء القصصى نام ومتطور ، حيث بدأ الغزال بالوصف فى أسلوب سردى ، ثم انتقل إلى الحوار ، ومع تصاعد الأحداث رأينا إصرار الشيخ ، وتصميمه على الاستمتاع بالفتاة لدرجة أن علل تعليلاً خاطئاً وجعل الأمر قدرياً ، وانتهى الأمر بعدم اهتمامه بنهايته إلى الجنة أو إلى النار طالما سيستمتع بدنياه .

ومن الفنون الشعرية التى استخدم فيها الغزال أسلوب الحوار (فن الهجاء) ، وأجده قريباً بشكل أو بآخر من القضايا الاجتماعية ، والتى غلب عليها أسلوب الحوار بعامة ، ومنها هذا الحوار الطريف الذى نظمه الغزال فى هجاء أبى حازم من خلال حوار تخيله الغزال بينه وبين سيدنا آدم عليه السلام فى المنام ، حيث يسأل الغزال سيدنا آدم عليه السلام سؤالاً يكشف عن مدى سخريته واستهزائه بأبى حازم طالباً من سيدنا آدم عليه السلام أن يخبره هل أبو حازم هذا من أبنائه ونسله ،فيرد سيدنا آدم عليه السلام قائلاً : بأنه ليس من أبنائه ونسله وإلا (فحوا أمكم طالق) ، يقول الغزال من السريع :

سَألتُ فى النَّومِ أبى آدمَاً فقُلْتُ والقَلْبُ بهِ وَامِقُ
أبْنُكَ باللهِ أبُو حَازِمٍ ؟ صلىّ عليكَ المَالِكُ الخَالِقُ
فَقَال لى : إنْ كَانَ مِنِّى ومِنْ نَسْلى فَحَوا أمُكُمْ طَالِقُ [1]

ويتضح من خلال الحوار السابق مدى ظرف الغزال ، وخفة روحه ، ومُخيلته الواسعة ، والتي كانت سبباً في لجوء الغزال إلى أسلوب القصة والحوار .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٩.
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي المقطوعة التالية نتأمل هذه الحكاية العجيبة عن القاضي يُخامر ، وهو من الشخصيات التي أكثر الغزال من هجائها ، ويبدو أنه محق في ذلك لما عرف عن هذا القاضي من جهل واستغلاله النفوذ وسلطاته ، ففي هذه الحكاية العجيبة التي يقول فيها الغزال أنه سمعها عن هذا القاضي ، حيث قرأ عليه أحد الغلمان سورتي (طه وغافر) ، فما كان من هذا القاضي الجاهل إلا أن قال متعجباً من قال هذا الكلام إنه شاعر مجيد ، فيقول الغزال إنه أراد صفع قفاه ، ولكنه خاف سطوته ، وظلمه ، ويبلغ الأمر مداه في السخرية من هذا القاضي ، حيث يكمل الغزال الحكاية بأنه أتى يوماً بتيس نادماً تصيبه الحسرة ، فطلب قائلاً بأن يذبحوه فما كان من التيس إلا أن رد قائلاً (إنـِّي يخامر) يقول الغزال من المجتث :

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً مِنْ آبدَاتِ يُخَامِرْ
قَرَا عَلَيْهِ غُلامٌ طَهَ وَسُورَةَ غَافِرْ
فقالَ : مَنْ قَالَ هَذا؟ هَذا لِعَمْرىَ شَاعِرْ
أرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرْ
أتِيْتُ يَوْمَاً بتَيْسٍ مَسْتَعْبِراً مَتَحَاسِرْ
فقلتُ : قُومُوا اذبَحُوهُ فقال : إنِّى يُخَامِرْ [1]

وواضح مدى استهزاء الغزال وسخريته بهذا الرجل من خلال هذه الحكاية العجيبة بحق ، والنهاية الطريفة غير المتوقعة .

وأمضي مع الغزال في حكاية أخرى عن هذا القاضي يخامر حيث دار بينهما حوار بدأه الغزال في شكل قصصي مُشوّق ، فصور القاضي في صورة الإنسان الذي تقلد صنعة ليست له ، وهو غير قادر على مواجهة تبعات هذا المنصب ، وكأنه غريق في بحر ملئ بالأخطار ، ثم يطلب منه الغزال أن يستعفي من القضاء ، فيرد عليه القاضي بأنه سيفضحه على الملأ بما كان من الغزال في واقعة الأهراء ، فيرد الغزال أن الفضيحة الكبرى أن يتولى شخص مثله القضاء ، وهو الجاهل المتخبط في أحكام الدين ، ولا يثبت في آرائه ، ويختم مشبهاً القاضي بالذباب الذي يحاول حمل الصخر ، أو السلاحف التي تحاول أن تسوق السفن ، يقول الغزال من الطويل :

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقلتُ لَهُ كَلَّفْتَنِى فَوْقَ صَنْعَتى كَمَا قَلدوا فَصْلَ القَضَاءِ يُخَامِرا
فأصْبَحَ قد حَارَتْ به طُرُقُ الهَوَى يُكَابِد لُجِّيا من البَحْر زَاخِراً
فقلت : لو استعفيت منها ، فقال لى : سَأفْضح ما قد كان منك مُغايراً
فقلت له : رَأسُ الفُضُوح إقامَةٌ عَلَيْنا كَذَا مِنْ غَيْر عِلم مُكابراً
وَخَبْطُكَ فى دين الإلَهِ على عَمىً خِبَاطَةَ سُكْرانٍ تَكَلَّمَ سَادِرَاً
فَلَنْ تَحْمِلَ الصَّخْر الدُّبابَ وَلَنْ تَرى السَّلاحِفَ يُزْجِينَ السَّفينَ المَوَاخِرا [1]

ومن خلال الأبيات ألحظ أن الغزال قد حوّل نقده للقاضي ـ من خلال الحوار والحكاية ـ إلى واقع ملموس ينبض حياة وحركة تقرب إلينا شخصية القاضي ، تكشف عن حقيقتها كل ذلك في إطار مشوق ، وشكل بديع من أشكال الحوار والحكاية .

ومن محاورات الغزال التي تميزت بالدعابة وبالظرف تلك المحاورة التي دارت بينه وبين صديقه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة حين سأله صديقه عن رأيه في أبيه ، فقال له الغزال إنه معلم حسن الحساب ، وكان رأي الغزال أن يصمت حتى لا يبدي رأياً يُغضب صديقه ، ولكن سرعة بديهة الغزال جعلته يرد بجملة فيها تورية وتعريض ، ففطن صديقه لما وراء الكلمات ، ولكنه من ظرفه وأدبه قال للغزال : خلطت مديحك بالسِّباب ـ أي أن أباه بخيل يضيّق على أهله وعياله ـ فرد الغزال مجاملاً صديقه : إن المديح هو الأقرب من المعنى الذي تريده وهو الصواب ، يقول الغزال من الوافر :

يُسَائلنى المُنيقلُ عَنْ أبِيهِ وَكَانَ الصَّمْتُ أدنى للصَّوَابِ
فقلت له ولم أظْلمْهُ شَيْئاً أبُوكَ مُعَلِّمٌ حَسَنُ الحِسَابِ
فقالَ ـ وللفتى أدبٌ وظُرفٌ ـ خَلَطْتَ لنا مَدِيحكَ بالسِّبابِ
فقلت له المَديحُ أدقُّ فيه إذا فكَّرتَ مِنْ حَذْو الصَّوابِ [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٩ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٣٠ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٦.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولعلي ألحظ هنا سرعة بديهة الغزال ، وحسن تخلصه من الموقف بشكل فيه ظرف ولا يجرح صاحبه ، وكان فطناً سريع البديهة ، وألحظ دقة استخدام حرف العطف الفاء الذي يفيد الترتيب والتعقيب ، مما يدل على تسارع الحوار ، وعدم التمهل في الرد ، أو الإجابة نظراً لشدة ذكاء الاثنين .

ومن بديع قصص الغزال وحكاياته التي رواها عن نفسه وقالها أثناء مُقامه في العراق رغبة منه في الرد على مَنْ عدّوا أن شعر أبي نواس لا يساويه شعر غيره ، فأنشدهم هذه المقطوعة موهماً إياهم بأنها من شعر أبي نواس وهي في الحقيقة للغزال ، وكأنه يثبت من خلالها مقدرته الشعرية أمام شعراء المشارقة ، والقصة تحكي موقفاً من مواقف الغزال حين رأى شاربي الخمر قد نفد خمرهم ، فحمل زقّ الخمر ، وتحمل العناء ذاهباً إلى الحانة ، ولما وصل إليها نادى على صاحبها ، فهب إليه سريعاً خفيفاً وهذا طبعه ، فهو لا ينام إلا قليلاً ، فطلب منه الغزال أن يسقيه الخمر فلما سقاه وكان الخمر جيداً مما أدخل السعادة والسرور على الغزال فما كان منه إلا أن خلع ثوبه ، وأعطاه إلى صاحب الحانة دليل رضاه عن الخمر ، وعن خفة الخمّار ، ثم طلب من صاحب الحانة أن يعيره ثوباً يستتر به ، وأقسم حالفاً بالطلاق أن يعيده إليه ، ثم عاد إلى صحبه بالخمر ، فرحبوا به وجعلوا يفدُونه لما جاء به من الخمر إليهم ، يقول الغزال من الطويل :

تـدَارَكْتُ فى شُرْبِ النَّبيذِ خَطَائِـى ... وَفَارَقْتُ فِيهِ شِيمَتِى وَحَيَائِى
وَلَمَّا رَأيْتُ الشَّرْبَ أكْدَتْ سَمَاؤُهُمْ ... تَأبَّطْتُ زقِّى وَاحْتَسَبتُ عَنَائِى
فَلَمَّا أتَيْتُ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ ... فَهَبَّ خَفِيفَ الرُّوح نَحْوَ نِدَائِى
قَلِيلَ هُجُوعَ العَيْن إلا تَعلَّةً ... عَلَى وَجَلٍ مِنِّى وَمِنْ نُظَرَائِى
فَقُلتُ أذِقنِيهَا فَلَمَّا أذاقَنى ... طَرَحْتُ إلَيْهِ رَيْطَتى وَرِدَائِى
وَقُلْتُ أعِرْنى بِذلةً أسْتتر بهَا ... بَذَلْتُ فِيهَا طَلاقَ نِسَائِى
فَوَ اللهِ مَا بَرَّتْ يَمِينى وَلا وَفَتْ ... لَهُ غَيْر أنِّى ضَامِنٌ بوفائِى
وَأبْتُ إلى صَحْبى وَلَمْ أكُ آيباً ... فكُلٌّ يُفَدِّينى وَحَقَّ فِدَائِى[1]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١٧.
ـ المطرب ، ص : ١٤٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهذا الموقف من حياة الغزال والذي جاء في شكل قصة قصيرة نظمها شعراً يحكي من خلالها موقفاً واحداً ، يُظهر براعة الغزال في استخدام أسلوب السرد القصصي ، والانتقال بالقارئ ـ ببراعة ولطف ـ إلى معايشة الموقف بكل تفاصيله ودقائقه ، كما هي العادة في أشعاره .

وأصل إلى أروع ما نظم الغزال من القصص الشعري والحوار ، وهي تلك القصة الشعرية الطويلة التي صاغها الغزال في قصيدتين تختلفان وزناً وروياً ، ولكنها مع هذا متلاحمة الأجزاء ومترابطة المعاني ، وقد أراد الغزال من وراء نظم هذه القصة أن يحاكى شاعر عباسى يُدعى (راشد بن إسحاق وشهرته ابن أبى حكيمة) ، وقد اشتهر هذا الشاعر بلون من الشعر يسمى (فن التعنين) ، حيث كان يسرف فى وصف عنته ورثاء متاعه ، وقد توافرت فى قصة الغزال كل عناصر القصة الفنية من مقدمة وبداية ووسط ، حيث تتصاعد الأحداث وصولا إلى القمة أو الذروة ، ثم النهاية والتى جاءت على غير ما يتوقع بجانب الشخصيات ، والتى وصفها الشاعر وصفاً دقيقاً جمع فيه بين الوصف الحسى والنفسى بجانب الحوار الذى جاء سلساً سهلاً ، وإن كان قليلاً وقد اعتمد فى البداية على أسلوب السرد القصصى ، حيث بدأ متحدثاً عن هذه الجارية التى خرجت إليه ، وقد قلبت ثوبها الداخلى ، وقلبها مضطرب يكاد يسمع خفقانه ، ثم يصف قدها ويشبهها بالظبى ، ويصف جمال ابتسامتها ، يقول الغزال من الكامل :

خَرَجَتْ إليك وثوبُهَا مَقلُوبُ ولِقَلبها طَرَباً إليك وَجيبُ
وكأنها فى الدّار حِينَ تعَرضَتْ ظَبْيٌ تَظلل بالفَلا مَرْعُوبُ
وتبَسّمَتْ فاتَتْكَ حِينَ تبسمت بِجُمَان دُرٍّ لم يَشِنْه ثُقُوبُ [1]

وينتقل الغزال فى وصف حالته هو ، حيث تملكه الشوق ، ودواعى الصبا والضلالة والغواية ، وقد حسبته الجارية مُغرماً بها ، وقد عرف ما فى نفس الجارية ، وشدة رغبتها ، فضمَّها إليه ، ولانت له فى استرخاء ونعومة ، ولم تبد أى تمنّع أو صدّ :

وَدَعتْكَ دَاعِيةُ الصِّبا فتطربت نفسٌ إلى دَاعِى الضّلال طَروبُ
حَسِبتْكَ فى حَالِ الغَرامِ كَعَهْدِهَا فى الدار إذ غُصْنُ الشبَابِ رَطِيبُ
وَعَرفْتُ ما فى نفْسِهَا فضمَمْتها فَتسَاقطَتْ بَهْنَانَةٌ رُعْبُوبُ

---

١ ـ انظر : ـ نفح الطيب ، ص ٢٥٥ .
ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٢٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم أصل إلى قمة التشويق والإثارة فى القصة ، حيث تظهر شدة رغبتـه ، وشـدة رغبتهـا ، ويصف الغزال حالته حيث تحللت نفسه من شدة اللذة ، حتى كاد فؤاده يذوب :

فقبَضْتُ ذاكَ الشَىء قبْضَة شَاهِن ... فَنَـــزَا إلىَّ عَضَنَـّكٌ حُلبُـوبُ
بِـيَدى الشِّمال ، وللشِّمال لَطـافـة ... لَـيْسَتْ لأخْـرى وَالأدِيـبُ أريـبُ
فأصَابَ كَفِّى مِنهُ حِينَ لمسْـتهُ ... بَـللٌ كمـاءِ الـورْدِ حيـن يَسيبُ
تَحَلّلتْ نَفْسِى لِلَـــذَّةِ رَشْـــحِهِ ... حتى خشِيتُ عَلى الفؤادِ يَذوبُ

ثم تأخذ القصة منعرجاً آخر ، حيث يحكى لنا الغـزال عـن ردة فعلـه ، وكيـف وقـف عاجزاً أمام رغبة الجارية ، حيث تقاعس الملعون ، وتخاذل حين دعاه ، وأبى إباء شديداً كأنه قـد ارتكب جناية ، وجُرماً عظيماً ، وحُـكِم عليه بالموت وكأنه يساق إليه ، وظل الغزال هكـذا يعـانى ضعفه حتى لاح نور الصباح ، فتوجه إليها متسائلاً وهو فـى حالـة مـن الخجـل : هـل لـك حاجـة عندى ؟ فما كان من الجارية إلا أن أجابته عجباً لك لاتملـك شـيئاً ورغـم ذلـك تـسخر ، وتابعـت قولها ساخرة منه ، وهى تسبُّـه بأمه (حر أمك قرن وفيه عوارض وشعوب) :

فتـقاعسْ الملعُونُ عَـنْـهُ وَرُبّـما ... نادَ يْتُهُ : خَيْراً ، فلـيْـس يجيـبُ
وَأبى ، فحقّقَ فى الإبَـاء ، كأنّـه ... جـان يُقـادُ إلى الـرّدى مَـكـروبُ
وتغَـضّنَـــتْ جَنـبـاتُــهُ فكَـأنـهُ ... كِـيـرٌ تَـقـاد مَ عهده مـثقوبُ
حتى إذا ما الصُّـبحُ لاحَ عَـمُودُهُ ... قبَساً ، وَحَانَ مِنْ الظلام ذُهُـوبُ
ساءلتها خَجَلا : أما لـك حاجــة ... عندى !؟ فقلت: سَاخِرٌ وحَـرُوبُ
قالت حِرُ أمِّكَ : إذا أردتُ وَدَاعَها ... قَرِنٌ وفيـه عُـوارضٌ وشُعُـوبُ

ثم تكتمل حلقات القصة فـى قـصيدة أخـرى ، فيبـدو أن الغـزال حـين عجـز عـن مجـاراة الجارية ، فقد طرق باب الأطباء سائلاً عن حل أو علاج لعجزه طالبـاً بعـض مـا يعينـه ، حيـث إن شبابه قد ولى وتوالت عليه العلل ، فوصف له الأطباء عقاقير كـثيرة ومنهـا شـرب العـسل ، يقـول الغزال من المتقارب :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَـألتُ الأطِـباءَ عَنْ بَعْـضِ مَـا يُـعِينُ على ما يُـريدُ الرّجُـــلْ
إذا ما الشَّـبابُ انقَضَـى عَـهْـدُهُ تَـولَّـى ووالتْ عليـــهِ العِـلَلْ
فَـــسَمَّوْا عَقَـاقيــر لى جَمَّـــةً فأكثرهم قال شُـــــربُ العَسَـــلْ
وكُـلُّ الذى زَعَــموا لَـيْـسَ فى مُشاشِـــى لأجْمَعَــه مُحْـتَـمَـلْ [1]

وتمضى القصة ويخبرنا الغزال بأنه قد جرب ما استطاع بدون فائدة :

وَجَرَّبْتُ ما اسْطَعْتُ مِنْ كُل ما قَدرتُ فَلَمْ تُغْنِ عنِّى الحِيلْ

فما كان من الغزال إلا أن عاد إلى الأطباء يسألهم فقال لـه الطبيـب : إن سبب عجـزه هـو ذهاب شبابه ، وقال له : إذا استطعت أن تعيد شبابك فذاك وإلا فلا تشغل بالك بهذا الأمر ؛ لأن للزمن أثراً كبيراً على الإنسان ، حيث تهزل صحته ، وتـضعف أعـضاؤه ، ثـم تـابع الطبيـب فـى النهاية قائلاً فى استنكار وحدة ، ماذا تريد إذن يا رجل ؟ فمثلك مثل من حضرته الوفاة ، فهـل يمكن لطبيب أن يمد له فى أجله ؟ وهذا ردّ حاسم وقـاطع يقطع الطريـق علـى الغـزال ؛ ليتوقـف عـن السؤال أو طلب العلاج :

فَـعُدتُ إلى بَـعْضِـهم سَائـــــلا كــذلك يَسْـــألهم مَنْ جَـهـلْ
فقال مقـــــــالا إذا ما بـــلاه بالِيـــهِ لم يُـلـفِ فيـه خَـلـلْ
إذا اسْطَـعْتَ أن تَـــستعِيدَ الشّبابَ فَـذاك وإلا فلا تَـشْتغِلْ
أرَيْتُكَ هـذا الـذى تـبتـغـــى لـه الطّـبُّ يَـنـهَضُ أو قد بَطَـلْ
قلـت لـه : قــد وهـى أصْلُـهُ فـإن هَـمَّ أسَلَمَـــهُ فانْجَــدلْ
فقال وَمَـعّــر لــى وَجْهَــهُ فمـــاذا تُـريدُ إذنْ يا رَجُـــلْ ؟
رأيْـتَ الذى حَضَرتْـهُ الوَفَـاةُ يَمُـدُّ الطَّبيبُ له فى الأجَـــلْ

وتأتى النهاية المؤلمة ، حيث يصور لنا الغزال حالته بعد رد الطبيب ، وشدة حزنـه ، وأساه ، ولوعته ، فقد رفع صوته بالبكاء والصراخ والعويل متفجعاً كأم أخبرت أن ابنها قد قتل :

فأعْـولتُ إعْـوالَ مَـفْـجُـوعةٍ تُخَـبَّرَ أنَّ ابنـها قـد قُـتِلْ

١- انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٨ ـ ٢١٠ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تلك هى القصة الشعرية التى أراد بنظمها الغزال محاكاة الشاعر العباسى ابـن أبـى حكيمة ، وهى كما أرى أقرب إلى الدعابة والظرف ، وإثبات المقدرة الشعرية أكثـر ممـا تهـدف إلى شىء آخر يمكن أن يتوهمه القارىء عن الغزال ، فما من رجـل يريـد أن يُظهـر نفسه أمـام النـاس بصورة العاجز أمام النساء ، فما بُالنَـا إذا كـان الأمـر يتعلـق بـشاعر قرطبـة الأول ، وسـفيرها إلى الخارج .

وبعد ، فيمكن أن أختم حديثي عن القصة والحوار عند الغزال بعدة ملاحظات منها شيوع القصة والحوار فى شعره بدرجة تغلب على قصائده ومقطوعاته ، وكأنه اتخذ مـنهج القـصة صـورة لإبداعه الشعرى ، وملاحظة أخرى هى دقة التفاصيل ، وحيوية الأحداث ، والحركة التى تجعـل القارىء فى حالة من الإثارة والتشوق لمعرفة الأحداث ، وفى ترقب وتشوق للنهاية ، والتـى تـأتى غالباً ما تأتى على غير المتوقع ، ثم هناك أمر يتعلق بفنيات القصة ، والتى تنبه إليها الغــزال فـى هذه المرحلة ، والتى لا تبتعد كثيراً عن فنيات القصة فى العصر الحالى من حيث البداية المـشوقة ، وتصاعد الأحداث ، ثم العقدة ، وأخيراً يأتى الحل فى النهاية .

وعلى أية حال فيمكن لي بعد هذا العرض الموجز للقصة والحوار عند الغزال أن أضـعه فـى مقدمة شعراء العربية الذين برعوا فى هذا اللـون من الإبـداع الشعرى ، وهو الشعر القصصى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سادسا : الموسيقى الشعرية

من أهم ما يميز الشعر عن النثر هو العنصر الموسيقى ، فالموسيقى كما يقول الدكتور بدوى طبانة : " داخلة فى مفهوم الشعر عند الإنسانية كلها مع التسليم باختلاف نوع الموسيقى بين اللغات المختلفة ، ومدى تذوقها وتقديرها والاستمتاع بها عند مختلف الأجناس ، ولكنها ـ على كل حال ـ لون من ألوان التقاليد الفنية اعترفت بها الإنسانية ، وميزت بها التعبير الشعرى من غيره من صنوف التعبير اللغوى ، ومعنى هذا أن المضمون لابد أن يصاغ فى قالب معروف ؛ ليحقق غايته التى ألفت الجماعة أن تراه فيه " [1] .

ومن ثمَّ ، كان اهتمام النقد الأدبى بهذا العنصر الموسيقى قديماً وحديثاً ، والمراد بموسيقى الشعر هى : (أوزانه وقوافيه وإيقاعاته) ، فالوزن : (أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية) ، والقافية : (شريكة الوزن فى الإختصاص بالشعر) ، وأما الإيقاع : (فهو فن فى إحداث إحساس مستحب بالإفادة من جرس الألفاظ ، وتناغم العبارات ، واستعمال الأسجاع ، وسواها من الوسائل الموسيقية الصائتة) .

وقد وضع البلاغيون شروطا لاختيار ألفاظ الشعر ، وطريقة نظمها فى الجمل ، وجعلوا من ذلك تلاؤم حروف اللفظة ، وسلاسة أصواتها ، وانسجامها مع أخواتها فى الجملة ؛ ليخرج الكلام خفيفا على اللسان لذيذا فى السمع ، كما ذكر البلاغيون والنقاد قواعد لاستحسان القافية ، وعدم نبوها ، وقلقها ، ومن ذلك مثلا ألا تكون مستدعاه متكلفة ، وللموسيقى صلة قوية بالمعنى ، أو الغرض الذى يقصد إليه الشاعر ، ولهذا كان لكل باب من أبواب الشعر ألفاظه التى تناسبه من ضخامة الجرس وطنينه ، ورخاوته ، ولينه ، أو رجعه وطنينه ، ووصفوا الألفاظ بالعذوبة والرقة ، والفخامة والقوة ، والقعقعة والجلبة ، وكونها من الحلق مصدر الجهر ، أو من الأنف مصدر التنغيم [2] .

---

[1] ـ التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى ، د/ بدوى طبانة ، ط ٢ نشر الأنجلو المصرية١٩٧١ م ، ص : ٣٠٤ .

[2] ـ انظر : ـ الهمس في نقد الدكتور محمد مندور ، د/ عبد اللطيف الحديدي ، ط١ سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ص : ١٧١ .
ـ والصورة الفنية ، إبراهيم عبد الرحمن الغنيم ، ط١ الشركة العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م) ص : ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
ـ وفي محيط النقد الأدبي ، د/ إبراهيم أبو الخشب ، ص : ١٤٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقبل الحديث عن الموسيقى فى شعر الغزال أود الإشارة إلى أن شعراء الأندلس ، قد جددوا فى أوزانهم كما جدد شعراء المشارقة فى أنواع الشعر ، فنظموها على الأوزان الخفيفة المبسطة ، والألفاظ الرقيقة المنغمة ، وأكثروا من مجزوءات البحور ،كما جددوا فى القوافى ، فأحدثوا المزدوج والمسمط ، ونلمس هذا التجديد عند شعراء الاتجاه المحدث من المشارقة من أمثال أبى نواس وأبى العتاهية ، فكان طبيعياً أن يتأثر الأندلسيون بتلك النهضة المشرقية التى حمل لواءها شعراء الاتجاه المحدث ، وخاصة بعد أن عاد الغناء إلى الشعر ، فاتصل به فى العصر العباسى بعد أن انفصل عنه فى العصر الإسلامى والأموى ، وأضيف إلى ذلك تأثر الأندلسيين بأحوال بيئتهم التى جنحت إلى الترف واللهو ابتداء من أواخر عصر الحكم الربضى ، ثم عهد ابنه عبد الرحمن الذى تبنى زرياب المغنى فأحدث ثورة ـ لا فى الغناء فحسب ـ ، بل فى الشعر بشتى موضوعاته ، فطور الأندلسيون أوزان شعرهم ، ومالوا بها إلى البحور غير المتدة ، وأكثروا من مجزوءات البحور ، ورقت ألفاظهم ، وسلست عباراتهم ، فإذا الألفاظ رقيقة وإذا العبارة منغومة [1] .

وأما عن الموسيقى فى شعر الغزال ، فالحق أن من يتفقد شعره يجده ـ فى الغالب ـ قد اختار ألفاظه بعناية ، فحصل له الجرس المراد ، ونمق مقاطع كلامه تنميقا جعل ألفاظه مساوقة لمعانيه ، واستطاع أن يلائم بين فكره ، ولغته ، وعاطفته ، وربط كل ذلك بالإيقاع والوجدان .

وعلى هذا فإن الموسيقى عند الغزال تنقسم إلى خارجية وداخلية :

أما **<u>الموسيقى الخارجية</u>** فهى التى تصدر عن **<u>الوزن والقافية</u>** :

أ- <u>الوزن</u>: فلقد تعارف شعراء العرب منذ القدم على طرق خاصة لنظم الشعر ، واتخذوا قوالب صوتية لا يحيد عنها الشاعر إلا شذوذا ، ولما جاء الخليل بن أحمد الفراهيدى استخرج تلك الضوابط ، ووضع لها القواعد وسماها بحور الشعر ، فهناك بحر الطويل ، وهناك الوافر ، وهناك البسيط وغيرها .

والحق أن شعر الغزال لم يخرج عن بحور الكامل ، والمنسرح ، والسريع ، والرمل ، والخفيف ، والرجز ، والمجتث ، والمتقارب ، والطويل ، والوافر ، والبسيط .

---

١ ـ انظر: الأصول الفنية للشعر الأندلسى ، ص : ٣١٥ ـ ٣١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انظـر الـجـــــــدول :

م	البحر الشعرى	عدد القصائد	عدد المقطوعات	عدد النتف	عدد الأبيات
١	الطويل	٥	٦	٦	١٤٠
٢	الكامل	٢	٧	٦	٩٠
٣	الخفيف	١	٣	٥	٤٢
٤	السريع	٤	٣	١	١١٢
٥	البسيط	٣	٣	٢	٨٥
٦	الوافر	١	٥	١	٤٦
٧	الرمل	٢	٣	-	٦٩
٨	الرجز	١	٢	٢	٣٠
٩	المتقارب	١	١	٢	٢٥
١٠	المجتث	-	١	-	٦
١١	المنسرح	-	-	١	٢

ولي أن أتساءل هل كان الغزال يختار البحر الشعرى عن عمد ووعـى أم أن اختيـاره كان استجابة للعاطفة بعفوية ، وبدون قصد ، وحسبما يقتضى الموقف .

وقبل الإجابة : يحسن بي أن أشير إلى موقف النقاد من مسألة اختيار البحر ، حيث افترقوا على فرقتين : فرقة ترى أنه لا علاقة بين الوزن الـشعرى والموضـوع ، وهـو ممـا يعنـى أن الأمرين متساويان سواءً عمد الشاعر إلى الوزن أم لم يعمد إليه ، وفرقة أخرى ترى ضرورة اختيـار الشاعر للوزن قبل الشروع فى النظم ، وذلك لعلاقة الوزن بالموضوع والغرض .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما عن الغزال فالذي أراه أنه لم يكن يعمد إلى اختيار الوزن ؛ لأنه كان يصدر فى شعره عن عاطفة جياشة ، وطبع غير متكلف ، وهو ينظم الشعر معبراً عن المواقف والأحداث التى يعيشها بحماسة ، وعاطفة ثائرة ، ولذلك جاءت البحور التى اختارها متنوعة الأغراض ، ولم نجد بحراً قد تفرد بغرض معين .

فبالنظر إلى أكثر البحور استعمالا عنده أجد بحر الطويل : " وهو مزدوج التفعيلة (فعولن مفاعيلن) ، وهو أعلى البحور العربية درجة ولذلك أكثر شعراء العرب من استخدامه ويناسبه الغزل " [1] ، ولذلك كان استعمال الغزال له أمراً طبيعياً بحكم تأثر الغزال الشديد بالشعر المشرقى ، وسيره على نهج وخطى الأقدميين ، فمن استعمالات الغزال للطويل فى الغزل أجد قوله :

كتبْتُ وشَوْق لا يُفَارقُ مُهْجَتى وَوَجْدِى بكُمْ مُسْتحْكِمٌ وَتَذكُّرى
بِقرطبَة قلبِى وجسْمِى ببَلّدَة نأيْتُ بهَا عَنْ أهْلِ ودِّى وَمَعْشَرى
سقى الله من مُزن السحائب ثَرّة دِيَارُكُم التِّى حَوَت كُلِّ جُؤذر [2]

وقوله أيضا :

ولا والهَوى ماالإلفُ زار على النَّوى يجوبُ إلىّ الليل فى البلدِ القفْر
ولكنّهُ طيفٌ أقام مثالهُ لعينىّ فى نومى خواطرُ فى فِكرى [3]

لكني أجد للطويل استعمالات أخرى عند الغزال مثل الهجاء ، فأراه يقول مخاطبا القاضى يخامر :

فَسُبْحَانَ مَنْ أعْطاكَ بَطْشاً وَقُوَّةً وَسُبْحَانَ مَنْ وَلَّى القَضَاءَ يُخَامِرَا [4]

١- خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، محمد الهادى الطرابلسى ،المجلس الأعلى للثقافة بيروت ، ص٢٢.
٢- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ص : ٣٥٣ .
٣- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٤ .
ـ التشبيهات ، ص : ١٦٣ .
٤- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢.
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك المديح مثل قوله :

فَــوَ الله لا أدْرى وإنِّـــى لشَاعِرٌ إلىَ أى وَجْـهٍ مِـنْ مَـدِيـحِك أقـصِـدُ
كَأنَّ المُلوكَ الغُلْبَ عِنْدَكَ خُضَّعاً خَـوَاضِـعُ طَيْرٍ تـتَّـقى الصَّـقْـرلُـبَّـدُ [1]

وكذلك الزهد نحو قوله:

ألَسْتَ تَرَى أنَّ الزَّمَانَ طَـوَانِـى وَبَـــدَّلَ خَـلْـقَـــه كُلَّـهُ وَبَـرَانِـى
تَـحَيَّفَنِى عُضْواً فَـعُضْواً فلم يَـدَعْ سِوَى اسْمِى صَحِيحاً وَحْدَهُ وَلِسَانِى [2]

@ أما ثانى البحور استعمالا عند الغزال فهو بحر الكامل : " وهو موحد التفعيلة (متفاعلن) وقد شاع استخدامه ومجال الشاعر فيه أفسح من غيره " [3] ، ولذلك تعددت أغراضه عند الغزال ، فقد استعمله فى المجون حيث يقول :

خَرَجَتْ إليك وثوبُهَا مَقلُوبُ ولِقَلبهـا طَـرَباً إليـك وَجيـبُ
وكأنها فى الدّار حِينَ تعَرضَتْ ظَبْـــىٌ تَـظلل بالفَـلا مَرْعُوبُ
وتبَسّمَتْ فاتَتْكَ حِينَ تبسمت بِجُـمَـان دُرٍّ لم يَـشِنْـه ثُقُـوبُ [4]

وفى الغزل أجد قوله :

بَكَرتْ تُحسِّنُ لى سوادَ خِضَابى فكـأن الذى أعَادنى لشبابـى
ماالشَّيبُ عندى والخِضَابُ لِوَاصِفٍ إلا كشمـسٍ جُللـتْ بضبـابِ
لا تُنكِـرى وَضَـحَ المَشِيب فإنمَـا هـو زهرةُ الأفهَـامِ والألبَـابِ [5]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ .
ـ المطرب ، ص : ١٥٠ .
٣ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص : ٢١ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٢ .
ـ نفح الطيب ، ص : ٢٤٦ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفى الزهد قوله :

مَنْ ظَــنَّ أنَّ الـدَّهْـرَ ليْـسَ يُصِيبُهَ بالحَادِثاتِ فإنهُ مَغْـرورُ
فألقَ الزَّمَانَ مُهَوِّناً لِخُطُوبهِ وَانْجَزّ حَيْثُ يَجُـرُّكَ المَقْـدُورُ
وَإذا تَـقَلبّتِ الأمُـور وَلَمْ تَـدُمْ فَسَواءٌ المَحْـزرنُ وَالمَسْـرورُ [1]

وفى الشعر الاجتماعى قوله :

أنَـا شَاعِرٌ أهْوى التَّخلّى دون مـا زَوْجٍ لكَيْمَا تَخْلُصَ الأفكَـــارُ
لَـوْ كُنْتَ ذا زَوْجٍ لكُنْتَ مُـنَغِصَاً فى كل حِينٍ رزقـها أمْتَـــارُ
كَمْ قائِلٍ قد ضاعَ شَرْخُ شَبَابـهِ ما ضَيَّعتْهُ بَطَالَةٌ وعُقَـــارُ [2]

بل ورد فى شعر الفكاهة وذلك فى قوله :

قَـالَ الأمِيرُ مُدَاعِبَاً بِمَقَـالِهِ جَـاءَ الغَـــزالُ بحُسْنِـهِ وَجَمَالِهِ
دَعْـوى الـــذى أوْدى بـهِ منـهُ البَلى لمْ يُقصِرِ المَمْدود مِن آمَالِـهِ
أيْنَ الجَمَال ـ له الجمال ـ مِنْ امْرىءٍ ألقاهُ رَيْبُ الدَّهْرِ فى أغلاله؟ [3]

@ أما ثالث البحور استعمالا عند الغزال فهو الخفيف : " وهـو مـن البحـور المزدوجـة التفعيلة (فاعلاتن مستفعلن) ، ويناسبه الغزل والهجاء والجوانب الاجتماعية " [4] ، فمن أشعار الغزال الغزلية التى جاءت على هذا البحر ، قوله :

ريـعَ قلبى لمـا ذ كرتُ الدِّ يـارا وَتَـنْـوَّرتُ بالنَّخِـيلات نَـــارَا
وازدهَـتْـنِـى ذات السَّنـا ببرُوق من لظاها فما أطيـق اصْطِبَـارَا
والقُروح الفُــؤاد يـزداد للنّـــا ر ومِيضٌ السَّعِير مِنهَـا استِعَارَا [5]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧.
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٦٠ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٢ .
ـ ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص : ١١٢ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٦ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٥ .
٤ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص : ٢٦ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٧ .
ـ يتيمة الدهر ، ج٢ ، ص : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الهجاء فأجد قوله :

قَـدْ أرَدْنا حُسْنَ الثنَـاءِ عَلَـيْكُمْ مُـذ حَللنا فَلمْ نجِدْ مَا نقُـولُ [1]

أما عن الجوانب الاجتماعية التى نظمت على هذا البحر فهى متعـددة ، فمنهـا قولـه فـى الشيوخ الذين يكثرون من كسب الجوارى :

أنَا شَيْخٌ ، وقلْتُ فى الشَّيْـخ مَا يَعْلمُــهُ كُـلّ أبْلَـهٍ وذَهِـيـــن
كل شيْخ تـرَاهُ يُكثرُ مِنْ كسْـبِ الجَوَارى فَخُـــذه لِى بالقُرُون [2]

وقوله أيضا فى وصف حال الناس فى مجتمعه :

لا ، ومن أعْمَـل المَطايا إليه كُلُّ مَنْ يَرتجـــى إليــه نَصِيبــاً
ما أرى هَـهُنا مِنَ النّاس إلا ثَعْلبَاً يطلـــب الدّجـاجَ وذِيبَـا
أو شبيهاً بالقِـط ألقى بعَيْنَـ ـيهِ إلى فــأرةٍ يُـــريدُ الوُثوبَــا! [3]

@ ويأتى بعد ذلك بحر السريع وهو من البحور المــزدوجة التفعيـلة (مستفعلن مفعولات) ، وقد تضمن أغراضاً عديدة عند الغزال ، ومنها الغزل مثل قوله :

كُلِّـفْتُ يَـا قَـلبى هَـوىً مُـتْعِباً غَـالبْتَ مِنهُ الضَّيْغمَ الأغْـلبَا [4]

ومن الهجاء قوله :

سَـألْـتُ فى النَّومِ أبى آدمَـــاً فَقُـلْتُ والقَـلْـبُ بـهِ وَامِــقُ
أبْنُـكَ باللـــهِ أبُـو حَـازمٍ ؟ صلـىّ عليـكَ المَالِـكُ الخَـــالِقُ
فَـقَـال لى : إنْ كَانَ مِنِّى ومِنْ نَسْلى فَحَـوا أمُـكُـمْ طَـالِـــقُ [5]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٣ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥٩ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٥ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٤٢ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٧ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٣٤٥ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن المديح قوله :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى إمَامَ الهُدَى والــوَارثَ المَجْـدِ أباً عَنْ أبِ
أنِّـــى إذا أطْـــنَبَ مُـدَّاحُـهُ أوْجَـزْتُ فى القَوْلِ فَلَمْ أطْـنِبِ [1]

ومن النقد الاجتماعى قوله :

يَا خَـاضِبَ الشَّيْبِ مَـدَى عُمْـرِهِ كَمْ ذا الذِى تَسْطِيعُ أنْ تَصْبرَا
هَلْ أبْصَرَتْ عَيْنَاكَ قَـطُّ امْـرَءا أعَـــادَ عُـودَاً يَابســاً أخْضَـرَا [2]

وقد وردت الحكمة فى هذا البحر فى قول الغزال :

يُعْــرِفْ عَقْــلُ المَرْءِ فى أرَبَـعْ مِشيَتُهُ أوّلـهَــا وَالحَــرَكْ
وَدَوْرَ عَيْنَيْـــهِ وألفَــاظُــهُ بَعْــدُ عيهـن يَدُورُ الفَـلَكْ [3]

@ أما بحر البسيط فقد تساوى مع السريع من حيث استخدام الغزال له ، وهو أيضا مـزدوج التفعيلة (مستفعلن فاعلن) ، ويناسبه الغزل والهجاء والمدح [4] ، وهو ما نلمسه عنـد الغـزال ، فمن الغزل قوله :

أقْرِ السَّلام عَلَى إلْـفٍ كَـلِفْــتُ بهِ قَـدْ رُمْتُ شَوقاً وَطولُ الشوق لمْ يَرُمِ
ظَبىٌ تَـبَاعدَ عَنْ قُرْبى وَعَن نظرى فالنَّفْسُ وَالِهَـةٌ من شِـــدَّةِ الأَلَـمِ [5]

ومن المديح قول الغزال :

إنَّ القصَائدَ لم يُجْزِئكَ مُجْريها إلا وقد عُـقِـدَتْ منها نَـوَاصِيها
وَسَرَّحُوُهُنَّ مَمْدودا أعنـتُـهَا تبارزُ الرِّيحَ كُلُّ القَوْمِ يَرْجُوهـا [6]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٦ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٨ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٦١ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠١ .
ـ بهجة المجالس ، ص : ٥٤٨ .
٤ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص : ٢٢ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٠ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .
٦ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٧ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما بالنسبة للهجاء قد بدا كثير الورود على هذا البحر من ذلك قوله :

ما تَشْتَفى أمُّ جُرْجٍ مِنْ مُلاحاةٍ أو تَسْمَعُ الدِّيكَ يَزْقو عَشْرَ زَقْواتِ
جَرْداءُ صَلعَاءُ لم يَبْقَ الزمانُ لها إلا لِسَاناً مُلِحاً بالمَلامَاتِ [1]

وكذلك قوله :

أعْنَى أبا الفَتْح ما قدْ كَانَ يَأمُلَهُ من التَّصانُع والتَّشْريف للدُّور
وكُلّ عَرْضٍ وقَرضٍ كان يَجْمَعهُ حُفَيْرة حُفِرت بين المَقَابير [2]

@ وأصل إلى بحر الوافر : " وهو موحد التفعيلة (مفاعلتن) ، وهو أكثر البحور الشعرية الخليلية مرونة وعلى ذلك فهو يتناول كل الأغراض الشعرية " [3] ، وقد ورد فى شعر الغزال متضمنا الكثير من الأغراض الشعرية كالزهد كما فى قول الغزال :

أرَى أهْلَ اليَسَارِ إذا تُوفوا بَنَوا تلك المَقَابر بالصُّخُور
أبَوْا إلا مُبَاهَاة ً وَفَخْرَاً عَلَى الفقراءِ حتَّى فى القُبُور
فإن يَكُن التَّقَاضُلُ فى ذرَاهَا فإن العَدْلَ فيها فى القُعُور [4]

ومن الشعر الاجتماعى قوله :

وَخَيَّرْهَا أبُوهَا بَيْنَ شَيْخ كَثير المَالِ أو حَدَثٍ فَقَيرِ
فَقالتْ : خُطّتا خَسَفٍ وما إن أرَى مِنْ حَظْوَةٍ للمُسْتَخِير [5]

ومن الغزل الماجن قوله :

وأغْيَدَ لَيّنِ الأطْرافِ رَخْصٍ كَحِيلِ الطَّرْفِ ذى عُنُق طويل
تَرَى مَاءَ الشَّبَابِ بِوَجْنَتَيْه يَلُوحُ كَرونق السيْفِ الصّقيل [6]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤١ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٥١ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٢ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١١ .
٣ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص : ٢٢ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٩ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٧ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨١ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥ .
٦ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٥ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٠٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الفكاهة قول الغزال :

يُسَائلنى المُنيقلُ عَنْ أبِيـهِ وكَانَ الصَّمْتُ أدنـى للصَّـوَابِ
فقلت له ولم أظْـلمْهُ شَيْئاً أبُوكَ مُعَلِّمٌ حَسَنْ الحِسَابِ
فقالَ ـ وللفتى أدبٌ وظُرفٌ ـ خَلَطْتَ لنا مَدِيحكَ بالسِّبـابِ [1]

أما الحكمة فتتمثل فى قوله :

وإن أعْطِيتَ سُلْطانـاً فَحاذِرْ صَوْلَةَ الزّمَنِ
أخُـو السُلطَان مَوْصُوفٌ بحُسْنِ الرأى والفِطَنِ [2]

@ الرمل وهو من البحور الموحدة التفعيلة (فاعلاتن) ، ولم يرد عند الغزال إلا مجزوءاً ، وقد دارت أغراضه حول الاجتماعيات والوصف والزهد ، فمن الشعر الاجتماعى قوله :

غَمَّنِى عِشْقُكَ لِلشَّطـ ـرَنْجِ عِشْقَاً يَابْرَهِيمُ
عَمَلٌ فى غَيْرِ بِـرٍّ وَاخْـتِـلافٍ وَلُـزومُ [3]

أما عن الوصف فأجد قول الغزال :

قَـالَ لى يَحْيَـى وَصِرْنـا بَيْنَ مَـوْجٍ كَالجِبَالِ
وَتَـوَلَّـتْنَا عُـصُـوفٌ مِـن دَبُـورٍ وَشِمَـالِ [4]

ومن الزهد قوله :

أيُّهَا الشَّاكِـى إلى مَنْ لَيْسَ فى كَفَّيْهِ جَدْوَى
إنَّ شَـكْـوَاكَ إلَـيْـهِ لَيْسَ تُغْنِى عَنك شَيَّا [5]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٠ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٦ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٢ .
ـ بهجة المجالس ، ج١، ص : ٣٤٨ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٤ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .
٤ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١١ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

@ أما الرجـز : " فهـو موحـد التفعيلـة (مـستفعلن) ويناسـبه القـصص والحكايـات والأشعار التربوية " [1] ، وهذا ما أجده عند الغزال أيضا ، حيث يقول فى أرجـوزة تاريخيـة لم يـصلنا منها إلا هذا البيت الذى يقول فيه :

أدْرَكــتُ بِـالمِصْـرَ مُلوكاً أرْبَعَـة وَخَـامِسَاً هَذا الـذِى نحْنُ مَـعَـهُ [2]

ومن الشعر التربوى الحكمى قوله :

إنــى حَلَبْتُ الدَّهْـرَ أصْنَـافَ الـدَّرَرْ

فَـمَـرّةً حلــوٌ وأحْيَانــاً مَقِــرْ [3]

@ أما المتقارب : " وهو موحد التفعيلة (فعولن) ، وهو من البحـور التـى تتميـز بالمرونـة والسعة فى استيعاب الأغراض " [4] ، وأراه قد تنوعت أغراضه عند الغزال من ذلك قوله فى الهجاء :

وَتَـحْسبُ مِنْ خِبِّـهِ أنَّـهُ تَـراهُ عَنِ النَّـاسِ فى غُرْبَـهْ

وما ذاك منـهُ ـ فَـلا تَـأمَنُـ ـوه إلا لِتُمْـكِّـنِـهُ الوَثْـبَـهْ

رَأيْتُ لَـهُ نَـاظِرى هِــرَّةٍ تَرَاءى لَـهَا الفَـأرُ فى ثُقبَـهْ [5]

ومن الشعر الاجتماعى قوله :

إذا كُـنْتَ ذا ثَــرْوَةٍ مِـنْ غِنى فأنْــتَ المُسَوَّدُ فى العَــالَمِ

وَحَسْبُكَ مِـنْ نَــسَبٍ صُــورَةٌ تُـخَـبِّــــرُ أنَّــكَ مِـنْ آدمِ [6]

ومن المجون قوله :

سَـألتُ الأطِـباءَ عَــنْ بَعْضِ مَـا يُـعِينُ على ما يُـريدُ الرّجُــلْ

إذا ما الشَّـبابُ انقَـضَـى عَـهْدُهُ تَـولَّـى ووالتْ عليــهِ العِلَـلْ [7]

١ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص : ٢٣ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٨ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٣٤ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨٦ .
ـ بهجة المجالس ، ج١، ص : ٢٠٨ .
٤ـ خصائص الأسلوب فى الشوقيات ، ص : ٢٧ .
٥ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٤٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٥٨ .
٦ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٦ .
ـ بهجة المجالس ، ج١، ص : ٢٠٨ .
٧ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٨ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

@ أما بالنسبة للمنسرح والمجتث فلم يردا إلا مرة واحدة فى شعر الغزال الذى وصـــل إلينا ، فجاء المجتث فى غرض الهجاء فى قول الغزال :

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً مِنْ آبدَاتِ يُخَـامِـرْ
قَـرَا عَلَيْـهِ غُـلامٌ طَـهَ وَسُـورَةَ غَـافِـرْ [1]

وأما المنسرح فقد ورد أيضا مرة واحدة فى التهنئة حيث يقول :

إنْ سَمِـيَّ النَّبِـيَّ فَـضَّلَـهُ اللـهُ عَلى كُـلِّ مَنْ مَضَى وَبَـقى
مَـدَّ لهُ المُـلْـكُ سَاعِدَيْـهِ لَـدُنْ أقَـبْلَ للحُبِّ مُـدَّ مُعْتَنِـق [2]

وبعد هذا التناول للبحور الشعرية عند الغزال يمكن لي أن أقول : إن الشاعر قد استخدم أكثر البحور شيوعاً ، وكان اختياره للبحر عفوياً استجابة لعاطفته حسبما يقتضى الموقف .

فقد أجاد الغزال النظم علي البحور العروضية ، واستوعب قواعدها وأصولها الفنيـة إلا أنه لم يسلم من الخطأ في الوزن العروضي ، كقوله من الخفيف :

أنَـا شَـيْخٌ وَقُـلْـتُ في الشَّيْخِ مَا يَعْـ ـلَمُـهُ كُـلُّ أبْـلَـهٍ وَذَهِيـن
كُـلُّ شَـيْخٍ تَـرَاهُ يُكْثِـرُ مِنْ كَسْـ ـبِ الجَوَاري فَخُذْه لي بالقُرُونِ [3]

فالشطر الثاني من البيت الأول (يعلمه كل أبله وذهين) غير مستقيم وزناً ، ويمكن أن يكون البيت علي هذه الصورة :

أنَا شَيْخٌ وَقُـلْتُ في الشَّيْخ شيئاً قاله كُلُّ أبْلَـهٍ وَذَهِيـن

أما عن البحور التى لم يستخدمها الغزال وهى : المديد والمقتضب والمضارع والهـزج والمتدارك ، فإن دل على شيء فإنما يدل علـى ذوق الغـزال وتمكنـه ، (حيـث إن المديـد فيـه لـين وضعف ، وقلما وقع كلام قوى فيه) [4] .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٠٠ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٣٤ .
[3] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٥ .
ـ بهجة المجالس ، ج١، ص : ٤٢ .
[4] ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجنى ، ط تونس (١٩٦٦ م) ، ص ٢٦٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما المقتضب والمضارع فيقول حازم القرطاجنى : " إن المقتضب الحلاوة فيه قليلة ، والمضارع فيه كل قبيحة ، ولا ينبغى أن يعد من أوزان العرب ، وإنما وضع قياسا وهو قياس فاسد ، وأما الهزج ففيه سذاجة وحدة زائدة " ١ .

(ب) القافية :-

القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، وهى عبارة عن الحرفين الساكنين اللذين فى آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحركة ، ومع الحرف المتحرك الذى قبل الساكن الأول ٢ .

وتظهر أهمية القافية من جهة كونها أصواتاً تتكرر فى نهايات الأبيات مشكلةً جزءاً أصيلاً من موسيقى الشعر يتردد فى لحظات زمنية منتظمة ٣ .

وفى القافية حرف واحد يتردد فى نهايات أبيات القصيدة وبه تعرف القصيدة ويسمى الحرف : الروى ، وتبدو أهمية القافية فى أنها تسهم فى تحقيق التأثير فى المتلقى ، وتبرز عاطفة الشاعر وأحاسيسه ، ولابد أن تكون ملائمة للمعنى ، وغير مجلوبة للوزن ٤ .

وبالنسبة للقافية عند الغزال ، فقد جاءت ملائمة للمعنى ومعبرة عما يريده الغزال ، وكاشفة عن عاطفته وأحاسيسه فى كثير من الأحيان ، وقد تنوعت القافية عند الغزال ما بين الإطلاق والتقييد .

وألحظ أن معظم شعر الغزال ينتهى بقوافٍ مطلقة ، وهذا أمر معتاد عند معظم الشعراء ، فإنهم لا ينظمون على الروى الساكن إلا قليلا ، ولقد جاء الروى الساكن عند الغزال فى مواقف معينة ، وهى المواقف التى استدعت وقفات تأمل للنفس ، حين يتحدث عن الشيخوخة ، وامتداد العمر به ، حين يقول من الرجز :

١ـ المصدر السابق .
٢ ـ انظر : ـ النغم الشعرى عند العرب ، محمد عبد المنعم خفاجى ، ط دار المريخ الرياض ، ص : ٢٣١ .
ـ العمدة ، ابن رشيق القيروانى ، ص: ١١٠ .
٣ ـ انظر : موسيقى الشعر ، إبراهيم أنس ، ط ٤ دار القلم بيروت ، ص ٢٧٣ .
٤ ـ انظر : الصورة الفنية ، ص ٢٤١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَـسْـأَلُـنِـى عَـنْ حَـالَـتِـى أمُّ عُـمَـرْ
وَهْـىَ تَـرَى مَا حَلَّ بِـى مِـنَ الغِيَـرْ ١

أو وقفته مع ابن أخته يعنفه على إدمانه لعبة الشطرنج ، ويطلب منه أن يتأمل حال مدمنها ، وأنها لعبة شؤم أساسها الشيطان يريد أن يوقع بها بين الناس ، حيث يقول من مجزوء الرمل :

غَـمَّـنِى عِـشْـقُـكَ لِلشَّـطْـ ـرَنْـجِ عِـشْـقَـاً يَابْـرَهِيمُ
عَـمَـلٌ فى غَـيْـرِ بِـــرٍّ وَاخْـــتِـــلافٍ وَلُـــزومُ ٢

أو حين يسخر من القاضى يُخامر بموقف شديد اللذع والسخرية بحيث من يسمعه يقف مشدوهاً ساكناً أمام هذا الموقف البالغ الغرابة ، فيقول من المجتث :

لقـد سَمِعْـتُ عَجِـيباً مِـنْ آبِـــدَاتِ (يُخَامِرْ)
قَـرا عليـهِ غُـــلامٌ " طه " وَسُورة " غَافِر "
قـال : مَنْ قال هذا ؟ هـذا لعَمْـرى شاعِـــرْ !
أرَدْتُ صَـفْـعَ قفـاهُ فَـخَـفْتُ صـــولة جَائِـــرْ
أتيـت يَوْمَـاً بِتِيسٍ مُسـتَعْبِراً مُتَـحَاسِـــرْ
قـلْـتُ : قومُوا اذبَحُـوه ! فقَـال : إنِّى يُـخامـرْ ! ٣

وأما عن الروى فلقد استعمل منه الغزال خمسة عشر حرفا من حروف الهجاء ، وهو عدد غير قليل ، ويدل على مدى تمكن الغزال وسعة ثروته من الألفاظ ، وقدرته على اجتلابها ، ويتفاوت عدد القصائد على كل روى تفاوتا بيناً .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨٣ .
ـ بهجة المجالس ، ج٣ ، ص : ٢٢٨ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٨ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

انظر الجدول :

م	اسم الروى	عدد القصائد	عدد المقطوعات	عدد النتف
١	الراء	٦	٨	٧
٢	اللام	٥	٣	٣
٣	الباء	٤	٥	٢
٤	النون	٢	٣	٤
٥	الدال	١	٤	٢
٦	الميم	٢	١	٣
٧	الهمزه	-	١	١
٨	الحاء	-	٢	-
٩	العين	-	١	١
١٠	القاف	-	-	٢
١١	الياء	١	١	-
١٢	الألف المقصورة	١	-	-
١٣	الكاف	-	١	-
١٤	التاء	١	-	-
١٥	السين	-	-	١

وبناءً على الجدول السابق فإن الغزال لم يحط بحروف الهجاء كلها ، حيث أهمل الثاء والجيم والخاء والذال والزاى والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والغين والهاء والواو ، ولا نعتقد أن إهمال الغزال لهذه الحروف جاء من قبيل العجز ، إذ لو أراد أن ينظم على أى منها لاستطاع فهو من المتبحرين فى اللغة ، ثم إن الحروف التى أهمل استعمالها روياً ندر أو قل استعمال الشعراء لها ، فليس الغزال بدعا فى ذلك ، وإقلال الشعراء منها لا يرجع إلى ثقل فيها بقدر ما يرجع إلى أنها نادرة الورود فى أواخر كلمات العربية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والناظر إلى شعر الغزال يجد العلاقة الوثيقة بين غرض القصيدة العام ، وحـرف الـرَّويِّ فى معظم القصائد ، فقد وفق الغزال إلى حد بعيد فى اختيار حرف الروى الـذى يتوافـق نغمـة مـع غرض القصيدة ، حيث جعل الحرف الجزل للمعنى الفخم ، والحرف الرقيـق للمعنـى اللطيـف ، وهكذا جعل قصيدة المديح على حرف روى فخم مثل الباء فى قصيدته التى يقول فيها من السريع :

مَـنْ مُبْلِـغٌ عَنِّـى إمَـامَ الهُـدَى وَالوَارِثَ المَـجْـدَ أبـاً عَـنْ أبٍ
أنِّـــى إذا أطْـنَـــبَ مُـدَّاحُـــهُ أوْجَزْتُ فى القَوْلِ فلَـمْ أطْنِـبِ ١

فأجد هنا التلاؤم بين الباء الشديدة المجهورة ، والمديح الذى من طبيعته فخامة القول ؛ ولأن الباء حرف قلقلة يملأ الفم ، ويقرع الأذن ، ويناسب المديح الذى يقوم على التفخيم وإكبار شأن الممدوح .

وقد وردت قصيدة أخرى فى المديح على روى آخـر وهـو الـدال ، وهـو ـ أيـضا ـً مـن الأصوات الإنفجارية ، ومن حروف القلقلة التى تتسم بالجرس الواضح ، والرنين المميز ، وتتناسب أيضا مع غرض المدح ، حيث يقول الغزال من الطويل :

كَأنَّ المُلُوكَ الغُلْبِ عِندَكَ خُضَّعاً خَوَاضِعُ طيْرٍ تَـتَّقِى الصَّقْرُ لُبَّدُ
تُـقَـلِـبُ فِـيهِمْ مُـقْلَةً حَكَمِـيّـةً فَـتَـخْـفِضُ أقْـوامَاً وَقَـوْمَاً تُسَودُ ٢

وأما عن قصائد الزهد والتأمل ، فتغلب عليهـا حـروف الـروى الرقيقـة ، وبخاصـة الـلام والميم والنون ؛ لأن هذه الأحرف تتميز بخفتها ، وتلائم جو السكون ، والتأمل ، وهمس الـنغم ، ورقته ، ولنتأمل الغزال حين يقول من الكامل :

وَالمَرْءُ يَعْجَبُ مِـنْ صَغِيرةٍ غَـيْرَهِ أىُّ امْـرىءٍ إلا وَفِيهِ مَقَـــالُ
لسْـنَـا نَـرَى مَنْ لَيْسَ فِيهِ غَمِيزةٌ أىُّ الرِّجَـالِ القَـائِـلُ الفَـعَّالُ ٣

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٠ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥١ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .
٣ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢١٥ .
ـ نفح الطيب ، ج٣ ، ص : ٤٣٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فاختياره جاء دقيقاً وموفقاً ؛ لأن هذا الحرف يلائم جو الهدوء ،وحال التأمل فى أحوال الناس ، ويتناسب تماماً مع غرض الزهد الذى لا يصدر إلا عن نفس متزنة هادئة فى حالة سكون وتأمل .

ومثل ذلك روى الميم فى قصيدة زهدية يقول فيها من الخفيف :

فإذا مَا نَظَرْتُ فى عرُضِ النَّاسِ كَأنِّى أرَاهُمْ فى الظَّلامِ
وَكَأنَّ الذِى أصِيبُ عَلى الأيَّامِ شَىءٌ أصَبْتُهُ فى المَنَامِ ١

وأما الغزل ، فقد اختار له الغزال ما يراه ملائماً لحروف الروى الرقيقة ، وهى الميم والنون واللام ، ومن ذلك قوله من البسيط :

أقْرَ السَّلامَ على إلفٍ كَلِفْتُ بهِ قد رُمْتُ صَبْرَاً وَطولُ الشّوقِ لم يَرِمِ
ظَبىٌ تباعَدَ عَنْ قُربى وعن نظرى فالنفسُ والهَةٌ من شِدَّةِ الألَمِ ٢

فالغزال هنا قد أجاد اختيار حرف الميم رويا دقيقا يكشف عن مدى حبه وشوقه وحنينه إلى إلفه مما يؤكد على أصالة طبعه ، وفهمه العميق لموسيقى الشعر .

وإن كانت له قصيدة غزلية جاء فيها الروى حرف الراء إلا أن الغزال وَبلفْتَة ذكية منه ووعى كامل بفن الشعر اختار الراء المكسورة ، ومعلوم أن الراء المكسورة رقيقة ، وليست مفخمة حتى لا يبتعد كثيراً عن رقة الغرض ولينه ؛ لأن الغزل يستلزم الرقة واللين ـ ليس هذا فحسب ـ بل جاء امتداد الراء بالكسرة ؛ ليوحى بشدة حنينه ، وأنينه ، ومعاناته من شدة الشوق ، وفراق المحبوبة ، فيقول من الطويل :

كتبْتُ وشَوْق لا يُفَارقُ مُهْجَتى وَوَجْدِى بكُمْ مُسْتحْكِمٌ وَتَذكُّرى
بِقرطبَةَ قلبِى وجسْمِى ببَلّدَة نأيْتُ بهَا عَنْ أهْلِ ودِّى وَمَعْشَرى ٣

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٦ .
ـ التشبيهات ، ص : ٢٢٦ .
٢ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٠ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٤ .
٣ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما قصيدته فى النفس فألحظ أن الغزال قد جاء بقافية مردوفة ، والردف هو حرف مدّ (ألف أو يا ء) بعد حركة متجانسة قبل الروى ، واختار النون رويا لهذه القصيدة التى يقول فيها من الطويل :

تمَنَّيْتُ أمْرَاً قدْ طَوَى اللهُ عِلمَهُ وَمَا عِندَ غَيْرِ اللهِ فِيهِ يَقِينُ
تمَنَّيْتُ أنْ أدْرى وَهَلْ تَنْفع المُنَى إذا زالَ هَذا الرُّوحُ أيْنَ يَكُونُ؟
أفى نُسْخَةٍ أمْ هو مُقيمٌ بِمَوْضِعٍ ـ إلى أن يُنادِى بالحِسَابِ ـ رَهِينُ ١

فالملاحظ أن الردف يعطى امتداداً للصوت يتناسب مع التأمل ، والنون بنغمتها الرقيقة ، وغنتها ، ورنينها ، ورقتها تضفى عليها حالة من الهدوء والسكون يتناسبان مع غرض القصيدة الذى يدور حول التأملات فى النفس ، وما بعد الموت وأحواله .

أما فى غرض الهجاء ، فقد وفق الغزال أيما توفيق فى اختيار الروى الملائم له ، فقد وضح سيطرة الغزال على القافية ، وتمكنه منها ، وشدة ارتباطها بسائر ألفاظ البيت وبالغرض العام ، فجاءت طبيعية غير متكلفة فى أحسن ما يكون ، ومن ذلك روى الراء فى قوله من الطويل :

فَسُبْحَانَ مَنْ أعْطاكَ بَطْشاً وَقُوَّةً وَسُبْحَانَ مَنْ وَلَّى القضَاءَ يُخَامِرَا ٢

الراء هنا مفخمة تقرع الأذن برنينها وسحرها بما يتناسب مع الهجاء للسخرية الشديدة من هذا القاضى وحدته وشدة بطشه .

وفى موقف آخر من مواقف الهجاء يستخدم الغزال القاف المضمومة رويا ، وهو كما نعرف صوت انفجارى قوى من أصوات القلقلة ، وحركة الضم أضافت إليه القوة والشدة حيث قصد الغزال باستخدامه أن يعلن شدة غضبه وغيظه من هذا الذى يدعى أبو حازم ، فيقول من السريع :

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ٢٢٧ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٣ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٢ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سَـألـتُ فى النَّـــومِ أبى آدمَـــاَ فقُـلْتُ والقَـلْـــبُ بـهِ وَامِـقُ
أبْـنُـكَ باللـــــهِ أبُـو حَـــازِمٍ ؟ صلـىّ عليـكَ المَالِـــكُ الخَـالِقُ
فَـقَـــال لى : إنْ كَانَ مِنِّى ومِنْ نَسْلى فَحَـوا أمُـكُـمْ طَـــالِـقُ [1]

وإذا كان الغزال ـ كما ذكرنا ـ قد وفق فى الملائمة بين اختياره لحرف الروى مع موضوعاته وأغراضه الشعرية ، وأرجعنا ذلك إلى شاعريته وفطرته إلا أن هذا لا يمنع من أن الشاعر لم يوفق فى اختيار بعض القوافى ، كما نرى فى قصيدته التى يقول فيها من مجزوء الرمل :

أيُّـهَـا الشَّـــاكِى إلى مَـنْ ليْسَ فى كَـفَّـيْـــهِ جَدْوَى
إنَّ شَـكْـــوَاكَ إلـيْـــهِ ليْسَ تـُغْنِى عَنـك شَـيَّـا
فاسْـــأل اللـهَ فَـــلا أقْـ ـــربُ مِنهُ حِيـنَ يُدْعَى
وَأرْضَ بالقُـــــوتِ فإنَّ القُـوتَ فِـيهِ كُـلُّ مَكْـفى [2]

حيث أرى أن قافية البيت الأول فيها قدر من التكلف ، وقد جُلبت من أجل الوزن أو الروى ، وأنها أحدثت فى البيت خللاً واضطرابا يشعر به المتلقى فى عدم انسياب المعنى ، ويتضح هذا الأمر فى البيت الرابع حيث جاءت كلمة (مكفى) ، وضّح فيها قصور المعنى ؛ لأنه من غير المنطقى أن يكتفى الإنسان بالقوت فقط دون ذكر الجوانب الأخرى كالدين والعلم خاصة ، وأن للقصيدة غرضها الزهد ، بجانب استخدام الغزال للألف المقصورة رويا للقصيدة قد أوجد مشقة وثقلا فى النطق فضلا عن أنها لا تلائم غرض القصيدة .

وفى بيت آخر من القصيدة نفسها نراه يقول :

كَـمْ يُـريدُ المَـرْءُ قدْ أرْ ... بَـى عَلَى السَّبْعِينَ يَبْقى

فقافية البيت (يبقى) قد أحدثت اضطرابا وصعوبة فى فهم معنى البيت ، فالغزال لم يراع بلاغة التقديم والتأخير حيث إن معنى البيت هو (كم يريد المرء أن يبقى وقد أربى على السبعين)، ولكن ورود يبقى قافية قد أحدثت خللا وصعوبة فى الفهم كما ذكرنا .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٩ .
ـ نفح الطيب ، ج٢ ، ص : ٢٥٦ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١١١ ـ ١١٢.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن القصائد الأخرى التى لم يوفق الغزال فى اختيار قافيتها قصيدته التى يتنبأ فيها بمهلك نصر الخصيّ ، حيث يقول فى أحد أبياتها من الكامل :

وَإذا رَأيْتُ البَدْرَ فى بُـــلعٍ نَـزَل القَـضَاءُ بأبْـرَح البَرْح [1]

فإن كلمة (البرح) قد اجتلبت للوزن والقافية ؛ لأنها لم تضف إلى المعنىـشيئا جديداً وواضح فيها التكلف والافتعال .

وفى بيت آخر من نفس القصيدة يقول الغزال :

تبْـكِى عَلى مَنْ كَـانَ يُكْـرمُهَا نَـحَّاءَ بَيْنَ نَـوَادِبٍ نُـحِّ

فكلمة (نحِّ) مجلوبة ـ أيضا ـ للوزن والقافية ، ولم تضف إلى المعنى ؛ لأن كلمة (نوادب) أعطت نفس المعنى بجانب إن تكرار الكلمة قد أحدث ثقلاً موسيقيا تمجُّه الأذن ، وتأباه الفطرة السليمة .

هذا وأجد للغزال عيب من عيوب القافية ألا وهو (الإيطاء) ، وذلك في كلمة (طويل) المكررة في نهاية البيت الأول ، والسادس ، والثاني عشر بنفس المعني في قصيدة له مكونة من أربعة عشر بيتاً .

وجاء التكرار في هذه الأبيات التي يقول فيها الشاعر من بحر الوافر :

١ـ وأغْيَدَ لَـيِّنِ الأطْرافِ رَخْصٍ كَحِيلِ الطَّـرْفِ ذِى عُنُـقٍ طويلِ
٦ـ علـــى قـــدٍّ ســـواءٍ لا قصيرٍ فَتَحْقِـــــرَهُ ولا هُـو بالطويـــل
١٢ـ تُوصِّينى به وتقول : أخْشَى عليه البَـرْدُ فى الليـْل الطويـل [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٩ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٤ .
[2] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
ـ المقتبس ، ط الرياض ، السفر الثاني ، ص : ٣٦٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث إن (آخر كلمة في البيت لا يصح تكريرها قبل سبعة أبيات ، فإن تكررت كان ذلك عيباً اسمه الإيطاء) [1] ، وهذا الذي وقع فيه صاحبنا من الإيطاء المذموم ، حيث تحققت فيه الشروط التي وضعها العروضيون للإيطاء المعيب ، وهي :

أ- اتحاد الكلمتين لفظاً ومعني .

ب- ألا يفصل بينهما سبعة أبيات .

ت- ألا يكون التكرير لغرض بلاغي [2] .

وبعد ... فإن الغزال شاعر مطبوع سريع البديهة يعرف كيف يتخير قوافيه التى تتلائم مع الأغراض التى يقصدها مما يساعد فى توصيل المعنى إلى المتلقى فى يسر وإمتاع ، وهو يصدر فى شعره عن طبع أصيل وسليقة بعيدة عن التصنع أو التكلف .

وأما عن الموسيقى الداخلية :

فلاشك أن الحُكم بقدرة الشاعر على الملاءمة بين الموسيقى والغرض العام ، يبقى حكما تنقصه الدقة، ولذلك كان من الضرورى الغوص إلى موسيقى أدق ، إلى موسيقى تستظل بظل الوزن والقافية ، إلى موسيقى تهتم بصوت التفعيلة ، ونغمة الكلمة ، وتتحسس جرس الحروف ، وتصغى إلى صوت الحرف المضعف ، وتعنى بأهمية المد ، وتبين أثر التنوين ، وتكشف سر التكرير فى حروف اللفظة وفى ألفاظ الجملة ، وتلقى الضوء على نغمة الجناس وحسن التقسيم ، وتعرض كل ما يتعلق بالقيم الموسيقية غير الوزن والقافية المجردين ، إن الموسيقى التى تعنى بكل هذه الأشياء هى موسيقى الإيقاع ، وهى ما يُعرف بالموسيقى الداخلية ، وهى غير الموسيقى الخارجية التى تنحصر فى الوزن والقافية [3] .

---

[1] ـ اللباب في العروض والقافية ، الأستاذ كامل السيد شاهين ، مكتبة الجامعة الأزهرية ، ط (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨ م) ، ص : ١٧١ .

[2] ـ عروض الشعر العربي ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولي الناشر : مكتبة القاهرة بميدان الأزهر بالقاهرة (د.ت) ، ص : ١٨٤ .

[3] ـ انظر : بناء القصيدة ، يوسف بكار ، دار الأندلس ، ط٢ (١٩٨٢ م) ، ص : ١٩٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودراسة الإيقاع مهمة جداً فى كشف مدى قدرة الغزال على بناء الصورة الفنية المؤثرة ؛ لأن الإيقاع يعكس حركات النفس العميقة ، ويسهم فى إبراز المشاعر الخفية ، ويعين على تقرير الصورة فى نفس المتلقى وتأثره بها .

ومن أبرز ملامح الموسيقى الداخلية عند الغزال تنوع الأصوات ، وتباينها من الشدة إلى الليّن ، ومن الهمس إلى الجهر حسبما يقتضيه الموضوع أو الغرض .

ففى فن المديح أجد الفخامة والجزالة ، وشدة وقع الصوت على الأذن ، والحرف الفخم والمشدد مما يزيد الإحساس بعظمة الممدوح وعلو مكانته ، وكذلك استخدام الألفاظ الدالة على المبالغة والجموع ، فيقول الغزال فى مدح الأمير عبد الرحمن الأوسط من البسيط :

لَكِنْ قصَدْتُ إلى مَدْح امْرىءٍ قصُرَتْ عنهُ الصِّفاتُ فلمْ تبْلغْهُ تشْبيهَا [1]

فأجد تكرار حرف الدال وهو صوت انفجارى قوى ، وكذلك الراء ، وهوحرف تكرارى يرفرف اللسان حين النطق به مما يعطيه صفة الفخامة والقوة ، ويزيد من فخامة الراء حاجاتها ؛ لزيادة الجهد عند النطق بها ، وكذلك استخدام القاف وهى مثل الدال فى قوتها وفخامتها هذه الفخامة لاءمت ما يقصده الشاعر فى تعظيم الممدوح ، كذلك استعان الشاعر بالمد فى تحقيق نوع من التفخيم ، فالمد فيه تركيز على نبرة المدِّ ؛ ليزيد من شدة أثرها ، ووقعها على أذن المتلقى .

وفى بيت آخر من نفس القصيدة يقول الغزال :

قَـرْمٌ إذا رُفِعَتْ عنهُ السُّـتورُ لنا لاحَتْ سُنَّـةٌ يُغشَى تلالِيهَا

حيث أجد تكرار حرف الراء وكذلك التشديد والمد ؛ ليزيد كل ذلك من المعنى الذى يريد الشاعر توصيله للمتلقى ، فمن عادة المدائح أن تلقى أمام الممدوح ، والإلقاء يحتاج إلى إبراز الإيقاع ، ويتطلب التفخيم ؛ لأن ذلك يعين الشاعر على تصوير المعانى والمشاعر ، ولعلي لاحظت ذلك فى كلمة (قرم) وهى توحى بالفخامة والشدة والقوة والسيادة والعظمة .

وفى قصيدة أخرى من قصائد المديح عند الغزال ، والتى يمدح فيها الأمير الحكم الرَّبضى بقوله من البسيط :

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٩ .
ـ المقتبس ، السفر الثانى ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَأنَّ الملوكَ الغُـلَّبَ عِنْـدَكَ خُضَّعاً خَـوَاضِـعُ طَيْرٍ تـتَّـقى الصَّقْرلُـبَّدُ
تُــقـلِّبُ فِيـهِـمْ مُـقْـلةً حَكَمِيَّـةً فَـتَـخْـفِضُ أقواما وقَـوْما تُسَـوِّدُ [1]

فأجد الغزال قد أكثر من التشديد فى أكثر من حرف مما يعطى الإحساس بالفخامة حتى ليكاد السامع يحس بعظمة الممدوح مجسدة من خلال الكلمات والأصوات الفخمة والجموع الدالة على المبالغة مثل (الغلب وخضّع) ، كذلك استخدام الغزال للأصوات القوية مثل الكاف والباء والدال والضاد والخاء والقاف والراء ،مما يعطى الإحساس بعظمة هذا الممدوح وقوته ، وأيضا حققت هذه الأصوات بموسيقاها الداخلية انسجاماً مع المعنى الذى يريده الغزال ، وتوافقا مع الغرض الذى يقصده .

وفى بيت آخر من نفس القصيدة يقول الغزال :

وَجَدْتُ التقى والبَأسَ والعَدْلَ والنَّدَى إليْكَ إذا مَا اسْتَقصِيَ الوَصْفُ تسْنُدُ

فإيقاع الكلمات وتتابعها فى هذا البيت قد أحدث موسيقى داخلية تمثلت فى حسن التقسيم وتوالى صفات المدح وتتابعها (التقى ـ البأس ـ العدل ـ الندى) ، مما يوحى بأن الممدوح جامع لكل صفات المدح .

وأما عن الوصف فيمكن القول : إن الغزال كان يمد صوته بالكلمات التى يوحى مدها بزيادة المعنى والمبالغة فيه وبخاصة الكلمات الوصفية ، وأقرأ من ذلك قول الغزال فى وصف هياج البحر ، وشدة موجه ، حيث يقول من مجزوء الرمل :

قَـالَ لى يَـحْـيَى وَصِـرْنـا بَـيْـنَ مَـوْجٍ كَـالجِـبَـالِ
تَـوَلَـتَّـنا عُـصُـوفٌ مِـنْ دَبُـورٍ وَشِـمَالِ
شَـقَّـتْ القِلْـعَيْنِ وَانْـبَـ ـتَّتْ عُـرَى تِلكَ الحِـبَالِ
وَتَـمطَّى مَـلَـكُ المَـوْتِ إليْـنا عَـنْ حِـيَالِ
فَـرَأيْنا المَوْتَ رَأىَ الـ ـعَيْنِ حَـالاً بَعْـدَ حَـالِ
لَـمْ يَـكُنْ لِلقَـوْمِ فِينا يَـا رَفِيـقِـى رَأسُ مَـالِ [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥١ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٤ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو حين وصف الموج وشدة ارتفاعه وصفه بالجبال ؛ ليبين شدة الموج وارتفاعه ، مما يجعل القاريء يحس شدة الخطر الذى واجهه الغزال وصاحبه ، وكذلك كلمة (عصوف) حيث جاء بها صيغة مبالغة لتعطى نفس الإحساس ، فالمد قد حقق قدراً من الضخامة والشدة ، وجِّدت الأصوات فى الأبيات السابقة ملائمة للغرض تثير فى نفس القارىء شدة الفزع وتجعله يحس بهول الموقف مثل : (شقت ـ انبتت ـ تمطى) ، فالتشديد هنا يشبه الانفجار الذى يرن معه الصوت ، ويكسب اللفظة قدراً كبيراً من القوة والضخامة .

وأقرأ له أيضا قوله فى وصف البحر المظلم ، حيث يقول من الطويل :

ولُبْسِ كثَوْبِ القسِّ جُبْتُ سَوَادَهُ على ظَهْرِ غِربيبِ القمِيص نَآدِ
قدْ اسْتأخَرَتْ أرْدَافهُ ومَضَتْ لهُ غَوَاربُ فى آذيِهِ وَهَوَادِ
لهُ ظلمَاتٍ بَعْضُهَا فوْق بَعْضِهَا دَآدِىُ مَوْصُولٌ بهِنَّ دَآدِى
يَبيتُ بهَا المَلاحَ مِنْ حَذَرِ الرَّدِى مُلازمَ صَاريه لُزومَ قُرَادِ [1]

فألاحظ هنا أن الغزال قد استخدم أيضا المد للمبالغة فى المعنى مثل (نآد ـ هواد ـ دآد ـ قراد) مما يعطى إحساساً بالامتداد والطول بجانب استخدام الأصوات القوية كالقاف والكاف والجيم والراء التى توحى بالشدة والقوة ، وقد استطاعت بعض الكلمات مثل (استأخرت) فهى مكونة من سبعة حروف لتوحى بالامتداد وطول الليل ، وما يستتبع هذا من كثرة المخاطر ، وشدة الأمواج ، وتكررت بعض الكلمات مثل (بعضها فوق بعضها ـ دآدى موصول بهن دآدى ـ ملازم صارية لزوم قراد) فتكرار ألفاظ بعينها يوحى بأن الغزال يريد التأكيد عليها ، وإثباتها فى ذهن المتلقى ، وليزيد من قرعها للأذن لينقل حالته النفسية إلى المتلقى ، حتى يعيش معه هذه اللحظات العصيبة المليئة بالمخاطر والأهوال .

ومن الفنون الشعرية التى تظهر فيها الموسيقى الداخلية عند الغزال فن الغزل ، حيث تتضح أمام القاريء من خلال نغم الأصوات وجرسها مما يزيد من وضوح المعنى ، ومن ذلك قول الغزال من السريع :

إنِّى تَعَلَّقْتُ مَجُوسِيَّةً تأبَى لِشَمْس الحُسْن أنْ تَغْرُبَا [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٥٦ .
ـ التشبيهات ، ص : ١٨١ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٧ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد تناسبت الأصوات مع الغرض ، حيث أجد حرف الميم وهو من الحروف الرقيقة ، ثم السين وهى من أصوات الهمس ، والتى تتلاءم مع الحديث عن المشاعر والأحاسيس الرقيقة ، فقد تكرر حرف السين ثلاث مرات فى البيت السابق ، مما يمنح البيت موسيقى تأخذ بالنفس ، وتتجاوب معه مشاعر وأحاسيس المتلقين .

ويقول الغزال فى بيتين آخرين من نفس القصيدة :

يا بأبى الشّخْصَ الذى لا أرى أحْلَى عَلى قلبِى ولا أعْذبا
إن قُلتُ يوما إن عيْنى رأتْ مُشْبِهة لم أعد أن أكذبا

حيث أجد الغزال يلجأ إلى الأصوات التى تتناسب مع الغزل مثل الحاء واللام والصاد والذال ، وكلها تعطى جرساً موسيقياً فيه عذوبة ورقة ، وقد بدأ بالنداء مستخدما (يا) حيث الامتداد بالصوت فى المد لتنبيه المتلقى إلى ما سيقول ، وقد انسجمت حروف البيتين فى تناسق حقق لها سهولة النطق ، ونقل إلى القارىء عاطفة الشاعر ، ومدى تعلقه بهذه الملكة التى ليس لها شبيه وليس أحلى منها ولا أعذب .

ومن الغزل قصيدة أخرى للغزال يقول فيها من الطويل :

كتبتُ وشوق لا يُفَارقُ مُهجَتى وَوَجْدِى بكمْ مُستحْكِمٌ وَتَذكُّرى
بِقرطبة قلبِى وجسْمِى ببلدة نأيْتُ بهَا عَنْ أهْلِ ودِّى ومَعْشرى
سَقى اللهُ مِنْ مُزنِ السَحَائب ثَرّة دِيَاركم التى حَوَت كُل جُؤذر
بحقّ الهَوَى أقْر السَّلام عَلى التى أهِيم بهَا عِشقاً إلى يَوْم مَحْشَرى
لَئِن غبت عنها فالهوى غيرغائب مُقيمَاً بقلْبِ الهَائِم المُتَفطِر ١

فألاحظ فى الأبيات السابقة مدى التناغم والانسجام بين أصوات الحروف داخل الأبيات ما يحقق وحدة نغمية داخلية تحسها النفس وتدركها الأذن ويشعر بها المتلقى فأجد تناغم الأصوات ، وعدم التنافر بين الحروف مما يخلق جواً من الانسياب العاطفى الوجدانى ، فالحروف تتوالى محدثة جرساً موسيقياً بديعاً مثل التاء والباء والشين والواو والمد والهاء والميم والسين ، وتأتى الراء المكسورة فى آخر القافية مع إشباع الكسر ليخلق جواً رقيقاً عذباً يتلاءم ويتفق تماماً مع غرض القصيدة ، وهو الغزل ، كما نلاحظ كثرة استخدام أحرف السين والميم واللام والهاء والياء ، وهى كما نعلم من أصوات الهمس واللين التى تتواءم وتتوافق مع غرض الغزل .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٧ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن مقطوعاته الغزلية الرائعة تلك الأبيات التى يقول فيها من مجزوء الرمل :

وَسُلَيْمى ذاتُ زُهْـــدٍ فى زَهيـــدٍ من وصَـــالِ
كُلَّما قلْـــتُ صِلِينـى حَـاسَبَتْـنِـى بالخْـــيالِ
والكَـرَى قَـدْ مُنِعَتْـــه مُقْلَـتِى أُخْـرى الليالـــى
وهى أدرى فلمـــاذا دافعتنـــى بمُحـــــال
أتَرانـــى أقْتَضَيها بعـد شيئـاً من نَـــوالِ ١

أكاد ـ وأنا أقرأ هذه المقطوعة ـ أتراقص طرباً فى موقف يبعث على النشوة والبهجة على الرغم من جفاء المحبوبة وتمنعها إلا أنى أحس بأن هذا الدلال يكشف عن مودة وعشق يتخفى وراء الصد والهجر ، وألاحظ أن الغزال قد استخدم أصوات الهمس بكثرة فى هذه المقطوعة الغزلية الرقيقة ، ففى البيت الأول كرر حرف الهاء والزاى وبدأ بحرف السين ثم اللام والميم والهاء والصاد وجاء الروى لاما مردوفا ، وكأن الشاعر يطلق هذه الكلمات وكأنها شهقات عشق مبعثها قلبه ودخيلة نفسه ، وجاء الامتداد بالصوت ليعطى هذا المعنى ، ويمنح هذا الإحساس الذى تدركه النفس ، وتتجاوب معه المشاعر والأحاسيس .

وأواصل حديثي عن الموسيقى الداخلية فى شعر الغزال ، ومدى انسجامها وتوافقها مع الغرض الذى يقصده الشاعر وإيحاءاتها بالمعانى التى يود الشاعر إبرازها ، وإذا ما انتقلت إلى الهجاء تطالعت علي هذه الأبيات التى يقول فيها من المجتث :

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً مِنْ آبدَاتِ يُخَـــامِرْ
قَـــرَا عَلَيْـهِ غُـــلامٌ طَـهَ وَسُـورَةَ غَـافِرْ
فقـالَ : مَنْ قَـالَ هَـذا؟ هَـذا لِعَمْرىَ شَـاعِرْ
أرَدْتُ صَفْـعَ قَـفَاهُ فَخِفْتُ صَوْلَـةَ جَائِرْ
أتِيْـتُ يَـوْمَـاً بتَـيْسٍ مَسْتَعْبِـرَاً مَـتَحَاسِرْ
فقلتُ : قُومُوا اذبَحُوهُ فَـقَـال : إنِّى يُخَـامِـرْ ٢

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٠٤ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبرز ما يميز هذه الأبيات مطلعها الذى يحمل قدراً كبيراً من التوكيد (لقد) ، وكأن الغزال يريد ألا نأخذ الأمر مأخذ الهزل ، على الرغم من أنه كذلك ثم نلحظ أنه قد استخدم البحر المجتث ، وهو من البحور الراقصة الخفيفة ، ويوحى بجو المرح والطيش والسفه والخفة بما يتناسب والغرض من الأبيات ، فالغزال يقصد الاستهزاء والاستخفاف والتهكم على هذا القاضى الذى لا يعرف القرآن ويظنه شعرا ، وجاءت القافية الساكنة لتقرع الأذن فى نغم واضح ، وتنبيه إلى مدى جهل هذا القاضى وقلة علمه بجانب أن الغزال تميز كما فى معظم شعره بيسر الكلمات ، وتناغم الأصوات داخل الكلمة ، فتأتى كلماته خفيفة سهلة النطق ، وتحمل قدراً كبيراً من الظرف يجذب النفس إليه .

وأما عن أبياته التى يقول فيها من الطويل :

أتَاكَ أبُو حَفْصٍ ويَحْيى بْنُ مَالِكٍ فأهْلاً وَسَهْلاً بالوَغَى وَالمَعَامِعِ
رجَالٌ إذا صَبُّوا عليْكَ شَهَادَةً حكَتْ فِيكَ وَقْعَ المُرْهَفاتِ القوَاطِعِ
أقُولُ لِدِيكِى إذ رَأيْتُ وُجُوهَهُمُ : تَعَزَّ فقد جَاءَتكَ إحْدَى الفَجَائِعِ
رَثَا وَاسْتَهَلتْ عِندَ ذاكَ دُمُوعَهُ وَقَالَ : كَثِيراً مَا أفاضُوا مَدَامِعِى [1]

فى هذه الأبيات أجد الغزال يهجو ويذم شاهدى الزور : أبا حفص ويحيى بن مالك أجد أن الغزال هنا لم يستخدم الأصوات الخفيفة الرقيقة التى جاء بها فى القصيدة السابقة ؛ لأن الموقف هنا يختلف عن الموقف السابق ، فالموقف السابق فيه استخفاف واستهزاء ، أما هنا فالأمر جاد ؛ لأنه يتعلق بشهادة الزور ، ولذلك جاءت الكلمات جزلة قوية ، والأصوات رنانة واضحة الوقع فيها شدة ، ونكاد نحس بخطورة شهادة الزور .

وأحس ـ أيضاً ـ بقوة أثرها فهى تمزق ثوب الحق وتقطع أعضاءه ، فألحظ استخدام حروف مثل الكاف والغين والميم والعين والباء ، وجاءت مشددة (صبوا) ، وواضح ما فى التشديد من قوة الجرس وشدة فى الصوت لتأكيد الإحساس بخطورة شهادة الزور ، وكذلك جاءت القاف ساكنة فى (وقع) ، فالقلقلة تتميز بصعوبة النطق ، وبذل الجهد ، مما يعطى الإحساس بالنفور من شاهد الزور ، وضيق النفس منه ، وجاءت القافية عين مكسورة ؛ لتناسب حزن النفس على ضياع الحق عند هؤلاء الذين يشهدون زوراً .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٩٧ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٧٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما عن الشعر الاجتماعى عند الغزال فأجد أن الغزال قد وفق توفيقاً كبيراً فى الملاءمة بين موسيقاه الداخلية والموقف الذى أراد التعبير عنه ، ولنأخذ مثلا هذا الموقف الذى وقفه من ابن أخته (إبراهيم) الذى أدمن لعبة الشطرنج ، فنراه يقول من مجزوء الرمل :

غَمَّنِى عِشْقُكِ لِلشَّطْـ ـرَنْجِ عِشْقاً يَابْرهيمُ
عَمَلٌ فى غَيْرِ بِرٍّ وَاختلافٍ وَلُزومُ
إنَّمَا أسّسَهَا وَيْحَـ ـكَ شَيْطانُ رَجِيمُ
هَبْكَ فِيهَا ألْعَبَ النا س ، فماذا يَا حَكِيمُ
لُعْبَةُ الشِّطْرَنْجِ شُؤمٌ فاجْتَنبهَا يَا شَؤومُ [1]

فأكاد من خلال قراءتي للأبيات أحس مدى حزن الشاعر وشدة غضبه على ابن أخته ، وتأتى الموسيقى غائمة كئيبة من خلال استخدامه لحرف الغين يليه الميم والنون ، حيث أحس رنيناً حزيناً من خلال حرف الميم والنون ، وجاء التنوين فى عشقا ليضيف جرساً حزيناً يؤكد النغمات الحزينة التى سيطرت على القصيدة ، وتكاد النفس تلمسها وحس بها من خلال الحروف ، وفى البيت الثالث ترتفع نبرة الغضب الممتزجة بالحزن على حال ابن أخته ، فأجد النون المشددة فى أسلوب القصر (إنما) ، وكذلك السين المشددة (أسسها) ألمس شدة الغضب وعلو الانفعال فى (شيطان رجيم) فالشين والطاء والراء والجيم من حروف الجهر والشدة ، مما يؤكد الاحساس لدى القارىء بشدة غضب الشاعر ، ويأتى الجناس فى البيت الخامس بين (شؤم ـ شئوم) ليؤكد إحساس الضجر والانفعال والغضب ، وبلغ من دقة استخدام الشاعر الجناس أن جاء به فى آخر صدر البيت وفى عجزه ؛ لينبه المتلقى إلى خطورة إدمان الشطرنج وليبقى الأثر الذى يطلبه طويلاً فى أذن المتلقى ؟.

ومن شعره الاجتماعى أيضاً تلك الأبيات التى يقول فيها من الوافر :

وَخَيَّرَهَا أبُوهَا بَيْنَ شَيْخ كَثير المَالِ أو حَدَثٍ فَقَيرِ
فَقالتْ : خُطَّتا خَسَفٍ وما إن أرَى مِنْ حَظْوَةٍ للمُسْتَخِيرِ
وَلَكِن إنْ عَزَمْتُ فكُلُّ شىءٍ أحَبُّ إلىَّ مِنْ وَجْهِ الكَبيرِ
لأنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفقرِ يَثرى وَهَذا لايَعُودُ إلى صَغيرِ [2]

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٤ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ١٨١ .
٢ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٨١ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٣٧٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالقضية التى يتناولها الغزال من القضايا الخطيرة فى حينها وعلى مر العصور والأجيال ، وتتعلق بزواج الصغيرة من الكبير ، والغزال يلفت النظر فى هذه المقطوعة إلى دقة استخدامه لموسيقى الأصوات والكلمات ذات الجرس الموسيقى الواضح والقارىء للأبيات يتأمل حالة التردد النفسى للفتاة حتى ليحس بحيرتها وهى تقف فى مواجهة الاثنين الشيخ الغنى ، والشاب الفقير ، ومصدر هذه الموسيقى الداخلية تناغم الأصوات وانسجامها وتعبيرها عن المعنى مع سهولة الكلمات ووضوح سهولة اللفظ مما يعطى إحساسا بأن الغزال يقصد ذلك ، وكأنه يريد عرض القضية فى وضوح لا غموض فيه ولا لبس ، فلم أجد كلمة غريبة فى المعنى أو فيها تنافر للحروف ، فمثلاً كلمة (خير) أجد شدة النبر والتنغيم على الحرف المشدد للتنبيه على موقف الفتاة ، وكذلك كلمة (شيخ) فاجتماع الشين والخاء يعطى إحساساً بالنفور من كبير السن ،(خطتا خسف) فأصوات الخاء والطاء والتشديد والتنوين يدل على مدى تحير الفتاة واستياءها وضيقها من الاثنين ، ثم تعلو نبرة الصوت فى البيت الثالث فأجد أصوات الزاى والباء المشددة والكاف التى تكررت ، وهى توحى بأن الفتاة قد اختارت واستقر رأيها وأعلنت رأيها واضحاً عالياً ليس فيه لبس وهو أيضا رأى الشاعر .

وأما الزهد فيعد من الفنون التى أجاد فيها الغزال وأكثر منها وتتميز قصائد الزهد عنده بعلو صوت الحكمة ، ووضوح العاطفة ، فضلاً عن النغم الهادىء الرتيب الذى يبعث فى النفس سكينة وهدوءاً يتناسبان مع هذا الفن ، ففى إحدى زهدياته يقول الغزال من الطويل :

أَلَسْتَ تَرَى أنَّ الزَّمَانَ طَوَانِى وَبَدَّلَ خَلْقَه كُلَّهُ وَبَرَانِى
تَحَيَّفَنِى عُضْواً فَعُضْواً فلم يَدَع سِوَى اسْمِى صَحِيحَاً وَحْدَهُ وَلِسَانِى
وَلَوْ كَانَتْ الأسْمَاءُ يَدْخُلها البِلى لقد بَلِى اسْمِى لامْتِدادِ زَمَانِى
وَمَالِى لا أبْلى لِتسْعينَ حِجَّةً وَسَبْعٍ أتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ [1]

١- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٣ .
ـ المطرب ، ص : ١٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد تأملي للأبيات ألحظ شاعرية الغزال وأصالة طبعه فى اختياره للجوانب الموسيقية للقصيدة ، فقد اختار لها بحر الطويل (وهو من البحور التى تتسع للتأمل والفكر الذى يتناسب مع غرض النص وهو الزهد) وحيث دعوة الشاعر إلى التأمل والاعتبار بجانب ما نلحظه من دقة استخدام الروى وهو النون المكسورة ، والنون من الأصوات التى لها غنه تلحظها الأذن واضحة جلية ، وبعدها كسرة طويلة تعطى شعوراً بالطول والامتداد فى الفكر ، فكأن الغزال يريد أن ينبه المتلقى إلى ما يقول ويجعله أيضا فى حالة تأمل وتفكر .

ومن روائع شعر الغزال فى الزهد قصيدته التى يقول فيها من الوافر :

أرَى أهْلَ اليَسَار إذا تُوفوا بَنَوا تلك المَقَابر بالصُّخُور
أبَوْا إلا مُبَاهَاة ً وَفَخْراً عَلى الفقراءِ حتَّى فى القُبُور
فإن يَكُن التَّفَاضُلُ فى ذرَاهَا فإن العَدْلَ فيها فى القُعُور [1]

فالشاعر هنا ينبه إلى عدم الغرور أو التعالى على الناس ، وقد جاءت الأصوات متوافقة مع ما يقصده الشاعر من التنبيه على سوء فعل الأغنياء ، فجاءت القافية الفخمة القوية التى تتوافق مع جبروت الأغنياء ، وتكبرهم وتعاليهم على الفقراء ، فمثلاً كلمة (الصخور) توحى بمدى القوة والشدة والعلو ، وهذا المعنى يتوارد إلى الذهن من خلال اجتماع الأصوات الصاد والخاء والراء فى كلمة واحدة ، ومثلها كلمة (فخراً) ، أما كلمة (مباهاة) فأجد أن امتداد الصوت فيها يعطى قدراً من المبالغة فى التفاخر والاغترار ، وفى البيت الثالث أجد استخدامه الدقيق للنون المشددة فى (فإن) توحى بالشدة والوضوح ، فالشاعر يؤكد على أن التفاضل يكون فى الدنيا ، أما العدل والتساوى فهو فى القبر .

وهكذا أصل إلى قناعة كاملة بأن الغزال كان يمتلك حاسة موسيقية عالية ، ظهرت لي فى انتخاب الألفاظ ، والتحام المعانى ، وتنظيم الإيقاع ، والحرص على الرنين الموسيقى مع توظيف المحسنات الصوتية التى تشكل فواصل موسيقية مؤثرة ، مما أضفى على شعره روحا موسيقية أخاذه ، وجمالا ترنيمياً جذاباً .

١ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٩ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٢٥٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سابعا : الخيال والصورة الشعرية

الصورة الشعرية عنصر عمدة لا يخلو منه العمل الأدبى ، وطابع أصيل فى أى إبداع شعرى وهى وعاء الأديب الذى ينقل به مشاعره وأحاسيسه ، وهى كما يقول ابن رشيق القيروانى: (دليل الفصاحة ورأس البلاغة أبلغ من الحقيقة ، وأحس موقعاً فى القلوب والأسماع) [1] .

وللخيال وللصورة الشعرية الأثر الكبير فى العمل الأدبى والمتلقى على السواء ، فهى تعطى قدراً كبيراً من التأثير فى المتلقى ، وتثبت الفكرة بداخله فى إمتاع ، تطرب النفس له ، ويتملكها العجب لما تحويه من خيال بديع ، وقدرة على نقل الأفكار والعواطف ، والجمع بين المتباعدات بجانب أن التعبير الشعرى ـ الذى يقوم على الخيال والصورة ـ يعطى العمل الفنى قيمته ، ويزيده وضوحاً ؛ لأن الصورة الشعرية والخيال يحوى إمكانات كبيرة للتعبير لا توجد فى الكلام المجرد ، فمثلا التشبيه ينقل المتلقى من الخفى إلى الجلى ، ومن البعيد إلى القريب ، ومن المعنوى إلى الحسى ، ثم إن الخيال والصورة تزيد من جمال العمل الشعرى ، فالخيال والتصوير يمنحان الكلام تلويناً وتنويعاً يجعله يتراوح بين الحقيقة والمجاز ، والواقع والخيال ، مما يجعل النفس فى حالة اندهاش وتعجب ، وانجذاب إلى العمل الشعرى ، بجانب أن الخيال والصورة يمنحان معانى الكلام قوة وجلالاً ، وتبلغ بالمعنى أقصى غاياته مما يزيد من شدة تأثر المتلقى ، وانفعاله بالعمل الشعرى [2] .

هذا وقد شهد مفهوم الصورة الشعرية تطوراً كبيراً من النقد القديم إلى الحديث ، ففى القديم أجد ابن طباطبا العلوى يعرف الصورة بمعنيين :

أولهما : وجه الشبه فى الهيئة والشكل ، والآخر : ملاءمة معانى الشعر لمبانيه .

ويقول : " واجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة حسنة مجتلبة لمحبة السامع له ، والناظر بعقله إليه يسوى أعضاءه وزناً ، ويعزل أجزاءه تأليفاً ويحسن صورته إصابة " [3] . أى أنه ينبغى للشاعر أن يحسن الجانب اللفظى من الشعر ليطابق معناه أى أنه قد حصر الصورة فى اللفظ والشكل .

---

[1] ـ العمدة ، ص: ١٨٤.
[2] ـ انظر : الصورة الفنية ، ص : ٨ ـ ٢٠ .
[3] ـ عيار الشعر ، تحقيق/ عباس عبد الستار ، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٢هـ ، ص: ٢٣.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما عن النقد الحديث فأجد الأستاذ أحمد الشايب الذي حصر الصورة في معنيين :

أولهما : ما يقابل المادة الأدبية ، ويظهر في الخيال والعبارة ، والآخر : ما يقابل الأسلوب ، ويتحقق بالوحدة ، وهي تقوم على الكمال والتأليف والتناسب [1] .

ومقياس الصورة عنده : هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة ـ فالصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية ـ وهذا هو مقياسها الأصيل ، وكذا ما نصفها به من روعة وقوة إنما مرجعه هذا التناسب بينها وبين ما تصور من عقل الشاعر ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد .

ويرى الدكتور جابر عصفور أن الصورة : " طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير ، ولكن أياً كانت هذه الخصوصية أو ذاك التأثير ، فإن الصورة لن تغير من طبيعة المعنى في ذاته ، إنها لا تغير إلا من طريقة عرضه ، وكيفية تقديمه " [2] .

فالصورة عنده : عرض أسلوبي يحافظ على سلامة النص من التشويه ، ويقدم المعنى بتعبير رتيب ، وهي بعد . طريقة لاستحداث خصوصية التأثير في ذهن المتلقي بمختلف وجوه الدلالة التي يستقيها من النص في منهج تقديمه ، وكيفية تلقيه ، وما يحدثه ذلك عنده من متعة ذهنية ، أو تصور تخييلي نتيجة لهذا الغرض السليم .

ومن كل ما سبق أرى أن الصورة الشعرية لا بد لها من مقاييس حتى تؤدى دورها على الوجه الأكمل ، حيث يشترط أن تكون الصورة انعكاساً للوجدان ولعاطفة الشاعر ، ولا تكون مبنية على مجرد الإدراك الحسى ، وبجانب انسجامها مع الوجدان الذى أوحى بها فلا بد لها من وظيفة عضوية فى التجربة ، حيث يكتمل بها الإبداع الفنى ليبلغ الغاية من الإمتاع والإقناع والتأثير ، ولا تكون الصورة مباشرة أو تقريرية ، وإنما تكون أقرب إلى الإيحاء بالفكرة ليجد المتلقى متعته فى إعمال العقل لفهم الصورة الشعرية .

---

[1] ـ أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة القاهرة ، ط٨ (١٩٧٣) ، ص: ٢٥٩ .
[2] ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر أحمد عصفور ، دار المعارف ١٩٧٣ ، ص : ٣٩٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما عن الصورة الشعرية عند الغزال ، فأكاد أجزم بأن جُل أشعاره اعتمدت على التصوير الفنى ، حيث نقلت إلينا الصورة ما أراده الغزال من أفكار ومعان وعاطفة مما أعطانا صورة شبه كاملة عن حياته ومواقفه وآرائه ، والخيال في شعر الغزال متآلف متسق لا عيب فيه ، ولا شيء يشوب إنفاقه واتساقه ، وهذا كله من سمات الخيال الجيد عند النقاد [1] .

ولتقرأ له معي هذه الأبيات التي يقول فيها :

وَكَأنَهَا فى الدَّار حِينَ تعَرَّضَتْ ظَبْىٌ تَظَلَّل بالفَلا مَرْعُوبُ
تَفْتَرُّ عَنْ دُرٍّ تَنَاسَقَ نَظمُهُ فِيهِ لَثاةٌ عَذبَةٌ وَغُرُوبُ
حَاوَلتُ مِنهُ رَشْفَةً فكَأنَّها عَسَلٌ بمَاءِ سَحَابَةٍ مَقطُوبُ [2]

فأجد في هذه الأبيات نسقاً واحداً من الصور والأخيلة والنغم الجميل العذب ، والألفاظ التي تتسم بالوضوح والجزالة ؛ لرسم صورة كلية أقرب إلي المثالية لهذه المرأة ، وإن كنت ألحظ أن هذه التشبيهات ـ في معظمها ـ مما تداولته ألسنة شعراء العربية القدامي ، فالمرأة ظبي تظلل بالفلا ، وأسنانها در متناسق في نظمه ، وريقها عسل مخلوط بماء السحاب ، وقد حاول الشاعر أن يرشف من ريقها رشفة فكانا طعمه أشبه بالعسل .

وقريب من هذه الصورة الشعرية للفتاة اللعوب صورة أخري وردت في إحدي مقدماته الغزلية يقول فيها :

كُلِّ رَدَاح الرِّدْفِ خُمْصَانَةٍ كَالمُهْرَةِ الضَّامر لم تُركبِ
أوْ دُرَّة سَاعَة ما اسْتُخرجَتْ لم تمتهن بعد ولم تُثقَب
مُشْرَبَةِ اللون مُتُوع الضُّحَى صَفْرَاءِ بالآصَالِ كَالمُذهَبِ [3]

فالشاعر لا يبعد كثيراً عن الصورة السابقة في الوصف الحسي للمرأة ، فالمحبوبة ثقيلة الأرداف ، خمصانة البطن ، كأنها المهرة الضامر ، ولكن يضيف الشاعر هنا علي تلك الصورة التقليدية أنها لم تركب ، ثم إنها درة لم تمتهن ، ولم تثقب ، إيحاءاً ببياضها وبكارتها ، ويضيف مصوراً لونها بأنه مشرّب كما لو كان شعاع شمس ذهبي ساعة الأصيل .

---

[1] ـ أصول النقد ، للدكتور خفاجي ، ص: ٣٤ .
[2] ـ انظر : ـ شعر يحيي بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٩ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .
[3] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٢٥.
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالصورة هنا لم يكتف فيها الشاعر بالاستعانة بالأدوات التقليدية من تشبيه وكناية واستعارة ، وإنما استعان أيضاً بجرس اللغة والموسيقي التي تشع من الألفاظ ، وتوج ذلك بخياله وإبداعه من خلال إضافات ميزته عمن سبقه مثل : (لم تركب ـ ساعة ما استخرجت ـ لم تمتهن ـ لم تثقب ـ بالآصال) ، وهي كما أري أكملت جوانب الصورة الكلية التي رُسمت بدقة للمرأة مما يكشف عن دقته في الوصف ، لا يقصد به الوصف لذاته ، وإنما التأثير في المتلقي الذي تُنقَلْ إليه الصورة لتجعله يعيش مع خياله ، وهو يتأمل هذه الصورة الكلية ، وإن كان الشاعر يغلّب عنصر التشبيه .

وبعد أن طوف بنا الشاعر في الوصف الحسي يحملنا علي جناح خياله الواسع ، ويحلق بنا مع صورة كلية تكاملت فيها كل عناصر الصورة الشعرية ، حيث يقول :

كُـنَّا كَـرُوحيْن فى جسم غِذاؤهُمَـا مَـاءُ المَـحَبَّـة مِنْ هَـام ومُنسَجم
إلْـفيـْن هَذْ ا بهـذا مُغـرم كَلـفٌ لا واحدٌ فى الهوى منهـا بمُتَّهَم
للـهِ تِلـكَ الليَّالى والسُّـرُورُ بهَا كَأ نَّما أبْصَرتْها العَيْنُ فى الحُلـم
ففرَّق الدَّهْـر شَمْلا كان مُلتئمَـاً مِنَّا وجَمَّع شَمْـلا غير مُلـتئِـم
مَـا زلْتُ أرْعَـى نجُومَ الليْل طالِعَةً أرجوالسُّلو بـهَـا إذ غِبْتُ عَنْ نجمى
نجـم منَ الحُسن ما يجرى به فلكٌ كأنَّهُ الدُّرُّ واليَّاقُـوت فى النَّظْم
ذاك الذِى حَاز حُسْناً لا نظِيـرَ لهُ كَالـبدر نَـوّرا عَلا فى مَنْـزل النَّعم
وقد تَنَاظرَ والبرْجِيـسُ فى شَرَفٍ وقَـارَنَ الزَّهْرَة البَيْضَاء فى تَـوَم [1]

فالشاعر يرسم لنا لوحة غزلية جمعت بين الحسي والعفيف ناقلة إلينا صورة بديعة للعشق ، حيث الشاعر قد امتزج هو ومحبوبته في جسم واحد تآلفا ، وكان غذاؤهما ماء المحبة ، ثم إن هذين الإلفين مغرمان كل بالآخر ، هواهما صادق ليس بمتهم ، ثم يصف الشاعر تلك الليالي التي جمعته بالمحبوبة ، ولحظات السعادة والسرور التي عاشها ، وكأنها حلم إلي أن فرقهما الدهر وشتت شملهما الملتئم .

[1] ـ انظر: ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٢٠ .
ـ العقد الفريد ، ج٥ ، ص : ٣٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وما يزال الشاعر المحب متعلقاً بهذه المحبوبة ساهراً ليله يرعي نجومه راجياً السلو عن هذه المحبوبة التي فارقته .

وتكتمل الصورة روعة وجمالاً في ليل الشاعر الذي يصور محبوبته بنجم جميل يدور في فلك كهيئة العقد الذي ينتظم كحبّات اللؤلؤ والياقوت ، وهو خيال يسمو بنا إلي درجة عظيمة من الانفعال والإعجاب لهذه المحبوبة التي تفوق أترابها بهاءً وروعة ، فهي المحور والمدار ، وكل العيون مسلطة إليها تلك التي حازت جمالاً لا نظير له ، وكأنها بدر تناظر ، وكوكب المشتري في الشرف والرفعة ، وماثل الزهرة البيضاء في صفائها ونقائها وشدة بياضها .

وقد تجلت روعة الشاعر في رسم هذه الصورة الكلية للمحبوبة وللعاشق المتيم بحبها وهو الشاعر ، وجاء بها حية تفيض بالحيوية والحركة ، مما يجعل المتلقي يستحضر الصورة في ذهنه ، ويتعايش معها بخياله ، حيث أجد في الأبيات ما يدل علي الحركة من ألفاظ : [منسجم ـ فرّق ـ جمّع ـ أرعي نجوم الليل ـ يجري به فلك] ، وتكاملت جوانب الصورة فأجد اللون في [الزهرة البيضاء ـ البدر ـ نوراً ـ نجم من الحسن ـ الياقوت] ، واقترن كل ذلك بمجموعة من الألوان البيانية التي انسجمت داخل الصورة الكلية وتكاملت معها ، فهناك التشبيه (كروحين) ، والتشبيه الاستعاري (غذاؤهما ماء المحبة ـ وفرّق الدهر شملاً ـ وأرعي نجوم الليل) ثم علي عادة الغزال أضيف إلي الصورة التقليدية ما يكشف عن إبداعه وتميزه ، فألحظ تلك الإضافات التي جاء بها ليستكمل جوانب الصورة مثل : [من هام ومنسجم ـ في الحلم ـ غير ملتئم ـ طالعة ـ في النظم ـ لا نظير له ـ في شرف ـ في توم] ، وقد أحيطت هذه الصورة الكلية المتكاملة بسياج موسيقي جذاب تمثل في الوزن والقافية الرقيقة العذبة .

ومن صوره الكلية الممتدة تلك الصورة الطريفة التي يتحدث فيها الشاعر عن خضاب شعره باللون الأسود الذي أشارت عليه به الملكة نود ، والذي يقول فيه من الكامل :

بَـكَرتْ تُحسِّنُ لى سَوادَ خِضَابى فكأن الذى أعَادنى لشبابى
ما الشَّيبُ عندى والخِضَابُ لِوَاصِفٍ إلا كشمسٍ جُللتْ بضبابِ
لا تُنكِرى وَضَحَ المَشِيب فإنمَا هو زهرةُ الأفهَامِ والألبَابِ
فَلَدَيَّ مَا تَهْوينَ مِنْ شَأنِ الصِّبَا وَطَلاوَةِ الأخْلاقِ والآدَابِ [1]

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٣٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالشاعر يرسم لنا ـ بدقة متناهية وبطرافة ـ كيف أن الملكة قابلته في الصباح الباكر ، ورأت سواد خضابه فاستحسنته ، ورأي هو مثل ما رأت ، وأحس كأن شبابه عاد إليه ، وقد تكاملت في هذه الصورة الكلية كل ألوان البيان وصوره الجزئية في تركيب طريف بديع من استعارة وتشبيه وكناية ، فيأتي في صورة مركبة ، حيث يشبه شيب رأسه بضوء الشمس الأبيض والخضاب فوقه ضباب أسود يغطيه كما يغطي وجه الشمس المنير . الصورة فيها امتداد وتركيب ، وتأتي الكناية لتزيد من روعة هذه الصورة كاشفة عن سعادته بالخضاب ، وإحساسه بعودة الشباب ، ثم يتجه إلي الملكة طالباً منها ألا تنكر وضح مشيبه ، فهو دلالة علي التعقل والفهم ، والخبرة الناتجة عن كثرة التجارب وطول العُمر ، مشبهاً مشيبه ـ في وضوحه وصفاءه وبياضه ـ بالزهرة البيضاء النقية ، وجاء استخدامه للجمع (الأفهام والألباب) ؛ ليكمل جوانب اعتزازه بنفسه وخبرته العميقة ، فهو في الحالين جدير بالتقدير سواء أخضب شعره بالسواد أم لم يخضبه ، ويؤكد في النهاية أنه يملك ما تهوي الملكة من شأن الصبا ، وطلاوة الأخلاق والآداب .

وألحظ هنا أن الصورة بالرغم من إيجازها إلا أنها تكاد ترسم لوحة بديعة لحوار طريف ، وإن كان لم يأت صراحة إلا أن القارىء يحس فيه السؤال من الملكة ، والرد من الشاعر ، مما يكسب الصورة حيوية وحركة ، يجعل القارىء يعيش معه هذا الموقف الذي حدده الشاعر في الصباح الباكر ، وألحظ أيضاً الانسجام الموسيقي الواضح الجرس حيث حرف الروي (الباء المكسورة) التي تقرع الأذن بنغمها الصوتي الواضح ، مع شيوع حروف الهمس (السين ـ الزاي ـ الحاء) ، وإن كانت لا تخلو من أصوات الفخامة (الخاء ـ الضاد ـ الباء) ، والصورة في مجملها تظهر فيها ملامح البيئة الأندلسية بطبيعتها الخلابة حيث الشمس والضباب والزهر .

ومن بديع وصفه تلك الصورة التي يصف فيها ما حدث له مع البحر ، حيث يقول من الطويل :

وَلَـبْسٍ كَثَوْبِ القَسِّ جُبْتُ سَوَادُهُ على ظهر غِرْبيبِ القَميص نَآدِ
قد اسْتَأخَرتْ أرْدَافُهُ وَمَضَتْ لـه غَوَاربُ فى آذيـهِ وَهَـوَادِ
له ظُلُمَاتٌ بَعْضُها فوق بعضِها دَآدى مَوْصُولٌ بهِـنَّ دَآدِى
يَبيتُ بها المَلاحُ مِنْ حَذَر الرَّدِى مُلازمَ صَارِيهِ لُزُومَ قُرَادِ [1]

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٥٧
ـ التشبيهات ، ص : ١٨١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيبدأ الصورة بتشبيه سواد وظلام البحر بثوب القس وهو شديد السواد ، ثم يقول الشاعر بأنه قد جابه سواد البحر وظلامه في رحلة عظيمة المخاطر علي ظهر سفينة شديدة السواد ، سارت السفينة وسط هذه المخاطر والظلمات ، ويصف الشاعر هذا البحر وأمواجه بالجمل الذي استأخرت أردافه ، وامتد عنقه بالموج الشديد ، وهي صورة مركبة صور فيها البحر بالجمل الذي تمطّي حين قيامه ، فاستأخرت أردافه ، وامتد عنقه ، وعلي سنامه ، وتمتد الصورة موضحة توالي الظلمات والأخطار وتراكمها ، وكأنهاالليالي الثلاث الآواخر من الشهر العربي التي يشتد فيها الظلام لغياب القمر ، ويستكمل الشاعر الصورة مرة أخري بتصوير الملاح الذي يلزم صاري السفينة لزوم القراد ، الذي يلزم أجساد الحيوان أو الطير كناية عن شدة فزعه وخوفه من كثرة ما يحيط به من مخاطر وأهوال ، فالصورة الكلية قد لعب خيال الشاعر فيها دوراً مهماً في توضيحها وتقريبها إلي المتلقي ، فقد استحضر بعضاً من مظاهر البيئة الأندلسية ممثلة في ثوب القس ، وكذلك البيئة العربية الصحراوية المتمثلة في وصف الجمل ، وهو يتمطي ويمد عنقه بجانب الاقتباس من القرآن من قوله : (**ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**) [1] ، وقد وظف الصورة الجزئية توظيفاً فنياً بديعاً ، فجاء التشبيه دالاً وموحياً في قوله (كثوب القس) موضحاً شدة الظلام ، وظهرت الحركة واضحة في (جبت ـ استأخرت أردافه ـ مضت له غوارب) ، وجاء اللون ليكمل جوانب تلك الصورة ، فالظلام شديد ، والسواد هو اللون الغالب علي تلك الصورة مما يزيدها قتامة وكآبة (سواده ـ غربيب ـ ظلمات ـ دآدي) ، وكما بدأ الصورة بتشبيه ختمها أيضاً بتشبيه يؤكد علي شدة فزعه وخوفه مما جعله يلزم الصاري ممسكاً به مثل القراد الذي يلزم أجساد الدواب والطيور ، والصورة تتضح فيها الدقة ، ووضوح الجانب النفسي حيث حالة الفزع والخوف .

ومن صوره التي تفيض بالحيوية والحركة تلك الصورة التي رسمها لنفسه ، وهو ذاهب إلي حانة الخمّار ، حيث يقول من الطويل :

تَدَارَكْتُ فى شُرْبِ النَّبيذِ خَطَائِى ... وفارقْتُ فِيهِ شِيمَتِى وحَيَائِى
وَلَمَّا رَأيْتُ الشَّرْبَ أكْدَتْ سَمَاؤهُمْ ... تأبَّطْتُ زقّى وَاحْتَسَبْتُ عَنَائِى
فلمَّا أتَيْتَ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّه ... فَهَبَّ خَفِيفَ الرُّوح نحْو نِدَائى
قَليل هُجُوعَ ♥ العَيْنَ إلا تَعِلَّة ... عَلَىَّ وَجَل منِّى ومِنْ نُظرائى

[1] ـ سورة النور : (٤٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقلــت أذقِنــيــهَا فلمــا أذاقهــا طَرَحَت إليهِ رَيْطتِــى وَردَائِــى
وقلــت أعِرْنِـى بِذلَـةً أسْتَتِرْ بهـا بَذلتُ له فيهــا طَـلاقَ نِسَــائى
فَــوَ اللهِ مَا بَرَّتْ يَمينى وَلا وفـت له ، غيـر أنى ضَامِنٌ بِوفائِــى
فأبتُ إلى صَحْبى ولـم أكُ آيبــاً فكُـلُّ يُـفدِّينى وَحَــــقَّ فِدَائِـى [1]

فالـصورة تتكامـل فيهـا كـل عناصـر اللـون ، والحركـة ، والـصوت بجانـب الـصور الجزئية التي ترسم تفاصيل تلك الصورة الكلية بما تشتمل عليها من حوار ؛ يجعلها أشبه بالقصة القصيرة التي تتناول حدثاً واحداً ، وموقفاً واحداً .

وقد استوفت الصورة حظها من الإيقاع الموسيقي المتميز سواء مـن جهـة الـوزن وهـو بحر الطويل ، أو القافية حيث الهمزة المكسورة كسرة طويلة ، والتي تعطي امتداداً طويلاً للصوت ، وجرساً نغمياً عالياً .

فبداية الأبيات يوضح من خلالها الشاعر أنه قد تدارك خطأه ، واقترف شرب الخمر حتي لعبت الخمر برأسه ، وفارق خصاله الكريمة ، وحيـاءه المعـروف عنـه ، ثـم تتـابع الـصورة وتتوالي في سرعة تتلاحق وتتكامل لترسم لنا هذا الموقف ، فالغزال يُسرع إلي الحان ، وتحت إبطه وعاء الخمر ، ويصل إلي الحانة بعد معاناة من طول الطريق ، وما إن وصل حتي نادي علي الخمّار الذي أسرع إليه بخفة وذكاء ، ويصف الغزال صـاحب الحـان بأنـه لا ينـام إلا قلـيلاً ، فهـو يفـتح حانته طوال الليل ليستقبل الزبائن ، وفي سرعة وعجله يطلب الغزال من صـاحب الحـان أن يذيقـه الخمر ، فلمّا ذاقها استحسن الخمر ، فما كان منه إلا أن طرح له ثيابه وألقاها عليـه مكافـأة لـه ، وتمتد الصورة بعد ذلك لتكشف لنا عن الذي تصنعه الخمر لشاربيها ، فالغزال من طربه واستمتاعه وانتشاءه بها خلع ثيابه ، ولّما نظر إلي نفسه ، وفطن إلي عُريه ، طلب من الخمّار أن يعـيره بذلـة يستتر بها ، وقد حلف بالطلاق من نسائه أن يعيدها إليه ، وتنتهي الصورة والموقف برجوع الغزال إلي أصحابه ، حاملاً لهـم هـذه الخمـر المعتقـة ، فمـا كـان مـنهم إلا أن اسـتقبلوه بكـل الترحـاب والتفدية ، ويزيد هو مؤكداً أن هذا حقه .

---

١ ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٢١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذه الصورة متكاملة تتضح فيها المبالغة التي تحمل قدراً كبيراً من التكلف من خلال الصور الجزئية التي امتلئت بها كالاستعارة (وفارقت فيها شيمتي وحيائي) ، والإطناب (احتسبت عنائي) ، وكذلك الكناية في (هب خفيف الروح) ، وإن كانت التكملة (نحو ندائي) لا قيمة لها ، حيث لم تضف جديداً إلي الصورة ، أما الكناية في (قليل هجوع العين) ، فهي في موضعها حيث الخمّار لا يعمل إلا ليلاً ، أما في قوله (طرحت إليه ريطتي وردائي) ، فهي تكشف عما تفعله الخمر بشاربها حيث تجعله يأتي بتصرفات غير معقولة وغير مقبولة ، وفي البيت الأخير يصور الغزال عودته إلي أصحابه واحتفالهم به ، وهو يحمل إليهم الخمر .

والغزال في هذه الصورة التي تتضح فيها المبالغة ؛ قد استطاع أن ينقل إلينا ما تفعله الخمر بشاربيها الذين يتلهفون عليهم ويسعوْن من أجلها بشتي الوسائل .

ومن صوره الكلية التي رسمها لمدوحه الأمير عبد الرحمن الأوسط هذه الصورة التي يقول فيها (البسيط):

قَــرْمٌ إذا رُفِعَتْ عنه السُّتورُ لنــا ... لاحتْ له سُــنَّةٌ يُغْشَى تَلالِيهَا

كالشمس تَرْجِعُ عنها العَيْنُ حَاسِرةً ... يَكَادُ ما جَشَمَتُ مِنْ ذاك يُعْشِيها

وما تَكَلَّفَ منهُ الفِكْرُ منزلــةً ... إلا تحَيَّــر فى أدْنــى الذى فيهـا

هو الهُمامُ الذى ما مِثْــلُــهُ بَشَــرٌ ... مِنْ نَسْــلِ آدم مَاضيها وبَاقيهَا

يا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْهُ الأرْضُ مُذْ سُطِحَتْ ... حَاشَى الذين أحاشِى مِنْ نَبيِّــهـا

هَذِى مَنَابرُ أرْضِ الشَّرق قد جَنَحَتْ ... شوقاً إليكَ وهَزَّتْــهَا خَوَافيهـا

شُــزْرُ العُيُونِ إلى رُكَابهَا أنُــفٌ ... لَحْــظَ الفَوَارِكِ ما تَخْفَى تَقَالِيهَا [1]

حيث تتكامل في الأبيات السابقة الصفات الحسية والمعنوية ، فالشاعر يرسم من خلالها صورة متكاملة لمدوحه جسداً وخلقاً ، فهو سيد عظيم إذا رفعت عنه الأستار لاحت صورته مضيئة تكاد تغشي العيون من تلألئها وبهائها ، ثم هو كالشمس التي لا تقوي العين علي النظر إليها من شدة ضوئها وبياضها ، فتكاد تغشي وترجع حاسرة متعبة ، والصورة فيها اقتباس من القرآن من قوله تعالي : (يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) [2] .

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ٢٣٧ ــ ٢٤٠ .
ـ السفر الثانى من كتاب المقتبس ، ط الرياض ، ص : ٣٦٩ .

[2] ـ سورة المُلك : (٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم إن هذا الممدوح تعيا الأفهام ، وتتحير في أدني منزلة فكره ، فما بالنا بأعلي منزلة فكره ، فهي كناية عن تميزه ورجاحة عقله ، وقد أكد هذا المعني بهذه الكناية التي تعلي من قدر الممدوح ، وتثبت له سمو الفكر والذكاء ، ثم إنه الهمام الذي لا يماثله بشر من نسل آدم باستثناء الأنبياء ، وألحظ هنا الدقة من خلال الإطناب (حاشي الذي أحاشي من نبيّها) وهو الاحتراس .

وفي الختام أري الشاعر يأتي بصورة طريفة فيها طرافة وابتكار ، حيث صور منابر الشرق ، وكأنها طيور دفعها شوقها إلي الممدوح ، وهزتها خوافيها رغبة وشوقاً وأملاً في أن تكون الإمارة في المشرق لممدوحه أي أنه يري هذا الممدوح ، جدير بأن يكون خليفة المسلمين في المشرق والمغرب ، ويستكمل الصورة بصورة أخري تكمّلها ، وتؤكد معناها ، فالمطايا تأنف من ركابها ، وتنظر إليها شزراً كما تنظر المرأة المبغضة لزوجها شزراً إليه تأكيداً علي شوق المشرق إلي ممدوحه .

فالشاعر في تلك الأبيات قد رسم لممدوحه صورة استوفت ـ أو تكاد ـ كل مظاهر الجمال والجلال ، وتكاملت فيها الصفات الحسية والمعنوية فهو السيد ، وهو الشمس ، وهو الهمام ، ثم يأتي الإجمال بعد التفصيل في قوله (لا خير من حملته الأرض) ، وإن كان قد استدرك ، فاستثني أنبياء الله ورسله ، وختم بمبالغة تكشف عن أن هذا الممدوح هو أمل المسلمين جميعاً في الشرق والغرب ، وجاءت الصورة الأخيرة في شكلها الاستعاري (جنحت شوقاً إليك) ، وفي التشبيه (لحظ الفوارك) لتستكمل جوانب الصورة التي قصد إليها الشاعر واستهذبها ، وقد تزينت هذه الصورة ببعض من الزخارف اللفظية والبديعية من مثل (الستور ـ لاحت) و (ماضيها ـ باقيها) وهو طباق غير متكلف ، وجاء طبيعياً في موضعه ، كما جاء التناسب بين لفظتي (جنحت ـ خوافيها) لإثارة الذهن ، فالخوافي هي ريشات في جناح الطائر تأتي بعد القوادم والمناكب ، ويليها الأباهر ، وكلها مكونات جناح الطائر من الريش .

وقد أحيطت الصورة الكلية بسياج من الوزن والقافية ، اللذين اتسما بوضوح الإيقاع ، والجرس النغمي المتميز .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن صوره الساخرة التي حشد فيها الغزال كثيراً من السخرية والاستهزاء تلك المقطوعة التي يقول فيها (المجتث):

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيباً ... مِنْ آبدات يُخَامِرْ
قَرَا عَلَيْهِ غُلاَمٌ ... طه وسُورَةَ غَافِرْ
فَقَالَ : مَنْ قَالَ هَذَا ؟ ... هذا لَعَمْرى شَاعِرْ
أَرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ ... فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرْ
أَتيتُ يَوْماً بتَيْسٍ ... مُسْتَعْبِراً مُتَحَاسِرْ
فقلت : قُومُوا اذْبحُوه ... فقال : إنِّى يُخَامِرْ [1]

فالصورة تفيض بكل ألوان الهجاء والسخرية من القاضي يخامر الشعباني ، حيث يُنبئنا بأنه قد سمع الأعاجيب عن هذا القاضي وأفعاله الغريبة ، ومنها هذا الموقف الذي يحكيه لنا الغزال عنه ، فلقد قرأ عليه غلامه سورتي " طه وغافر " ، فما كان من القاضي إلا أن استحسنه وسأل غلامه : من قال هذا ؟! وأتبع سؤاله بقسم قائلاً : " هذا لعمري شاعر " .

وأظن أن هذا الموقف مبالغ فيه لا يعقل أن يبلغ الجهل بالقاضي هذا المبلغ .

والراجح أن الغزال قد جاء بهذا من خياله الواسع مدفوعاً بكرهه لهذا القاضي ، ولم يقف الأمر بالغزال عند هذا الحد من السخرية ، بل أضاف أنه قد أراد صفع قفا القاضي ، ولكنه تخوف من بطشه وظلمه .

ثم تمتد الصورة حيث أجد الغزال يشبه هذا القاضي بالتيس الذي تفيض دموعه حسرة وأسفاً ، طلب الغزال من الناس أن يقوموا لذبحه ، فأسرع التيس قائلاً : إني يخامر .

فالصورة الكلية هنا تمثل لوحة هجائية شديدة اللذع ، وقد اعتمد الشاعر في رسمها علي عديد من الأدوات الفنية ، ومنها الكناية التي ألحظها في الأبيات الثلاثة الأول التي يتضح منها جهله الواضح ، حيث لم يدرك الفرق بين القرآن والشعر ، ثم التصوير الاستعاري في تشبيهه بالتيس ، وبجانب ذلك جاءت الأساليب لتكمل جوانب تلك الصورة وتزيدها وضوحاً بجانب ألفاظ الحركة والصوت من مثل قوله (قرأ ـ صفع ـ مستعبر ـ قوموا ـ اذبحوه) .

فالصورة قد صاغها خيال الشاعر المبدع ، فخرجت بالشكل الذي أراد إيصاله إلي المتلقي .

---

[1]- انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٧٣ .
ـ المقتبس ، ط بيروت ، ص : ٦٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن صور الغزال المرفوضة تلك الصورة الساخرة من المرأة ، والتي يقول فيها (الكامل) :

يَارَاجِـياً وُدَّ الغَوَانِى ضَـلَّـــة ... ففُـؤادُهُ كَلَـفاً بِـهِـنَّ مُوكَّـلُ
لا تَـكْـلَـفَنَّ بِـوَصْـلِهِنَّ فإنما الـــ ... ـكَلِفُ المُحِبُّ لهُنَّ مَنْ لا يَعْقِـلُ
إنَّ النَّسَاءَ لِكَالسُّـرُوج حَقِيقَةً ... فالسِّرْجُ سِرْجُكَ رَيْثَمَا لا تَـنْـزلُ
فإذا نَـزَلْـتَ فإنَّ غيْرَكَ نَـــازِلٌ ... ذاكَ المَـكَـانَ وَفاعِـلٌ مَا تَـفْعَـلُ
أوْ مَـنْـزِلِ المَجْتاز أصْبَحَ غادِيَاً ... عَـنْهُ وَيَـنْـزِلُ بَعْدَهُ مَنْ يَـنْـزلُ
أو كالثِّـمَار مُبَـاحَةً أغصَـانُـهَا ... تَـدنُـو لأوَّلِ مَـنْ يَمُـرُّ فتُؤكَـلُ
أعْطِ الشَّبيبَةَ ـ لا أبَا لكَ ـ حَقَّهَا ... منها فإنَّ نعِيمَهَـــا مُـتَحَـوِّلُ
وَإذا سُلِبْتَ ثِيَـابَهَا لمْ تَنْـتَـفِـعْ ... عِنْـدَ النِّـسَاءِ بِـكُلِّ مَا يُسْتبْدَلُ [1]

فالشاعر يرسم هذه الصورة السيئة للمرأة المبنية في اعتقادنا علي موقف خاص له معها ؛ مما جعل نظرة التحقير والازدراء تغلب عليه وهو ينظر إليها ، حيث يصف من يكلف بالنساء ويقبل عليهن بالضلال وعدم التعقل ، ويواصل مؤكداً أن النساء يشبهن السروج ولا يحق لهن الاحترام ، لأنهن متقلبات ، ولا يدوم لهن عهد وميثاق، وتتابع التشبيهات السيئة الحقيرة التي يصف بها الغزال المرأة ، فيشبهها مرة بمنزل المجتاز ، ومرة بالثمار المباحة لكل من يمد يده ليأكل .

ولا يخفي ما في التشبيه من تعريض مرفوض تأباه الأخلاق والأعراف الدينية .

وبعد أن رسم تلك الصورة السيئة للمرأة ، يختم بنصيحة يوجهها إلي الشباب بأن يحافظوا علي شبابهم ؛ لأن زمن الشباب قصير .

فالصورة بأكملها قد حشد فيها الغزال كثيراً من الوسائل الفنية من تشبيهات وكنايات واستعارات ، وكلها تضافرت لرسم تلك اللوحة ، والتي وإن كنت أرفضها إلا أنني أوردتها للتدليل علي عمق خيال الشاعر ، ودقة تصويره وبراعة استخدامه لكل الأدوات الفنية المكونة للصورة الشعرية .

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص : ٢١٠ ـ ٢١٢ .
ـ المطرب ، ص : ١٤٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن تصويره للقضايا الاجتماعية والتي ناقش من خلالها زواج الصغيرة من الشيخ الكبير الطاعن في السن يقول مصوراً هذا الموقف الاجتماعي (الوافر) :

وخَيَّرَهَا أبُوهـا بَيْنَ شَيْخٍ كَثِـيرِ المَال أو حَدَث فَقِـيـر
فقالت : خُطّتا خَسْـفٍ وما إن أرى مِنْ حَظْوَةٍ للمُسْتَخِيـر
ولكن إنْ عَزمْتَ فَكُلُّ شـيءٍ أحبُّ إلىّ مِنْ وَجْـهِ الكَبَير !
لأنْ المرءَ بعد الفقـر يُثـرى وهذا لا يَعُود إلى صَغِـيـر ! [1]

فالشاعر يتميز في هذا الشعر الاجتماعي بميزة ميزته عن شعراء عصره ، وهي رسم الصورة الشعرية في قالب قصصي مع ملاحظة اعتماد الشاعر علي الألفاظ الواضحة والصريحة ، حيث يروي لنا قصة فتاة خيرها أبوها في الزواج من شيخ غني وشاب فقير ، فتحيرت الفتاة وتبينت أن كلا الأمرين سيء ، وليست لها ميزة في الاختيار ، ولكنها بعد أن تأملت وفكرت رأت أن من الخير أن تقبل الشاب ، وجاء التعليل رائعاً ، حيث أن الشاب قد يصيب غني بعد ذلك ، أما كبير السن فلن يعود صغيراً ، وقد اعتمدت هذه الصورة علي مجموعة من الوسائل الفنية التي انسجمت وتكاملت داخل إطار هذه اللوحة القصصية مثل الطباق والمقابلة بين المواقف المختلفة مثل [شيخ ـ حدث ، كثير المال ـ فقير ، الفقر ـ يثري] ، وأيضاً اعتمد علي الجرس الموسيقي الواضح الرنين باستخدام حرف الروي الراء ، وكأنه يقرع الأذن بقوله ، وينبه إلي أهمية ما يقوله ، وكذا جاءت الألفاظ بجانب جرسها النغمي موحية ، ودالة علي ما يريده الشاعر ، فاللوحة وإن كان الخيال فيها قريب إلا أن هذا الأمر مقصود ؛ لأن الشاعر يعرض قضية اجتماعية ، ترتكز علي أسس واقعية ، وإن كان الشاعر قد اعتمد علي المفارقة والتمايز بين الشاب والشيخ الغني .

وفي الصورة التالية يوجه الشاعر سهام نقده إلي المرائين يقول من (مجزوء الرمل):

ومُـرَاءٍ أخَـذ النَّـا س بِسَمْتٍ وقُـطُـوبِ
وخُشُـوع يُشبـه السُّقـ ـمَ وضَعْـفٍ فى الدّبيـبِ
قلتُ : هل تألـم شَيئاً ؟ قال: أثْـقَـال الذنُـوب !

---

[1]ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص ١٨١ .
ـ بغية الملتمس ، ص: ٤٨٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قلتُ : لا تُعْنَ بشَيْءٍ أنتَ فى قَالبِ ذِيبِ !
إنما تَبنى على الوَثْبِ ةِ فى حين الوُثُوبِ
لَيْسَ مَنْ يَخفى عليهِ مِنْكَ هَذا بِلبِيبِ ! [1]

فالشاعر يرسم صورة محسوسة لهذا المرائي الذي تصنّع الخشوع وتكلف الضعف أمام الناس مخادعاً لهم ، والشاعر يفضح هذا النفاق والخداع ، ومن خلال محاورته معه يكشف عن نفاقه وخداعه ، فقد سأله الشاعر : هل يألمك شيء ؟ فأجابه : أثقال الذنوب ، فقال الشاعر ـ وقد كشف أمره ـ وأكد له أنه لا يهتم بشيء من هذا ، وأنه ذئب فى شكل إنسان يرائي الناس ويخادعهم انتظاراً حتي تحين الفرصة للوثوب عليه ، وأن حقيقته هذه لا تخفي علي لبيب ، وإنما قد ينخدع به الغافلون .

وألحظ هنا تميز الأبيات بالسهولة ووضوح المعني مع بساطة التركيب والحوار الذي أكسب الصورة قدراً كبيراً من الحيوية والحركة ، ثم الاعتماد علي التشبيهات والاستعارات الواضحة ، وكلها تتميز بوضوح المغزي ، فالخشوع يشبه السقم ، والمرائي مثل الذئب والذنوب ثقيلة ، وكلها صور تآلفت في إطار الصورة الكلية ، وجاءت الكناية في البداية دالة علي خطورة المرائي الذي يخفي أمره علي كثير من الناس عدا اللبيب منهم .
والحق أن الشاعر في نقده الاجتماعي يعمد إلي السهولة والوضوح حتي تقترب الصورة أكثر من ذهن المتلقي .

وأنتقل إلي صورة أخري من صور الغزال والتي يتبدي فيها خياله الواسع وذلك في قوله (الوافر):

إذا أخْبَرْتَ عن رَجُلٍ بَرِىءٍ مِنَ الآفَاتِ ظَاهِرُهُ صَحِيحُ
فَسَلهُمْ عنه : هَلْ هُوَ آدَمِىٌّ ؟ فإن قالوا : نعم ، فالقوْلُ رِيحُ !
ولكنْ بَعْضُنا أهْلُ اسْتِتَارٍ وَعِنْدَ اللهِ أجْمَعُنَا جَرِيحُ
وَمِنْ إنْعَام خَالقنَا عَلَيْنَا بأنْ ذنُوبَنَا ليْسَتْ تَفُوحُ

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص: ١٣١ .
ـ بهجة المجالس ، من باب : الرياء ، ص : ٢٠٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلَــوْ فَـاحَتْ لأصْبَحْنَـا هُرُوبَــاً فُـرادَى بالفـَلا مَا نَـسْتريــحُ
وَضَـاقَ بكُلِّ مُنتَحِلٍ صَـلاحَــاً لَـنتْن ذنُـوبِـهِ البَلَــدُ الفسِيحُ ! [1]

فالشاعر يلجأ لأسلوب الحكاية ، ويتخيل شخص يحـاوره ، ويرسـم لنـا صـورة للإنـسان الذي خلقه الله ، وركَّب في نفسه الفجور والتقوي ، فليس هنـاك إنـسان معـصوم مـن الـذلل والخطـأ حاشـا الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، ويؤكد الشاعر أن كل ابن آدم خطاء ، ولكن هنـاك بعـض النـاس لهـم القدرة علي ستر أخطائهم ، ولكننا جميعاً أمام الله مجروحون ، ثم يلفتنا الـشاعر إلـي صـورة لعـب فيهـا خياله دوراً كبيراً ، حيث صور الذنوب بشيء منتن ، لكن رائحتـه لا تفـوح ، وتمتـد الـصورة لتوضـح أن رائحة الذنوب لو فاحت لفرّ الجميع إلي الصحاري هرباً من الناس حتي لتكاد البلدان الفسيح تضيق لنتانة الذنوب .

فشاعرنا قد رسم هذه الصورة الكلية وحشد فيها كثير من وسائل التعبير من ألفاظ موحيـة وأساليب ظهر من خلالها تعجبه ونفيه لوجود من هو صحيح من الآفات والذنوب بجانب صوره الخياليـة ؛ التي أحدثت توازن داخل الصورة وأخرجتها من إطار المباشرة والتقريرية والأسلوب الخطابي إلي دائرة الخيال المحلق ، ووسامتها بسمات الجمال والحسن ، وجاءت الأبيات مترابطة في إطار متكامل ، فجاءت الصورة طبيعية غير متكلفة دالة علي ما أراده الشاعر ، وما قصد إليه .

وبعد هذا التناول للخيال والصورة الشعرية عند الغزال .

يمكن لي أن أقر أن الغزال قد تميز فى خيالـه وصـوره بالابتكـار والجـدّة فقـد جـاء خياله بعيداً ومبتكراً ، وجاءت صوره طريفة على الرغم من أن هناك الكـثير مـن الـصور التقليديـة التى عرفناها عند الشعراء المشارقة ، وهذا المزج بين التقليد والابتكار ، وبين الأصالة والتجديد إن دل على شيء ، فإنما يدل على سعة ثقافة الغزال بالشعر المشرقى مع وضوح شخصيته وذاتيته التى تأثرت ببـيئـتـه الأندلسية .

كذلك ألحظ دقة استخدام الغزال للصور الخيالية وتوظيفها لإبراز ما يريـد توصـيله للمتلقى من أفكار ومعان ، وكذلك من مشاعر وعواطف ليخرج المتلقى فى النهاية متأثراً بمـا يقولـه الغزال ومعايشاً للمواقف التى عاشها الغزال ، وهذا أكثر ما يبغيه شـاعر ، حيـث إن الهـدف مـن الشعر هو التأثير فى نفس المتلقى تأثيراً يمتزج بالمتعة ، والدهشة فى آن واحد .

---

[1] ـ انظر : ـ شعر يحيى بن حكم الغزال ، د/ علي الغريب ، ص : ١٤٩ ـ ١٥٠ .
ـ جذوة المقتبس ، ص : ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخـــــاتمـــة

وبعد هذا البحث المستفيض والسرد المفيد عن الشاعر السفير يحيى بن حكم الغزال ، حيث قمت فى هذا البحث بعد المقدمة بإعداد تمهيد موجز تناولت فيه البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية للشاعر موضوع البحث ، ولقد امتدت الحقبة التى تناولتها (١٥٦ ـ ٢٥٠هـ) وهى الحقبة التى عاشها الغزال وتمثل عصر سيادة قرطبة .

وأتبعت التمهيد بالفصل الأول الذى كان عنوانه (يحيى بن حكم الغزال حياته وسيرته الذاتية) تناولت فيه اسمه ونسبه ، ومولده ، ثم ثقافته ، وملامح شخصيته ، وسلوكه ، ثم زهده ، ووفاته ، وقد تخلل هذا الفصل سرد لأهم المواقف والأحداث التى مر بها الغزال منها محاولته محاكاة القرآن الكريم وتراجعه عن ذلك ، وتعرضه بالنقد للفقهاء والقضاة الفاسدين فى عصره ، ثم حادثة الأهراء ، وأرجوزته التاريخية ، وتوقفت طويلاً عند سفارته إلى بلاد بيزنطة وإلى بلاد النورمان وما دار حول هذه السفارات من آراء متباينة للمؤرخين قديماً وحديثاً ثم ما كان منه مع زرياب مغنى الأمير ، وما ترتب عليه من سفر الغزال إلى المشرق العربى .

وأتى الفصل الثانى بعنوان (شعر الغزال رؤية موضوعية) ولقد افتتحت هذا الفصل ممهداً بالحديث عن اتجاهات الشعر فى عصر الإمارة ، حيث انحصر الشعر فى اتجاهين هما : الاتجاه التقليدى المحافظ ، والاتجاه التجديدى ، ثم تناولت شعر الغزال وما تضمنه من فنون وأغراض عديدة ، وهى: الغزل والمجون والمديح والهجاء ووصف الطبيعة والفكاهة والحكمة والشعر الاجتماعى والزهد فضلاً عن بعض الأغراض الملحقة والتى لم ترد إلا نادراً فى شعره مثل الخمريات والتهنئة والأرجوزة التاريخية ، ولقد رأيت كيف أن الغزال قد جمع بين الاتجاهين فى شعره ، حيث وجدت أن شعره قد جمع ما هو تقليدى ، وما هو جديد من الفنون والأغراض .

ثم انتقلت إلى الفصل الثالث وهو بعنوان (شعر الغزال رؤية فنية) حيث تناولت فيه أهم العناصر الفنية التى اشتمل عليها شعر الغزال وهى : التجربة الشعرية ، والوحدة الفنية ، ثم الفكرة والعاطفة ، وأتبعت ذلك بالدراسة اللغوية حيث تحدثت عن الألفاظ والتراكيب والأسلوب ، ثم تناولت بالتحليل أهم عناصر التشكيل الشعرى عند الغزال وهى القصة الشعرية ودور الحوار ، ثم تحدثت عن عنصر الموالموسيقى الشعرية بنوعيها : الخارجية والداخلية ، وختمت هذا الفصل بالحديث عن الخيال والصورة الشعرية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلى هذا أستطيع من خلال ما سبق أن أستخلص بعض النتائج الهامة والتى توصلت إليها :

١ ـ إن القيمة الفنية للشعر تكون أسمى وأثمن كلما كان هذا الشعر انعكاساً وتعبيراً عن حياة الشاعر وترجمة صادقة ودقيقة للمواقف والأحداث التى عايشها الشاعر ، وهذا ما رأيته عند الغزال ، حيث إن المتأمل فى شعره يشعر ، وكأنه يتعايش حقيقة مع تلك الأحداث والمواقف بفضل تصويره الفنى الرائع وتعبيره الدقيق عن كل مواقف وأحداث عمره .

٢ ـ الغزال ومن خلال شعره قد أعطى القدوة والمثل لما ينبغى أن يكون عليه الشاعر فى محيط مجتمعه حيث هو عين ناقدة ولسان يتحدث بما فيه لصالح هذا المجتمع ، ولقد وجدت الغزال يقوم بهذا الدور الاجتماعى الخطير ، على الرغم من أنه يحسب من رجال السلطة ؛ لأنه تولى بعض المناصب الإدارية والسفارية ، ولكن هذا لم يمنعه من توجيه سهام النقد اللاذع لمستغلى النفوذ من القضاة والفقهاء ورجال السلطة الذين اتسمت أعمالهم بالفساد واستغلال النفوذ .

٣ ـ إن الغزال من خلال شعره قد تناول بعض المشكلات الاجتماعية الخطيرة والتى تهدد كيان الأسرة لا فى عصره فحسب ، بل فى شتى العصور مثل مشكلة عدم الكفاءة فى الزواج ، وتفرغ بعض الناس للهو واللعب مثل لعبة الشطرنج وقيام بعض الشيوخ من كبار السن بالإكثار من كسب الجوارى صغيرات السن ، فضلاً عن بعض الأمراض الاجتماعية الخطيرة مثل الرياء والنفاق ، ولم يكتف الغزال بتناول هذه المشكلات ، بل إنه قدم الرأى والحل معتمداً على خبراته الواسعة ، وحكمته العميقة .

٤ ـ وضوح أثر الشعر المشرقى على الشعر الأندلسى فى تلك الحقبة حيث كان المشرق يمثل المصدر الذى استمد منه شعراء عصر الإمارة ومنهم الغزال ، ولا سيما الموضوعات والأساليب والصور الفنية ونظام القصيدة والأوزان ، فضلاً عن أن البيئة العربية بمختلف معانيها كانت حاضرة فى الشعر الأندلسى فى عصر الإمارة .

٥ ـ إن الغزال قد تفرد من بين شعراء عصره بقدرته على الابتكار والتجديد ، وقد بدا فى ذلك متأثراً بأصحاب الاتجاه الجديد فى الشعر العباسى ، فقد طرق الغزال فنوناً لم تكن معروفة من قبل فى عصره مثل المجون والخمريات والاجتماعيات ، ومن ابتكاراته الرائعة وتجديده الذى سبق به شعراء عصره استخدامه عنصر القصة الشعرية والحوار فى شعره بجانب صوره وأخيلته الطريفة المستوحاة ، إما من البيئة العربية المشرقية ، وإما من البيئة الأندلسية التى عاش فيها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأخلص من هذا أنه قد جمع فى شعره بين ما هو تقليدى محافظ وما هو تجديدى مبتكر مما يدفعني إلى القول بأن شعره كان بمثابة البدايات الأولى ونقطة الانطلاق للشعر الاندلسى ، لكى تتضح معالمه وسماته البارزة الخاصة به ، وذلك بمنأى عن الشعر المشرقى .

وكل ما أتمناه فى ختام هذه الدراسة أن أكون قد وفقت فى إعطاء صورة أقرب إلى الحقيقة والصدق لهذا الشاعر المتفرد الذى سبق عصره بقرون كثيرة إلى الدرجة التى أشعر معها أن الغزال يعيش معنا ، ويعايش مشاكلنا وقضايانا ، وَلِكَمْ تمنيت لو أن هناك الكثير من أمثال هذا الشاعر ممن يتميز بالشجاعة ووضوح الرؤية للوقوف فى وجه مستغلى النفوذ والمرتشين الذين ينخرون كالسوس فى جسد المجتمع ، وإننى لأؤمن إيمانا عميقا بأن تراثنا الأدبى حافل بشعراء لم ينالوا حظهم من البحث والدراسة ، على الرغم من شاعريتهم وعمق فهمهم للأمور ، فلعلنا نجد بينهم من يكونوا قدوة ومثلاً ونبراساً يضىء لنا طريقنا وحياتنا .

ولعلى بهذا أكون قد أتممت بحثى عن الشاعر يحيى بن الحكم الغزال وإن لازمنى شعور بالنقص والتقصير فإن الكمال لله وحده .

والله أسأل أن ينال هذا البحث الرضا والقبول وأن ينفع به غيرى .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

صدق الله العظيم

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

@ المصادر والمراجع @

@ القرآن الكريم .

@ <u>المصادر والمراجع</u> :

v الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسى .

- **د/ منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة ، بيـروت ، د. ت .**

v اتجاهات الشعر الأندلسيّ .

- **د/ نافع محمود ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغـــداد ط ١٩٩٠ م .**

v اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري .

- **د/ محمد مصطفى هدّارة ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣ (١٩٦٩ م) .**

v الإحـــــــاطـــة .

- **ابن الخطيب ، مخطوط بالاسكوريال ، رقـم ١٦٧٣ .**

v الإسلام في المغرب والأندلس .

- **ليفى بروفنسال، ترجمة: محمد عبد العزيز و محمد صلاح الدين حلمي ، نهضة مصر ، طبعة ١٩٥٧ م .**

v أحمد رامي .

- **السعيد حامد السعيد شوارب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة أعلام العرب ، ط ١٩٨٥.**

v الأدب الأندلسى من الفتـح إلى سقوط الخلافة .

- **أحمد هيكـل ، دار المعارف ، ط٩ (١٩٨٥ م) .**

v الأدب الأندلسيّ بيـن التأثـــر والتأثير

- **د/ محمد رجب بيومي ، جامعـة الإمـام محمـد بن سعـود الإسلاميـة السعودية، ط (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م) .**

v الأدب والمجتمع .

- **د / محمد كمال الدين على يوسف ، الـدار القومية القاهـرة .**

v الأدب العربي في الأنـدلس .

- **عبد العزيز عتيـــق ، دار النهضة العربية ، بيـــروت ، الطبعة الثانيـة ، (١٣٩٦ - ١٩٦٧) .**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v الأدب العربي الحـديث .
- د/ عز الدين إسماعيل ، المطبعة الأميرية .

v الأسلوب دراسة نقدية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية .
- أ / أحمد الشايب ، مطبعة الفاروقية ، ط ١٩٣٩ م .

v أســس النقـــد الأدبي عنـد العـــرب .
- د/ أحمد بـــدوى ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ، ط٢ ، د.ت .

v الأعـــلام .
- خير الدين الزر كلى ، المطبعةالعربية بمصر ، ط١ (١٩٢٧ م) .

v أعمـــال الأعـــلام
- ابن الخطيب ، تحقيق : ليفـى بروفنسال ، بيـــروت ، ط ١٩٥٦م

v أصول النقد الأدبي .
- أحمد الشايب ، مكتبة النهضة القاهرة ، ط٨ (١٩٧٣)

v الأصول الفنية للشعر الأندلسيّ .
- د/ سعد إسماعيل شلبي ، دار النهضة ، القاهرة .

v بنـاء القصيدة .
- يوسف بكار ، دار الأندلس ، بيروت ، ط٢ (١٩٨٢) م .

v البناء الفني للقصيدة .
- د/ فاروق الميهى ، الأوفيست ، طنطا .

v بغيـة الملـتمس .
- أحمد الضبي ، مـدريـد سنة ١٨٨٤.

v بغيـــة الوعـــاة .
- السيـــوطى ، ج٢ ، القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

v البيان والتبيين .
- الجـاحظ ، مكتبة الخـانجى القـاهرة .

v البيان المغرب .
- ابـن عـــذارى المراكشـــى ، ج ٢ ، ط٢ دار الثقـــافة بيـــروت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v تـــاج اللغـــة وصحاح العربيـــة .
- إسماعيل بن حماد الجوهري ، الجزء الخامس ، طبعة القاهرة .

v الـتـشبـيـهات من أشعار أهل الأندلس .
- عبد الله محمد بن الكتاني ، تحقيق/ إحسان عباس ، ط١ دار الثقافة بـيروت .

v تراجم إسلامية شرقية وأندلسية .
- محمـد عبد الله عنان ، دار المعارف القاهرة ، ط ١ (١٩٤٧) .

v تاريخ الأدب العربي
- عمـر فروخ ، ط١ دار العلـم للمـلايـين .

v تاريخ آداب العرب .
- مصطفى صادق الرافعى ، ج٣ ، مطبعة الهـــلال ، القاهـرة سنة ١٩١٣ م .

v تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة .
- د/ إحسان عباس ، دار الثقافة سنـــة ١٩٦٠.

v تاريخ الأدب العربي
- بروكلمان ، ترجمة / عبد الحليم النجار ، دار المعارف مصـــر .

v تاريخ العرب
- فيليب حتّى ، ج٢ ، دار الكشاف ط٣ (١٩٦١) .

v تاريخ العـرب
- المسيـو سديـو ، مدريـــد .

v تاريخ ابن خلدون
- القاضي عبد الرحمن بن خلدون ، ط بـــولاق .

v تـاريـخ علمـاء الأندلس .
- ابـن الفرضي ، ج١ ، الدار القومية ، القاهرة سنة ١٩٦١ .

v تاريخ دولة المسلمين في أسبانيا .
- المسيو دوزى ، مدريـد .

v تاريخ افتتاح الأندلس
- ابـــن القوطيـــة ، بـيـــــروت .

v تاريخ العرب في أسبانيا .
- محمد عبد اللـــه عنـــان ، مطبعـــة السعـــادة ، ط١ (١٩٢٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v تاريخ الفكر الأندلسى .
- غونـزالس بالنـثيـــا ، ترجمة / حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية .

v تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي .
- على محمد حموده ، مصـــر ط١ (١٩٥٧) م .

v التيارات المعاصرة في النقـــد الأدبي .
- د/ بـــدوى طبـــانة ، نشر الانجلـــو المصرية ، ط٢ (١٩٧١) م .

v جذوة المقتبس .
- الحُميدى ، ط الطنجى القاهرة ، سنة ١٩٦٨ م .

v الحكم والأمثال .
- لجنة من أدباء الأقطار العربية ، ط دار المعارف .

v الحُـلة السيـــراء .
- ابن الآبار ، ج١ ، القاهـــرة سنـــة ١٩٦٣ .

v خصائص الأسلوب في الشوقيات .
- محمد الهادي الطرابلسى ، المجلس الأعلى للثقافة ، بـيـروت .

v خلاصة يومية العقاد .
- دار نصر للطباعة ، القاهرة سنة ١٩٦٨.

v دراسات في الأدب الأندلسى .
- د/ سامي مكي العاني ، مكتبة النـهضة العربية .

v دراســـات في الأدب العربي .
- د/ محمد زغلـــول ســـلام ، ط منشأة المعارف الإسكندرية سنة ١٩٨٢ م .

v دفاع عن البلاغة .
- أحمد حسن الزيات ، الرسالة سنة ١٩٤٥.

v الدولة الأموية في قرطبة .
- أنيس نصولى ، ج١ ، بغداد .

v دولة الإسلام في الأندلس .
- محمـد عبـد الله عنـان ، ج١ مكتبـة الأسـرة بالاشـتراك مـع الهيئـة المصرية العامة للكتاب .

v دولة الإسلام في الأندلس .
- محمد عبد الله عنان ، ج١ الأعمال الفكرية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v الـذخيـــــرة .
- ابن بسام ، ج ١ ، تحقيق / إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت (١٩٧٩).

v رســـائل ابـــن حزم .
- بـيـــروت سنة (١٩٨١ م) .

v زهـــد المُـجَّـــان .
- د/ على إبراهيم أبو زيد ، دار المعارف .

v سر الفصاحة .
- ابن سنان خفاجي ، ط١ دار الكتب العلمية بـيـروت .

v الشاعر الزاهد أبو العتاهية ، رسالة ماجستير .
- أ٠ د/ محمد حسين حماد ، كلية اللغة العربية بأسيوط سنة (١٩٨١ م) .

v الشعر الأندلسى بحث في تطوره وخصائصه .
- غرسيـه غومـــس ، ترجمة/ حسين مؤنس ، مكتبـة النـهضة المصرية ، ط٢ (١٩٥٦) م .

v شعر خليل مردم بين التـقـلـيـد والتجـديـد .
- د/ فاروق الميهى ، مكتبة الأوفست طنطا .

v الشعـــر العربي في الأنـــدلس .
- كراتـشكـــو فـسكي ، ترجمـة / محمـد منيـر مرسـى ، ط عـالم الكتـب ، القاهرة سنة (١٩٧١ م) .

v الشعـــر في عهـــد المرابطيـــن والموحديـــن بالأنـــدلس .
- د/ محمـد مجيـــد السعيـد ، ط٢، الدار العربية بيروت .

v شعر الصعاليك .
- د/ عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

v الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث .
- مصطفى عبد اللطيف السحـــرتى ، ط (١٩٤٨ م) .

v شعر يحيى بن حكـم الغزال جمـــع وتوثيـق ودراســـة .
- د/ على الغريب محمد الشناوي ، مكتبة الآداب سنة ٢٠٠٤ .

v الشفا بتعريف حقوق المصطفى .
- القاضي عياض ، ج١ ، دار الفكر بـيروت ط (١٤٠٩هـ) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v الصورة الفنية .
- إبراهيم عبد الرحمن الغنيم ، الشركة العربية للنشر والتوزيع القاهرة ، ط٢ (١٤١٦ هـ / ١٩٩٦) م .

v الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي .
- جابر أحمد عصفور ، دار المعارف (١٩٧٣) .

v طبقات اللغويين والنحويين .
- الزبيدى ، القاهرة سنة (١٩٥٤) .

v ظهر الإسلام .
- أحمد أمين ، ج٣ ، ط٧ مكتبة النهضة .

v عروض الشعر العربي .
- د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولي الناشر مكتبة القاهرة بميدان الأزهر بالقاهرة (د.ت) .

v العصر العباسي الأول .
- شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٦ (١٩٩٥) م .

v العقد الفريد .
- أحمد بن عبد ربه ، المطبعة الأميرية ، القاهرة (١٣٩٠ هـ) .

v علم الأسلوب .
- صلاح فضل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط٢ (١٩٨٥) م .

v علم النفس والأدب .
- د/ سامي الدروبى ، ط٢ دار المعارف (١٩٨١م) .

v علم النفس في الحياة العملية .
- د/ برنهارت ، ترجمة د/ إبراهيم عبد الله ، ط الرابطة سنة (١٩٥٥م).

v العُمدة .
- ابن رشيق ، ج١ ، دار الجيل بيروت سنة (١٩٧٢م) .

v عنوان الأريب .
- محمد النيفر ، ط١ المطبعة التونسية (١٩٧١م) .

v عوامل تنمية اللغة العربية .
- د/ توفيق محمد شاهين ، مكتبة وهبة القاهرة (١٩٩٣م).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v عيار الشعر .
- ابن طبا طبا العلوي ، تحقيق / عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ (١٤٠١هـ) .

v الغـزل عند العـرب .
- حسـان أبو رحاب ، ط١ مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية القـاهرة .

v الغزل في الشعر العربي .
- د/ نزار عابديـن ، ط١ دمشق .

v فصول في الأدب الأندلس .
- حكمة على الأوسى ، ط٣ مكتبة الخانجى القاهرة .

v في محيط النقد الأدبي .
- د/ إبراهيم على أبو الخشب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م .

v قصائد أندلسية .
- د/ أحمد هيكل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

v القصة الشعرية في العصر الحديث .
- د/ عزيزة مريده ، دار الفكر .

v قضـاة قرطبـة .
- الخشنى ، الدار المصـرية ١٣٦٦ هـ .

v قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسى .
- د/ أحمد عبد العزيز ، ط١ مكتبـة الأنجلـو المصرية .

v الكـامل .
- ابـن الأثيـر ، ج٥ ، ط (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧) م .

v كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .
- حاجى خليـفة ، ط أوفست المثنى بغـداد .

v لسـان العـرب .
- ابـن منظـور ، مكتبـة الأسـرة بالاشتراك مع الهيئة المصريـة .

v اللباب في العروض والقافية .
- الأستاذ كامل السيد شاهين ، مكتبة الجامعة الأزهرية (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ م) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر.
- ابن الأثـر ، ط دار قباء النشـر والتوزيع الفجالة ـ القاهرة ـ سنة ٢٠٠٠ .

v مـروان بن أبى حفصة وشعره .
- قحطان رشيد الـتميمى ، مطبعـة النعمان بغـــداد .

v معالم تاريخ المغرب والأندلس .
- حسين مؤنس ، دار الرشـــاد .

v المُطرب .
- ابن دحية ، المطبعة الأميرية العامة للكتاب سنة ١٩٥٤ م .

v مطمح الأنفس .
- الفتح بن خاقـان ، القاهـــرة سنة ١٣٢٥ هـ .

v معجـم مقاييـــس اللغـــــة .
- أحمد بن فارس بن زكريا ، ج ٢ دار الجيل ، لبنان .

v معجم المؤلفين .
- عمر كحـالة ، مطبعة الترقي دمشق سنة ١٩٦١.

v المُغْـرب .
- ابـن سعيـــد ، دار المعارف .

v المقـتبس .
- د/ محمود مكـى ، الرياض السعودية .

v المقـتبس .
- د/ محمود مكـى ، بيـــروت .

v المقـتبس .
- ابـن حيـــان ، باريس سنة ١٩٣٧ .

v مقـدمة بن خلـــدون .
- القاضي عبد الرحمـن بن خلدون ، مطبعـــة الرسالة سنـــة ١٩٢٤ م .

v الموجـــز في الأدب العربي وتاريخـــه .
- حنـــا الفاخـــورى ، ط٣ دار الجيـــل بيـــروت .

v موسيقى الشعر.
- إبراهيم أنس ، ط٤ دار القلم بـيروت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

v منهاج البلغاء وسراج الأدباء .
- حازم القرطاجنى ، تونس سنة ١٩٦٦.

v منهج الفن الإسلامي .
- محمد قطب ، دار الشروق .

v النغم الشعري عند العرب .
- محمد عبد المنعم خفاجي ، دار المريخ الرياض .

v نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .
- أحمد المقري ، ج١ ، دار صادر بيروت .

v النقد والنقاد المعاصرون .
- د/ محمد مندور ، دار نهضة مصر القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

v النقد الأدبي أصوله ومناهجه .
- د / سيد قطب ، دار الفكر العربي .

v نهاية الأرب في فنون الأدب .
- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، ج٣ .

v الوصف .
- لجنة من أدباء الأقطار العربية ، دار المعارف .

v الهمس فى نقد الدكتور مندور .
- تأليف أ.د/ عبد اللطيف الحديدي ، ط١ سنة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

v يتيمة الدهر .
- الثعالبي ، تحقيق/ محيى الدين عبد الحليم ، ج٢ ، ط القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ .

v يتيمة الدهر .
- الثعالبي ، ط الشام .

v يحيى بن حكم الغزال .
- محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة بيروت .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

@ الصحف والمجلات :

- العربي ، عدد ٢١٢ ، سنة رجب١٣٩٦ هـ / يوليو ١٩٧٦ م .
- مجلة الرسالة القاهرية ، عدد ١٣٢ سنة ١٩٣٦ .
- مجلة عالم الفكر ، سبتمبر سنة ١٩٧٩ م .
- مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد ٢١ سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م .
- مقالة شعراء قصائد خلف قضبان سجون الأندلس ، رشا الخطيب ، جريدة الشرق الأوسط سنة ٢٠٠٤ .
- مقالة العلاقات الدبلوماسية مع ملوك أوربا وأثارها ، د/ أحمد مختار العبادى ، عدد ١٣٣ .
- مقالة ل . ليفى بروفنسال فى (مجلة بيزانسيون سنة ١٩٣٧ م) .
- مقالة للأستاذ محمد عبد الله عنان ، ط مجلة الثقافة القاهرة .
- الموسوعة العربية ، ط فرانكلين القاهرة .

@ الدواوين :

- ديوان أبو العتاهية ، ط دار صادر بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- ديوان ابن عبد ربه ، أحمد بن عبد ربه القرطبى الأندلسى ، تحقيق/ محمد رضوان الداية ، دار الفكر بدمشق ـ سوريا ، ط٢ (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م) .
- ديوان امرىء القيس ، تحقيق / محمد أبو الفضل ، دار المعارف سنة ١٩٦٩ م .
- ديوان عروة بن الورد ، مطبعة السعادة ، القاهرة .
- ديوان النابغة الذبياني ، ط بيروت سنة ١٣٤٧ هـ .
- ديوان يحيى بن حكم الغزال ، د/ محمد رضوان الداية ، دار قتيبة ، ط١ (١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

@ الفهـــــرس @

المقـــدمة ..... ٤ ـ ٩
التمهيد : ..... ١٠ ـ ٢١

١ ـ الحياة السياسيـــة ١١
٢ ـ الحياة الاجتماعية ١٤
٣ ـ الحياة الثقافيـــة ١٦
٤ ـ الحياة الأدبيـــة : ١٨

أ ـ الشعـر : ١٩
ب ـ النثـــر : ٢٠

الفصل الأول : (يحيى بن حكم الغزال حياته وسيرته الذاتية) ..... ٢٢ ـ ٦٢

اسمـــه ونسبـــه ٢٣
مـولـــد الغـــزال ٢٤
شخـصية الغـــزال ٢٦
ثقافة الغزال وديوانه ٢٨
أرجـــوزة الغـــزال ٣٠
محاولة الغزال محاكاة القرآن الكريـم ٣١
موقـفـــه من القـــضاة والفقهـــاء ٣٢
قصـــة الأهـــراء ٣٥
شخصية الأمير عبد الرحمن الأوسط ٣٩
سفـــارة الغـــزال ٤٢
سفارة الغزال إلى مملكـــة بـيزنطـة ٤٣
سفارة الغزال إلى مملكة النـــورمان ٤٤
بين الغـــزال ونود ٤٧
الاختـــلاف فى سفـــارة الغـــزال ٤٩
بين الغزال وزريـاب ٥٢
الغـزال فى العـــراق ٥٤
زهـــــــــده ٥٧
سلـــوك الغـــزال ٥٩
اشتهار شعر الغزال فى الأندلس وخارجها ٦٠
وفـــاة الغـــــزال ٦٢

الفصل الثانى : (شعـر الغـــزال رؤية موضوعية) ..... ٦٣ ـ ١٥٦

التمهيد : ..... ٦٤ ـ ٧٢
أ ـ الاتجـــاه المحافـــظ : ٦٥
ب ـ الاتجاه الجديد ومظاهره : ٦٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شعـر الغـــزال وموضوعاته : ٧٢

١ـ الغـــــــــزل ٧٥
٢ـ المجـــــــون ٨٥
٣ـ المـديـــــــح ٩٣
٤ـ الهـجـــــــاء ١٠٠
٥ـ وصف الطبيعـة ١١٥
٦ـ الفكـاهـــــــة ١١٨
٧ـ الحكمـــــــة ١٢٣
٨ ـ الشعر الاجتماعى ١٣١
٩ـ الـــزهـــــــد ١٤٣
١٠ـ أغراض ملحقة بشعـر الغـزال : ..... ١٥٣ ـ ١٥٦

أ ـ الخـمـريـــــــات : ١٥٤
ب ـ الـتـهـنـئـــــــة : ١٥٥
ج ـ الأرجوزة التاريخية : ١٥٦

الفصـــل الثالث : (شعر الغـــــزال رؤيـــة فنيـــة) : ..... ١٥٧ ـ ٣٠٥

أولاً : الـتـجـربة الشعـريـة : ..... ١٦٠ ـ ١٧٤

أ ـ التجربة الذاتـــيـــــة : ١٦١
ب ـ التجربة الموضوعيـة : ١٦٦

ثانياً : الوحـــدة الفنيـــــة : ١٧٥
ثالثاً : الفكـــرة والعاطفـــة : ١٨٥
رابعاً : الدراسـة اللغويـــة : ..... ١٩٩ ـ ٢٤٥

أ ـ الألـفـــــاظ : ٢٠٠
ب ـ التـراكيـــب : ٢١٥
ج ـ الأسلـــوب : ٢٢٩

خامساً : القصة الشعرية ودور الحـوار ٢٤٦
سادساً : الموسيـقـــى الشعريـــــة : ..... ٢٦١ ـ ٢٩٠

١ ـ الموسيقـى الخارجيـــة : ٢٦٢
أ ـ الـــوزن : ٢٦٢
ب ـ القـافيـــة: ٢٧٣
٢ ـ الموسيقى الداخليـــة ٢٨١

سابعاً : الخيـــال والصـــورة الشعـــرية :..... ٢٩١

الخـاتـمـــة : ..... ٣٠٦ ـ ٣٠٨
المصادر والمراجع : ..... ٣٠٩ ـ ٣١٨

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com